

المُشْرِقُونَ الألمان

تراجهم وَمَا أسهمُوا بهِ في
الدّراسات العربيّة

دراسات
جمعتها وشارك فيها
صلاح الدّين المنجد

دار الكتاب الجديد
بيروت - لبنان







٢٥٣٥٦

المُتَشَرِّقُونَ الْأَمَّانِيُّونَ



مكتبة جامعة أمman
١٩٧٧

المجلد ١٩٧٧
العدد ١٩٧٧
الطبعة ١٩٧٧

اهداءات ١٩٩٧

ا.د. ايوثيميس سولويانيس

أكاديمية اثينا للبحوث

المُشْرِقُونَ الأُمَنَان

تَرَاوَمُهُمْ وَمَا أَسْهَمُوا بِهِ فِي
الدَّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

دراسات
أَمَعَهَا وَشَارَكَ فِيهَا
صَلَاحُ الدِّينِ المَنجِد

الجزء الأول

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

المطبعة العامة لمكتبة الاسكندرية

رقم الترخيص: —

رقم التسجيل: ٥٥٤٠/٥

الطبعة الاولى

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

١٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

إنّ أطلاع الباحثين والمتقنين من العرب والمسلمين على الدراسات الجيدة التي كتبها المستشرقون بتجرّد وإخلاص ، أصبح أمراً ضرورياً ، في سبيل وضع دراسات شاملة قريبة من الكمال تكشف جميع نواحي الحضارة العربية الاسلامية . ولا شيء يمهّد لهذا الاطلاع مثل معرفة سير حياة هؤلاء العلماء ، والإحاطة بما قاموا به من أبحاث ودراسات .

لذلك رأيتُ أن أنشر تباعاً سير هؤلاء المستشرقين الذين أدّوا للإسلام والعرب خدمات جليلة صادقة بدراساتهم ، وقد بدأتُ بسير طائفة من المستشرقين الألمان وبعض النمساويين .

وأنا اشكر القائمين على مجلة « فكر وفن » الألمانية ، الذين سمحوا لي باعادة نشر ما كانوا نشره في مجلّتهم من هذه السير ، كما أشكر أصدقائي المستشرقين الذين قدّموا لي كل عون لاتمام هذا المشروع ، آملاً أن تتاح لي الفرصة لإصدار مجلدات أخرى تضمّ سير حياة مستشرقين آخرين .

لمحات :

من عظمة الاستشراق الألماني

بقلم : الأستاذ صلاح الدين المنجد

والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختصّ بمزايا واضحة ، هي ، في رأبي :

١ - لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية : كالأستشراق في بلدان أوروبية أخرى . . . فألمانيا لم يَتَّح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الاسلامية ، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق ، لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان ، وظلت محافظة على الأغلب ، على التجرد ، غالباً ، والروح العلمية .

واذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية ، بعض الانحراف في الرأي ، أو الخطأ ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها .

٢ - لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والاسلام والحضارة الاسلامية-العربية ، متصّفة ، على الأغلب ، بروح عدائية . نعم ، لقد وجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين ، أو بآراء خاطئة تماماً ، كـ بعض آراء نولدكه (توفي سنة ١٩٣٠) عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم أو آراء فولرز Vullers (١٨٨٠) عن القرآن وتهذيبه . لكن هذه الآراء معدودة ، فلا استشراق ألماني لم

اتيح لي أن أكون صديقاً لعدد كبير من المستشرقين الألمان منذ ثلاثين سنة ، وعرفت معظمهم شخصياً : شيوخهم وشبابهم ، وزرت بعض جامعات ألمانيا وألقيت فيها محاضرات مختلفة ، واطلعت على كثير من دراسات المستشرقين الألمان الماضين والمعاصرين ، ونقلت بعضها الى العربية في كتابي « المنتقى من دراسات المستشرقين » . لهذا كله ، أسمح لنفسي بالكتابة عن الاستشراق الألماني .

يذكر الأستاذ ألبرت ديتريش أن أوّل محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية كانت من قبيل كريستان المتوفي سنة ١٦١٣ م . فقد ألف كتيباً لتعليم كتابة الحروف العربية ، بل إنّه أعدّ بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب الخشب . لكن الرائد الأوّل الذي وقف حياته كلها على دراسة اللغة والحضارة الاسلامية هو رايסקه المتوفي سنة ١٧٧٤ . وتتابع بعد ذلك المستشرقون حتى كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار وانتاج خصب للاستشراق الألماني . وما زال كذلك حتى الحرب العالمية الثانية ، فأصيب بالضعف والبطء في الانتاج .

القي هذا البحث في الاسبوع الثقافي الألماني-العربي ، الذي انعقد في مدينة توبنجن في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٤ . وقد اعاد كاتبه النظر فيه ، ووسمه .

٢ - نشر النصوص القديمة :

لقد ظهرت النصوص العربية القديمة محققة بعناية الألمان منذ القرن الثامن عشر . كان رايسكه Reiske (١٧٧٤-) أول من نشر «معلقة طرفة بن العبد» بشرح ابن النحاس ، مع ترجمتها الى اللاتينية عام ١٧٤٢ . ثم ازدهر نشر النصوص في القرن التاسع عشر ، فنشرت مئات من نصوصنا القديمة الأساسية ، في الشعر العربي القديم في الجاهلية والاسلام ، واللغة والأدب والتاريخ والجغرافية والفلسفة والفِرَق والحساب والجبر والفلك والطب . ان مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والانكليز معاً . ومن المؤسف ان جمعية المستشرقين الألمان لم تكلف أحداً بوضع مسرد لجميع النصوص العربية التي نشرها الألمان . فهذا مفيد جداً ومهم . وقد ضرب بعض المستشرقين مثالا نادراً في تحقيق النصوص ، من حيث العدد ، ومن حيث الدقة . ولقد نشر فون من حيث العدد ومن حيث الدقة . ونشر وستنفلد F. Wustenfeld (١٨٩٩-) ما يعجز مجمع علمي عن نشره .

فقد حقق «معجم البلدان» لياقوت ، و «وفيات الأعيان» لابن خلكان ، و «طبقات الحفاظ» للذهبي ، و «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ، و «الاشتقاق» لابن دريد ، و «تواريخ مكة» للأزرقي ، والفاكهي ، والفاسي ، وابن ظهيرة . و «معجم ما استعجم» للبكري ، و «عجائب المخلوقات» للقزويني ، و «السيرة» لابن هشام ، وغيرها . وكان كل ما حققه من الكتب الضخمة الصعبة الأساسية . وقد زادت آثار هذا العالم الكبير على المائتين .

وقد نشر فرايتاغ Freytag (١٨٦١-) «ديوان الحماسة» لأبي تمام بشرح التبريزي ، وترجمه الى اللاتينية .

يعرف مستشرقين جعلوا دينهم عداً العرب والاسلام ، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم ، بل بالعكس ، رافقت دراساتهم روح إعجاب وتقدير وحُب وانصاف . نجد هذه الروح عند رايسكه الذي سمى نفسه «شهيد الأدب العربي» والذي يعتبر واضع الأساس المتين لدراسة العربية في أوروبا ، ونجدها عند جورج جاكوب في كتابه «أثر الشرق في العصر الوسيط» ، ونجدها بين المعاصرين عند السيدة زيفريد هوتكه في كتابها «شمس الله تسطع على العرب» ، وعند أعظم المستشرقين الألمان في هذا العصر ، هلموث ريتز ، وعند شبولر ، وعند باريت في دراساته المتأخرة ، وعند غيرهم . بل أن بعضهم أسلم حباً بالعربية والاسلام مثل ريشر الذي سمى نفسه بعد اسلامه «عثمان» ، وبعضهم اتخذ لنفسه اسماً عربياً مثل اوغوست ملر الذي نشر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة - فقد سمى نفسه «امرؤ القيس بن الطحان» ، وكان هذا ترجمة لأسمه الألماني . وقد نال بعضهم كثيراً من المتاعب والأذى في سبيل العربية . إن رايسكه ، الذي كان فقيراً ، وبقي كذلك ، مات مسلولاً بعد انصرافه الطويل إلى العربية والشعر العربي القديم . وإن وستنفلد كُتِفَ بصره من كثرة البحث والعمل على نشر النصوص العربية طول ستين سنة . وبعضهم كان ينشر النصوص العربية التي كان يثبته على نفقته رغم فقره . فقد طبع الاستاذ رايسكه الجزء الأول من «تاريخ أبي الفداء» سنة ١٧٥٤ م . على نفقته ، ولم يبع غير ثلاثين نسخة ، وطبع كذلك «لامية الطغرائي» بالعربية مع ترجمتها الى اللاتينية ، وما باع منها سوى مئة نسخة . ولقد بلغ من حماسة كريستمان للعربية أنه أعد بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب من الخشب ، حتى يسهل طبع النصوص العربية .

وهاتان الصفتان السابقتان أتاحتا للاستشرق الألماني أن يقدم للعرب والمسلمين خدمات واسعة ، وخاصة في الميادين الآتية :

ونشر روكرت Ruckert (١٨٦٦-) «مقامات الحريري»، و «معلقة عمرو بن كلثوم».

ونشر فبكه Wæpke (١٨٦٤-) «براهين الجبر والمقابلة للخيّام»، و «الفخري في الجبر والمقابلة» للكرخي.

ونشر فلوجل Flugel (١٨٧٠-) «فهرست ابن النديم»، عمل فيه خمسة وعشرين عاماً، وحقق «كشف الظنون» لحاجي خليفة وعمل فيه ثلاثة عشر عاماً.

ونشر مئزر M. J. Muller (١٩١١-) «صور الأقاليم» للاصطخري.

ونشر توربكه Thorbecke (١٨٩٠-) «درّة الغوّاص» للحريري.

ونشر الورد Ahlwardt (١٩٠٩-) «الأصمعيّات»، و «رجز العجاج»، والزفّيان، وروبة، وديوان «طهمان الكلاي»، و «الفخري في الآداب السلطانية» لابن الطقطقي.

ونشر ليبرت Lipert (١٩١١-) «تاريخ الحكماء» للقفطي.

ونشر مئز Mez (١٩١٧-) «حكاية أبي القاسم البغدادى».

ونشر يان Jahn (١٩١٧-) «شرح المفصل لابن يعيش».

ونشر بيكر Becker (١٩٣٣-) «مناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

ونشر مايرهوف Meyerhof (١٩٤٥-) «شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون، و «العشر مقالات في العين» المنسوب لحنين بن اسحق.

ونشر برجستراسر G. Bergstrasser (١٩٣٣-)

وبرتسل (١٩٤١) مجموعة نادرة من النصوص القرآنية، ورعيّا معهد أبحاث القرآن في جامعة ميونيخ، لكن هُدم هذا المعهد وأُتلف كل ما فيه، اثناء الحرب العالمية الثانية. وقد نشرنا نصوصاً قرآنية مهمة جداً. منها «التيسير في القراءات السبع»، و «المقنع في رسم مصاحف أهل الأمصار»، و «مختصر الشواذ» لابن خالويه، و «المحتسب» لابن جني، و «طبقات القراء» لابن الجزري، و «معاني القرآن» للفرّاء، و «الايضاح» للأنباري.

ومما يذكر عن برجستراسر أنه جاء الى القاهرة واستمع الى مقرئ القرآن ودوّّن أنغامه بالنوطة.

ونشر سخاو Sachau (١٩٣٠-) الكثير من مؤلفات البيروني الرائعة، «كالاتار الباقية»، وتاريخ الهند، وشارك مع مستشرقين آخرين في نشر كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد.

ولا بدّ أن نذكر هنا المكتبة الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمان التي بدأ بنشرها العلامة الكبير هاموت ريتز (١٩٧١-) في استانبول عام ١٩٣١، وتبعه في إدارتها الاستاذ البرت ديتريش Dietrich والاستاذ فيلد E. Wild. وقد ظهر فيها نصوص قديمة محققة ذات شأن. فقد حقق ريتز الجزء الأول من «الوافي بالوفيات» للصفدي، ثم تتابع على نشره علماء آخرون. وكتاب «فرق الشيعة» للنوختي، وكتاب «أسرار البلاغة» للجرجاني. ونشر هانس فير H. Wehr «كتاب الحكايات العجيبة» وهو أقدم من ألف ليلة وليلة، ونشر فاغنر E. Wagner «ديوان أبي نواس».

وللاستاذ ريتز تحقيقات أخرى. فقد نشر «غاية الحكيم» المنسوب لمسلمة بن أحمد المجريطي، و «رسالة الأرزاق» لابن سينا، وكتاب «باتانجل» للبيروني.

ومما ظهر من النصوص العربية بعناية المستشرقين

الورد في عشر مجلدات ضخام ، وصف فيه ما يقرب من عشرة آلاف مخطوط . ولقد كان عملاً جباراً .

وهناك عشرات من الفهارس المفردة وضعها آخرون للمخطوطات العربية . فقد وضع زييولد الجزء الأول من فهرس مخطوطات جامعة توبنجن ، ووضع أومير فايسفايلر Weisweiler الجزء الثاني منه . ووضع أومير Aumer (١٩٢٢-) فهرس المخطوطات في مكتبة جامعة ميونيخ ، ووضع فلايشر Fleischer (١٨٨٨-) فهرساً للمخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الوطنية (٤٥٤) مخطوطاً . ووضع فير فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة جمعية المستشرقين الألمان ، وبروكلمن فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة الدولة في برسلو ، وبرنباخ Berenbach ، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة هايدلبرج ، وغير ذلك . ويتابع الاستاذ زلهاييم الآن فهرسة طائفة أخرى من المخطوطات العربية التي لم تفهرس في ألمانيا . ووضع الاستاذ «اولن» فهرساً لمخطوطات الكيمياء العربية في مكتبة شسترتي بدربلن .

وقد كتب الاستاذ ريتز H. Ritter - الذي كان يعتبر مرجعاً نادر المثل في المخطوطات العربية - مقالات كثيرة عن مخطوطات استانبول . منها : مخطوطات تاريخية عربية في مكتبات استانبول لم تطبع بعد . صدرت في كتاب : ما ساهم به المؤرخون العرب (بيروت ، ١٩٥٩) ، والمخطوطات المكتوبة بخطوط أصحابها autographs في مكتبات تركية ، (صدرت في مجلة Oriens ، عام ١٩٥٣) . والمخطوطات العربية في الاناضول واستانبول . (صدرت في Oriens عام ١٩٤٩ و ١٩٥٠) ، ومخطوطات التفسير في اياصوفيا ، (صدرت في مجلة Türkiyat Meçmu'asi عام ١٩٤٥) ، وغيرها . مما كتبه المستشرقون الألمان كثير .

وفي باب الارشاد الى المخطوطات العربية في العالم،

الألمان : «طب العيون» لابن سينا ، نشره Hirschberg (١٩٢٥-) بمعاونة ليبرت ، وكذلك نشر «المنتخب في علاج العيون» للموصلي . وكتاب «نقط العروس» لابن حزم ، نشره زييولد (١٩٢١-) ، و «الحاسن والمساوي» للبيهقي ، نشره شوالي Schwally (١٩١٩-) ، ورسالة «الطير» لابن سينا بشرح السهروردي ، نشره شبيس Spies ، وكتاب «الأوائل» للعسكري ، نشره فيشر (١٩٤٩-) ، و «عيون الأخبار» لابن قتيبة ، نشره بروكلمن (١٩٥٦-) ، والجزء التاسع من كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن ابيك اندواداري ، نشره روير Roemer ، والجزء الثامن من الكتاب نفسه نشره هارمان V. Haarmann ، ونشر فان ايسس J. Van Ess نصوصاً مختلفة عن المعتزلة ، ورسائل في الرد على القدرية . ونشر هربرت بوسه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» لعبد الغني النابلسي .

ولا سبيل الى الاستقصاء ، فكل ما ذكرنا هو على سبيل المثال . وواضح أن ما نشر هو ذو شأن في تراثنا ، وهذا دليل على مدى الاهتمام العميق بهذا التراث .

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من هذه النصوص القديمة ، قد نقلها ناشروها ، أو غيرهم الى اللغة الألمانية.

ب - والأمر الثاني الذي خدم فيه المستشرقون الألمان العرب ، وكان من مظاهر نشاطهم هو فهرسة المخطوطات العربية الموجودة في مكتبات ألمانيا ، أو مكتبات العالم أو التنويه بها . وكان كريستمان J. Christmann (١٦١٣-) أول من وضع فهرساً لمخطوطات عربية اقتناها نبيل ألماني . ولعل أعظم أثر في هذا الميدان يعتبر فخراً للاستشراق الألماني هو فهرس المخطوطات العربية في مكتبة برلين الذي وضعه

يدخل كتاب العلامة بروكلمن عن تاريخ الآداب العربية . فهو ببيان ضخمة جبار يدل على عظمة مؤلفه وقوة ارادته ومثابرته وصبره . وهو فخر للاستشراق الألماني . وسيبقى ، رغم نقصه ، مرجعاً لكل باحث لعشرات من السنين . وقد أمدّ الاستاذ ريتز هذا الكتاب في طبعته الأخيرة ، بكثير من الإضافات .

ج - والأمر الثالث الذي عثني به الاستشراق الألماني هو الاهتمام بالمعجم العربية . وكان يعقوب يوليوس (١٦٦٧) أول من وضع معجماً عربياً - لاتينياً . ثم وضع فرايتاغ (١٨٦١) معجماً مثله ، حلّ محله . وجاء نولدكه فكتب على هوامش نسخته من معجم فرايتاغ الكثير من الإضافات . يمكن أن يكون منها معجم خاص . وقد اهتم جورج كير (١٩٦١) باستخراجها ، ونشر في عام ١٩٥٢ و ١٩٥٤ كراستين فيهما حرف الإلف . وحاول فيشر (١٩٤٩) أن يضع جذاذات ، بلغت الألف ، لمعجم اللغة العربية مستمد من المصادر القديمة على اختلاف العصور ، ليكون معجماً تاريخياً يدل على تطور معاني الألفاظ وقد قضى في جمع ذلك ، وبمعاونة بعض تلاميذه ، قرابة أربعين عاماً . واذ كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فقد حمل إليه بطاقاته ، بعد أن أبدى المجمع رغبة في إخراج معجمه . ولم يخرج المجمع إلا كراسة واحدة صغيرة منه .

ووضع الاستاذ فير معجمه العربي الألماني الذي قصره على الألفاظ العربية المستعملة في عصرنا ، في الصحف ومؤلفات الكتاب الحديثة ، مهملاً الألفاظ القاموسية أو الأدبية التي ماتت أو لا تستعمل اليوم . وقد قضى في جمعه وقتاً طويلاً ، ونقل إلى الانكليزية . وأصبح مرجعاً لكل مستشرق ، وعالم .

✱

د - وكان من الطبيعي أن يهتم المستشرقون الألمان ، بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الإسلامية . وهناك دراسات هامة ما تزال مرجعاً ، رغم مضي زمن على تأليفها ، كدراسة رايكه عن التاريخ الإسلامي وضرورة اعتباره جزءاً من التاريخ العالمي ، ودراسات «فوك» عن اللغة واللهجات والأساليب ، ودور الرواية والرواة في الاسلام ، وشعر القبائل العربية الشمالية في الجاهلية ، والنبي محمد انساناً ومؤسساً لدين ، وغيرها ، ودراسات «شاخت» في الفقه الإسلامي ، ودراسات تشنر عن الفتوة في الاسلام ، ودراسات «شبولر» عن تاريخ الاسلام في ايران ، وجنوب روسيا ، وآسية الوسطى ، ودراسة «مايرهوف» عن طب العيون في الاسلام ، ودراسة «قلماوزن» عن الأمبراطورية العربية وسقوطها ، ودراسات «متر» عن الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ودراسات «هرزفلد» الآثارية عن سرّ من رأى ، وسورية . ودراسات باريت عن القرآن ، وبراون W. Braune عن الشعر الجاهلي ، و«كاسكل» W. Caskel عن القبائل العربية ، ودراسات «اولن» عن الطب في الاسلام ، وغير ذلك .

ومن المستشرقين الأحياء الذين يتابعون دراساتهم الإسلامية في مختلف ميادين الثقافة العربية ممن عرفناهم أو قرأنا آثارهم : الأساتذة والدكاترة : شينتالر A. Spitaler ، وديتريش Dietrich ، وزلهام R. Sellheim ، وغاتيه Gatje ، وبورجل Ch. Burgel ، وشال A. Schall ، واولن M. Ulmann ، وغروتزفلد H. Grotzfeld ، وقيلد S. Wild ، وديم W. Diem ، وفيشر W. Fischer ، ونوت Noth ، وناجل Nagel ، واند H. Ende ، وفوكة H. Vocke ، واندريس G. Endress ، وغرامليش R. Gramlich ، وشولر H. R. Singer ، ودايبر H. Daiber ، وسنجر H. Busse ، وروتر G. Rotter ، وغاوبه H. Gaube ، وهالم Halm ، وكونيتش P. Kunitzch ، وياسترو

ZDMG التي صدرت عام ١٨٤٧ بعد تأسيس الجمعية بسنتين وما زالت تصدر . ومجلة الاسلام Der Islam التي أصدرها Becker عام ١٩١٠ ويشرف على تحريرها الآن الاستاذ شبولر Spuler . ومجلة Islamica التي صدرت عام ١٩٢٤ وبقيت الى عام ١٩٣٨ ؛ ومجلة الدراسات السامية Zeitschrift für Semitistik التي صدرت عام ١٩٢٢ وتوقفت سنة ١٩٣٥ ؛ ومجلة Die Welt des Islam التي صدرت عام ١٩١٣ ، وتوقفت عام ١٩٤٢ وعادت سنة ١٩٥١ . ومجلة عالم الشرق Die Welt des Orients التي صدرت عام ١٩٤٧ وما تزال ، ومجلة اوريانس Oriens التي أصدرها العلامة ريتز عام ١٩٤٨ ، ويرأس تحريرها الآن الاستاذ زهايم . ويمكن أن نلحق بهذه المجلات أيضاً مجلة «فكر وفن» ، التي صدرت عام ١٩٦٣ .

وفي هذه المجلات مجموعة جيدة من المقالات والدراسات والنصوص التي كتبها ونشرها الألمان يحتاج إليها كل عالم وباحث .



وثمة ناحية جديدة زاد اهتمام الاستشراق الألماني بها بعد الحرب العالمية الثانية ، هي تتبع أحوال العالم العربي المعاصرة ودراساتها ، من النواحي الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاتجاهات الجديدة والتيارات الفعالة ، ودراسة اللهجات العامية . وقد كان هذا طبيعياً نظراً لمكانة العالم العربي والاسلامي في زماننا ، وازدياد شأنه . فظهر مستشرقون جدد اهتموا بمثل هذه الأبحاث . وكان اهتمام الأجيال الماضية من المستشرقين بمثل هذه الأبحاث أقل . وكان من الذين اهتموا بها برجستراسر الذي كتب بحثاً عن «اللهجة الدمشقية بنصوصها النثرية» نشر عام ١٩٢٤ ، وهارتمن الذي كتب عن «الورد كرومر وعباس حلمي ،

O. Jastrow ، وباخن P. Bachmann ، ورادكه B. Radtke ، وفايبرث R. Weipert ، ودنز A. Denz ، وكورل Ch. Correll .

وقد شاركت النساء الألمانيات في الاستشراق ، وشاركن في الدراسات المختلفة . فمنهن عميدة المستشرقات انا ماري شمل A. Schimmel ، والسيدات سوسنة فلز Wilzer ، وريراك ياكوبي R. Jakobi ، وانجليكا نوورث A. Neuirth ، وانجليكا هارتمن A. Hartmann ، ومشتيلد بانكه Mechthild Pantke ، ودوروتيا كراوولسكي D. Krawulsky ، وفيلنت Vielandt وغيرهن .

٤ - ونلتقي الى الميزة الرابعة من مزايا الاستشراق الألماني وهي **المنهج العلمي الدقيق** ، الذي يعتبر عند بعضهم مثالا نادراً يحتذى .

ولست أنكر أن في انتاج بعض هؤلاء المستشرقين نقصاً أو أغلاطاً ، ولكن من هو العالم الكامل ؟ يكفي أنهم عملوا بحب وحماسة بقدر ما أسعفتهم به المعرفة والمصادر . ولقد استدرك بعضهم على بعض ، باخلاص ، وصحح بعضهم أخطاء بعض ، وكانوا علماء حقاً يقبلون كل نقد وتصحيح .

ومن المقدمين في باب النقد المجرّد فلايشر الذي صحّح طبعات نفح الطيب ، ومعجم البلدان ، والفهرست ، والكامل للمبرد ، وكذلك ريتز الذي نقد وصحّح عشرات وعشرات من الطبعات التي صدرت في اوروبا والبلاد العربية .



ولا بدّ أن ننوّه أيضاً بالمجلات الاستشراقية التي أصدرها الألمان ، منها مجلة المستشرقين الألمان

والطهطاوي» ، وعن «الصحافة العربية في الاراضي
الاسلامية» ، و «دليل لهجة سوق بيروت» ، و «أغاني
شعبية سورية» و «أغاني من صحراء ليبيا» . وكبفماير
الذي كتب عن الادباء والشعراء المعاصرين في مصر
والشام في الثلاثينات .



وعلى الرغم من العوامل المادية الكثيرة التي
تشبّط همم الشباب الألمان للتخصص في ميدان
الاستشراق ، ورغم عدم وجود مناصب في الجامعات
لجميع المستشرقين الشباب ، فإنّ الاستشراق الألماني
اليوم ماضٍ في سيره . وتكاد معظم الجامعات الألمانية
تحتوي اليوم على قسم لتدريس اللغة العربية
والاسلاميات ، وأحوال العالم العربي المعاصر . وقد
اختصّت كل جامعة بنوع من الدراسة ، حسب
الاستاذ المشرف على القسم . نذكر من هذه الجامعات :
جامعة برلين ، وبوخوم ، وبون ، وارلنجن ،
وفرانكفورت ، وفرايبورغ ، وغيسن ، وغوتنجن ،
وهامبورغ ، وهايدلبرج ، وكيل ، وكولن ، وماربورغ ،
ومايز ، وميونخ ، ومونستر ، وساربروكن ،
وتوبنجن ، ورزبورغ .

والى جانب هذه المراكز ، أنشأت جمعية المستشرقين
الألمان معهداً في بيروت للدراسات الشرقية . وكان

الاستاذ رومير هو الذي أنشأه ، في أوائل الستينات
وتعاقب على ادارته رومير ، وشتيبات ، و ويلد ، وبخنن .
وفي هذا المعهد يقضي بعض المستشرقين الألمان الشباب
سنة أو أكثر لمتابعة دراساتهم الاستشرافية والتعرّف
على أحوال العالم العربي .



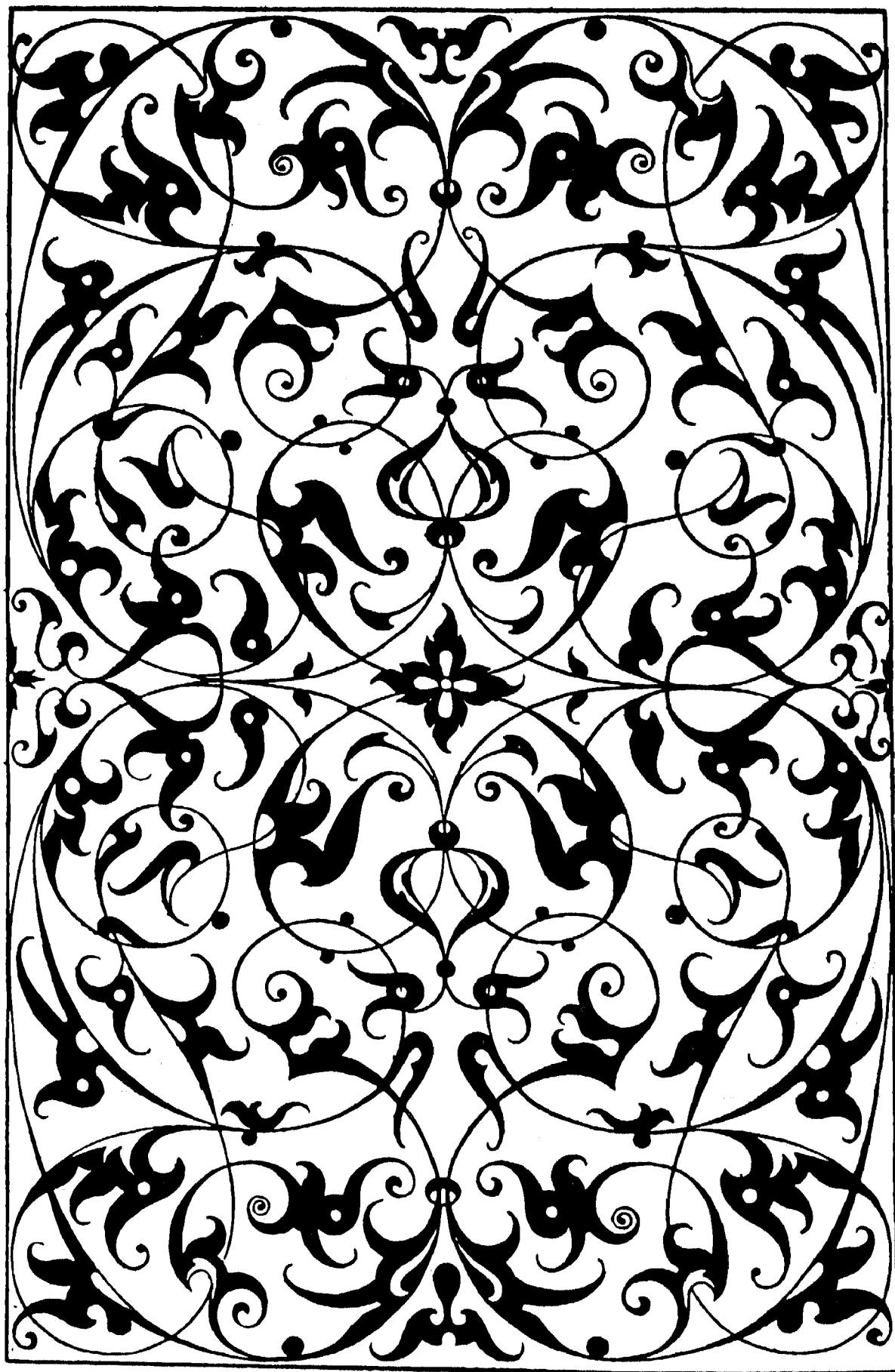
وقبل أن ننهي استعراضنا هذا لا بدّ أن نلحّ
على أمرين هامين :

الأول : زيادة التعاون العلمي بين المستشرقين
الألمان وعلماء العرب . فمثل هذا التعاون يفيد الطرفين،
ويعطي ثماراً علمية جيّدة .

الثاني : العمل على نقل أحسن الدراسات
الاستشرافية الألمانية ، في الماضي والحاضر الى اللغة
العربية ، نظراً لقلّة من يعرف الألمانية بين علماء العرب .
ويمكن أن يتم هذا العمل بالتعاون بين الألمان والعرب
معاً . ولا تخفى الفائدة التي تحقّقها هذه الترجمات الى
اللغة العربية . فالاستشراق الألماني مقصّر في التعريف
بنفسه . والمتقفون العرب بحاجة الى معرفة ما توصل اليه
المستشرقون في دراساتهم في مختلف ميادين الثقافة
الاسلامية .

صلاح الدين المنجد

بيروت



يُوهَانُ يَعْقُوبُ رَايسْكه

(١٧١٦ - ١٧٧٤)

بقلم : الأستاذ يُوهَانُ فولك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Fück في سنة ١٩٤٣ بوضع مؤلف ذي اهمية فائقة عن تاريخ الاستشراق والمستشرقين في اوروبا من اوائل دراسات اللغة العربية الى القرن التاسع عشر ؛ ثم اتم هذه الرسالة فيما بعد ونشرها في كتاب عنوانه :

Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955

نود ان نورد هنا باباً من هذا الكتاب عن اول من جعل علم اللغة العربية علماً ودرساً مستقلاً ، وهو يوهان يعقوب رايسكه J. J. Reiske الالماني (١٧١٦ الى ١٧٧٤) .

كان اول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهدهم في درس لغة المسلمين غير ان هدفهم لم يكن هدفاً علمياً بل انهم ارادوا الرد على الاسلام على اساس تراجم لاتينية للقرآن و«اهداء» المسلمين بواسطة تراجم عربية للانجيل والكتب الاخرى ، اى ان غرضهم كان بعيداً عن تحقيق عادل ودراسة علمية . ولم يتغير هذا الوضع في بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة لدى اهل الغرب في ارسال المبشرين الى البلاد الإسلامية بعد ان فتح الاتراك مدينة استانبول سنة ١٤٥٣ . ثم اخذ بعض اهل العلم يؤمنون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من استانبول ودمشق وغيرها من مدن الشرق ولتعلم اللغة العربية في هذه المنطقة . وكان اول هؤلاء المستشرقين ويلهلم پوستل W. Postel الفرنسي الاصل الذي ارسله ملك فرنسا ، فرانس الاول ، سنة ١٥٣٤ الى مصر ثم الى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقيلاً من اللغة الحبشية . ولما رجع پوستل الى وطنه عينه الملك استاذاً للغات الشرقية في جامعة باريس سنة ١٥٣٧ فألف في تلك السنين كتاباً في النحو العربي اشار فيه الى اهمية اللغة العربية وادبها ولكن امله في درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصراني في بلاد الاسلام . ونجد في كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على ان معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره في اخر كتابه ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .

اما المخطوطات التي كان پوستل قد اتى بها الى اوروبا فقد باعها الى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع في ضيق مالى وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغربية ؛ واصبحت هذه المخطوطات اساساً مهماً بنيت عليه دراسة اللغات الشرقية في المانيا في مهدها . فقام بعض اللاهوتيين بدراسة تراجم الانجيل العربية التي وجدت في المخطوطات المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (١٥٥٤ الى ١٦١٣) الذي تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لهوستل اول من عرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسي خاص للدراسات الشرقية وبألحاحية العربية في جامعة هايدلبرج ، وكان ذلك في عام ١٥٩٠ غير ان هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة ١٦٠٩ .

مع ان كريستمان ومن تبعه في المانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية في الشرق فقد قام في فرنسا عالم بمناهج اخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ الى ١٦٠٩) ، احد تلامذة پوستل . وكان هذا اول من اتم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ في الشرق والغرب وقام بجمع اخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه في ذلك العالم المتبحر البيروني في «كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية» من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجر بين هذه التقاويم حتى انه اتم بخصوصية التاريخ الهجري وكان هذا غير معروف عند اهل الغرب ، ووقف ايضا على التأريخ الجلالى الذى ابدعه الرياضيون في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي (المتوفى ١٠٧٢) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتأريخ الاسلام .

وفي هذا العصر ظهرت لأول مرة الحروف العربية في الطبع في أوروبا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربي وارتباطهم بهذا العلم الذي كان مشهوراً في الغرب منذ القرون الوسطى على يد التراجم اللاتينية . اما المملكة التي لعبت دوراً كبيراً في تطور الدراسة الشرقية فهي هولاندا ، وكان تومس اربنوس Erpenius (١٥٨٤ الى ١٦٢٤) اول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب العربي في أوروبا عندما طبع في سنة ١٦١٥ «كتاب الامثال» للميداني ، والى ايضا كتاب النحو العربي الذي كان يستعمله كل من اراد درس العربية في الغرب نحو قرنين الى ان نشر سيلفستر دى ساسي S. de Sacy كتابه المشهور في النحو العربي في عام ١٨١٠ . واعتنى اربنوس ايضا بطبع سورة يوسف . إن ما ابتدأ به هذا العالم اتمه خليفته في جامعة لايدن ، يعقوب جولويس Golius (١٥٩٦ الى ١٦٦٧) الذي نشر عدداً من الآثار العربية المشهورة ، منها «لامية العجم» للطغرائي و«عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربي - لاتيني . زد على هذا انه اشترى في اثناء سياحته في سوريا وتركيا نحو ٢٥٠ مخطوطة عربية مازالت محفوظة في مكتبة لايدن الى الآن ، وازضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، احد تلامذة جولويس ، ما يقارب من الف مخطوطة ذات قيمة ، فاصبحت مدينة لايدن مركزاً لتحصيل العربية في أوروبا . ومما يدعو للاسف اننا نجد بعد ذلك في الجامعة نفسها استاذاً آخر اى البرشت شولتنس Schultens (١٦٨٦ الى ١٧٥٠) الذي يعتبر مثالا مثيلاً لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية اولاً لتعمق في تاريخ الاسلام اولدريس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية . وعاش في ايام هذا المستشرق الفلمنكي عالم الماني اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بان يدعى اول مستشرق حقيقي في عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدهش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وادام عليها على الرغم من المصاعب التي اصابته في ايام حياته .

باذن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجوداً من الكتب العربية المطبوعة في سنة ١٧٣٦ - اي لما اتم من عمره عشرين سنة! - وفي هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التي كان مخطوطها محفوظاً في مكتبة لايزج ، فقال المستشرق الكبير ه. ل. فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة ١٨٧٠ ، اكثر من قرن بعد وفاة المؤلف : «انه لم يعد يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة يستطيع القيام بترجمة احسن منها حتى ولو كان حاصلها على افضل التعليم ومتلقنا اصح الوسائل» وعبر كذلك عن رغبة واحدة يقول : «ليتني اجتنبت غلطات رايسكه ، ولا ارجب في فضل اخر» . بعد ذلك كان على رايسكه ان يحصل على مخطوطات عربية فبعث اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف فولف Wolf في مدينة هامبورج (من ١٦٨٣ الى ١٧٣٩) بنسخة من مقامات الحريري من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمنتهى العربي وترجمتها الى اللاتينية استناداً الى هذه المخطوطة وإن سمى هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعاً ما تحسنت ترجماته وتفوق الاولى . واقرضه فولف المذكور مخطوطات اخرى لكي يتصرف بها فكان رايسكه ممنوناً له لفضله هذا طول عمره . وكان كلما ازداد تعمقاً في الادب العربي ازداد شغفاً به ، واصبحت

ولد رايسكه في عائلة دباغ فقير في ٢٥ كانون الاول سنة ١٧١٦ في قرية تسوربيج Zörbig في مملكة ساكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية في الميتم المشهور في مدينة هاله (وكان هذا الميتم الذي أسس سنة ١٦٩٥ مدرسة ذات شهرة في ذلك العهد) وبقي فيه من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣٢ ، واخذ «شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية» لم يدر الشاب ما سببه ، وعندما ابتداء بدراسته في جامعة لايزج عام ١٧٣٣ اختار مواضيع تحصيله . مستبداً برأيه وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفيق في درس النحو العربي دون الأخذ بمعونة اى معلم ما مستندا على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى ان يشتري كل ما وجد اذ ذاك في أوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه اكثر من ٢٠٠ تالر في مدة خمس سنوات (وكان البالتريساوى الدينار اواقل منه) . وفي سنة ١٧٣٥ بدا له ان يتجراً على مطالعة «عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنقائص الكتاب المنشور على يد جولويس واغلاظه سافر في شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوماً لديه ان احد مأموري المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة على نسختي هذا المؤلف المحفوظتين في مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه

عام ١٧٤٠ ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين اى فى عام ١٧٤٢ ؛ ويحتوى كتابه هذا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ؛ وبعد ان يعلق المؤلف على الترجمة والحواشى بعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر ايضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الايات والعبارات المأخوذة عن المعلقات الاخرى وعن ديوان الهذيلية والحجاستين واشعار المتنبي وابى العلاء المعرى وسائر الشعراء ؛ وتعالج المقدمة انواع مخطوطات المعلقات وحواشها وشروحها والاسماء التى تعرف بها ، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف ايضا جدولا للانساب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التى اقترحها رايسكه فى مقدمة تأليفه هذا . وكان رايسكه بهذا العمل اول من سلك الطريق الذى يسلك الى الآن فى الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلم به ان هذا الطريق هو احسن طريق يهذى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فان المنهج الجديد كان بعيداً جداً عن الطرق التى بحث فيها الاستاذ شولتنس عن اصول اللغات السامية فى غنائم خياله ، ولم يقم رايسكه فى تأليفه بذكر مثل هذه الخيالات الغير معقولة : ان من اقتنع ببراهين رايسكه على ان المعلقات من شعر القرن السادس الميلادى فهو يعرف بان لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربى القديم العهد . اما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتاباً فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين .

وقعت لذلك ولسبب اخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلfi الاخلاق غاية الاختلاف . اما رايسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق الذى عرفه صحيحاً وطيباً ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكثرث بالسؤال هل لعلم التوراة ودرس اللغة العبرية اى فائدة من جراء درس العربية ام لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس اقناع تلميذه هذا بان يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان رايسكه كان قد ادرك ان هذا لن يجلب اثمراً مرضية لدرس علم اللغة العربية وادبها ، وعرف ان درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جذور فرضية وان السعى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرافات باطلة .

امنيته الكبرى ان يكرس حياته لهذا العلم ويبدل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكناً الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المسماة «بوقف وارنر» . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة ١٧٣٨ متوجهاً اولاً الى هامبورج حيث قابله المؤلف فولف المذكور بكل لطف وقدمه ايضا لرايماروس Reimarus ، عالم واسع الصيت . ثم تابع رايسكه سفره الى مدينة امستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville ، احد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ فولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل ان يتخذ رايسكه معاوناً له ، ولكن الشاب الذى كان شغفا بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما ورد هذا العرض مع انه لو كان قبله لحسنت وضعيته المالية تحسناً ملحوظاً ؛ ولكنه رفض القبول حتماً كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية . ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طيلة اقامته فى هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى اواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى ٦ حزيران ١٧٣٨ وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من نعمة انه لم يسمح له بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححاً عند احد الكتبيين ، وهو يوهان لوزاك ، الذى اعطاه بدلا لخدمته غرفة وطعاماً فقط ، وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكاملة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعطيل الصيفى اصبح رايسكه تلميذاً له وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التى طالما اشتاق لرؤيتها . وكانت رغبته الاولى التعمق فى آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس اوصاه بدرس الشعر العربى . فنسخ الشاب سنة ١٧٣٩ ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفى السنة التالية الحماسة للبحترى ، واما معظم اوقاته فصرفها فى مطالعة اشعار الجاهلية الاكثر شهرة ، اى المعلقات ، ودرسها فى مخطوطتين «وارنر ٢٩٢ و وارنر ٦٢٨» مع شرح التبريزى وشرح النحاس ؛ واختار اطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهديب والتصحيح ، واتم هذا العمل او القسم الاكبر منه ،

THARAPHÆ MOALLAKAH

cum Scholiis

N A H A S.

e MSS. Leidensibus

Arabice edidit, vertit, illustravit

JOANN. JACOB. REISKE.



LUGDUNI BATAVORUM,
Apud JOANNEM LUZAC
M D C C X L I I

und mein damaliger Hauswirth, der Kriegsrath Langge, mir verschafften, die habe ich nur in den letzten Jahren meines hiesigen Studentenlebens genossen. Ich hätte sie noch länger genossen können; allein um das Jahr 1738 fuhr mir die Reise nach Holland in den Kopf, und ich war davon nicht abzubringen. Keine Vorstellungen der Gefährlichkeit einer Reise in ein fernes Land, ohne Geld, fielen mir bey, oder hatten auf meine, damals noch kindisch hitzige und der Welt unkundige Seele, einige Gewalt.

Ich sollte, ich mußte Leyden sehen. Darüber ließ ich alle in Händen habende Vortheile fahren. Meiner Reise nach Leyden, und dem Durste, die dortigen arabischen Manuscripte zu durchwühlen, opferte ich alle Aussichten meines künftigen Glückes auf. Das ist mir übel bekommen. Theuer, gar theuer, habe ich meine Thorheit büßen müssen! Ich bin zum Märtyrer der arabischen Literatur geworden! Ach, wenn doch mein damaliger brennender Durst nach dieser Literatur, der mich nur unglücklich gemacht hat, weil er zu frühzeitig kam, in einem Jahrhunderte, das ihn nicht brauchen, mit ihm auch nicht schätzen, und nicht belohnen, noch aufmuntern konnte, in eine Seele führe, die etwa einmal glücklichere Zeiten beleben möchte! wenn dergleichen Zeiten etwa einmal (wiewohl das nicht zu hoffen steht) einbrechen sollten, da man die arabishe Literatur höher achten, und fleißiger treiben wird, als man jetzt thut. Ein Geist, mit einer solchen

عنوان كتاب رايסקه عن معلقة طرافة.

صحيفة عن مذكرات الاستاذ رايסקه كتب فيها «اصبحت شهيد الادب العربي...»

على كرسى الدراسات الشرقية، وود لورايסקه ترك دراسة العربية تماماً. لذلك افهم العالم الالماني ان وضعيته بائسة بلا امل واقنعه بان يدرس قليلا من الطب، فدرس رايסקه الطب لمدة بعض اشهر وحصل على درجة دكتور طب في شهر مايو سنة ١٧٤٦ استناداً الى ما كان قد جمع من معلومات طبية من المؤلفات العربية مع ان اللاهوتيين في لايدن اقاموا مشكلات جديدة مدعين انه كان مادياً لما عرضه من الابحاث العلمية في امتحانه. سافر رايסקه في ١٠ حزيران ١٧٤٦ من هولاندا ووصل مدينة لايبزج في اوائل شهر تموز. ولما لم يرغب في اجراء الطب فعلا وجب عليه ان يكسب يوميته بتصحيحات الكتب وباعطاء دروس خصوصية وبتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير المحبذة. ولكن المهم انه بقي لديه وقت لمتابعة العربية، والى في شهر آب ١٧٤٧ كتاباً لاتينية عنوانه:

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memorialem rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

حقى انه اعلن «ان اراد المرء ان يساعد على رواج دراسة العربية فعليه انه لا يدرسها كالاهاوتى». وثار ضميره كفقيه في اللغة على طريقة شولتنس الهوائية في معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفادى الصعوبات إما بابدال الكلمات التي لم يفهم معناها دون ذكر ذلك او بتغييرها تعسفاً. لقد كان على علم بأنه لا يكفي لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائماً على اسس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذي يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف.

كلفته ادارة المكتبة في لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية، ورحب رايסקه بهذه الفرصة التي امكنته من تدقيقها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار، مثلاً المعارف لابن قتيبة، والتاريخ والجغرافيا لابي الفداء، وتأريخ حمزة الاصفهاني ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وغيره. ولكنه لم يتمكن الحصول على درجة الدكتوراه في كلية الاداب في جامعة لايدن لان شولتنس ابي ذلك عليه إذ انه كان يريد ان يعين ابنه خليفة له

- 94 فلي كنت وغلا في الرجال لضربي عداوي ذي الاصحاب
والمشهود
95 ولكن نفي عني الرجال جرائي عليهم واقد امي وصدقي
ومحندي
96 لهرك ما امري على بقة نهاري ولا ليلي على
بسرود
97 ويوم حبست النفس عند عراكها حفاظا على عوراتها
والتهدد
98 على موطن بخشي الغني عند الردي مني تعتركي فيه
العرايص ترعد
99 واصغر مضبوح نظرت حولي علي الغامى واستودعته
كف محمد
100 سنبدي لك الايام ما كنت جاهلا وباتبك بالاخبار
من لم ترو
101 لهرك ما الايام الا معاني فما استنعت من معروفها
فترو



- 94 الوغل الضعيف الخامل الذي لا ذكر له والواغل
الذي يدخل على القوم من غير اذنهم والوغل الذي
يحضر الشراب ولم يدع عليه والوغل الشراب ايضا
95 ويروي ولكن يغني الاعادي والمحتد الاصل
96 العمر والعمر واحد الا انهم لا يستعملون بالقسم الا الفتح
لكثرة استعمالهم اياه واللعنة الاسر الهم لا يهتدي
له والسرد الطويل
97 اصل العراك الاندحام اي صبرت نفسي عند اندحام
القوم في الحروب والخصومات وعوراتها اي مخافت
العدو

F I N I S.

الممالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث ايضا بوساطة
مقدمة العالم العربي نفسه عن البحور والانهار والجبال
وينجز الباب مشيراً الى ما يجب ان يلم به من المعلومات
على مدرسى الجغرافيا التاريخية. ويحتوى الباب الثالث
— وموضوعه المنايع التاريخية — على فهرس الكتب النقدية
مبتدئاً بتأليف ديربلو d'Herbelot المسمى بـ Biblio-
thèque Orientale (المكتبة الشرقية)، وهي قاموس
شامل على كل ما كان معروفا في اوائل القرن الثامن عشر
عن المواضيع الشرقية، ويقدر رايهسكه هذا التأليف غاية
التقدير؛ ويذكر فيما بعد المطبوعات المعدودة التي يمكن
ذكرها بهذا الخصوص وهي: E. Pocock

وتأليفات جرجيس المكين (المتوفى ١٢٧٣)، وابي العباس
احمد الفرغاني المنجم المشهور في اوربا منذ القرون
الوسطى، والاقسام المطبوعة من تاريخ ابي الفداء
(وليس في رايه ابن عريشاه بمؤرخ حقيقي)، وما يسمى
الجغرفي النوبي Geographus nubienensis؛ ثم يشير
بالايجاز الى كتب الرحلة وما ألف في اوربا من الكتب
حول التاريخ الاسلامي (مثلا قاننمر، Pétis de la

Nam si obscurus essem inter illustres, profecto no-
ceret mihi odium & amicis stipati, & solitarii.

95 Sed homines a me propulsi mea in ipsos au-
dacia, & aggressio, & strenuitas, & profapia.

Res mere, ita valeas, neque interdiu me sollicitum
tenent, neque nox mihi mea nimis longa.

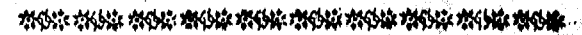
Per diem, quo firmavi pedem in conspata acie &
inter minas, loca mihi patentia prænitiens,

In campo, ubi heros vereatur exitium; ubi, cum
te in aciem inferas, scapulæ contremiscant.

Perque aleatoriam sagittam flavam, fumosam, cujus
vidi pullum igni adstantem, & quam ingessi dextræ
avari:

100 Prodent sane dies tibi quod ignorabas, & adde-
ret tibi nuncios is, quem nec comteatu intruxeras.

Dies, hercle, non sunt nisi depolitus; quod ita-
que ab iis beneficii potes obtinere, capta.



العدو كقولہ تعالیٰ بیوننا عورة ای هذا العدو ويروي
مروعاتها اي فرعاتها

98 الموطن مستقر الحرب والردي الهلاك وتعتركي اي
تردحم والفرصة الدحم من آخر الكتف عند الجنب

وهي اول ما ترعد
99 بعني بالاصغر السهم والمضبوح الذي غيرة النامي
وحولاه مرجوعه اذا جعل علي النامي الم محمد الذي يضرب
بالسهم

100 اي سنظهر لك الايام ما لم تكن تعرفه وباتبك
جالاخبار من لا تاسره ان ياتبك بها ولا تروء

F I N I S.

الصحيفتان الاخيرتان لكتاب رايهسكه عن معلقة طرافة، مع متنها وترجمتها اللاتينية.

وهو رسالة في التاريخ الاسلامي، نشرها تلميذه له، يدعى
بـ. كولر Köhler سنة ١٧٦٦ في كتابه عن ابي الفداء
في شكل ملحق (ص ٢١٥ — ٢٤٠) وفيه يرفض رايهسكه
في مستهل مقدمته استعمال التعبير «شرقي» لانه غير مضبوط،
ويستعمل بدلا منه تعبير «محمدي» او «مسلم» لان هذا العلم
يبحث عن تاريخ المسلمين لا في الشرق فحسب بل ايضا
في افريقيا واوروبا؛ ويريد المؤلف، كما قال، معالجة
مادته في ثلاثة ابواب: اولها البحث عن الملل والسلالات،
ثانيها عن البلدان التي وقعت فيها هذه الحوادث التاريخية،
وثالثها عن المصادر التي تجربنا عن هذه الوقائع. ويلى هذا
التمهيد الصريح بيان واضح حسن النظام.

الباب الاول (ص ٢١٨ — ٢٢١) يعدد العناصر الخمسة
التي لعبت دوراً في تاريخ الاسلام، وهم العرب،
والايرانيون، والأتراك والتركة، والمغول والتتر، والبربر،
وبيين موجزاً السلالات التي اخرجتها كل أمة، ويشير
في ملحق الباب الاول مرة اخرى الى اماكن هؤلاء
السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط.
وفي الباب الثاني يذكر المؤلف استناداً الى آثار ابي الفداء،

Croix وغيرهما) ، وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، اى عن تأليفات ابي الفداء باجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهاني ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميداني الذي قدره غاية التقدير. ثم يضيف بعض ملاحظاته في فهرست المخطوطات الشرقية في لايدن الذي اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيراً الى مجموعات المخطوطات الموجودة في اوكسفورد ، باريس وفلورانس التي كانت اقل اهمية من مجموعة مكتبة لايدن .

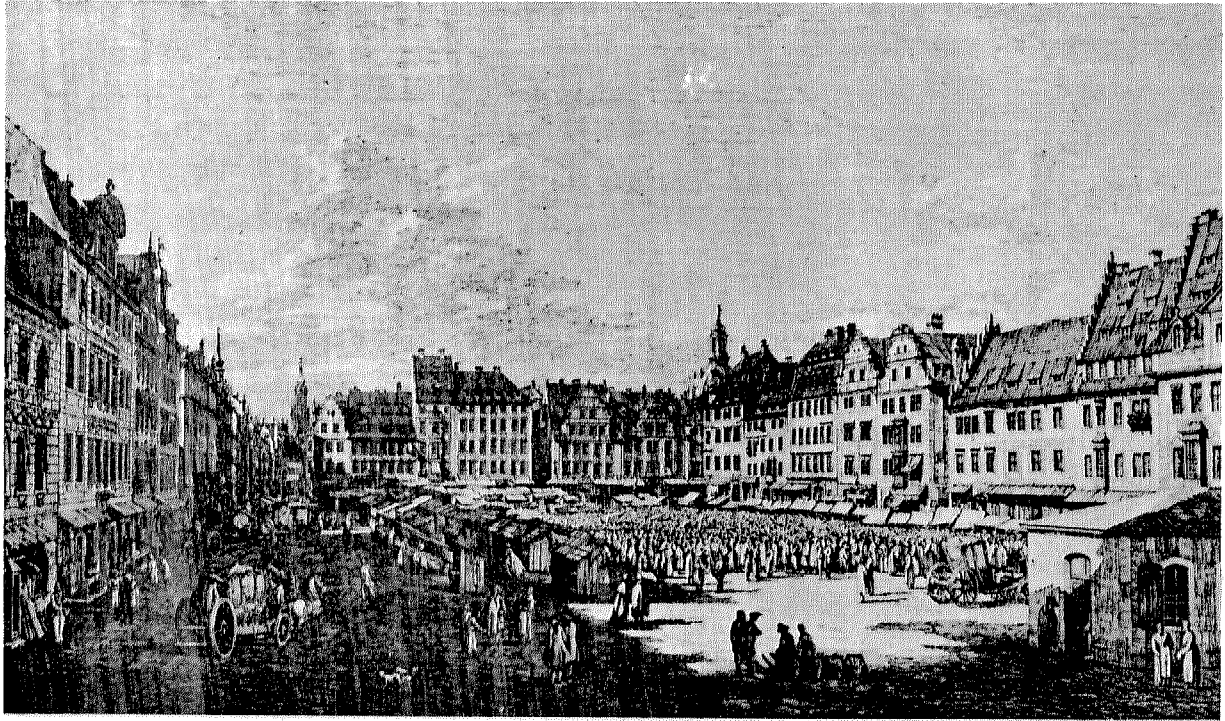
بعد ان عالج رايסקه موضوعه في هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه — على عادة عصره — بمديح يستحق المطالعة حتى في ايامنا هذه ، يمدح فيه التأريخ الاسلامي ويوصي مواطنيه بمتعدد الاسباب على درس هذا التأريخ الذي كان يهمل كثيراً في اوروبا . ومع ان هذه التصريحات كانت مخاطبة لطبقة القراء غير الاختصاصيين في هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد اراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم من ذلك فان هذا المديح دليل صريح لادراك تصورات رايסקه ونظرياته العامة وإن نقص احياناً ارتباط منطقي ؛ تدل هذه السطور على ان العالم رأى تأريخ الشرق كقسم لتأريخ العالم العام ، وانه ظن ان درس هذا التأريخ كان واجبا على الانسان لاجل التواتر التاريخي ، كما أعتبر ايضا درس تاريخ اليونان والرومانيين القديمين واجبا على كل رجل مثقف وقد اجمع العلماء في العالم على ذلك اجماعاً كاملاً ولا ينكر احد اهمية التأريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران في اثناء القرون الوسطى بقلم ابي الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم ، وعين العادات وانواع الحكومة التي تحققت له من مطالعته تأريخ هروdot اليوناني ووصفه لایران القديمة . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقب ما حدث في مدى العصور لتلك الممالك والولايات في الشرق وفي افريقيا التي فتحها اليونان او كانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعى ايضا العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامي التي كانت موجودة منذ ايام شارلمان الامبراطور الالماني في ايام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان في صيقليا والصليبيين الى فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التي سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرقيات . وكثيرا ما اكد لقرائه بان التأريخ الشرقى لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى او قيمة او محتويات ؛ وصرح بان المتخصص بالتأريخ كثيرا

ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان في سعادة فانية بينما يرى ايضا التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض او مداسين في التراب ، فيبدو للناظر المتحير كأن كل شيء دائر في دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بان الثمر الاحلى والحصول الاهم الذي انتجه درس التأريخ هو ادراك القوى التي تسيطر الافعال البشرية كما كشف عنها تأريخ بنى آدم . ومن اراد ان يتعلم من درس التأريخ مناهج السياسة ، ومن رغب في تبصر الحكمة الالهية او طرق القضاء الاعمى ، او من ود ان يتفحص الاخلاق والشيم البشرية فانه يجد لذلك في تأريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها في تأريخ اوروبا . ولا يتردد رايסקه بان يعطف على اعمال طغرل السلجوقي ، جنكز خان ، تيمور ومحمد الفاتح اهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر ، وبلغ اعجابه بملوك ايران القديمة حدا انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصرف برغش يزعج الاقيال ، ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وان اعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التاريخية التي لا يفهم معناها العقل الانساني بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ؛ ويرى في قبض بنى امية عنان الدولة وفي الآلام التي قاساها آل على بن ابي طالب قضاء الهيباً . وتمسك بـ «تشيع حسن» كما وجد هذا التشيع في مصادره التاريخية غير القديمة العهد: اى انه اعتبر علياً الخليفة الحقيقي للرسول وقد منعه احيال الشورى ودسائسه من حقه الموروث لمدة ٢٤ سنة ، ويرى فيه احسن ملك ظهر في العالم الاسلامي ، ملكا شجاعا ، عادلا امحاه القضاء والقدر ، واباده بغض عائشة الطموحة . ويرى رايסקه في مجادلة على ومعاوية مثالا امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز الرداءة على الامانة ، حتى انه لا يكتفى بذلك المديح بل يقارن بين على بن ابي طالب ومارك أورل ، الامبراطور الروماني الذي يسمى «الفايسوف على السرير» . وتدعوه احياناً هذه الرغبة في التشبيه الى ان يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخي في ممالك الاسلام وفي اوروبا لكي يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المهذبة مثلاً جرى في الغرب .

وفي ابان هذه السنوات كتب رايסקه كتابا اخر عنوانه :

de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فانعم عليه ملك ساكسونيا في مدينة دريسدن لقب «الاستاذ» وخصص له معاشا سنويا مقداره ١٠٠ تالر ، بيد ان الحكومة

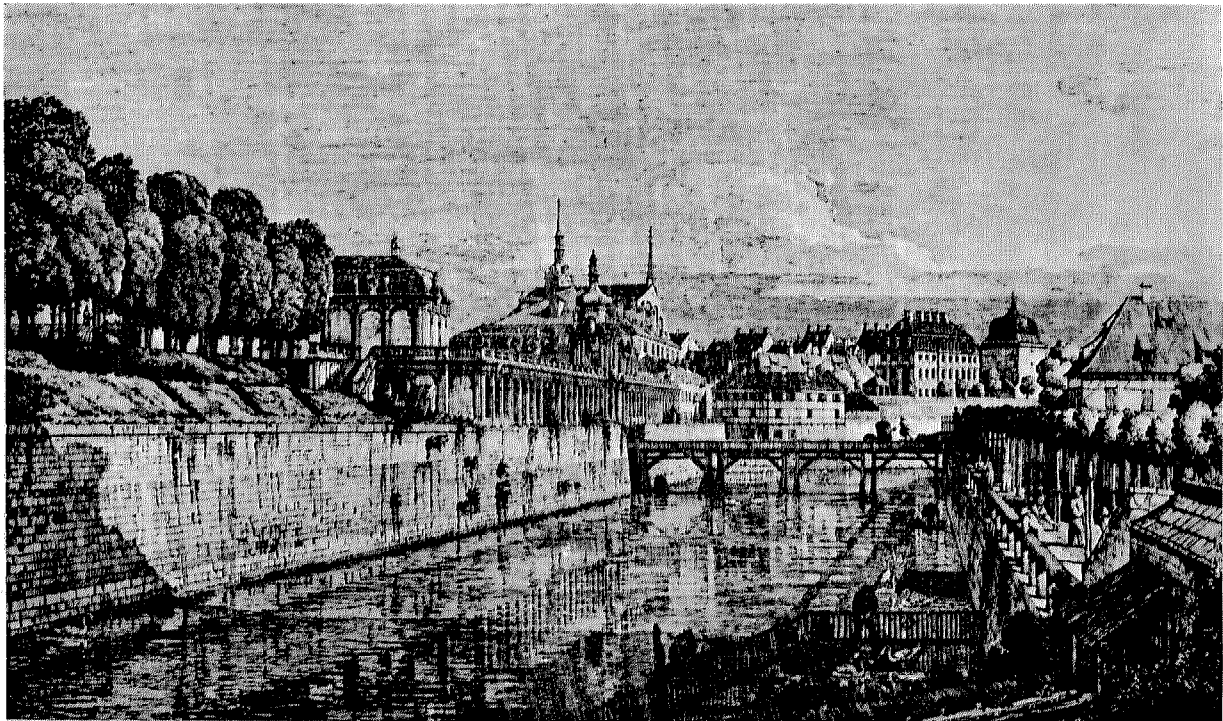


برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالطو» Canaletto: السوق العتيق في مدينة دريسدن وشارع القصر. نحت على النحاس، سنة ١٧٥٢.

تصوير: الفوتوتك الالماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden.

برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالطو» Canaletto: ايوان القصر المعروف باسم «تسوينجر» Zwinger مع «باب التاج» والجسر على نهر ايلبه. نحت على النحاس، سنة ١٧٥٨.

تصوير: الفوتوتك الالماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden.



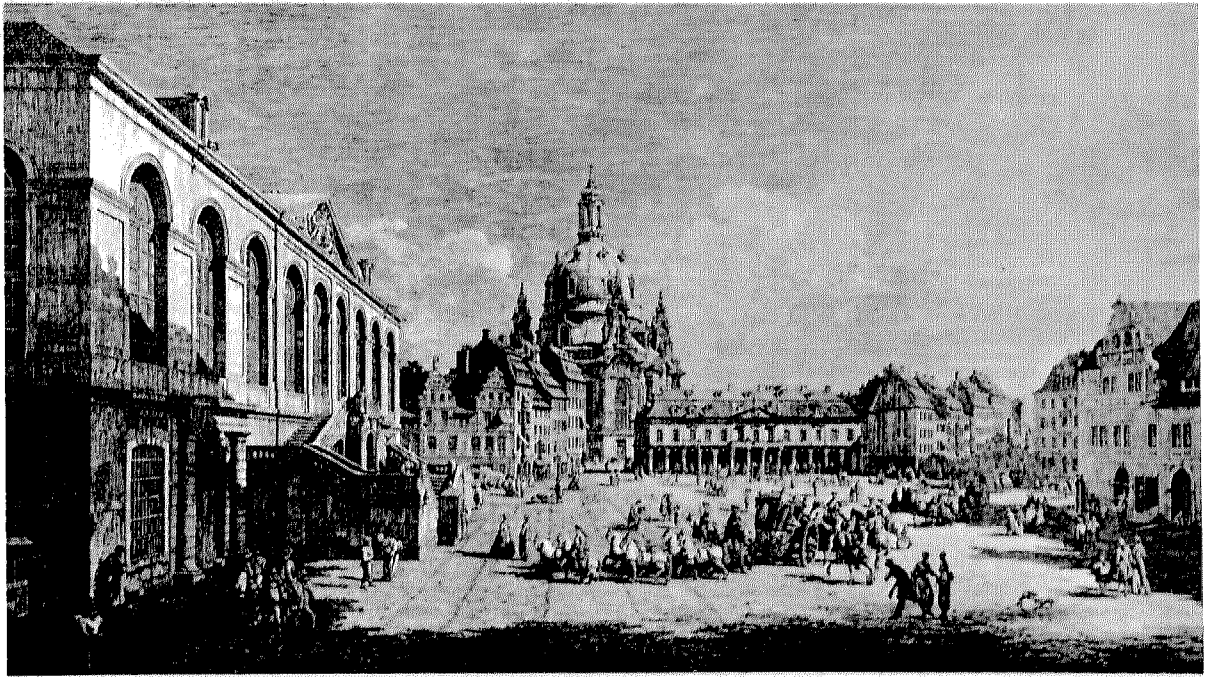
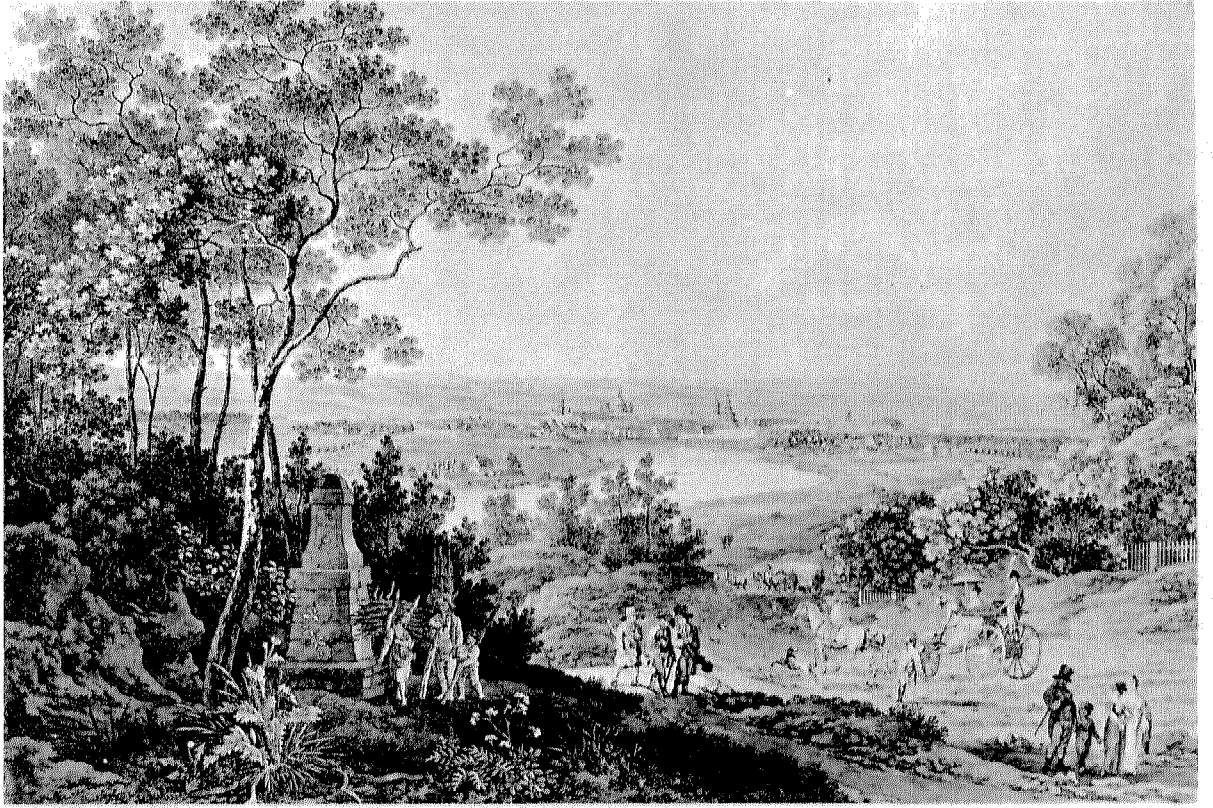
ادريان توينك A. Zwingg (١٧٣٤-١٨١٦): منظر مدينة دريسدن سنة ١٨١٥.

محفوظ في متحف دريسدن المخصص التصويرات المنحوتة على النحاس Kupferstichkabinett

تصوير: الفوتوتك الالماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden.

برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالطو» Canaletto: السوق الجديد في مدينة دريسدن، نحت على النحاس، سنة ١٧٤٩.

تصوير: الفوتوتك الالماني بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden.



اننا نهدف بايراد هذه الرسوم ان القارئ يَصوّر منظر مدينة المانية مشهورة في القرن الثامن عشر، و كانت هذه المدينة مركز المملكة الساكسونية التي كانت وطن العلامة رايسكه، و سافر اليها مرارا.

لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماماً بعد سنة ١٧٥٥. وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرقه احد اذ اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره الا يسمى محمدا «نبياً كاذباً» و«خداعاً» والا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، احدهما التاريخ المقدس ، والاخر التاريخ الدنيوى ، بل كان يحصل لتاريخ الاسلام منصبا في وسط التاريخ العام .

زد على هذا ان رايسكه لم يتردد باظهار رأيه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، وحدث ذلك خصوصاً شديدة ؛ فمثلاً قام الاستاذ شولتنس الفلمنكى في سنة ١٧٤٨ بنشر طبعة جديدة لكتاب النحوالذى الفه اربنيوس (سنة ١٦١٣) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصلى كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل ابقى على ما فيه من اساطير لقمان ومن الامثال الا انه اضاف الى هذه المادة الموروثة اشعاراً منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ؛ ثم الف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحي التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصارى في مسألة قدسية اللغة العبرانية . واعترض رايسكه على المقدمة قائلاً بانه لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة في كتاب يبحث عن النحو العربى. ، ولا جدال في ان مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفى العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال سليمان مع شرح له مستعملاً فيه منهج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام رايسكه بمراجعة هذين الكتابين فى Nova Acta Eruditorum وهى مجلة علمية من نشر السيد منكن . وألزمه ضميره فى هذا النقد الأدبى أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الاحترام اللائق تجاه شولتنس فإنه أدرك من الوقع الذى سببه فقط انه كان من الأفضل لو كان قد قام احد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذى كان معتاداً على المشاجرات الأدبية والذى لم يجترئ احد حتى ذلك الوقت الشك فى كونه معلم عصره فى العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعث تحريرين الى «منكن» طالبا منه أن ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصى وافترى على رايسكه غاية الافتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين المكتوبين تأثير كبير فى المانيا — وكان

شولتنس قد ارسلهما الى جميع اساتذة الكلية بلايزج — فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه رايسكه من الاسباب الواقعية ولم يتمكن احدهم من المقارنة بين الرايين مقارنة علمية كما لو كانوا اختصاصيين فى الموضوع . ولم يمد احد يد المساعدة لرايسكه ومضت عليه سنة بعد سنة دون ان يعينه معهد ما فى المانيا او فى خارجها استاذاً ولم يفده اثباته فى نشرياته انه كان متبحراً فى اللغة اليونانية ايضا لأن خصيمه فى هذا المضمار كان الاستاذ ارنستى Ernesti ، استاذ اللغات القديمة واللاهوت معاً . — فى سنة ١٧٥٣ حاول الاستاذ بوبوويتش Popowitsch فى جامعة فيينا ان يجد منصباً لرايسكه لدى السفير النمساوى فون شواختهايم الذى سافر الى استانبول سفيراً عند الباب العالى ، وفشل هذا الترتيب لان رايسكه ابى ان يتكثلك . واستمرت احواله المالية تملى عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسونى عن اداء معاشه فى عام ١٧٥٥ .

ولما يئس رايسكه من حاله توجه فى اواخر سنة ١٧٥٦ الى الاستاذ د . د . ميخائيليس Michaelis (١٧١٧ الى ١٧٩١) فى مدينة جوتنكن الذى كان زميله فى المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذى لم يكن له دراية لا بالناس واخلاقهم ولا بالدنيا ودناياها انه وضع حياته فى يدى انانى مدبر للمكائد . روى له رايسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وافهمه انه لو عينه استاذاً فى معهد جوتنكن لأجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولو كان هذا التعيين المفروض ظاهراً وغير حقيقى ؛ وازضاف الى هذه الكلمات — وكان مخلصاً غاية الاخلاص مستقيماً — ان ضيقه وفقره قد منعاه من ان يخدم ركاب الادب العربى اكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت احواله فانه سيأخذ فى طبع كتباً عربية ويعتنى خاصة بطبع قاموس صغير للعربية ؛ وان لم يساعده الله بالقرب العاجل فيصبح لا فائدة منه للادب العربى . ورغم انه كان لميخائيليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين اهل العلم فى المانيا فانه لم يرغب فى التوسط لأجل عالم فاقه بكثير فى اتقان اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصاً لا يعتد به ، وظن مثلاً ان الاعراب كان من مخترعات النحويين العرب ولعلمهم ادخلوه متبعين المثال الاوروبى ؛ وكان يعترف نفسه بانه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهج تدريسه . ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس وحب الظهور والاستبداد لم يرد ان يشتغل احد سواه فى هذا المضمار . ولذلك تظاهر

بالغیظ لما جاءه طلب رایسكه ، حتى انه حول مكتبه الذى لايشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى وزير المعارف فى مملكته مشيراً اليه بالرد ؛ ثم قدم لرایسكه الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .

واطاح ذلك المكتوب بآمال رایسكه كلها ، فادرك انه لن يتعين استاذاً فى معهد ما بعد ذلك ، فاختل فى السعى الى وظيفة فى مدرسة ، فاصبح عميد مدرسة نيكولاى فى لايزج بيد ان «صديقاً مرثياً» اراد منع هذا التعيين بدسائسه وكاد ان يوفق بذلك ، ولكن رایسكه كان قد وجه اهتمام الوزير كونت واكر بارت الساكسونى الى شخصه عندما عرّف السكك العربية فى مخزن متحف مدينة دريسدن سنة ١٧٥٦ ، وكفت شفاعته هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر اهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رایسكه عميداً للمدرسة .

وهذا وجد رایسكه بعد سنوات الضيق والفاقة الطويلة ملجأً اميناً ، فاستمر بالعمل فى ميدان الاديين العربى واليونانى فى اوقات فراغه من المدرسة . ولكنه لم يجد ناشراً لهذه المؤلفات فكان عليه ان يقوم بمصاريف الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام ١٧٥٤ المجلد الاول من ترجمته اللاتينية لتأريخ ابى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع اكثر من ٣٠ نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشريات الصغيرة ؛ وفى عام ١٧٥٥ اعتنى بنشر رسالة ذات اهمية كبرى لما تحتوى عليه من تلميحات واشارات تاريخية ارسلها ابن زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة الفها ردا على تهينة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد ذكر فى شعر لاتينى عصا يعقوب والصولجان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رایسكه برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة امثال عربية تعالج العصاة وقد اخذها عن كتاب الامثال للميدانى الذى كان مغرماً به جداً . اما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكثم بن صيفى احد «حكماء» البجاهلية استناداً الى كتاب الميدانى المذكور ولم يفهم احد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن ادراك اهميته العلمية حتى ان رایسكه كف عن تدوين برنامج اخر فى المستقبل .

وكان المتن العربى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبي كمثال للشعر العربى ، ونشر نحو اثنتى عشر ابيات عشقية ومرثيتين فى سنة ١٧٦٥ ، واهدى هذه الباقة الشعرية الغرامية لزوجته التى اهلها بعد انتظار طويل فى سنة ١٨٦٤ ، وحجاً لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات

الابيضاحات العلمية واكتفى بتعريف كلمات الشاعر وایضاح عالم شعوره للقارئ الغربى الذى كثيراً ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبي من وجهة نظر علم الجمال .

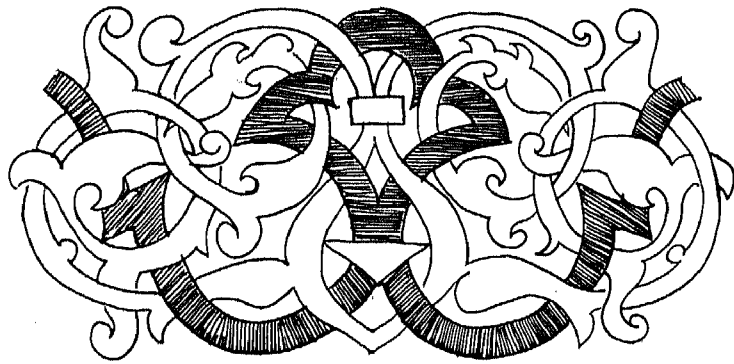
وتحقق مرامه الذى عبر عنه فى اهداء هذا الكتاب وهو : ليت شعرى ان يبق اسم زوجى مقروناً باسمى . معروفاً عند الناس ! لان مادام اسم رایسكه يذكر سيذكر ايضاً اسم رفيقته التى رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى رایسكه فى ١٤ آب ١٧٧٤ على اثر مرضه بالسل - ولم يكن قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره - اهتمت هى بتركته القيمة حتى لا تقع فى يدي خصمه ارنستى ، واستودعها لسينك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى كان من القليلين الذين قدروا قيمة رایسكه اثناء حياته ؛ وحفظ لسينك هذه التركة الى ان اشتراها حاجب الملك الدانماركى السيد فون سوم ، ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رایسكه تاريخ حياة زوجها الراحل كما دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلوب . ولم تحف من مجادلة اولئك الذين ظهرت سفالتهم وحقارتهم فى هذا التأليف ونشرت ايضاً سنة ١٧٧٩ «نظريات فى كتاب ايوب» و«امثال سليمان» التى دونها رایسكه سنة ١٧٤٩ ، مضيئة عليها متن خطابه الافتتاحى الذى القاه فى ٣١ آب ١٧٤٨ فى كلية لايزج ، وسادها شعور بالرضى عندما رأت ان العالم المتوفى حصل على التقدير الذى نكروه عليه فى حياته . ونشر جرونر Gruner فى ١٧٧٦ للمرة الثانية اطروحة رایسكه ، واماى . ج . ايشهورن Eichhorn ، وهو ايضاً من المستشرقين ، فنشر سنة ١٧٨١ المكاتيب التى بعث بها رایسكه عام ١٧٥٧ بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة فى متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رایسكه من شأن علم اللغة العربية وادبها وجعله علماً مستقلاً . لم ينتبه احد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلاً ادرك ذلك رایسكه ، ولم يتوجه احد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذى كان مسيطراً على عقول العلماء فى ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسدائها له فوائد جمّة فى تفسير العهد القديم ، وكان يكتفى بالبحث عن اصول كلمات عربية فى القاموس العربى لجوليوس ويقابلها بكلمات عبرانية مختاراً له من المعانى المختلفة لكل كلمة المعنى الذى يوافق اغراضه . ورغم ان

ونظرت هذه أدت به إلى إدراك أهمية الدور الذي لعبه الإسلام في تأريخ الشرق. فإنه لم ينظر إلى المتن العربية نظرة اللغوي الصرف الذي لا يكثرث إلا لفهم معاني الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر إليها نظرة المؤرخ الذي جعل لتأريخ الإسلام مقامه من تأريخ العالم العام، وكان يشرح هذه المتن مثلما يشرح المشاهد في دار التمثيل عند تأمله في الوقائع الجارية على المسرح إذ يقوم بالفحص عن بواعث الأشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر. ورغم أن راييسكه لم يتوفق بتأليف «تأريخ الإسلام» كما أرادته فإنه هذا العالم البعيد النظر وضع أساساً للعلوم الإسلامية العصرية التي تبنى كعلم تاريخي على أساس علم اللغة العربية. أما معاصروه فلم يستطيعوا فهم أفكاره الجسورة ولا تأملاته الجلية فصار «شيد الأدب العربي» كما سماه نفسه، وأصبح تاريخ حياته تأريخ الآلام والظلم كما تشهده مذكراته المؤثرة. وكما أن للجرأة التي سار بها دون اكتراث على الطريق الذي اعتبره مرة صحيحة أثراً سامياً فإنه من المخجل أنه لم يكتشف أحد من أولى الأمر في جامعات أوروبا أهمية هذا الرجل العبقري العظيم؛ هذا الرجل الفذ الذي كان من أعظم علماء الآداب العربية، ومن المخجل كذلك أن هذه الآداب التي أراد تشييد بيت لها لم تحصل في ألمانيا القبول الذي استحقته. ولكنه من الطريف أن نذكر أن أسس في القرن التالي في لايبزج أي في عين المدينة التي قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بأن يعتبر راييسكه من أجداده الروحانيين.

أحدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعوب Polyhistorismus أي أن العالم تخيل أنه بإمكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التاريخي باجمعه فقد عرف راييسكه أن للطبيعة الإنسانية وللعقل الإنساني حداً ونهاية؛ لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الروماني سيسرو «لأجل لانهائية الأعمال، للنقص في الوسائط ولليل عظيم لليونانيين» كذا وقد كرس وقته بأكمله للعربية فقط ورفض أضاعة وقته وقوته في تحصيل اللغات المتجانسة. وكان غرض راييسكه إثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتاريخية والآدبية، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية. مما لاشك فيه أنه كلفه في اللغة رأى أصل العلم وأساسه في درس عميق للغة نفسها، وكان معلوماً عنده أن لا يهدي إلى وقوف حقيقي على اللغة العربية إلا طول الأناة والصبر في مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع، وتحقيق له بأن مؤلفات العرب المسلمين أفضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصراني بكثير. ولم يكن يخفى على فراسته أن طبعات التوراة والإنجيل العربية ترجمها إما نصارى شربو ممن لم يكن لهم علم باليونانية أو العبرانية أو العربية، أو أنها كانت تراجم عجمية على أيدي اليسوعيين الذين لم يعرفوا إلا الفلجانات (أي الترجمة اللاتينية للتوراة والإنجيل من القرن الخامس م). ولذلك اجتهد راييسكه في فتح طريق إلى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفيق في ذلك وأصبح هادياً للآخرين. ولكن درس اللغة لديه ليس غرضاً بنفسه بل رأى فيه أساساً للكشف عن التاريخ.





يوسف فوت هامر - يورجستال

(١٧٧٤-١٨٥٦)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

كان وضع الدراسات الشرقية في ألمانيا وسائر بلاد أوروبا غير مرض إلى أواخر القرن الثامن عشر ، إذ لم يكن العلماء يعتبرون دراسة العربية إلا امتداداً للدراسة العبرانية واللاهوت لأغبر. وقد حاولنا أن نرى في وصف حياة الأستاذ يوهان يعقوب رايسكه Reiske الذي نشه ناه في النسخة الرابعة من هذه المجلة المشكلات التي اعترضت من أراد تحرير الاستشراق من قيود علم اللاهوت.

أما وضع الاستشراق في النمسا فيختلف عنه في سائر بلدان الغرب. كانت هذه المملكة الواسعة مجاورة الدولة العثمانية ، وقد حاصر الجنود الأتراك مدينة فينا مرتين ، سنة ١٥٢٩ وسنة ١٦٨٣. ولذلك وجب على النمساويين الاهتمام بعادات جيرانهم الأقوياء وبطرق حياتهم ، وكذلك بلغتهم. فحضرت حروف عربية في خشب لاجل الطبع لأول مرة في سنة ١٥٥٤ في فينا ، وبعد قرن واحد أسس في تلك المدينة كرسي للدراسات الشرقية ، والف الأستاذ مينسكي Meninski كتاب النحو التركي وقاموساً تركياً نشره سنة ١٦٨٠ ، وما يثير الأسف أن أكثر نسخ هذا القاموس المفيد قد ضاعت في أثناء محاصرة فينا عام ١٦٨٣ ، كما ضاعت الحروف العربية التي ابتدعها مينسكي ؛ ثم عثر على هذه الحروف العربية المفقودة مرة أخرى في سنة ١٧٥٠ ، وحسنت شكلاً حتى صارت الآن أقرب إلى قواعد الخط العربي. وقد طبع القاموس التركي المذكور للمرة الثانية سنة ١٧٧١ في فينا.

وقد أدركت الامبراطورة ماريا تيريزيا (١٧١٧-١٧٨٠) الكبيرة أهمية الدراسات الشرقية ، فأست لذلك داراً للعلوم خصصت لطلبة اللغات الشرقية الذين عزموا على دخول السلك الدبلوماسي. وكان نظام هذه المؤسسة المسماة بالأكاديمية الشرقية Orientalische Akademie صارماً جداً ، فكانت الدراسة تبدأ في الساعة السادسة صباحاً وتستمر إلى الساعة التاسعة في الليل. وكان على الطلبة أن يدرسوا اللغات الشرقية كل يوم لثلاث ساعات ، وعلاوة على ذلك كانوا يتعلمون الفلسفة والتاريخ واللغة الفرنسية والفراسة والرقص وكل ما كان ينتظر من صفات في شاب أصيل سيكون ممثلاً لمملكته في البلاد الأجنبية. وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، وكان الشبان يتعلمون فيها التركية بصورة جيدة دون أن يحصلوا على تعمق في فقه اللغة أو في الطرق العلمية ، بل كان مقصد هذا المعهد التطبيق الفعلي للغات في المناسبات السياسية بين النمسا والدولة العثمانية. وكان الطلاب يدرسون قليلاً من الشعر ويترجمون شيئاً من الأدب الفارسي كما نرى آثار هذه الأعمال الأدبية في مجموعة أهداها أعضاء الأكاديمية إلى الامبراطورة سنة ١٧٧٨.

وكان أحد طلبة المعهد المذكور يوسف هامر Joseph Hammer الذي مدحه العالم الكبير الألماني ي. ج. هردر J. G. Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) وهو أحد أصدقاء جويته وكان يحب الأدب الشرقي وإن لم يتعلم اللغات الشرقية ، وقال فيه : «ليت شعري أن تزهر كل الآمال التي تنتظرها من المشرق في آثار هذا الشاب ذي المواهب والالمام باللغات !»

توجد عناوين تصانيف هامر كلها في :

K. Goedeke, Grundriß der deutschen Literatur VII, 2, S. 747-770.

توجد ذكريات يوسف هامر في كتاب :

J. von Hammer-Purgstall, Erinnerungen aus meinem Leben. Bachofen-Echt, Wien 1940.

وفي اثناء اقامته في استانبول اهتم هامر اولاً بحكايات الف ليلة وليلة التي كان قد ترجمها جالان Galland الى الفرنسية في اوائل القرن الثامن عشر (ونشر هو ايضا فيما بعد ترجمة فرنسية لهذه الحكايات)؛ ثم اهتم بحكاية عنتر، وما جذب قلبه اكثر من ذلك هو اشعار الحافظ الشيرازي التي أنشدها له درويش ايراني. ومن ذلك الوقت عزم على ترجمة كاملة لديوان الحافظ واخذ باعدادها.

نقل هامر من استانبول الى مصر سنة ١٨٠٠ واقام بها لمدة عامين، ثم سافر الى انكلترا ورجع الى استانبول كاتباً للسفارة واشتغل هناك بالتأريخ والجغرافية وقام بتصميم «تأريخ الدولة العثمانية» الذي اصبح، بعد ثلاثين سنة، مؤلفه الأشهر. ولكن الحكومة النمساوية ارسلته بعد مدة الى ولاية مولدافيا عقاباً له على بعض الخلافات التي جرت بينه وبين امرائه، وعاد سريعاً الى فيينا حيث أسس بموافقة الكونت رزويسكي Rzewuski مجلة «معادن الشرق» Fundgruben des Orients؛ ثم عين مترجماً رسمياً للحكومة النمساوية سنة ١٨١١، وانعمت عليه الحكومة بمنصب مستشار البلاط سنة ١٨١٨. وما زال هامر يكتب كتاباً بعد كتاب، ومقالة بعد مقالة، وترجمة بعد ترجمة، وكلما زاد اجتهاداً زاد كذلك في عدم الاعتناء.. سعى هامر في تأسيس اكاديمية العلوم في فيينا ووفق في ذلك سنة ١٨٤٧ بعد ابحاث دامت ١١ سنة، وصار الرئيس الاول لهذه المؤسسة العلمية، ولم يبق في هذا المنصب الا عامين. وتوفي فجأة في سنة ١٨٥٦، وهو في الثالثة والثمانين من عمره، وكان يشغل حينئذ بتأريخ الادب العربي، وقيل ان سبب وفاته سكتة القلب لشدة الحزن الذي اصابه عند سماعه خبر قطع تبادل المخطوطات العربية بين المكتبتين في فيينا وباريس...

فما الذي يمتاز به هذا العالم العامل الذي انقسم العلماء عند الحكم فيه قسمين؛ فمنهم من مدحه غاية المدح، كما فعل ذلك كثير من زملائه النمساويين مدعين انه كان «فخر الغرب؛ الفاتح الكبير الروحاني للشرق، مشعل العلم ومنازته، قطب الاجيال القادمة...». ومنهم من نقده أشد النقد، مدعياً ان علمه بالعربية قليل وتفاهره وطموحه اكبر بكثير من تعمقه في العلوم. كان على رأس هذه الفئة الاخيرة الاستاذ فون ديتس von Diez، احد اصدقاء شاعرنا جوبته، والفرسالة خاصة في جهالة هامر وسوء اخلاقه، عيره فيها بانه «عديم المعرفة كلياً بجميع اللغات وبانه يجهل التعابير والمواضيع جهلاً لا سبيل الى التغلب عليه» واتهمه «بانه ذو اخلاق سفينة لاتوصف ووقاحة لاحد لها ولا



صورة يوسف فون هامر في سنة ١٨١٧.

ولد هامر في عين السنة التي توفي فيها الاستاذ الالماني للغة العربية رايסקه المقدم ذكره، اي سنة ١٧٧٤، في مدينة جراتس Graz في النمسا الجنوبية (وما أطلق عليه لقب الاصلة «فون هامر» الا بعد سنة ١٨١١، ثم اضا ف الى اسمه لقب «پورجستال» بانتسابه الى الكونتس پورجستال التي توفيت بدون اولاد وسمحت له بهذا الانتساب، فصار يوسف فون هامر-پورجستال Joseph von Hammer-Purgstall واشتهر بهذا الاسم). وكان والده مأمور الحكومة النمساوية، ولما وجد في ابنه استعداداً لتحصيل اللغات الشرقية ارسله الى المعهد الشرقي في فيينا حيث تعلم اللغات واشتغل في المكتبة لمدة عشر سنوات الى ان بعثت به الحكومة الى السفارة النمساوية في استانبول عام ١٧٩٩. وكان يتكلم التركية دون صعوبة ويجيد من العربية ما يكفي للمكاملة، أما الفارسية فكان يجيدها اجادة حسنة حتى انه حادث سفراء الشاه الايراني عند زيارتهم فيينا سنة ١٨١٩. وكانت علاقته بالادب والتاريخ اكبر منها بقواعد النحو، ومن عاداته انه كان يطالع القاموس بلا انقطاع ليتعلم كثيراً من الكلمات في اسرع وقت ممكن؛ وكان يظن ان هذه الطريقة لا بد منها لكل من اراد معرفة كاملة للغة ما. وكان هامر مشغولاً بالادب الشرقي، ولم يزل طول حياته يسعى في نشر حب الشرق في اوروبا كما انه الف في شبابه قصيدة في اهمية الاشتغال بالادب الشرقي.

Henri Doctor von Jobbi
als Merkmal
seiner Hochachtung
vom Verfasser

den 10 März 1842

أهداء بخط يوسف هامر.

والآن، ماهي هذه المؤلفات التي اشتهر بها هامر، وما هو الطريق الذي سلكه في اعماله العلمية والادبية؟
نشر هامر في اواخر حياته رسالة «في خواتم العرب والعجم واللاتراك» ذكر فيها ثلاثة خواتم له، مكتوب على احدها «عبد السباح السامر يوسف هامر» وظن انه في الحقيقة سامر، يحب المسامرة والحكايات الطويلة في اجتماع الرجال والشيوخ، ويشبه اثره الادبي من جانب مسامرة كثيرة المواضيع مزهرة الاسلوب، مزينة بآيات واشعار، ذاكرة للحوادث والامور ووقائع الدهور في دار الاسلام كلها، من التاريخ والفنون والتصوف والجغرافية وغيرها. وكان في اسلوبه - وخاصة في اواسط حياته - مقلدا لاسلوب الشرق المزين بالسجع والتلاعب بالكلم، كثير التشبيهات والرموز لأن المؤلف قصد مواصلة بين التذكر الشرقى والتفكير الغربى، بين الروح الشرقية والعقل الغربى؛ وكانت جمل اثاره مطرزة بانواع الاسلوب الخطابي حتى انه ليصعب على القارئ الغربى ادراك معناها البسيط...
لما رجع هامر من استانبول الى فينا سنة ١٨٠٧ ناشد صديقا له، الكونت رزويسكى Rzewuski (١٧٦٥-١٨٣٢) تأسيس «مجلة استشرافية» مشتملة على مقالات حول العلوم الشرقية واخبار عن احوال بلدان الشرق. ووفق في ذلك الاقتراح فسمى المجلة الجديدة «معادن الشرق»

نهاية...» ولا فائدة لهذه الكلمات الا في التعبير عن اخلاق الكاتب نفسه.
ولاشك ان هامر لم يكن عالما ببحثا معنى الكلمة، وان كان قد الف اكثر من ٧٥ كتابا، بعضها ضخم جدا، ومئات من المقالات والتراجم. ويندر ان نرى في تاريخ الاستشراق مثله: ذو افكار عالية وهمة جلية، وفي الوقت نفسه ذو غيرة وطموح شديد، الف من الآثار مالم يؤلف غيره قط، ومع ذلك فهو يفتقر الى الطريقة العلمية في البحث؛ وقد جمع من الكتب واطلع من الاشعار على ما لم يطلع عليه احد قبله وربما بعده، ومع ذلك فانه لم يبق من مؤلفاته ما هو معروف في تاريخ الاستشراق الا القليل؛ وقد حصل على معلومات يصعب على العالم العصري الحصول عليها، ولذلك لابد من مطالعة بعض مؤلفاته حتى الآن وان لم نجد في مئات الصفحات الاخبار او خبرين مهمين. ومع ان تأثيره في تاريخ الاستشراق العلمى قليل لايزيد على ما تثيره كتبه بين الفقهاء في اللغة لرد غلطاته، إلا ان تأثيره في تاريخ الادب الالماني عظيم، فقد صار استاذ الشاعر الكبير جويته كما تعلم من آثاره الشاعر المستشرق ريوكرت Rückert (١٧٨٨-١٨٦٦) والشاعر الطريف كونت بلاتن Graf Platen (١٧٩٦-١٨٣٥). وما اسعد من يسمى استازا ومعلما روحانيا لشعراء وطنه وادبائه!

Fundgruben des Orients مشيراً الى انها ستحتوى على ذهب المعلومات التاريخية القيمة وجواهر الادب، واختار شعاراً لها الآية القرآنية:

«قل لله المشرق والمغرب يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم».

نشرت هذه المجلة بين السنتين ١٨٠٩ و ١٨١٧، وكان هامر مديراً الفخرى وكان يؤلف مع ذلك نحو سدس المقالات بنفسه، ونفهم من المحاضرة التي القاها في ١ شباط ١٨٥٥ عندما نصب هيكله في الاكاديمية النمساوية انه افتخر بهذه المجلة وادارته لها اكثر من افتخاره بسائر تأليفه. وفي الواقع يجد القارئ فيها مقالات حول مسائل مختلفة ومواضيع ذات اهمية، مكتوبة باقلام المستشرقين المشهورين في اوربا كلها، ومنهم العالم الشهير الفرنسي سيلفستر ده ساسي Sylvestre de Sacy الذي يعتبر الى الآن مؤسس الاستشراق العلمى وفقه اللغة العربية في الغرب وهو استاذ اجيال من البعث في القرن التاسع عشر؛ كتب في «معادن الشرق» مقالة عن الكتاب الفارسي المعروف ببندهنام (كتاب النصيحة) لفريد الدين عطار الشاعر المتصوف (المتوفى عام ١٢٢٠ عند هجوم اجناد جنكز خان على مدينة نيشابور). نجد ايضا للعلامة الفرنسي ترجمة لقصيدة الأعشاء المشهورة «ودع هريرة». اما زملاء سيلفستر ده ساسي الفرنسيون فألف كاترمير Quatremère المؤرخ الواسع الصيت مقالات في مسائل تاريخ الاسلام، ونشر جرانجره ده لاجرانج Grangeret de Lagrange متونا وتراجم لاشعار الصفدى والمتنى وايضا لمقامة من مقامات الحريري. وهناك مقالة عالم اسباني اسمه ي.ا. كوندده Conde عن ابن خلدون وفلسفته، ومن الطبيعي ان عدد المستشرقين النمساويين في هذه المجلة فاق عدد غيرهم، ونشر هناك شاب ذو موهبة شاعرية وهو روزنتسوايج - شوانساو Rosenzweig-Schwannau (١٧٩١-١٨٦٥) لأول مرة ترجمة منظومة لبعض ابواب الاقصوصة المشهورة «يوسف وزليخا» للشاعر الفارسي مولانا عبدالرحمن جامي (المتوفى سنة ١٤٩٥) وصار هذا المستشرق فيما بعد من اشهر مترجمي الادب الفارسي في اوربا. وقد ود هذا النسل الرومانتيكي من المستشرقين الترجمة الشعرية للآداب الشرقية حتى وان لم يفهموا معنى الشعر العربي والفارسي بتمامه اوقصروا عن تحليله على قواعد النحو.

وعدا التراجم والمقالات عن مسائل الادب جمع هامر في «معادن الشرق» معلومات تاريخية، مثلاً عن حياة البخارى كما وصفها ابن خلكان في وفيات الاعيان، او عن اساء

النجوم عند العرب للمتخصص في هذا المضمار، الاستاذ ايدر Ideler الذي كان قد الف في مجلة هامر مقالة اخرى في طرق تأريخ العرب والعجم وتقاويمهم فأصبحت المجلة ميدان مشترك للمستشرقين من المانيا وروسيا، من فرنسا واسكندنيا؛ ولم يكتف هامر بنشر مقالات علمية فحسب بل زاد عليها ما ساه «مكاتبة من الشرق» وهي مشتملة على رسائل من علماء وبخاتين اوروبيين يسافرون في الشرق منهم اولرش ياسر سيتسن U.J. Seetzen الذي عاش في مصر وقام بالحج في زى ثم سافر الى اليمن للحصول على معلومات علمية عن تأريخ اليمن القديم وقتل هناك؛ وارسل بعض اعضاء السفارات الاوروبية في سوريا والعراق باخبار مهمة سواء عن حركة الوهابية ام عن بعض الحفريات في بابل، عن تربية الخيول العربية ام عن مخطوطات عثروا عليها. وكان هامر يترجم ايضا مقالات واشعار وتوقيعات صادرة من ملوك العرب والعجم في ايامه، وجلب دقة المستشرقين الى محمولات اقلام الادباء المعاصرين في الشرق الادنى، كما قال الاستاذ فيوك في كتابه عن تاريخ الاستشراق في اوربا:

«علق هامر على هذه المراسلة اهمية كبرى خاصة لأنه لم يكن قد تعرف من قبل على وجهة النظر في علم التاريخ التي لا ترى الا في ما مضى موضوعاً يليق بالبحث الجدى. وكانت نظرتة هو الى حياة الشرق الغزيرة نظرة شاملة تأخذ بعين الاعتبار جميع الحوادث من العصور الغابرة حتى حاضر زمانه، ولم يكن يتردد في الاستماع الى آراء معاصريه الشرقيين».

ولم يدخل هامر في هذه المجلة علم اللاهوت ولا الابحاث اللاهوتية واقتصر على اللغات الثلاث المهمة في بلاد الاسلام وهي العربية والفارسية والتركية الا انه ذكر شيئاً من الادب الهندوستاني، ولكنه لم يجب الفلسفة الهندية التي كانت رائجة في ذلك الوقت عند الفلاسفة الالمان الذين كانوا يعتبرونها اشرف فلسفة واعلى افادة لاشتياق الروح الانسانية، ويعتبرون الهندوستان وطناً لكل ماهو جميل وجليل، فهجا هامر هذه الطائفة احياناً في رسائله.

وكان شاعرنا الكبير جويته يستفيد كثيراً من «معادن الشرق» وذكرها في حواشي ديوانه الغربى - الشرقى شاكرامديرها وهو يقول:

«إن كتيبى في جميع فصوله يبرهن الى اى حد انا مدين لهذا الرجل المبجل... كان قد وصل الى علمى منذ بضع سنوات نشاط حركة العمل المتزايد في «معادن الشرق». ولكن الوقت قد حان الآن فقط الذى اهلى للحصول على

فوائد منها. إن هذه المجلة اشارت الى عدة جهات فقد اظهرت للعصر احتياجاته فأصر بتسديد هذه الاحتياجات وجعلني اومن بصدق اختباراتي من اننا نحصل في كل موضوع على مساعدة قيمة من معاصرنا إذا استطعنا ان نستفيد من فضائلهم ونظهر لهم شكرنا وامتناننا. هناك رجال ذوو معرفة واسعة يلقوننا دروسا عن الماضي ويوضحون لنا الموقف الذي وصلنا اليه في حاضرتنا والذي يكون مسرح اعمالنا ويومئون الى الأمام مشيرين الى الطريق الاقرب الذي يجب علينا ان نسلكه. انه لمن حسن الحظ ان التصنيف البارع المذكور يجد تتمته بالمجهود ذاته ومع اننا نجري بحثنا في هذا المضمار ناظرين الى الخلف فأنا نرجع دائما وبكل سرور وعطف الى كل ما يقدم لنا هنا من جميع الجهات بشكل منعش يانع ومفيد».

وبعد ذلك اشترك هامر ايضا بمنتهى النشاط في تحرير مجلة اخرى اسمها Wiener Jahrbücher für Literatur نشر في كل من مجلداتها المائة والخمس والعشرين مقالة أو نقدا او أكثر من ذلك، وكتب «مقالات في كل ما كان يثير الاهتمام في مضمار الادب العربي والفارسي والتركي والصيني والسنسكريتي والف تقييمات ومراجعات بجميع كتب السياحة التي كانت تحتوي على اخبار مغلستان وآسيا ومصر وسوريا مما ألف في هذا القرن وما كتب بوجه عام عن الهندوستان وكشمير وافغانستان» وفضلا عن هذه الرسائل في الكتب الجديدة التي يطول بعضها الى الغاية نشر هامر في هذه المجلة ملاحظات واسعة في كتب شرقية، او في مقارنة كلمات فارسية والمانية، او ترجمة مديح بعثت به الحكومة العثمانية اليه، وما يشبه ذلك.

وان كان جويته قد مدح «معادن الشرق» فهو قد استحسن ايضا اقصوصة لهامر نشرت سنة ١٨٠٩ استنادا الى مصادر فارسية وتركية وهي حكاية «فرهاد وشيرين» التي نظم فيها شعراء العجم اشعار غير معدودة.

اما الكتاب الذي خلد اسم هامر وتوج اعماله في حيز الادب الشرقي فهو ترجمته الألمانية لديوان الحافظ الشيرازي، وقد مضى ذكر اطلاعه الاول على اشعار هذا الشاعر العظيم في اثناء اقامته في القسطنطينية. وترجم هذا الكتاب مستفيدا من حواشي السودي التركي الذي يعتبر احسن شارح لاشعار الحافظ وكل الطبع بعد اجتهاد اربع عشرة سنة (وقال في مقدمة الكتاب انه اتمه في «مرقي سبع سنوات» لانه احب رقم السبعة واللعب بالارقام حتى انه ألف مقالة في المجلة الادبية المذكورة في اهمية السبعة عند اهل الغرب

والشرق ولاشك ان موضوع «الرقم المقدس» مهم جدا في تأريخ الاديان)

ولم تكن ترجمة هامر للحافظ اول ترجمة لهذا الشاعر في لسان غربي وان كانت الترجمة الاولى التامة. فقد نشر مينيسكي النمساوي سنة ١٦٨٠ غزلا للحافظ مع ترجمته اللاتينية، وكذلك هايد Hyde الانكليزي سنة ١٧٦٨، وترجم العالم النمساوي رويسكي ١٦ غزلا له الى اللاتينية عام ١٧٧١، ولفت المستشرق الكبير الانكليزي و. جونز W. Jones اهتمام اهل الغرب الى هذه الاشعار في كتابه المسمى Poeseos asiaticae commentarium libri sex الذي نشر في ١٧٧٨، واستنادا الى اشغال جونز الذي كان حاكما في كالكوها طبع ديوان الحافظ في هذه المدينة سنة ١٧٩١ وهو من اول الكتب التي اهتم الانكليز بطبعها في الهند.

اما المستشرقون النمساويون فاستندوا الى التقاليد العثمانية في شرح الحافظ وسائر الشعراء الايرانيين ولم يظن هامر الحافظ «متصوفا كاملا» لا يغني الا عن العشق الالهي مستعملا رموز العشق المجازي. وقال مشيرا الى القاب الشاعر «شمس الدين» و «لسان الغيب»:

«إنه لم يكن هاديا مضيئا للدين، ولم يترجم لسانه الا كلمات الشهوة، لا اسرار العشق الالهي». واصر على رأيه هذا بيدان رئيس المستشرقين سيلفستر ده ساسي الفرنسي كان قد قبل الحافظ متصوفا بحثا كل كلامه اشارات ورموز. اما جويته فألف بين الرؤيا بين المتضادين لانه كان يعرف ان لكل كلمة معنى رمزيا يشير الى حقيقة اعلى منها ولا يمكن التفريق بين العشق المجازي والعشق الحقيقي، او بين الشراب المادى والخمر المعنوية في اشعار هذا الشاعر كما قيل «المجاز قنطرة الحقيقة» وفهم جويته هذه الوحدة الروحانية بين المعنيين وان كان يميل الى ايضاحات هامر دون تفسيره ساسي والمتصوفين.

وكانت ترجمة هامر في شكل منظوم غير مصقول ومع انها لا تعكس الظرافة واللطافة اللتين امتازت بهما غزليات الحافظ إلا اننا نعتقد انها احسن من بعض التراجم الشعرية التي نشرت فيما بعد تحت اسم الشاعر الفارسي بأقلام شعراء المان لاعلم لهم باللغة الفارسية ولا معرفة بطرز الادب الشرقي على الإطلاق اتخذوا منه افادات العشق والشهوة واللهو ومدح الخمر فقط. ولما حصل جويته على ترجمة هامر قرأها مراراً ووجد في الحافظ «اخا روحانيا» له والهمه هذا الكتاب بتأليف ديوانه الغربي - الشرقي الذي يشتمل على كثير من الافكار الشرقية. وأفاد ريوكرت Rückert

الادب الالماني اخذ في ترجمة ديوان المتنبي الذي اعتبره الشاعر الاكبر للعرب، ونشر هذا الكتاب بعد ديوان الحافظ بسنوات عشر راجيا منه عين النتيجة الحسنة وقال: «نعم المترجم إذا اصاب نجاحا وتمكن بواسطة عمله (كما توفى هو بواسطة ترجمته لأشعار الحافظ الفارسي) أن يؤثر على الشعراء الالمان مثل جويته وريوكرت وبلاتن ان يتابعوا توطين الشعر العربي الذي ارتدى حلة المانية...» ولكنه لم يوفق في هذه الترجمة، ولم يقبلها العلماء حسن القبول لكثرة اخطائها، ولم يشتغل الشعراء بها لخلوها من الجمال الشعري وحشوها بعبارات صعبة الفهم على غير المتخصصين، بيد ان بعض اصدقاء المؤلف مدح الكتاب غاية المدح رغم انه لم يبق له اى اثر في العلم او في الادب الالماني.

ومع ذلك لم يزل هامر يقوم بتراجم جديدة، فنشر (بعد ان ترجم اقصوصة «كل وبلبل، لفصلى التركى») سنة ١٨٢٥ ترجمة ديوان باقى الشاعر المشهور التركى (المتوفى عام ١٦١٠ فى استانبول) ولاشك ان هامر اجاد فى معرفته للغة التركية وكان اكثر انسائها منه بالعربية، ولكن اسلوب الشعراء الاتراك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يمتاز بمشكلاته حتى انه يصعب فهمه وحل رموزه على الاتراك انفسهم. وقال هامر فى مقدمته لهذه الترجمة انه بعد ان طوى منطقة البروج فى سماء الادب التركى وجد هذا الشاعر القطب الاعلى والكوكب الازهى، مع انه لا ينكر ان القارئ الغربى قد يستغرب المبالغات الموجودة فى اشعار «باقى» والتلاعب بالالفاظ المتشابكة فى هذه الصنعة.

بعد ان تناول معاصرو هامر «ازهار الجنة وثمارها هذه من المشرق» (كذا وصف بعضهم هذا الكتاب) اشتغل المستشرق الذى لم تأخذه كيلولة ولا كسالة بترجمة الشعر المتصوف الفارسي «كلشن راز» للشبستري (المتوفى سنة ١٤١٧) احد ممثلى افكار ابن عربى فى ايران. ولم يكن بالوسع فى ذلك الزمن تحقيق ترجمة صحيحة لآثار المتصوفة لان المنايع المهمة لتأريخ هذه الحركة الروحانية والرسائل القديمة الموثوقة كانت لا تزال مجهولة الى حد بعيد. ولذلك حكم ايضا بالفشل على ترجمة اخرى نشرها هامر فى حيز التصوف وهى ترجمة منظومة (١) للتائية الكبرى لابن الفارض التى طبعت مع متنها العربى فى ابهى شكل سنة ١٨٥٤ بمناسبة العيد المئوى للمعهد الشرقى فى فيينا. فقال ه. ل. فلايشر H. L. Fleischer وهو اشهر المستشرقين فى اوروبا بعد وفاة استاذة ده ساسى فى هذا التأليف واصفا اياه بكل احتياط:

١٨
١ اعود برب الناس ملك الناس الى الناس
من تر الراسوس انحناس الذي يوسوس فى صدره
الناس من انحناسه والناس
٢ اللهم انى اعود بك من تر مايلج فى الليل
من تر مايلج فى النهار من تر ماذهب به الريح
٣ اعود بوجهك الكريم وكلماتك الثابتة من
تر ما انت تافه بناهية
٤ اعود بكلمات الله الثابتات التى لا محاذير
من تر ما فاجر من تر ما نزل من السماء والارض
من تر فى الليل والنهار
٥ انى اعود بك من تر الالهة
الالهة صفال الالهة وعبدة الالهة والالهة
التمت
٦ اعود بك من تر كل بهار عنيد وشيطان
من تر كل ضعيف من خلقك وشديد من
تر الشامة والكهانة والامانة والكهانة من

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٢.

الشاعر المستشرق الكبير عن استفادة جويته من ترجمة هامر لديوان الحافظ قائلا للعالم النمساوى: «ان اكتاركهم من التأليف يجعلكم لا تتمكنون من تذكر كل ما كتبتم. فلعكم لم تدركوا عند مطالعة كتاب جويته كم من السطور والمصاريح قد اقتبسها هذا الشيخ عن كتابكم «الحافظ» كلمة بكلمة...»

اما هامر فلم يعجبه طريقة جويته فى تغريبه للحافظ وطعن على الشاعر لاجل اشعاره الجديدة فى الطرز الغربى - الشرقى، وفضل على ديوان جويته الاشعار التى غناها شاعران المانيان اخوان، احدهما ريوكرت المذكور واخرهما الكونت بلاتن، لان ريوكرت العبقري حفظ الاسلوب الشرقى بتمامه حتى انه كان يطبق لأول مرة فى تأريخ الادب الالماني شكل الغزل فقلده صديقه بلاتن فى هذا الاسلوب البديع وعرفا بذلك عامة القراء فى المانيا على اسم الحافظ الشيرازى والاسلوب الشعري الشرقى. وعندما رأى هامر ثمار ترجمته هذه للشاعر الفارسي فى

Die vierte Tageszeit.

Der Mittag.

Die Dufucht.

Ich flüchte zu Gott!

Weltrauchopfer.

1. Ich flüchte mich zu dem Herrn der Menschen, zu dem König der Menschen, zu dem Gott der Menschen vor dem Bösen des Einflüsterers, des Seelenverführers, der verwirrt die Brust der Menschen, ich flüchte mich vor dem Bösen der Genien und der Menschen.

2. O mein Gott! ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen, womit die Nächte schwanger gehen, vor dem Bösen der Tageswehen, vor dem Bösen, das die Winde herwehen.

3. Ich flüchte mich zu Deinem Angesichte, dem gnädigen, zu Deinen Worten, den vollkommenen, vor dem Bösen, das Du bei den Stienenhaaren fassst.

4. Ich flüchte mich zu den Worten Gottes den vollkommenen, wider die der Gerechte und der Lasterhafte Nichts vermag, vor dem Bösen, das niedersteigt von Himmel und Erden, vor dem Bösen der Unruhen bei Nacht und Tag.

5. Ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen der

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٣.

نحن تاريخ الشعر الفارسي ... حقا ان لدينا الآن اساسا يستطيع ان تبني عليه الآداب الفارسية بصورة بارعة واضحة وشاملة ...»

كان كتاب هامر هذا اجابة لرغبة العلماء الادباء الالمان في ادراك مقاصد الفنون الجميلة والآداب في العالم بأسره يجعلوها أساساً للثقافة الأوروبية الجديدة، فكانت الحركة الرومانتيكية (في حوالى سنة ١٨٠٠) في المانيا وسائر بلدان الغرب قد ايقظت الميل الى حضارة الشرق والرغبة في التعمق في درس هذه الحضارات القديمة الفنية، اى حضارة «المشرق الاكبر» المعتبر اذ ذاك موطن الثقافة ومنبت الاديان ومنبع كل ما هو كبير وجميل في تاريخ بني البشر. واذا بهامر يقدم لمواطنيه منتخبات من ادب هذا «الشرق الاسطوري» ورسم لهم ما يشبه رسماً تخطيطياً لتطور الادب الفارسي من ابتدائه الى القرن السابع عشر. وكان حب الالمان للايرانيين حديثاً في ذلك الوقت لان علماء اللغة قد اطلعوا على تجانس اللغتين الالمانية والفارسية ولاشك ان

«اننا لانرى في هذه الترجمة الملحقة الا طلائع فجر لا يكتفى لأكثر من ايضاح المعالم العامة والمقاييس الكبرى للعبة الصوفية المحيرة، بينما لايزال قسم كبير من التفاصيل غارقاً في حجب الغسق او في غياهب الظلام الدامس: ومع ذلك فان من تمنحه السماء في العقد التاسع من حياته المتوجة بالشهرة القوة على اختراق عالم الظلمات بحثاً وراء منابع الحياة كالاسكندر الشاب، فانه يستحق ان ينال على جراته الطليعية، دون ان تمس حقوق العلم، الاعتبار والتقدير حتى وإن لم يأخذ الخضر بيده ويوصله الى هدفه...»

اما العالم الانكليزي ر. ا. نيكولسون R. A. Nicholson الاخصائى الكبير في الابحاث عن التصوف فعبّر سنة ١٩٢٣ عن هذه الترجمة قائلاً بايجاز: «لقد كان من سوء حظ تائية ابن الفارض أن يكون هامر مترجماً لها»

وقال هذا المؤلف نفسه في طريقة هامر في الترجمة الشعرية للقصائد العربية أنها ما كانت الا عبارة عن اقتباس كلمتين او ثلاثة من كل بيت وحشو الباقي بالمعاني التي تخطر في باله في تلك اللحظة... وتشبه افادة نيكولسون هذه النقد الذى كان قد نشره العلامة فلايشر السابق ذكره عندما نشر المستشرق النمساوى ترجمته لاطواق الذهب للزخشرى في مستهل سنة ١٨٣٥ فنشر فلايشر في عين السنة تصحيحاً لهذا الكتاب مع ترجمة جديدة ناقداً فيها بلا تردد اخطاء هامر وهفواته، وظن هامر ان هذا النقد الشديد من نتائج ظلم فلايشر وقسوته وان مقصده «الاساءة الى المترجم» فقط: ولذلك لم يزل يقاتل العالم المتبحر الالماني بالقلم وهجاء في ترجمة رباعى للشاعر التركى «نجمى» في القصاب لان معنى اسم «فلايشر» هو «قصاب» ويصفه في هذا الشعر في لباس قصاب ظالم قاتل يقوم بجرح كل من دناء ويسفك دماؤه...

لم يكتف هامر بترجمة دواوين الشعراء المشهورين فحسب بل كان هدفه الاعلى ان يعرض الادب الشرقى بكامله لاهل اوربا. ولذلك جمع ما جمع من المعلومات واستخلص منها الاخبار المهمة عن تاريخ الادب الاسلامى فألف فيه كتباً ورسائل؛ واحسن ما صنف في هذا المضمار هو تاريخ الادب الفارسي Geschichte der schönen Redekünste Persiens الذى نشر سنة ١٨١٨، واهداه للاستاذ الكبير في حيز الاستشراق، سيلفستر ده ساسى. واستفاد جويته من هذا المؤلف واعترف بقيمته قائلاً:

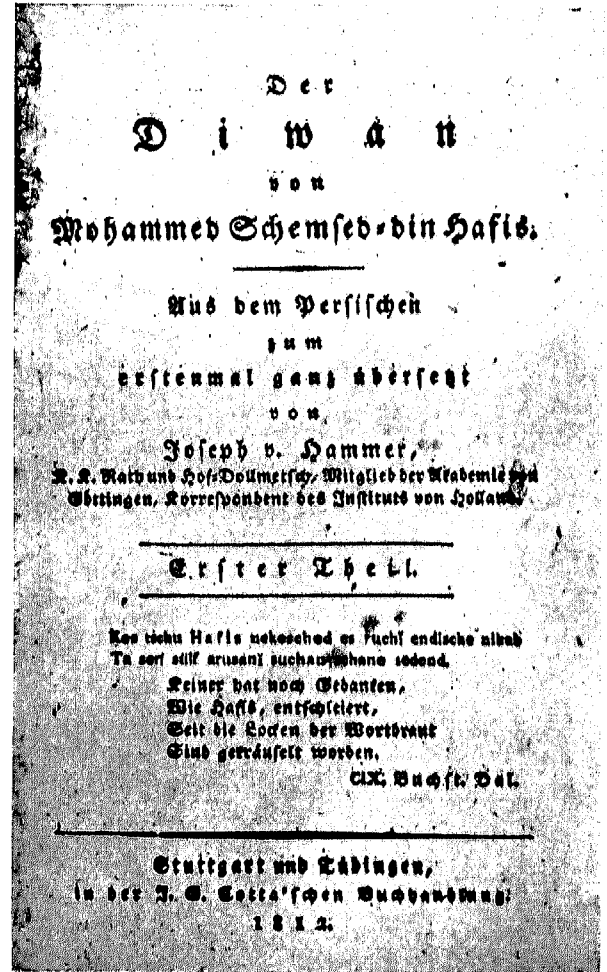
«... هذا التصنيف الذى ليس له مثيل، الذى ينقل الينا

مولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣). ثم في القرن الرابع عشر نرى الحافظ الشيرازي (المتوفى تقريبا سنة ١٣٨٩) الذي لا كفو له في صنعة الغزل وفي ظرافة الافادة وحسن البلاغة. اما في القرن الخامس عشر فقد جمع مولانا عبدالرحمن جامي (المتوفى عام ١٤٩٥) في آثاره كل ما سبق من الفنون، اقصوصة كانت ام غزلا، حكاية كانت ام شعراً متصوفاً. وترجم هاجر منابعه الفارسية بلا نقد، كما عثر عليها، وترجم ايضا كثيرا من ابيات هؤلاء الشعراء، ورغم بعض اخطائه فان هذا الكتاب مازال يحتفظ بقيمته الى الآن لان هاجر اوضح في مقدمته اسلوب الشعر الفارسي واهم التعبيرات والرموز والالامعات التي يستعملها الشعراء والتي لا بد من درسها لمن اراد فهم الادب الشرقي.

وبعد ان نشر هاجر هذا التأريخ بعشرين سنة، قام بتأريخ الشعر العثماني باربعة مجلدات، تشتمل على اسماء ٢٢٠٠ شاعر ! ولا عجب ان العالم الذي أبى على نفسه التعب والعجز التي سنة ١٨٤٩ اثني عشرة محاضرة بن فيها تطور الادب العربي ونشر متن هذه المحاضرات في رسالة له، ونستدل من اسلوب بيانه انه الآن قد هجر الايرانيين واخذ يفضل عليهم العرب كل تفضيل. قال:

«ان الايراني لم يخلق صوت الطبيعة لأنه مملأ فاه باللؤلؤ واوراق الورد بينما تتمكن الطبيعة من قلب الشاعر العربي مرسله من اعماق صدره صدى يدوي في افلال الصحراء». ولما توفي هاجر سنة ١٨٥٦ كان قد اكمل سبعة مجلدات ضخمة جدا لتاريخ الادب العربي الذي قصد منه جمع كل المعلومات التي كان العرب قد جمعوها عن آدابهم. ومما يبعث على الاسف انه لا يستطيع احد الآن مطالعة هذه المؤلفات الهائلة لأنها تفتقد الى الترتيب، ومما زاد في صعوبة الفهم ان هاجر على عادته ترجم الابيات باجمعها نظماً، وان اعجبنا اجتهاد المؤلف الذي قد فاق الثمانين من عمره فلا يمكننا ان نعرف لهذا التأريخ الادبي قيمة علمية او شعرية...

وكان هاجر طول حياته يرغب في اعداد مجموعات شعرية من تأليف الشعراء الشرقيين، وكان قد ابتدأ بهذا الطرز في رسالته المقدم ذكرها «شيرين» التي يحكي فيها اسطورة الملكة شيرين وعشق فرهاد البناء، استناداً الى اشعار شتي فارسية وتركية. ومثال اخر هو المجموعة المسماة بعطر الورد (Rosenöl) وهي مشتملة على حكايات واخبار من بلاد الاسلام، وزد على هذا منتخبات من القاموس الفارسي «فرهنگ شعوري» تحت عنوان «اطواق الجواهر لابي



عنوان لترجمة ديوان حافظ الشيرازي، ليوسف فون هاجر. شتوتجارت سنة ١٨١٢.

هذه المناسبة ايقظت اهتمام الناطقين بالالمانية بتاريخ اقربائهم البعيدين.

اما «تاريخ الادب الفارسي» لهاجر فهو، كما قال المؤلف، «ثمرة مطالعة خمسين مثنويا وديوانا ذات اكثر من مليون بيت». قسم الكتاب سبعة فصول مبتدئا من زمان فردوسي الطوسي (المتوفى حوالي سنة ١٠٢٠) الاستاذ الاول للنظم الفارسي، وعدد هاجر الشعراء السبعة الكبار الذين وجدهم في هذه القرون، وهم فردوسي، ثم انوري (المتوفى سنة ١١٧٠) الذي اشتهر بالقصيدة المدحية، وعن الزمان نظامي (المتوفى عام ١٢٠٩) الذي بلغ نهاية الجمال في اقاصيصه الشعرية الرومانتيكية التي قلدها في العصور القادمة شعراء عديدون في ايران وتركيا والهندوستان. وفي القرن الثالث عشر نجد سعدى الشيرازي (المتوفى سنة ١٢٩٢)، مؤلف اشعار وحكايات مليحة، منها «كلستان» المشهور، وكان معاصره المتصوف الاكبر



عن كتاب هامر: تاريخ الاداب الايرانية، نشر فيه لأول مرة النوتة الموسيقية لمقطوعة غزل لحافظ الشيرازي.

سبع قصائد تعبر السبعة الاولى عن فضائل الدين الايراني القديم، إذ كان هامر يظن ان افكار الدين الزردشتي وقوانينه الاخلاقية كانت قابلة للتقليد في الادب الالماني بيد ان هذه الديانة والحضارة الايرانية القديمة كادت ان تكون مجهولة في اوربا في ذلك العصر. وعبرت قصائد هامر «العربية» عن طبيعة مصر وفيها يجذب الشاعر نظر القارئ وينقله من ظواهر الطبيعة الى بواطن الروح الانسانية. اما في القسم الثالث فانه يتبدى باشعار منسوبة الى يوم الجمعة وفيه مجموعة من امثال تركية. - ومما يشبه هذا الكتاب رسالة اخرى اسمها «حباب العطر» Duft- körner، مقصدها «صهر حرارة الشرق بتألق الغرب،

المعالي» Juwelenschnüre Abu'l-Maâlis، ولكنه لم ينل من المديح لهذا الكتاب ما كان يرجوه. ونجد بعد ذلك خلاصة للاقصوصة الفارسية الشعرية «وامق وعذراء» القديمة (سنة ١٨٣٣) كما الف في ذكرى زوجته المرحومة عام ١٨٤٤ مجموعة جميلة من الادعية العربية مع ترجمتها الالمانية اسمها «ميفات الصلاة».

ومع ان هذه الترجمات والمجموعات وتواريخ الادب الاسلامي شغلت هامر لسنوات فقد اغتم الفرصة ايضا لتأليف كتب شعرية ملهمة عن روح الشرق. فألف سنة ١٨١٨ رسالة سماها «البرسم الشرقي» تحتوي على «اناشيد فارسية وندبات عربية ومدائح تركية» وفي كل من الاقسام الثلاثة توجد

حركة العقل براحة القلب» (سنة ١٨٣٦). نحتّم هامر هذه المجموعة بقصيدتي «الرجل الشيخ عند مولده الخمسين» و «الشيخ في الثالثة والستين» جامعاً فيها اقوال الشعراء في الشيخوخة ووصفهم للعجز وشكائهم منه.

ولم يتورع هامر عن ولوج حقل التمثيل المسرحي، وأول موضوع وجده لائقاً للمسرح الالماني هو «جعفر او سقوط البرامكة» (كتب سنة ١٨٠٧، وطبع في عام ١٨١٣) وكان لتأريخ البرامكة شهرة خاصة في أوروبا منذ اوائل القرن الثامن عشر وقد كان الف بعض المؤلفين مأس في قضاء جعفر وعباسة، اخت هارون الرشيد (منهم م. كلينجر M. Klinger سنة ١٧٨٢)؛ ولما تناهت اخبار المسرحية المذكورة الى مسامع جويته رغب في تدقيق اثر هامر هذا وكان قد قال لصديق لها قبل ذلك:

«اني اتلّف لمشاهدة «البرامكة»، وليست هذه هي المرة الاولى التي تتملك فيها شعور المرء حالة استثنائية فرى نفسه مضطراً لان يعبر عن هذه الحالة المعقدة والغامضة بأسلوب التمثيلية او المسرحية. فاذا نظرنا الى هذا العمل بأكمله من هذه الوجهة الاخيرة ظهر لنا انه عمل بدون جدوى، ومع ذلك فان الرجل قد نقل إلينا شيئاً لم يستطع التعبير عنه بالاسلوب القصصي او بالاسلوب الاحاديث واني لا بد مخطيء خطأ كبيراً اذا لم تكن لهذه المسرحية قيمة لا بأس بها من هذه الناحية...»

خيل لهامر تصنيف كثير من المآسي الشرقية ولكنه لم ينشر منها الا واحدة بعد نشر «جعفر» وهي «محمد او محاصرة مكة» (١٨٢٣). اراد المؤلف منها الرد على المأساة المشهورة للفيلسوف الفرنسي فولتر (١٦٩٤-١٧٧٤) Voltaire الذي كان قد صور محمدا الرسول في شكل خائن منافق تابعا للتقاليد الغربية القديمة وهادما من وراء تلك المسرحية الهجوم على الاديان باجمعها لا على الاسلام وحده. اما هامر فحاول في هذه المسرحية الدفاع عن محمد ونواياه وان لم يوفق من اللحاظ الفني الجمالي.

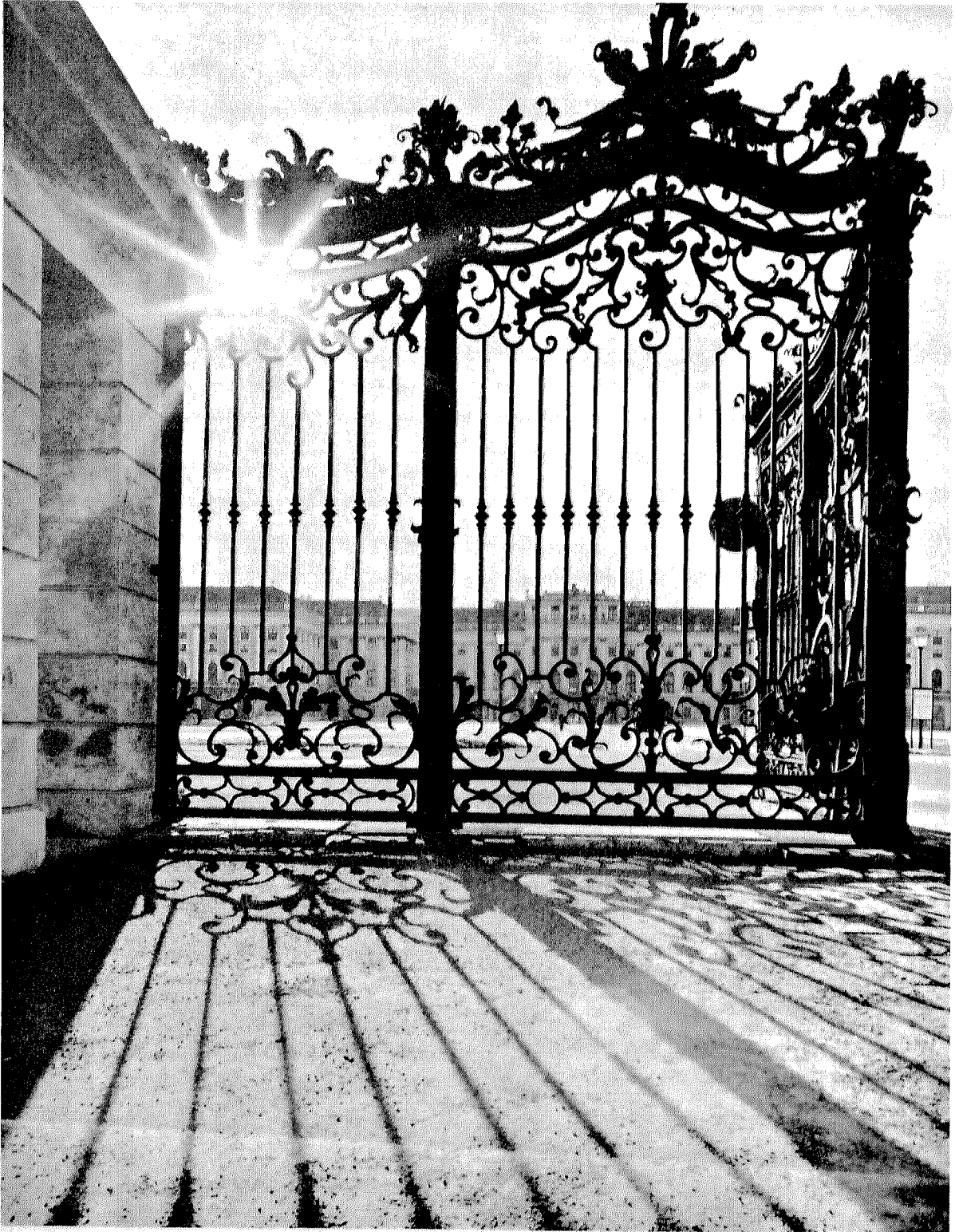
وفضلا عن هاتين المآسيتين نجد هامر يكتب (وذلك ايضا في عام ١٨٢٣) ثلاث مسرحيات خفيفة، مواضيعها مأخوذة من الادب الهندي والفارسي والتركي (Memmons Dreiklang).

ولكي يتحقق هدفه في عقد الصلة بين الشرق والغرب لم يكتب هامر بترجمة اشعار شرقية الى الالمانية بل قام ايضا بترجمة افكار الامبراطور الروماني ماركوس اوريليوس (المتوفى سنة ١٨٠) الى الفارسية ليستفيد اهل الشرق من نموذج من الحكمة الغربية (سنة ١٨٣١).

وان كان القارئ الصابر قد تابع تعداد آثار هامر الادبية الى الحد الذي وصلنا اليه فلا شك ان تأخذه الحيرة تجاه هذا الجلد وهذا الاجتهاد، ولعله يظن ان هذا الانتاج سيكون حياة رجل بل بضعة رجال. ولكنه سيزداد دهشة وتعجبا اذا داوم على متابعة فعالية هامر في سائر ميادين العلم؛ لان العالم النمساوي كان مشغولاً بالاداب الشرقية فحسب بل بتأريخ الشرق على العموم، وقد نشر مؤلفاته الاولى في هذا المضمار عند اقامته في استانبول حيث حصل على كثير من الوثائق المفيدة لتأريخ الدولة العثمانية، والف نتيجة لذلك التحصيل كتابا عن دستور الدولة العثمانية وسياستها Des Osmanischen Reiches Staatsverfassung سنة ١٨١٦. وبعد ذلك بسنتين، في ١٨١٨ نجده ينشر «تاريخ الحشاشين» الذي اهداه للمؤرخ الشهري. فون ميولر J. von Müller الذي لفت انتباهه الى مسائل تاريخية عندما كان هامر في عنفوان الشباب. وظن هامر ان تأريخ الحشاشين «سيفتح بابا الى معادن التأريخ الاسلامي المجهولة». ولكن القارئ العصري لا يرى فيه الا تجربة ضعيفة لا يوضح وقائع كثيرة التشاكل لم يمكن في ذلك الزمن ايضاحها لنقصان المتابع وقحط البحت وعدم توفر الوسائل العلمية. وهامر محق في وصفه وضعية المؤرخ الباحث عن اي موضوع في تأريخ الاسلام حيث يقول:

«إن المؤرخ ليشاهد امام ناظره سطوة ممالك الدنيا العظيمة وقد انصبت اشعتها في نقطة واحدة الى جانب قوة كل من الدول المتعددة وقد توزعت في الف شعاع، وانه ليرى السير الاسطورية لأقدم الممالك الى جانب ادق التواريخ، لاحدثها، كما يبدو امامه عهد الجاهلية قبل بعث الرسول، وايام المعرفة والهداية بعده، كل ذلك الى جانب معجزات الفرس، وبطولات العرب، وروح المغول المدمرة التي اجتاحت اطراف العالم، وحكمة العثمانيين في اقامة دولتهم وتدعيمها...»

ولما كان هامر طالبا في المعهد الشرقي أخذ بمطالعة «كشف الظنون» لحاجي خليفة الاديب التركي (المتوفى ١٦٥٧) وكرر مطالعة هذا الكتاب مرارا ثم اضاف على المعلومات التي حصلها من الكاتب التركي المتبحر ما جمعه من الوثائق الرسمية والمخطوطات فكتب «تاريخ الدولة العثمانية» وهو عشرة مجلدات، ولكنه صنف ايضا خلاصة ذات اربعة مجلدات لهذا التأليف العظيم الذي مازال ذا قيمة واهمية الى الآن لانه يحتوي على اخبار لا توجد في مؤلفات اخرى بيد ان اسلوبه صعب جدا، كثير التشبيهات يشبه اسلوب المؤرخين العثمانيين. ومع ذلك فقد بدى في



فيينا: الحوش الكبير لقصر شونبرون Schönbrunn (المبنى بين عامي ١٦٩٤ و ١٧٧٥). تصوير: هاينس برناتسيك، ووكارا بروك، نمسا.

المانيا بطبع واصدار جديد لهذا التأريخ سنة ١٩٦٣. وفي الفترة نفسها جمع هامر سير الخلفاء والامراء والملوك الكبار ونشر خمسين منها في «ايوان الصور لحكام المسلمين الكبار في القرون السبعة الاولى للهجرة» Gemäldesaal يعالج فيه مفصلا سير الملوك المشهورين في بلاد الاسلام، مبتدئا بسيرة الرسول الى ان ختم كتابه (وهو ٢ مجلدات، نشر بين العامين ١٨٣٧ و ١٨٣٩) بسيرة قلاوون المصري.

ولكنه كف عن معالجة تاريخ الاسلام باسره معترفا «ان عروق الذهب والكنوز الخفية في تاريخ العرب والفرس والأتراك العثمانية والتتر ليست معروفة معرفة كافية والذهب الخام الذي تحتويه هذه الكنوز لم تجر عليه لحد الآن عمليات الغرلة والتصفية بشكل يدعو الى الراحة ولم تفصل الجواهر الثمينة بعد من التربة الملتصقة بها ولم يصقل بعد جيدا بحيث يمكن ان يؤلف منها الآن عمل فني تاريخي عظيم».

ومع ذلك تجاسر هامر على تأليف تأريخ للاولاد مونكه سبط جنكر خان الذين اشتهروا باسم «السلالة الذهبية» في القبحق في جنوب روسيا؛ وسبب هذا المؤلف الذي صنفه هامر اجابة لمسابقة علمية اقامتها الاكاديمية الامبراطورية الروسية مناقشات طويلة ومعارضات قبيحة بين هامر وزملائه الروس الذين رفضوا الكتاب تماما ولم يعتبروه جدرا بالجاهزة الموعودة. ولم تمنع تلك النتيجة الحزينة العالم النمساوي من ان يكتب رسائل اخرى في تأريخ الأتراك والتتر، منها تاريخ الايلخانيين في ايران (١٨٤٢) وتاريخ ملوك القريم (١٨٥٦). وترجم ايضا تأريخ وصاف المؤرخ الفارسي المشهور بصعوبة اسلوبه المزهري المسجع. هذا والكتب المذكورة كلها لا تستحق الذكر الا لانها شاهدة على اجتهاد هامر الذي لم يهتم بمشكلات المتن ولا بانتقاء وجود المصادر الكافية لاضاءة ظلمات هذه الادوار التاريخية غير المعروفة بل كتب ماكتب كأن القلم يحرق اصابعه وكان لا يضيع وقتا في تنظيم مؤلفاته او في تصحيحها ولم يقبل اى نقد لطريقته العلمية.

ان ما ذكرناه من الكتب حتى الآن هي الكتب الكبيرة الحجم، ولكن هامر ألف علاوة عنها رسائل غير معدودة في مسائل مختلفة، في البيزرة وفي الموسيقى الشرقية، في دين ميتراس الايراني وفي الفرسان الرهبان، ولم يهمل تاريخ وطنه النمساوي ولا الادب الاوروبي في منشوراته التي تكون في الواقع مكتبة خاصة ذات مئات الرسائل.... ادعى هامر انه لم يعرف الطموح ولا الغيرة الشخصية وانه لا سبب لفعاليته العظيمة الا الهمة العليا وحُب العلم. وقال اخرون انه كان يحب المناقشات والتفاخر حتى ان هذه

الاصناف غير المحمودة افقدته كثيرا من اصدقائه. ومثال مشهور لهذه الغيرة هو مناقشته مع تلميذه ريوكرت السابق ذكره حول تلفظ بعض الكلمات الفارسية، وايضا لان ريوكرت قد وفق في ترجمة باعثة الحيرة لمقامات الحريري؛ وان كان هامر قبل هذه الترجمة الشعرية المسجعة لأول وهلة بيد السرور ونظم فيها رباعيا معبرا عن تمنيه الخالص بان هذا الكتاب سيطلع بالذهب على البردى، الا انه قام بعد مدة بانتقاد نفس الترجمة وبتوجيه اشد الوان الملامة للمترجم العبقري مدعيا انه نفسه ابدع الاسلوب المسجع في الادب الالماني وان ريوكرت غير معنى الكلمات والتعابير لاجل مقاصد جمالية...

ولكن علينا ان نعرف ان هامر كان يمد مواطنيه وتلاميذه كل عون اذا ارادوا درس الشرقيات والتحصيل على معلومات في مواضيع شرقية. كما قال في رباعي له، مشيرا الى معنى اسمه هامر وهو «مطرقة»:

Ich bin genennet Jussuf Hammer,
Doch heiss' ich nicht für alle gleich:
Den Freunden Jussuf in der Kammer;
Die Feinde trifft des Hammers Streich.

وسميت يوسف ذا المطرقة
ولكن اسمي ليس سواء:
ففي الدار بين الاحبة يوسف
لكن على الخصم تهوى المطرقة.

واجاد احد المستشرقين الالمان وهو آلوارد Ahlwardt (١٨٢٨-١٩٠٩) في مقالته عن خلف الاحمر حيث يصف ترجمة هامر لقصيدة هذا الشاعر كثمرة من آثار خياله، لما اعترف بخصوصية هامر قائلا:

«كان هدفه أن يفهم الشرق من جميع نواحيه وأن يقود العالم الاوروبي لادراك الشرق كما انطبع في عقله. هذا يفسر لنا سر نشاطه الفذ والدافع الداخلي لاقتباسه المعارف والسعى الى اطلاق الغير على المعلومات وهذا سبب انتاجه الخصب لكتب كبيرة وسبب كده وعمله المتواصل دون كلل طالما كان في حيز النهار».

ومع كل اخطائه اللغوية والنحوية، ومع ان اكثر مؤلفاته العلمية لم تثر الا نقد المستشرقين الشديد، فانه يجب على القارئ الاعتراف انه لا يوجد مستشرق في تأريخ الثقافة الالمانية أثر في ادب عصره تأثير هامر الذي وفق الى الهام شاعرنا الاكبر بغناء اشعاره الخالدة في ديوانه الغربي-الشرقي.

وقد ضربت حكومة النمسا وساما تذكاريًا لهامر، منحوتا عليه لانه وصل بين آسيا واوروبا

أبحاث هاينريش بارت

(١٨٢١ - ١٨٦٥)

بقلم: الأستاذ فيلكس قرانكه

ولد هاينريش بارت البحاثة والرحالة الألماني عام ١٨٢١، وتوفي عام ١٨٦٥، وقد نشرت دار نشر فرانس شتاينر بقبسبادن في عام ١٩٦٧ كتاباً تذكاريًا بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته. ومع أن بارت كان يكثر من التجول والترحال في الأناضول وأوروبا الشرقية والجنوبية وقد ألف عن رحلاته ما ألف من الكتب والمقالات، فسياحته الأكثر شهرة هي الرحلة التي قام بها في أفريقيا بين عامي ١٨٤٩ و ١٨٥٥، والتي جمع في أثناءها معلومات كثيرة حول تاريخ أهل أفريقيا الشمالية والمركزية وعاداتهم وتقاليدهم كما أنه جمع الأخبار الجغرافية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية على العموم وهذا أول كتاب ألف في أوروبا حول هذه المنطقة غير المعروفة.

ونظن أن اكتشافات بارت في أفريقيا وملاحظاته في حضارة السكان المسلمين في منطقة تشاد والنيجر مهمة جدا في يومنا هذا حينما نشاهد الاسلام في افريقيا ينتشر ويزداد قوة. لذلك نود أن نقدم لقارئنا ورقة من تاريخ الاكتشافات الألمانية في أفريقيا الغربية والشرقية.

وعلى القارئ ألا ينسى أن كلمة «السودان» كانت تستعمل في زمان بارت لتشير الى المنطقة المركزية في افريقيا، اى ما يلى تشاد حتى مملكة نيجيريا غربا ومالى شمالا، ولم تطلق أبداً على السودان الذى نعرفه اليوم!

عن كتاب: Heinrich Barth. Ein Forscher in Afrika. Leben · Werk · Leistung. Herausgegeben von Heinrich Schiffrers. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1967.

حميه، المستشرق المعروف والمعاصر لبارت، إدوارد ويليام لين Edward William Lane، فقد قام صهر بارت، شوبرت Schubert، بكتابة سيرة حياة حميه بارت. وفيما عدا خبراً مختصراً مفاده أن بارت كان قد درس مدة اربعة أشهر على يدى استاذ للاستشرق فى لندن، فاننا لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك عن دراسته الشرقية. وكان بارت على صلة بعدد من المستشرقين: كيجون نيكولسون John Nicholson فى بنريث Penrith، وبلاو Blau ورافس Ralfs. ولا نعرف كان قد تعرف أيضاً على لين Lane فى انكلترا. وكان بارت قد قرأ كتابه «عادات وتقاليد المصريين الحديثين» «Manners and Customs of the Modern Egyptians» الذى كتبه بعد أن أقام عامين فى مصر، كما أشار إليه واقتطف منه فى كتابه «رحلات فى افريقيا» «Reisen in

عندما جاب هاينريش بارت Heinrich Barth فى منتصف القرن الماضى ربوع السودان وراح يستكشف بقاعه، لم تكن هذه البلاد الواسعة معروفة جيداً فى اوروبا ولاتاريخها القديم والحديث ولاأوضاعها الاجتماعية والثقافية المعقدة. وكان علم اللغات الشرقية لا يزال حقلاً علمياً فنياً، كما استطاع بارت أن يعتمد فى حالات قليلة جداً على أبحاث ودراسات تمهيدية سابقة. فقبل بارت كان الرحالون قد اخترقوا افريقيا حتى أواسطها. ولكن بارت يتفوق عليهم جميعاً كعالم حق. فقد جمع ما بين البحث النظرى والعملى على أحسن وجه.

١ - سيرته

ولا نعرف الشئ الكثير عن دراسات بارت الشرقية. فكما كتب ستانلى لين-بول Stanley Lane-Poole عن حياة



تصوير هاينريش بارت Heinrich Barth

عن كتاب:

Frühe Wege zum Herzen Afrikas

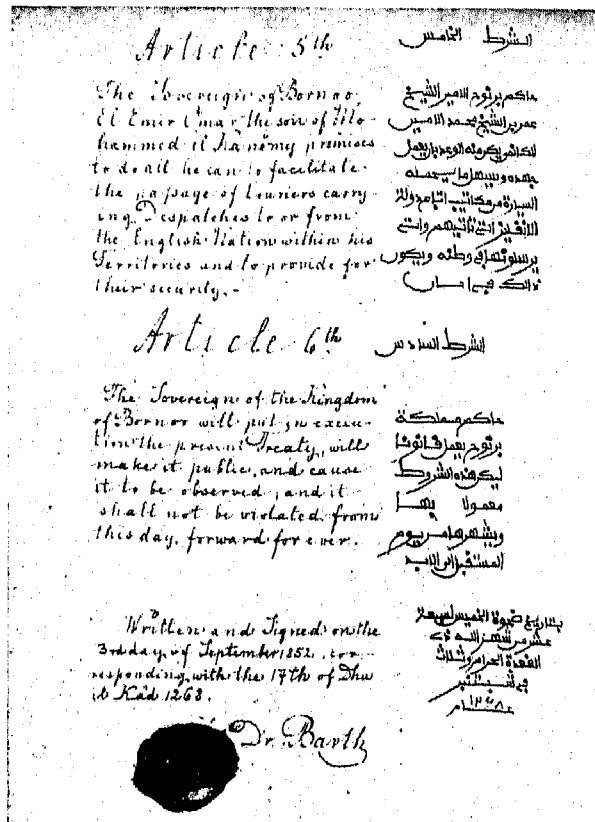
Turris-Verlag, Darmstadt, 1969

يكون أكثر ملاءمة لمناخ البلاد، كما يبدو في نظر أهل البلاد أكثر حشمة من ملابس الأوروبيين. وبل تبدو بعض التصرفات في حياة الأوروبيين اليومية عملاً مشيناً في نظر المسلمين، بحيث أن الرحالة المنفرد الذي لا حول له ولا قوة والذي يسعى إلى النجاح في مشروع لا يخلو من النبل، سيكون بعيداً عن الحكمة إذا رفض التكيف بهذا الخصوص لمشاعر أهل البلاد وأعرافهم... ومن الجهة الأخرى فإن بعض عادات المسلمين مليئة بالورع الحقيقي، بحيث أنني اعتقد أن الرحالة المسيحي يستطيع أن يتكيف بازائها دون أن يؤثر بذلك على خلقه المسيحي بأي شكل من الأشكال.

أما ما يتعلق بدراسات بارت الشرقية، فقد كان، بوجه عام، وعلى ما يبدو، عصامياً. وكانت اللغة العربية بالنسبة له وسيلة للتعرف على البلاد وأهلها. ولو استخدم اللغة العربية الفصحى في السودان لما استطاع التفاهم مع أهل البلاد، حيث أن السكان المسلمين لم يكونوا يتمتعون بوجه عام بمستوى ثقافي رفيع. ولذا فقد كان عليه أن يتعلم اللهجة العامية للوصول إلى غايته. وكان بوسع

"Afrika" ويتشابه الباحثان كثيراً في موقفهما الذي ينطوي على احترام الحضارات الغربية عليهما. وفي مقدمة كتاب لين المذكور، يقول المؤلف (ص. XXI): «لقد عاشت المسلمين من جميع طبقات المجتمع بوجه خاص: فكنت أعيش كما يعيشون وأتكيف لعاداتهم العامة؛ ولكي أجعلهم يألّفوني ويتخلّون عن أي تحفظ تجاهي في كل موضوع، فقد كنت أظهر موافقتي لهم في الرأي كلما سمح ضميري بذلك، وكنت، في أغلب الحالات الأخرى، أتحاشى التعبير عن مخالفتي في الرأي، كما أتحاشى القيام بأي عمل من شأنه أن يثير اشمئزازهم؛ فكنت امتنع عن تناول الطعام الذي يحرمه دينهم، وعن احتساء الخمر، وما شابه ذلك؛ كما كنت أجنب العادات التي لا تروق لهم كاستعمال السكاكين والشوكات أثناء تناول الطعام».

وبطريقة مشابهة لذلك يتحدث بارت في مقدمته (ص. XXIX وما تلاها)، فيقول إنه يرى أن من «الفطنة أن اتكيف في الملابس والأموال الأخرى لعادات أهل البلاد، وذلك بارتدائي زياً نصفه عربي ونصفه سوداني،



عقد وقع عليه هاينريش بارت مع ملك «بورنو» Borno في ٣ سبتمبر ١٨٥٢.

عن كتاب:

Frühe Wege zum Herzen Afrikas
 Turris - Verlag, Darmstadt, 1969

والإيصالات التي كتبها بارت بالعربية لا تخلو أحياناً من أخطاء تتنافى وقواعد اللغة العربية. ولكن بارت كان على أي حال قادراً على قراءة كتابات ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات التي ذكرها، كتزيين الورقات (٤)، وتاريخ السودان (٥)، والاتفاق الميسور (٦) مثلاً، قراءة فاحصة نقادة ومتمكناً من تقييمها لأغراض أبحاثه الخاصة - وهذا مجهود لا يجوز الاستهانة به. وهناك عدد قليل من الرحالين العلماء الذين يستطيعون أن يتباهوا بميزة اتقان اللغات واللهجات المختلفة للبلاد التي يجوبونها لأغراض الاستكشاف ونذكر في هذا المجال بوجه خاص المستشرق ماكس فرايهر فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim الذي عين عام ١٨٩٤ رئيساً لبعثة استكشافية إلى بحيرة تشاد، والذي أشاد في كتابه «رابع ومنطقة تشاد»

بارت التفاهم بدون جهد بالعربية. وبمناسبة مثوله بين يدي السلطان عبد القادر في ميسينا، يكتب بارت (١): «ألقيت كلمتي بالعربية، بينما راح صديق الأعمى سيمو يترجم حديثي إلى لغة البغرى كلمة كلمة، كما كان يعطيني إيماءة بين حين وآخر، كلما بدا له أنني استخدمت تعابير قوية جداً». أما هذه «التعابير القوية جداً» فهي على ما يبدو اصطلاحات لغوية من العربية الفصحى، ممزوجة باللغة العامية، كانت تبدو مثيرة جداً لترجمته.

وبالإضافة إلى العربية كان بارت يتحدث كذلك لغات الفوليه والهاوسا (٢) والكانوري (٣). ورغم موهبته الكبيرة لتعلم اللغات فإنه لم يقدّر بنشر النصوص العربية التي جمعها وإنما كلف المستشرقين المذكورين أعلاه بذلك. وبطبيعة الحال فإن تصحيحات بارت لهذه الترجمات التي كلف بها غيره لم تكن صحيحة دائماً؛ كما أن الوثائق

(٤) R. i. A., ٤٤، ١٨٨.

(٥) R. i. A., ٤٤، ٢٠٢.

(٦) R. i. A., ٤٤، ١٨٨.

(١) (R. i. A.) Reisen in Afrika، المجلد ٣، ص ٣٧٠.

(٢) R. i. A., ٤٤١، ٤٤١.

(٣) R. i. A., ٢٥٨، ٢٣.

بأعمال بارت واكتشافاته (٧).
 (Berlin 1902) "Rabeh und das Tschadgebiet"

لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلاً الجغرافيا والاثنولوجيا فحسب، وإنما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الإسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في أفريقيا» لا يعتبر مصدراً لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين. ولو اعتبرنا الأمر من وجهة نظر البحث العلمي الحديث فإن لدينا اليوم، وخاصة في علم اللغة، معرفة تفصيلية أكثر دقة. وقد زادت المصادر الجديدة المكتشفة في عشرات السنين التالية من معرفتنا هذه. ومن الجهة الأخرى، لا بد أن تأخذ بنظر الاعتبار أن بارت أراد نتيجة الإحاح الشديد من جميع الجهات أن ينشر كتابه «رحلات في أفريقيا» في أسرع وقت ممكن — فقد طبع عمله المكون من خمسة مجلدات بعد عودته بعامين، بل إن النسخة الانجليزية من مؤلفه ظهرت قبل ذلك. ولذا فإن بعض الأمور التي تستحق اهتماماً أكبر لا تظهر إلا في الهوامش.

ليس الغرض من هذه الدراسة سد الثغرات الموجودة في تفاصيل بارت بطريقة منظمة، ولا تصحيح هذه التفاصيل حيثما يبدو ذلك ضرورياً. إذ يجب أن ينظر إلى عمل بارت أولاً من زاوية عصره، ولأنه لمن غير المجدي قياس هذا المؤلف بمقياس غير المقياس التاريخي. وسأقتصر فيما يلي على معالجة الحقلين الذين يعتبر استكشافهما على يد بارت ذا أهمية قصوى بالنسبة للاستشراق، واعني بهما: تاريخ الإسلام، وانتشار اللغة العربية في السودان.

٢ — الدراسات الخاصة بالإسلام والمسلمين في السودان

عند ذكر كلمة الإسلام، يجب أن نميز هنا أمرين مختلفين: الإسلام كدافع تاريخي سياسي، والإسلام كنظام ديني. ومنذ بدايته الأولى انطبع الإسلام بصفة قوية بالحياة الدنيا. فلم يكن الدين الجديد مجرد «صراط مستقيم» يسير عليه المؤمن بثقة وأمان إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب، وإنما تعهد بالاهتمام بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاجتماعية بنظم وقوانين

(٧) لقد ألغيت البعثة الاستكشافية لأسباب تقنية وسياسية؛ غير أن الكتاب يعتمد على أخبار الرحالة إلى أفريقيا الوسطى الموجودين في مصر.

دقيقة. وكانت المجتمعات الإسلامية الفتية منظمة تنظيماً شديداً، كما أنها شكلت، بالنسبة للخارج على الأقل، جبهة موحدة — وصارت بذلك سلاحاً قوياً تجاه شعوب كانت وهي في ذروة تطورها متماسكة تماسكاً ضعيفاً بفعل تقاليد قديمة، مما أدى إلى انهيارها أمام موجة الفتح الإسلامي.

وتمت الفتوحات الإسلامية بصورة عاصفة في شمالي أفريقيا التي اعتنقت دين الفاتحين بسرعة. وبلغ سلطان الفاطميين في القرن العاشر من فلسطين حتى المغرب الأقصى. أما في اتجاه الجنوب، نحو قلب أفريقيا، فقد كان تقدم الإسلام ابطأ بكثير. وظلت ممالك سونغاي وغانا وكاتم القديمة — كما ظلت غيرها أيضاً — في مأمن من التغيرات السياسية الجارية في شمالي أفريقيا، تحميها صحار يصعب اختراقها. غير أن التجار والرحالة خلقوا شيئاً من الاتصال منذ القرن التاسع بين العرب في الشمال والسكان السود في داخل القارة الأفريقية. ولكن الغزوات الحربية لم تبدأ إلا بظهور المرابطين. وكان هؤلاء من البربر القاطنين في الصحراء الكبرى من قبائل اللمتونة، التي أخذت تزيد من عنف غزواتها الحربية باسم الجهاد في سبيل الله وتحت راية الدين الجديد. وأقام هؤلاء على امتداد الحدود الجنوبية للبقاع التي فتحوها لدين الإسلام حصوناً وروابطاً (٨) عسكرية، كانوا يتدربون فيها تدريباً دينياً وعسكرياً، وكانت تخدمهم كتقواعد ينطلقون منها في غزواتهم للبلاد المجاورة.

وحتى أيام حياة بارت كان بعض العرب في هذه البقاع يتفاخرون بكونهم من نسل المرابطين، ويذكر بارت نفسه كيف أنه قابل عربياً زعم أنه سليل بربر اللمتونة المذكورين (٩): «... وبعد ذلك قابلتنا فئة أخرى من المسافرين، كان بينهم رجل لمتوني، وهو مغربي، مزيج من دم عربي وبربري من قبيلة اللمتونة القديمة، التي، بعد أن كانت في الماضي تشكل العنصر الرئيسي للمرابطين الأقوياء، استوطنت الآن في مجموعات صغيرة على شاطئ المحيط الأطلسي».

ويخبرنا بارت كذلك أن سلالة هذه القبيلة البربرية تعيش منفصلة عن بقية السكان، في أماكن سكنية خاصة. وبلغ بارت أثناء ركوبه في الصحراء أحد مراح «المرابطين» ويقول حول ذلك (١٠): «وكنا قد قطعنا ميلين في هذا

(٨) جمع (رباط) وهذا هو أصل تسميتهم.

(٩) R. i. A., ٤، ٢٣٦.

(١٠) R. i. A., ١، ٣٥٢-٣٥٣.

منشورة فيه في عصره. وهي مؤلفات ابن حوقل^(١٤)، والبكري^(١٥)، والإدريسي^(١٦)، وابن بطوطة^(١٧)، وابن سعيد^(١٨) والوزان الزياتي^(١٩).

وإلى جانب هذه الأعمال النموذجية فقد استخدم بارت كمصادر له مؤلفات «رحالى القرن الرابع عشر»^(٢٠) إلا أنه لا يذكر المؤلفين ولا عناوين الكتب مع الأسف.

إن أبحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد إلى حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة في أوروبا تقريباً. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب وبتقديم افتراضات وتعليقات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات. أما هذه المخطوطات فهي ما سبق وذكرناه: «تاريخ السودان»، و«تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الآيات»، و«الانفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرر»^(٢١).

ولم تتح لبارت أثناء رحلته في أفريقيا امكانية دراسة المخطوطات في جميع تفاصيلها. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التي احاطت به للتمكن من القاء النظر على هذه المخطوطات لدشنا لاقتطافه منها وتقييمها بهذا التفصيل والتوسع. وهذا ما يفسر أيضاً الأخطاء التي وقع فيها بارت بسبب اسرعه في الاطلاع على المخطوطات، وهي الأخطاء التي سنتعرض لها فيما بعد.

«تاريخ السودان»: — يكتب بارت فيما يكتب حول هذا المؤلف^(٢٢): «قبل سفرى في مناطق النيجر لم تكن تعرف أية معلومات تتعلق بتاريخ هذه البقاع المتسعة الهامة، باستثناء بعض الاوضاع المتفرقة القليلة التي جمعها الجغرافى الانجليزى الرفيع العلم والحاد النقد ويليام ديسبوروكولى William Desborough Cooley بكثير من النبوغ مما

الوادى عندما نزلنا في مكان فسيح مكشوف محاط بأشجار الأيسكا الخضراء. وكان يقع في الجانب الآخر من تين طرح عوده، وهي قرية المرابطين أو الأيسلمين، وهي تمتد في صف طويل على إمتداد الهضاب المنخفضة عند بداية السلسلة الجبلية. وتتألف القرية من حوالى المائة منزل، وهي في الغالب اكواخ بنيت من الأعشاب وسعف النخيل، بينما لم يبن إلا القليل منها من الحجر. ورغم صغرهما، إلا أن القرية هامة بالنسبة للمواصلات بين شمالى أفريقيا ووسطها، تلك المواصلات التي لا تتم إلا بحماية اعتبار أولئك الرجال العلماء المتدينين وذلك بأمان يثير الدهشة إذا ما اعتبرنا الطبيعة الوحشية للصوصية التي يمتاز بها سكان هذه البقاع ... ورغم أن الأيسلمين يسمون أنفسهم «أتقياء ورعين»، إلا أنهم لم يحرموا أنفسهم من حاجات هذا العالم؛ بل على العكس من ذلك، فهم يحافظون على حياتهم ووجودهم بطموحهم، ومكائدهم وتصرفاتهم العامة بحيث يمارسون تأثيراً هاماً على أوضاع البلاد».

وفي مكان آخر يصف بارت خلف المرابطين المزعومين أولئك على الشكل التالى^(٢٣): «وكانت ثياب اغلب الرجال بيضاء كذلك، ولكن أكثر صفة مميزة لهم كانت أن كثيراً منهم كانوا يرخون شعورهم في جدائل طويلة. وهذه علامة على أنهم من الأيسلمين، أو المرابطين (أى الأولياء)، وهي صفة يدعونها لأنفسهم رغم عاداتهم البعيدة عن الصرامة والتزمت. ورغم أنه لا مدرسة لهم، إلا أنهم فخورون بتنصيبهم معلماً في مسجدهم الذى لا حاجة به أن يكون فخماً عظيماً».

ولكن لنعد من النسل إلى المرابطين الاصلين في القرن العاشر الذين خضعت لغزواتهم وما تلاها من غزوات ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة. واعتنق رعايا هذه الممالك الوثنية العقيدة الجديدة — رسمياً على أى حال — سواء أتم ذلك بالاختيار أم بالقسر أم بالانهازية. ونحصل على خبر حول ذلك في تاريخ البربر^(٢٤) لابن خلدون^(٢٥). وبحث بارت باهتمام وعناية كبيرين التاريخ المتحرك للممالك القديمة في السودان واثبت جداول إجمالية ادرجت فيها الاحداث التاريخية في السودان الغربى من أول أخبار المصادر التاريخية حتى العصر الحاضر بشكل واضح شامل.

المصادر: واستخدم بارت كمصادر لتاريخ السودان القديم أعمال المؤرخين والجغرافيين العرب بالقدر الذى كانت

(١٤) R. i. A. ١، ٥٩٩.

(١٥) النص مقتطف من الترجمة الفرنسية: Histoire des Berbères, Paris 1927, II, 110.

(١٦) R. i. A. ١، ١٥.

(١٧) قام بنشره C. E. J. Whitting في لندن عام ١٩٥١.

(١٨) R. i. A. ١٤، IV، وما تلاها.

أوجزه واستقاه استاذى ومعلمى الممتاز كارل ريسر Karl Ritter من البكرى، وتاريخ ابن خلدون، ورواية ليو الغامضة المشوشة عن الإيشيا الكبير ومن تلميذ موزير جداً عن احتلال مولاى أحمد الذهبى لتمبوكتو وجارو مما أورده بعض الكتاب الاسبان^(٢٢). ولكنى كنت محظوظاً جداً إذ سنحت لى فرصة الاطلاع على تاريخ مملكة سونرهاى الكامل ابتداء من اول آثار الوثائق التاريخية المسجلة حتى عام ١٦٤٠ من تاريخنا الميلادى. ولكن الظروف حالت لسوء الحظ دون حصولى على نسخة كاملة من هذه المخطوطة التى تشكل مجلداً من حجم رباعى ضخماً، وكان بوسعى فقط خلال الايام القليلة التى اتحت لى للاطلاع على هذا المؤلف اثناء اقامتى فى غانداو أن اقتطف نصوصاً قصيرة من فصول الكتاب التى بدت لى الاكثر أهمية من الناحيتين التاريخية والجغرافية.

وكما تذكر المعلومات الاجماعية التى يدلى بها علماء بلاد النيجر فان سجلات سونرهاى السنوية هذه قد ألفها رجل كبير المنصب اسمه أحمد بابا تحت عنوان: «تاريخ السودان»، كما يذكر اسم هذا الرجل فى الكتاب بصيغة الغائب فقط. ويبدو وكأن يداً اخرى سجلت معلومات إضافية فى الكتاب، ولكنى لا أستطيع الإدلاء برأى اكيد حول هذا، حيث لم يتسع الوقت لى لقراءة القسم الأخير من المؤلف بما يستحق من انتباه وعناية.»

وفى مكان آخر يكتب بارت حول «تاريخ السودان»^(٢٣): «لقد وجه انتباهى إلى هذا المؤلف التاريخى فى بادئ الأمر صديقى عبد القادر فى سوكونتو ولكن دون أن يتمكن من اشباع فضولى. والآن امضيت ثلاثة أو أربعة أيام وأنا استمتع باقتطاف المعلومات والمقاطع التاريخية الهامة من هذا المؤلف، بحيث حصلت على فكرة جديدة تماماً حول التطور التاريخى للمناطق الممتدة على النيجر الأوسط، التى اتجه لى إليها تجوالى وكشفت أسفارى النقاب عنها وأثارت فى أكبر اهتمام حى. فقد أبقت الكتاب أمام عيني وبخطوط واضحة جليظة سطوة مملكة سونرهاى السابقة التى لم أكن أفقه شيئاً عنها فى السابق، ولم آسف لشيء أسنى لعدم توفر الوقت الكافى لى لنسخ المخطوط بكامله، بحيث اكتفيت باقتطاف المقاطع التى بدت لى الأهم من الناحية الجغرافية والتاريخية دون أن أتمكن من اعارة الاهتمام الكافى للترابط الخارجى بين هذه المقاطع.»^(٢٤)

(٢٢) Cooley, Negroland of the Arabs, 1841.

(٢٣) R. i. A., IV, ٢٠٢.

(٢٤) المكان نفسه.

أما مؤلف هذا الكتاب فليس أحمد بابا^(٢٥)، كما اعتقد بارت خطأ^(٢٦)، وانما تلميذه السعدى من تمبوكتو^(٢٧). ويحتوى الكتاب اخباراً هامة عن شعوب السودان، السونغاى، والميللى والطوارق^(٢٨).

ترزيين الورقات: — إن مؤلف هذا العمل هو عبد الله^(٢٩)، أخ غير شقيق للمصلح الكبير عثمان بن فوديو. وبعد وفاة هذا عام ١٨١٧ ورث عبد الله المناطق الغربية لمملكة فوله. وترزيين الورقات هو موجز لتاريخ مناطق فوله هذه. وعندما مكث بارت فى ربيع عام ١٨٥٣ فى سوكونتو وقعت بين يديه مخطوطة لهذا المؤلف. ويكتب حول ذلك^(٣٠): «وخلال هذه الفترة كلها كنت اقضى اوقات فراغى بقراءة نصوص مخطوط اتاح لى أول اطلاع على تاريخ الجزء الغربى من مناطق فلانى هذه. أما المؤلف فهو عبد الله، اخو عثمان، المصلح، الذى حصل على الجزء الغربى من المنطقة المفتوحة كنصيب له. ومع أن الكتاب^(٣١)، الذى عنوانه «ترزيين الورقات»، يحتوى بالإضافة إلى مادة دينية كثيرة، على بعض المعلومات التاريخية الهامة، إلا أنه لم يكف مطلقاً لارواء ظمئى الشديد لى المعرفة.» وخلافاً لهذا القول، فان المؤلف موجز تاريخى يعالج تاريخ مملكة الفول سوكونتو منذ عام ١٧٨٤، بينما لا تلعب المادة الدينية فيه، كما يقول A. Brass^(٣٢)، إلا دوراً ثانوياً مع الأسف.

الاتفاق الميسور: — إن هذا المؤلف التاريخى الذى كتبه محمد يبللو، أحد أبناء عثمان بن فوديو، كان قد نشر بصورة مقتطفات على يد A. V. Salame مع ترجمة انجليزية فى كتاب Denham-Clapperton: «قصص الرحلات والاكتشافات فى شالى ووسط أفريقيا، لندن، ١٨٢٦، كملحق على الصفحة ١٦٦.

(٢٦) المتوفى بعد ١٠٦٦/١٠٦٦ - GAL، II، ٤٦٧ وما بعدها.
(٢٧) راجع، بيكر: Becker, Zur Geschichte des östlichen Sudan, Der Islam I, 166.

(٢٨) ذيل الديباج.
(٢٩) بعد أن نشر المخطوط على شكل مقتطفات، كما سبق وذكرنا، قام O. Houdas بالتعاون مع E. Benoist بنشر العمل بكامله عام ١٨٩٨ (Paris, Publ. de l'Ecole des langues or. viv. مع ترجمته الفرنسية: Documents arab. rel. à l'histoire du Soudan I).
كذلك GAL، II، ٤٦٨.

(٣٠) المتوفى عام ١٨٢٩ - GAL، SII، ٨٩٤.

(٣١) R. i. A., IV، ١٨٨.

(٣٢) قارن A. Brass المخطوطين الموجودين فى مكتبة خاصة ثم نشر وترجم اجزاء مقتطفة منهما فى مجلة Der Islam المجلد ١٠، الصفحات ٧٣-١ (١٩٢٠).

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

"Narrative of travels and discoveries in Northern and Central-Africa".

وقد اتبحت لبارت الفرصة في سوكونو أيضاً لدراسة المؤلف بكامله. وهو يكتب حوله^(٢٤): «بكثير من الجهد سعت إلى الحصول على كتاب بيللو وعنوانه: «الإنفاق الميسور في فتح بلاد التكرور»، وهو الكتاب الذي أوصاني به بكثير من التوكيد صديقي الفقيه عبد القادر في كتنسا؛ ولكنه لم يصل إلى إلا قبل مغادرتي المدينة ببضعة أيام. وعندها وجدت أن القسم الأكبر من محتوياته الذي يحمل أهمية تاريخية أو جغرافية ينطبق على الوثائق التي أحضرها الكاتبين كلا برتون من رحلته الأولى والتي قام السيد سالام بترجمة جزء منها كملحق لقصة تلك الرحلة الهامة على الدوام.»

ومن المخطوطات العربية فإن «تاريخ السودان» يعتبر أهمها جميعاً كمصدر لتاريخ شعوب السودان كما أن بارت قد اهتم بمعالجتها بتفصيل خاص.

واعتماداً على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب تمكن بارت بوجه عام من تحديد موعد ومكان انتشار الإسلام في السودان على وجه الدقة. فبدأ القرن التاسع ثبت أن الإسلام قد تغلغل في بعض مناطق السودان. ولم يتوقف تغلغل الإسلام في السودان حتى بعد ألف عام من هذا التاريخ. وتاريخ السودان زاهر بالحروب العقائدية والاضطرابات التي كانت تشتعل بشاررة التعصب الديني. وبوجه عام يمكن القول بأن الإسلام اصطحب معه تغيرات واضطرابات سياسية. ويصور بارت آخر ثورة دينية كبيرة أصبح شاهداً لتأثيراتها الثورية: وهي حركة عثمان بن فودي الإصلاحية^(٢٥).

لقد أدى مطلب الجهاد في الإسلام إلى عيش سكان السودان الوثنيين في اضطراب دائم. وتزايد انطباعات بارت، الذي عاش بين القسمين من السكان، هذا الرأي. وقد أيد الإسلام إقامة دول على أسس سياسية واجتماعية موحدة. إلا أن سكان السودان الوثنيين كانوا مقسمين إلى قبائل وعشائر صغيرة، كانت متخاصمة فيما بينها في الغالب بحيث لم تكن قادرة على مقاومة المسلمين. وكان هذا هو الموقف عندما ثارت الفولبة في بداية القرن الماضي. ولكن قبل أن نتناول تاريخ السودان في القرن التاسع عشر، نود أن نذكر شيئاً حول التاريخ القديم كما سجل في تواريخ المؤلفين العرب.

(٢٤) R. i. A., IV, ١٨٨.

(٢٥) R. i. A., IV, ١٥٢ وما بعدها.

ومن أقدم الممالك الإسلامية في السودان مملكة البورنو. ومن سجل بورنو التاريخي عرف بارت^(٢٦)، أن أول ملك لهذه المملكة اعتنق الإسلام كان هومييه (أو أومييه)، ابن عبد الجليل. وقد حكم في الأعوام ما بين ١٠٨٦/٤٧٩ و ١٠٩٧/٤٩٠. وباعتناقه الإسلام فقد أسس أسرة مملكة جديدة. وقد وجد بارت هذه الملاحظة عند الجغرافي العربي المقرئزي^(٢٧): «وكان أول ملوكهم الذي اعتنق الاسلام محمد بن جبل^(٢٨) بن عبد الله بن عثمان بن محمود بن ابي... وهم يزعمون أنهم من سلالة سيف بن ذي يزن.» ولذا فقد افترض بارت - على خطأ طبعاً، كما يقول بيكر^(٢٩) - أنه حدث اختلاط هنا بين أول سيف في الإسلام وملك بلالا الأول^(٣٠)، والأغلب أن يكون محمد بن جبل هو هومييه (أو أومييه) بن عبد الجليل. وفوق ذلك فمن التناقض أن يكون اسم والد أول ملك اعتنق الاسلام اسماً إسلامياً هو عبد الجليل.

«إن مملكة كانم، وهي في الأصل جزء من مملكة بورنو، كان لها كذلك منذ القدم سكان كثيرون كانوا مسلمين في الغالب.»^(٣١)

ومن أقدم الممالك القديمة أيضاً مملكة سونغهاي حيث أن البكري يتحدث عن تقاليد الإسلام^(٣٢). وحسب تاريخ السودان للسعدى فإن تاريخ الإسلام في مملكة سونغهاي يعود إلى بداية القرن الرابع الهجري/الحادي عشر الميلادي.

وقد تسرب الإسلام إلى السودان من اتجاهات مختلفة: فبالنسبة لغانا نقله المرابطون من قبيلة اللمتونه وغيرها من قبائل البربر^(٣٣) من الشمال. وفي الممالك القديمة حول بحيرة تشاد يحتمل كثيراً أن يكون الإسلام قد جاء من الشرق من نفس الطريق التي جاء منها البدو القادمين من جنوبى شبه الجزيرة العربية، كما جاء فيما بعد عبر مصر أيضاً من خلال طرق التجارة. وكانت الطريق إلى مكة تمر بمصر. وكما يذكر ابن خلدون^(٣٤) فإن مفتى غانا اتخذ عام ١٣٩٣/٧٩٦ طريق الحج التي مرت بمصر

(٢٦) نفس المصدر، II، ٣٠٩.

(٢٧) Hamaker, specim. catalog, p. 206، راجع Der Islam،

١٧١، ٤١.

(٢٨) قل جيل... كذلك بارت II، ٢٨٩.

(٢٩) Der Islam، I، ١٧١.

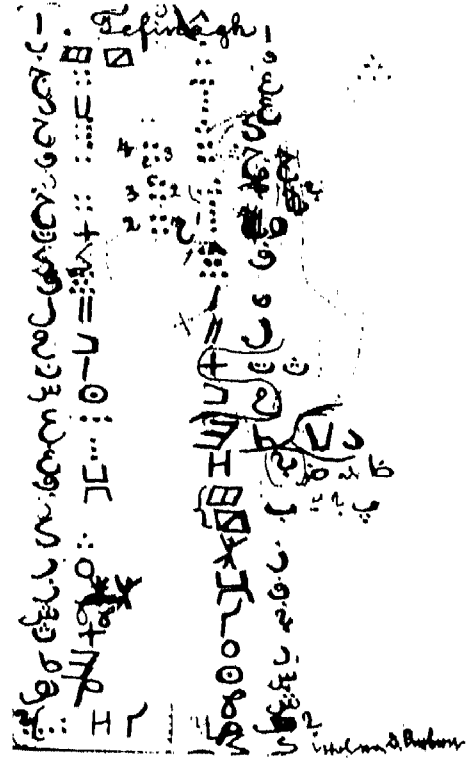
(٣٠) راجع بارت II، ٣٠٩.

(٣١) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 109، ١٥٩.

(٣٢) بارت، ١٧، ٤١٧.

(٣٣) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 64.

(٣٤) نفس المرجع ص (١١٠).



خريطة لمدينة «ماسينيا» Māsēnā، مركز الحكومة في مملكة باغرى، عام ١٨٥٢ ◀
عمل اليسار صورة تخطيطية كما رسمها بارت في يومياته ١٨٥٢؛ على اليمين نسخة
مصححة مطبوعة منها كما نشرت في كتاب بارت حول سياحته.

حروف Tefinagh للطوارق في الصحراء الوسطى كما رسمها هاينرش بارت في يومياته
وقايمها بالحروف العربية. وهذه اليوميات محفوظة الآن في باريس.

لإذ أن من دخل في الدين الاسلامى لا يمكن أن يتخذ
أو يصبح عبداً. وقد جلب الاسلام معه مستوى معيشياً
رفيعاً بحيث كان من هذه الناحية أيضاً جديراً باعتناقه.
وهناك امثلة على أن سيرة بعض الرجال الشبهيين
بالقديسين اكسبت الدين الجديد كثيراً من الأنصار.
وكانت باغرى قبل القرن الحادى عشر الهجرى/السابع
عشر الميلادى منطقة وثنية تماماً. وكما يقول بارت (١٧)
فان انتشار الإسلام هنا تم بوجه خاص بفضل «شيخ
من شيوخ الفيلاتا وقديس من بيد دبرى (قرية على مسافة
٩ أميال شرق ماسينيا) كان له، رغم انفراده وعزلته،
تأثير كبير جداً في إدخال الإسلام إلى هذه البقاع».

ويعود الفضل في نشر الإسلام في مناطق واسعه إلى محمد
بن عبد الكريم بن مرحيل (١٨). ويسميه بارت رسول بلاد

قبل بلوغ مكة. وكانت هذه الطريق نفسها طريق الحج
المألوفة على زمن بارت أيضاً كما يؤكد لنا في كتابه.
وهكذا فبفضل فريضة الحج الدينية قامت بين السودان
ومصر صلة وتبادل دائم لم يساعد على تطوير التجارة
بين البلدين فحسب، بل وأثر تأثيراً كبيراً على المستوى
الفكرى والثقافى لشعوب السودان الإسلامية. ونذكر
هذه الصلة القديمة بمصر، كما يذكر بارت (١٥)، من وضع
مدينة كوكو Gügö، عاصمة سونغهاى، التى «كانت في العهود
الماضية تتألف من حيين منفصلين، أحدهما لعبدة الأوثان
(على الشاطئ الغربى أو شاطئ كورما) والحقى الملكى
أو الإسلامى (على الشاطئ الشرقى، باتجاه مصر، المكان
الذى جاء منه الاسلام وما صاحبه من مدينة)» (١٦).

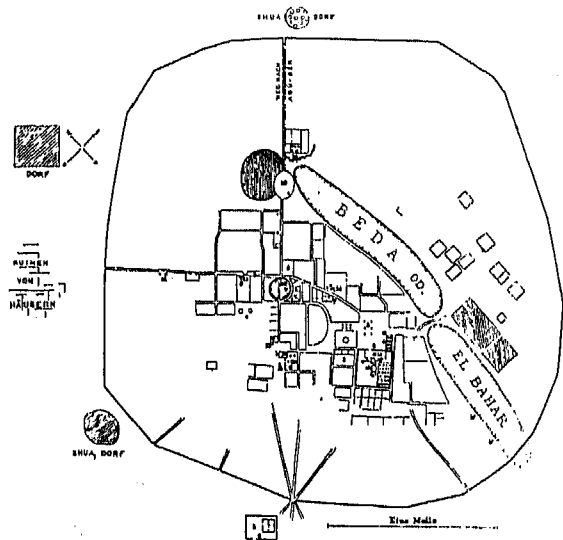
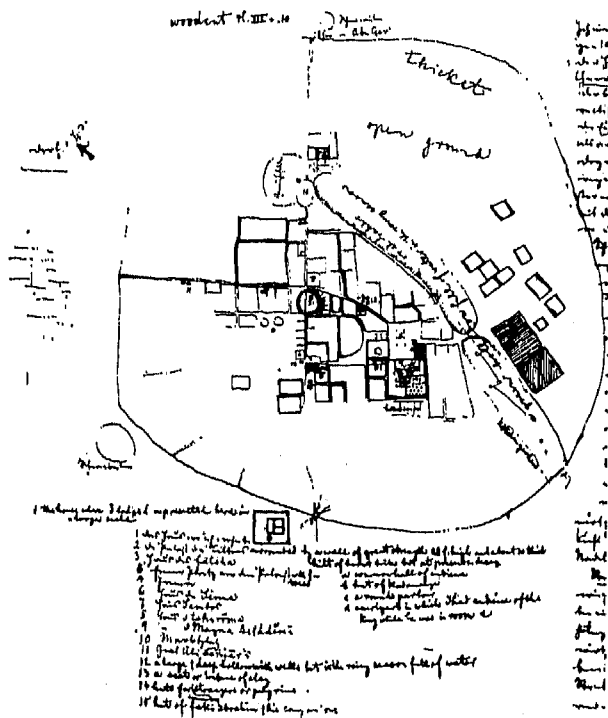
ولم ينتشر الاسلام في السودان بالنار والسيوف.. بل
كثيراً ما كان من الانفع لأهل البلاد أن يعتنقوا الاسلام؛

(١٧) R. i. A., III, ٣٨٧.

(١٨) المتوفى ١٥٣٣/٩٤٠.

(١٥) R. i. A., V, ٢١٨.

(١٦) نفس المصدر، ص (٤٣٤).



Plan der Stadt Māsīn.

- 1 Das Haus, in dem ich wohnte, hier auch in grösserer Massstab dargestellt.
- 2 Der Palast des Sultans, umgeben von einer starken, 18 Füsse hohen und 10 Füsse tiefen Mauer, aus Backsteinen gebaut, aber jetzt in Verfall.
- 3 Öffentliche Audienzhalle.
- 4 Mittelstube oder die Haremstube des Sultans.
- 5 Hof, in welchem ich eine Audienz bei dem König hatte, während er selbst im Zimmer 2 sich befand.
- 6 Haus des Vaters.
- 7 Moschee.
- 8 Öffentl. Platz vor dem Palast, mit Blumen bepflanzt.
- 9 Haus des Bruders.
- 10 Haus des Pächters.
- 11 Haus des Tschelims.
- 12 Haus des Mānā Helānd.
- 13 Marktplatz.
- 14 Grundst. von 'All Fendār, dem grossen Häuptling der Mānā, welcher zwei Jahre vor meinem Besuch d. St. hier bei vorgerücktem Alter in hoher Achtung starb. Der Grundst. wird von einem Kinn-Platz besetzt.
- 15 Eine grosse tiefe Kissenkammer mit Bräunern, aber in der Gegenwart mit Wasser angefüllt.
- 16 Ein Kinn oder Kinn von Leinen, "abgelegt" auf Kanari, "abgelegt" auf Kanari.
- 17 Hügel der gewöhnlichen Erden- und Fels-.
- 18 Hügel des Fels Bräun und seines Bräun-.
- 19 Haus meines wilden Feindes.
- 20 Kinn-Platz.

الزنج الوسطى (٥١). وكان صديقاً للسيوطي، من اعظم عباقرة الكتاب العرب واكثرهم تنوعاً في حقول الثقافة (٥٠). ويكتب بارت (٥١) أنه اطلع في تمبوكتو على رسالة طويلة من ابن مرجيلي يعالج فيها مسائل دينية. ومن المؤسف ان بارت لا يفيدنا بالمزيد عن محتويات هذه الرسالة التي يقول إن لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الاسلام في السودان.

وكان ابن مرجيلي هو الذي أثر على ابراهيم ماكي، ملك كاتسينا، لاعتناق الاسلام (٥٢). وبعد ذلك بقليل دخل ملك واداي الاسلام أيضاً (٥٣). وتنهى مصادر بارت الأدبية مع «تاريخ السودان» عام ١٦٥٥. ولم يكن يعرف المصادر التالية التي يذكرها

Der Islam X. (٥٤)
 ٢٧٠، III، R. i. A. (٥٥)
 نفس المرجع، IV، ٢٥٨ (٥٦)
 نفس المرجع، V، ٦٢٤ (٥٧)
 Hitti, History of the Arabs p. 741. (٥٨)

- ١٩ (R. i. A., IV, ٦٣٦).
- ٥٠ (١٤٤٥/٨٤٩ - ١٥٠٥/٩١١، GAL، II، ١٤٣ وما بعدها).
- ٥١ (R. i. A., II، ٨٣ (ملاحظة ٢)).
- ٥٢ نفس المصدر، II، ٨٣.
- ٥٣ نفس المصدر، III، ٤٨٥ وما بعدها.

ونشره باذلين في سبيل ذلك أقصى الجهود، حتى شنوا فيما بعد، عندما قويت شكيمتهم، حروباً دينية دموية، في سبيل ذلك. وكان الرجل الذي تزعم الفوليه، والذي فتح عهد مملكة للفوليه، والذي اعتبره انصاره نبياً وخصومه مستبداً مخيفاً، هو المصلح عثمان بن فودييو^(٥٩). وقد أيد أخوه عبد الله^(٦٠) سياسته بخضوع وتفان زائدين، واستمر ابنه محمد بيللو على تلك السياسة وثبت دعائمها بتطرف أشد واعنف. وبعد أن نقل محمد لبيو الإسلام المجدد المصلح إلى قبائل الفوليه التي تقطن على ضفاف النيجر الأعلى^(٦١)، أصبح الفوليه بوجه عام طلائع المجاهدين في سبيل الإسلام^(٦٢).

وقد شهد بارت هذه الأحداث ونتائجها بصورة مباشرة، ولذا فإن كتابه (رحلات في أفريقيا) "Reisen in Afrika" يعتبر مصدراً لا يقدر بثمن بالنسبة لتاريخ الإسلام الحديث في السودان أيضاً. وكما تثبت روايات البكري والوزان الزياتي (ليو أفريكانوس)^(٦٣) فإن للإسلام في السودان جذوراً عميقة جداً في بعض أجزائه ولكنها ليست عميقة. وكما ورد في كتاب بارت أيضاً^(٦٤)، فقد كان الإسلام في عهده أيضاً تقليداً ظاهرياً في بعض الوجوه، ظلت العادات والتصورات الوثنية كامنة خلفه. وهناك حاجة إلى مثل كتاب فيلهاوزن Wellhausen «بقايا الوثنية العربية» Reste Arabischen Heidentums يعالج الموقف في السودان. ويقدم بارت هنا عدداً كبيراً من الملاحظات تقع مهمة تنسيقها وإيضاحها وتفسيرها على عاتق المستشرقين. ونذكر في هذا المجال مثلاً يشير إلى ضرورة إعزاء بعض ملاحظات بارت إلى أسبابها الدينية الشولوجية الحقيقية: يوضح بارت بمثل^(٦٥) «غربة مبالغة سكان الصحراء المتمدنين هؤلاء في اعتبار الحشمة الإسلامية. فعند التبول يتعدون على مسافة كبيرة من الطريق ويجلسون القرفصاء إلى الجانب ويحفرون جحراً صغيراً في الأرض». والحقيقة أن ليس في الأمر حشمة ولا مبالغة وإنما التقيد باتباع مطلب إسلامي قديم يقول بأن يجلس المرء «لقضاء حاجاته فلا يقضيها قائماً»^(٦٦).

عند وصف فتاتين يقول بارت: «لقد ظهرتنا بزي محتشم وذلك بارتداء مريلة من القماش القطني المخطط حول أردافهما. ولا شك أن ذلك جرى بتأثير الإسلام»^(٦٧). وتعود هذه العادة فعلاً إلى تعليم إسلامي يوجب «على المكلف ستر عورته»^(٦٨).

٣- دراسات حول اللغة العربية في السودان

لقد كان الإسلام واللغة العربية دوماً متصلين اتصالاً لا يمكن فصلهم عراه. وبما أن القرآن لا يجوز ترجمته إلى أية لغة أخرى - خوفاً من الله وكذلك حفاظاً لطهارة الضمير تجاه كلام الله المنزل - فقد أصبح لزماً على كل مسلم مؤمن أن يتعلم العربية إلى درجة تمكنه من فهم القرآن أو تلاوته على الأقل. ويكتب بارت عن الفوليه^(٦٩): «من المؤسف أن إقامتي القصيرة لم تمكنني من مراقبة مستوى الثقافة بين هؤلاء المسلمين النائيين، ومع ذلك فقد وجدت أثناء سفري أن قراءة القرآن وبعض الكتب الرئيسية للإسلام^(٧٠) ومعرفة جيدة للغة العربية المكتوبة منتشرة بين عليّة القوم بينهم. وبطبيعة الحال فلا توجد مدارس هنا، ولكنه يوجد في القرى الأكبر رجل فقيه يتجه إليه الشباب الذين يسعون للحصول على مزيد من المعرفة أكثر من مجرد ترداد بعض الصلوات، يتجهون إليه للقراءة والدرس على يديه، وكلما كان الافتقار إلى كتب أخرى أكبر كلما ازدادت حيوية استيعاب الكتاب المتيسر بين أيديهم بطبيعة الحال، ذلك الكتاب الذي يأخذ عليهم ألبابهم بلغته الشعرية العظيمة».

وفي تمبوكتواتيحت لبارت الفرصة لحضور تدريس اللغة العربية وتعاليم الإسلام^(٧١): «وخلال جزء من النهار قرأ الشيخ على تلاميذه مقاطع من حديث البخاري^(٧٢)، بينما راح ابنه الصغير سيدى محمد يكرر درسه من القرآن بصوت جهورى، وخلال المساء راح التلاميذ يجودون عدة سور من القرآن الكريم بصوت موسيقى حتى ساعات الليل المتأخرة».

وتحتوى ملاحظات بارت على إشارات هامة حول انتشار اللغة العربية آنذاك والتحديد المحلي للهجات المختلفة. وفي بعض مناطق السودان التي تكون غالبية سكانها

(٥٩) ١٧٩٤-١٨١٧، R. i. A.، IV، ١٥٢ وما تلاها؛ GAL، II، ٨٩٤.

(٦٠) المفقود عام ١٨٢٩، R. i. A.، IV، ٢٥٨.

(٦١) نفس المرجع، II، ٢٠٨-٢٠٩.

(٦٢) نفس المرجع، IV، ٤٣٤.

(٦٣) نفس المرجع، II، ٥١٥؛ III، ٣٣٥؛ III، ٣٦٥.

(٦٤) R. i. A.، I، ٢٩١، ملاحظة.

(٦٥) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، القاهرة، ١٣٥٥/١٩٣٦.

(٦٦) قسم العبادات، ص (٣٥).

(٦٧) R. i. A.، II، ٣٧٦/٣٧٥.

(٦٨) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، ص (١٤١).

(٦٩) R. i. A.، II، ٦١١/٦١٢.

(٧٠) المقصود بذلك كتب الحديث.

(٧١) R. i. A.، IV، ٥٢٣.

(٧٢) ١٩٤/٨١٠-٢٥٦/٨٧٠، GAL، I، ١٥٧ وما تلاها.

مسلمى السودان، وتتحول كلمة «العقل» إلى «Lakal» و«الأخبار» تصبح في لغة الهاوسا «labari»، وفي لغة سونغهاي «laabar»^(٨٢).

وهناك فئة متكاملة من الوجهة اللغوية بين عرب السودان وهى الشوا Schūa، سكان بورنو العرب. ويكتب بارت^(٨٤): «إن لهجتهم العربية متميزة جداً، فبينما تتخذ لنفسها صفة الصفاء الأكثر بالقياس إلى اللهجة الشعبية الفاسدة في المغرب وذلك بالمحافظة على صيغ الأفعال الكثيرة، إلا أن لها طابعاً يلفت الانتباه في بادئ الأمر بالتشكيل الحاد للكلمات واستخدام عبارة «كوتش، كوتش» بمعنى «على الإطلاق» بصورة دائمة — وكذلك كلمة «بركتك» — بحيث يحشرون هذه العبارات خلف كل ثلاث كلمات بصورة تثير الضحك».

وتزداد معرفتنا لسكان السودان العرب في ذلك الزمن بوجه خاص بما نشره بارت من الشعر بالنص العربى مع الترجمة الألمانية في المجلد الرابع من كتابه «رحلات في افريقيا»^(٨٥). أما هذا الشعر فقصيدتان لصديقه الشيخ البكاى. والقصيدة الأولى من بحر الخفيف، والثانية من بحر الطويل وكلاهما من بحور الشعر العربى القديم. ولا تعتمد القصيدتان الرائعتان على فن الشعر العربى القديم من الناحية الشكلية فحسب، بل ومن ناحية الموضوع والأسلوب أيضاً — وهذا دليل على مدى تمسك هؤلاء العرب الموزعين في الخارج بتقاليدهم الثقافية وتراثهم الأدبى. وكانت درجة الثقافة بين العرب هنا متباينة بطبيعة الحال؛ ويذكر بارت^(٨٦) كيف أن إحدى القصيدتين القيت بين يدى شيخ تمكلا وأتباعه ومدى التجاوب والصدى الذى حققته القصيدة لديهم «رغم أنه لا يمكن أن يحكم عليها إلا من كان متمكناً من اللغة العربية، بينما لم يفهم القسم الأكبر من القوم كلمة واحدة منها».

لقد كان بارت خبيراً عارفاً بالشعر العربى. وينم أسلوبه الخاص عن ذلك. فعند زيارته إلى أغاديس يصف صورة هذه المدينة بما يلي^(٨٧): «كانت العقبان تنظر بألم وشراسة من تنوعات الأسوار المتهاوية المحيطة بالمكان؛ وكما كان يبدو فإنها كانت تعاني من الافتقار إلى الطعام، لأنه، بعد أن خرج عدد كبير من سكان المدينة مع

من المسلمين استحالت اللغة العربية إلى لغة عامة باستثناء استخدام اللغة الفصيحة للأغراض الدينية. وفيما يتعلق باللهجة سكان أكادس يكتب بارت^(٧٣): «إن التعامل مع البربر قد مارس تأثيراً كبيراً، بحيث انتقلت من لغتهم كلمات كثيرة واندججت في التعابير المحلية هنا، بينما يبدو أن العربية لم يكن لها تأثير كبير، فيما عدا أسماء العدد المحلية التى اختفت ابتداء من «أربعة» فما فوق. ويظهر استخدام أسماء العدد العربية في بعض اللهجات المحلية مدى تأثير التجار العرب والدور الذى لعبوه في انتشار اللغة العربية. ويكتب بارت^(٧٤) حول الكانورى، «لقد تخلوا عن كلمتهم المحلية التى تعنى «مائة» وهى «ييرو» واخذوا يستخدمون الكلمة العربية ميه»^(٧٥).

ومن الكلمات العربية التى نقلها التجار العرب المسافرون «ذراع»^(٧٦) و«خلق»^(٧٧) و«ودع»^(٧٨) وغيرها من التعابير التى تمثل وسائل الدفع والمقايسة.

وباعتناق الاسلام فقد ازداد اهتمام الفولبه باللغة العربية. ويقول بارت^(٧٩) إن بعضهم كان يفهم اللغة العربية المكتوبة جيداً. ولكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث بها.

ويكتب بارت الكلمات العربية فى الغالب بالحروف الألمانية مما يساعدنا على الحصول على فكرة تقريبية عن الخصائص الصوتية للهجات العربية فى السودان على عهد بارت. وحسب ذلك فقد كانت القاف العربية (ق) تلفظ كحرف (g) اوجيم غير المعطشة بالألمانية^(٨٠)، بما يشبه لفظ بدو الجزيرة العربية. ومن المؤسف أن بارت لم يكن دقيقاً عند كتابة الكلمات بالحروف الألمانية فى بعض الحالات.

ومن الأمثلة الموجودة فى كتاب بارت ندرك خاصية مميزة من خصائص اللهجات العربية فى السودان، وهى دمج (ال) التعريف مع الاسم المعرف بطريقة تسقط فيها الألف (ا) وتصبح اللام (ل) الحرف الأول للكلمة المعروفة. وهذا ما يحدث بالنسبة لقبيلة «الانصار» مثلاً التى تدعى لنصار Lanssār.^(٨١) ويحدث الشيء نفسه كذلك بالنسبة لكلمة «Loel» لول^(٨٢). وهو اسم شخص عند

(٧٣) R. i. A.، I، ٤٥٨.

(٧٤) R. i. A.، IV، ٦٣، الملاحظة.

(٧٥) مائة.

(٧٦) ذراع؛ نفس المرجع، II، ٥٣٦.

(٧٧) خلق، ج (خلكان)؛ نفس المرجع، III، ٣٣٨.

(٧٨) نفس المرجع، IV، ٢٩٢.

(٧٩) نفس المرجع، II، ٥١٧.

(٨٠) نفس المرجع، IV، ٥٥٤.

(٨١) الأنصار.

(٨٢) الأول

(٨٣) راجع Vincent Monteil, L'Islam Noir، ص ٢٢٧.

(٨٤) R. i. A.، III، ١٢٥.

(٨٥) ص (٥٨٨) وما تلاها.

(٨٦) R. i. A.، V، ٣٠٦.

(٨٧) نفس المرجع، I، ٤٩١.

«أم البركة» (III, 52) «أبو ديج» (شجرة ذات ثمر يشبه المشمش — III, 313)
«اللبان» (Benzoin, III, 329)
«العرديب» (Tamarinde — III, 400)
«حب الملوك» (III, 400) «المست» (Zea Mays).

لقد عرضنا حتى الآن مساهمة بارت في الدراسات الشرقية بإيجاز. ومن هذه الأمثلة يدرك المرء مدى معرفته الواسعة في مختلف حقول علم الاستشراق الذي كان لا يزال ناشئاً في ذلك الزمن. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات فإن الاستشراق لم يول ما يستحقه من اهتمام حتى الآن. ولعله كان سينفى عن نفسه بتواضع صفة «المستشرق» كما كان يعتقد بأنه لا يصبح أن يعتبر عالماً طبيعياً أو عالم فلك (٩٠). وفي الحقيقة فإنه يستحق هذه الصفة، وإن كان من الصعب تصنيفه داخل نظام علمي معين دون غيره. فقد كان بارت يمثل ذلك النوع من العلماء الذين لا يقسمون العلم إلى حقول خاصة وإنما يضعون العلم كله دوماً أمام أعينهم ويقومون الصلات بالأنظمة العلمية الأخرى — لقد كان عالماً كلياً متعدد المعارف (Polyhistor)، كما كان يعرفه عهد الرومانتيكية.

وكما هو الحال بالنسبة لكل علم، فإن الاستشراق مهدد كذلك بخطر الاعتكاف والانعزال عن بقية الأنظمة والحقول العلمية. فالسودان، مثلاً، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق إلى قارة جديدة، إلى عالم جديد، يحتاج إلى مزيد من التقصي والاستكشاف. ويجب أن تنطلق الأبحاث المقبلة في هذا المجال من عمل بارت العظيم (٩١).

٤ — ملاحظات حول ما اقتطفه هاينرش بارت
من مخطوطات المؤرخين العرب ودونه
في كتاب يومياته

في أحد كتب يوميات الباحث هاينرش بارت الموجود حالياً في المكتبة الوطنية في باريس توجد بعض الصفحات المكتوبة باللغة العربية.

وتحتوي مقتطفات من كتابي «تاريخ السودان» لعبد الرحمن

الحيش، أصبح نصيبها من نفايات الطعام اليومي لهؤلاء السكان قليلاً يسيراً. ومن المحتمل كذلك أن بعض العقبان تبعت سكان المدينة؛ إذ أن هذه الحيوانات تدرّك، عندما ترى جيشاً من الرجال المسلحين يخرجون إلى القتال، أنه سيكون لها من فئات الطعام هناك ما ستقتات به. وهذه صورة معروفة من الشعر الجاهلي، وحين يقرؤها المرء لا يسعه إلا أن يذكر بيتاً من قصيدة مشهورة للشاعر الجاهلي النابغة الذبياني (٨٨):

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدى بعصائب

لقد كان أدب سكان السودان من العرب أوسع وأغنى مما تيسر لبارت الاطلاع عليه. ولم نحصل في أوربا على معرفة دقيقة حول هذا الأدب إلا عندما وقعت مخطوطات ثمينة عام ١٨٩٤ بأيدي قوات الكولونيل وفيما بعد الجنرال آرشيئار Archinard. وقد أصبحت هذه المجموعة الكبيرة اليوم ملكاً للمكتبة الوطنية في باريس. ويوجد بين هذه المخطوطات عدد من مؤلفات المصلح عثمان بن فوديو، وابنه محمد بيللو، وأخيه غير الشقيق عبد الله بن محمد والأمير الحاج عمر. وفي مقال نشره Georges Vajda بعنوان: «مساهمة في معرفة الأدب العربي في إفريقيا الغربية» (٨٩) - "Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique Occidentale". أورد قائمة وشروحا موجزة لمخطوطات المؤلفين المذكورين العربية الموجودة ضمن المجموعة.

وأخيراً فإننا نود أن نشير إلى التعابير الاختصاصية العربية الكثيرة من دنيا النبات في السودان والمنتشرة في جميع فصول كتاب بارت. ومن يهتم بالذات بعلم النباتات والعقاقير عند العرب سيجد معلومات قيمة في كتاب بارت. وادود أن أذكر هنا بعض هذه الأسماء فقط: «الدوم» "Dum" (Cucifera Thebaica—Thebanpalm; I, 419); «الحسكنيت» (Pennisetum distichum — "Chaskanit" I, 427)

«الهد» (I, 591) «حب العزيز» (Erdnuss — II, 463); «الجاوى» (Benzoe-Gummi — II, 595); «بوركب» (Panicum colonum — III, 52) «شجرة الحمل» (Avena Forskalii — II, 52)

(٨٨) عاش في النصف الثاني من القرن السادس — GAL, I, ٢٢.
(٨٩) Journal de la Société des Africanistes, Paris, Tome XX, Fascicule I, 229—237.

(٩٠) XVIII, I, R. i. A.

(٩١) راجع بيكر Becker, Der Islam, I, 177.

بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى^(٩٢) وكتاب «تزيين الورقات» لعبد الله اخى عثمان بن فوديو. وبالمقارنة بكتابات عربية أخرى من خط بارت (كفواتيره وايصالاته) فاننا لا نرى مجالاً للشك بأن المقتطفات من الكتابين المذكورين كتبت بخط بارت نفسه.

وتبلغ مساحة الصفحات المكتوبة ١٥ سم × ٨,٨ سم. أما الخط فهو مغربي. وتحتوى الصفحة الواحدة من النسخة المنقولة عن تاريخ السودان معدل ٣٦ سطراً، ومن النسخة المنقولة عن تزيين الورقات معدل ٢٨ سطراً.

وكان بارت يهدف إلى نشر هذه المقاطع من المخطوطين العربيين بأسرع وقت ممكن في أوربا، دون الانتظار حتى انتهاء رحلته الاستكشافية التي استغرقت عدة أعوام في أفريقيا الوسطى. وكان يرجو نشر المخطوطين بكاملهما بعد عودته. ولكنه لم يتمكن من ذلك لسوء الحظ، ومن المقطعين اللذين نسخهما على عجل في كتاب يومياته، لم ينشر، على حد علمي، إلا تاريخ السودان للسعدى. وقد اعطى بارت المقطع العربى المنسوخ إلى المستشرق C. Ralfs، الذى نقله إلى الألمانية ونشره في المجلد التاسع من مجلة جمعية المستشرقين الألمانية Zeitschrift der Morgenländischen Gesellschaft^(٩٣). وقد نشر الكتابان العربيان بكاملهما فيما بعد: تاريخ السودان، نشر O. Houdas بمعاونة E. Benoist^(٩٤)، وتزيين الورقات، نشر A. Brass^(٩٥).

لقد نالت الأبحاث الأفريقية بمقدار متساو بالنسبة للجغرافيا والمؤرخ والمستشرق، نالت دافعاً جديداً بفضل أبحاث ونشاط بارت. وبينما ظلت صورة أفريقيا التاريخية حتى الآن على الشكل الذى بدت فيه في الأعمال التاريخية الكبيرة لابن خلدون وابن بطوطة وليو أفريكانوس، على سبيل المثال، فقد أدى «تاريخ السودان» إلى التعريف بفترات أخرى من تاريخ أفريقيا. ورغم أن بارت جاء بمقتطفات فقط؛ ولكنها كانت كافية لإعطاء دفعات جديدة للأبحاث الأفريقية ما زالت تتغذى عليها حتى اليوم.

(٩٢) بروكلان GAL، II، ٤٦٧.

(٩٣) Beiträge zur Geschichte und Geographie des Sudan, (٩٣) Eingesandt von Dr. Barth, "p. 518—594.

(٩٤) Paris 1898, Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Documents Arabes Relatifs à l'Histoire du Soudan, 326.

(٩٥) Der Islam, 1920, X, 1—73: Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulreiches Sokoto.

ليس لمخطوطى بارت اللذين وجدا من جديد قيمة تاريخية فحسب: وإنما يقدمان سلسلة من المعلومات المغيرة والإضافات إزاء المخطوطين اللذين اعتمد عليهما Houdas و Brass فيما نشره. فالمخطوطان اللذان استخدمهما بارت من جهة والآخرا اللذان اعتمد عليهما Houdas و Brass من جهة أخرى جاءا من مصدرين مختلفين. ومما يؤسف له أنه لا بارت ولا هوداز يعطيان مزيداً من التفاصيل عن أصل المخطوطات. أما المخطوطان اللذان اعتمد عليهما Brass لكتابه المنشور فيعود اصلهما إلى حملة Frobenius الاستكشافية (F) ومجموعة المستشار السرى Meier من لاينزغ (M). وتتفق بعض الافتراضات التي قدمها Brass مع طريقة القراءة التي قدمها بارت فيما نسخه، بحيث تبدو هذه معتمدة على أصل أفضل. وبعض الاختلافات في نص بارت هي اخطاء وقع فيها بارت بسبب العجلة الشديدة التي كان ينسخ بها، وبسبب الظرف الصعب الذى كان خاضعاً له أثناء ذلك.

يضم ما اقتطفه بارت من تاريخ السودان ٢٢ صفحة من كتاب يومياته، ثم يتوقف في منتصف الكتاب تماماً^(٩٦). ويكتب بارت في نهاية مخطوطه في يومياته: «إنه خليف بكثير من المعرفة الاختصاصية»، إلا أنه يضيف عند اتصاله برالفيس^(٩٧): «لقد كانت رواية انهيار مملكة سونراى هذه محزنة بالنسبة لى إلى درجة توقفت عندها عن مواصلة النسخ».

ومما يؤخذ على ما نسخه بارت أنه كان يقتطف في بعض المواضع دون ترابط كاف. فكان يتوقف في وسط الجملة ثم يواصل النسخ من جديد، حيث كان الأمر يبدو له أكثر نفعاً وجدوى، دون أن يترك ما يشير إلى انتقاله من موضع إلى آخر. وبسبب جهله بالنص الكامل فقد كان رالفيس مضطراً إلى تقديم ترجمة ناقصة جداً، كان يرصف الجمل في بعض المواضع دون أى ترابط أو تسلسل.

أما مقطع بارت من كتاب تزيين الورقات فيضم ما يزيد على السبع صفحات من كتاب يومياته. ويبدو هنا مزيد من الدقة في الاقتطاف، كما أن الخط أوضح منه في تاريخ السودان. وقد وضع هنا، كما وضع هناك أيضاً، خطأً تحت الأسماء العلم.

وتختلف المخطوطات التي اعتمد عليها بارت وبراس في بعض الأسماء بسبب كتابة الأسماء غير العربية بالحروف

(٩٦) طبعة Houdas، ص ١٥٨، سطر ١٢.

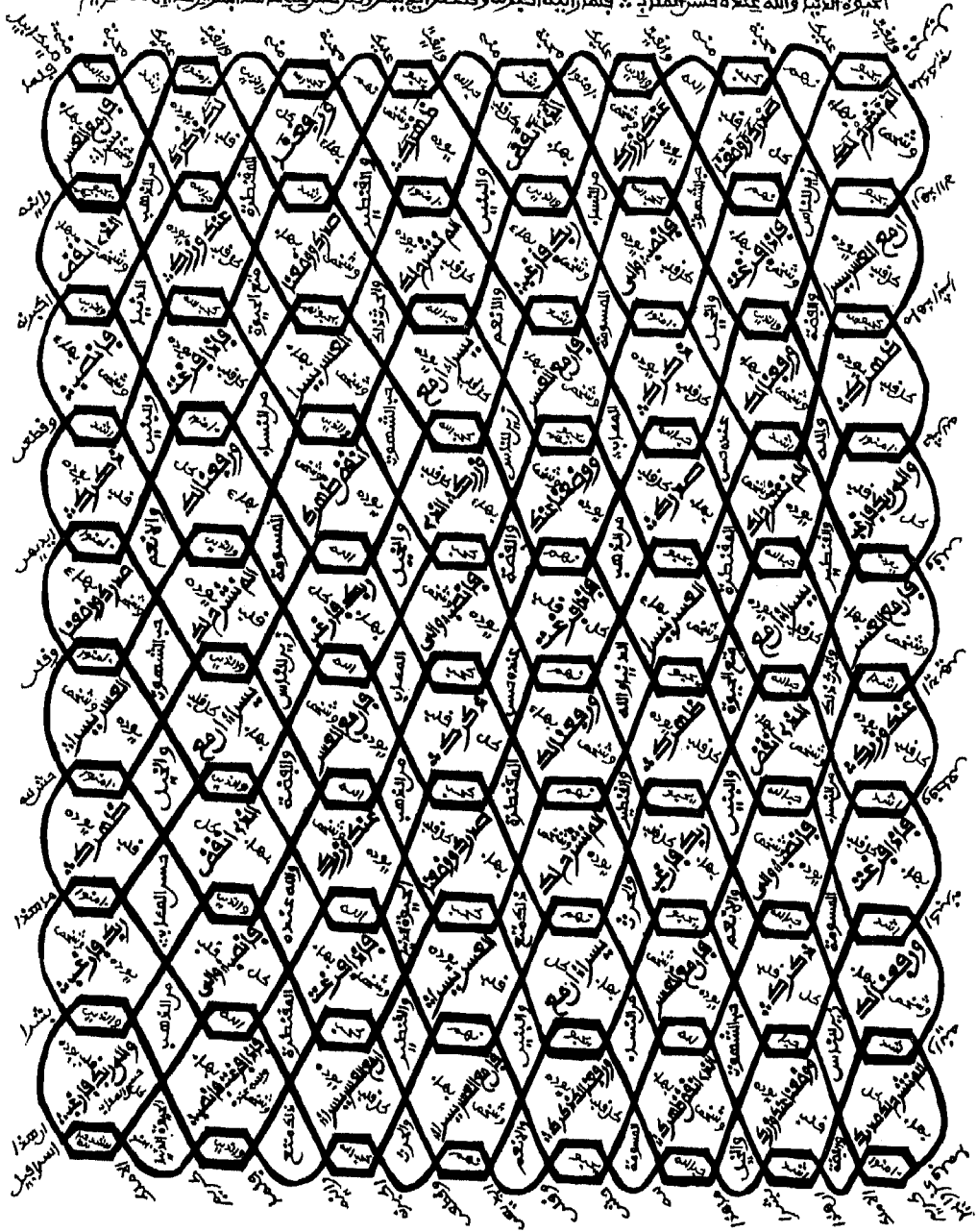
(٩٧) ZDMG، IX، 594، ملاحظة 147.



تمويذة من «كانو» Kano (نيجريا) ◀

تمويذة من «كانو» Kano (نيجريا)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم، فإبارة العجوة الناس كلهم اجمعين رحلا او تسلا، صغيرا او كبيرا
 ومركبته وشربه او علقه نصره الله وفتح له ابواب الجنان في الدنيا والاخرة ومركبته وشربه شقاه الله من كل مرض ومن
 شره مع العسل الابيض لما في ريقه من قوة الله الصبية في غير التلويح وروحه الله في الدنيا او يرزقه رزقا حسنا وما راد
 ان يجمع الناس عده في بيع وشراء او غيره فليكتب هذه الجنات ثم وشربه او علقه يري حبيدا ارشاه الله مع هذه الجنات وهي
 رقائق من حب الشهوة من الشس، والينير والقطير المفنطرة من الذهب والفضة والنجار المسومة والا ناعم والحرث في ذلك منع
 الجنوة الدنيا والله عتقه من قس يقابل به. فامتنز بية اجتهده وقطع رايه بغير وقتر قس لايه ما هذا البشر اله الا فلك فيهم



اللاتينية. فصول ج (g) يعطى في مخطوط بارت بحرف (ق) العربي، وفي مخطوطة F و M اللتين استخدمهما براس بحرف (غ) العربي (قوبر - غوبر).

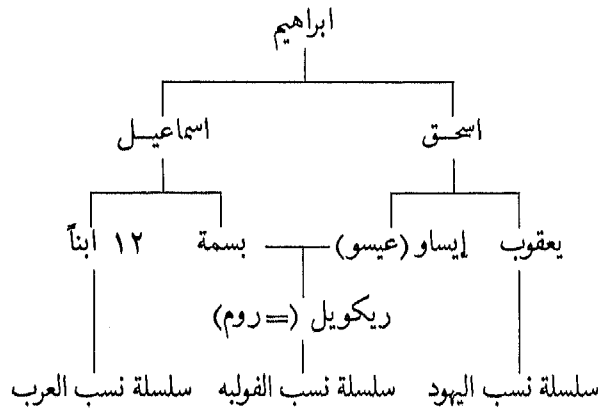
وفي كل من مخطوطة بارت وبراس فإن النص يخلو من أبيات الشعر العربية المكتوبة بين فصول الكتاب، وكذلك من الشروح الخاصة بها. وفي مكان واحد فقط ينقل بارت شرحاً لأبيات لم ينسخها، ربما بسبب بعض الأسماء الجغرافية.

ويظهر النصان العربيان لدى براس من صفحة ٢٤ إلى ٢٦ بينما يظهران لدى بارت في نهاية المقطع. ويخلو نص بارت، باستثناء بعض المواضع، من المقاطع العربية التي نشرها براس على الصفحات ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٣. وهي تشتمل في الغالب على معلومات حول تاريخ الإسلام في هذه الأجزاء من السودان وكانت بالنسبة لبارت، كما لاحظ هو، قليلة الأهمية.

وتبدأ مخطوطة بارت بتاريخ نسب للقبيلة غير معروف حتى الآن يجعل من روم، ابن إيساو، جد القبيلة الأصلي. ثم تتلو ذلك ملاحظات طريفة عن لغة القبيلة. وأقدم فيما يلي النص الذي لا تحويه مخطوطة (F) ولا (M)، أقدمه بصورة مطابقة للأصل:

«هم تورب الذين جاؤا من فوت وهم فيما نسمع هم اخوان جميع الفلانيين ولغة الفلانيين لغتهم لأن عقبة بن عامر المجاهد الذي فتح بلاد الغرب زمان عمرو بن العاصي جد(؟) مصر وصل اليهم وهم قبيلة من قبائل الروم فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة ابنة ملكهم اسمها يج مغ فود الفلانيين جميعا هذا ما تواتر عندنا واخذنا عن الثقة الذين يخرجون من بلاد فوت اعنى العلماء فتكلموا بلغة أمهم ولم يعلموا لغة أبيهم لقلة من يتكلمه هناك في ذلك الوقت والأقرب أنهم تعلموا بلغة أمهم وليست لتورب لغة أصلية غير تلك اللغة والله اعلم وتعلمت(؟) ان الروم هو بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهما السلام وامه نسمة بنت اسماعيل عليه السلام قال ذو النسيين في كتابه التنوير: ولد اسماعيل عليه السلام اثني عشر رجلا وامرأة واحدة عمن اولاده نشر الله العرب كلها فلما حضرته الوفاة اوصى الى اخيه اسحق ان يزوج ابنته نسمة من العيص فزوجها منه فولدت له الروم وكان الروم اصفر فسميت بنوه بنا الاصفر...»

لقد جعل المؤرخون العرب منذ القدم البطارقة اى ابراهيم واسماعيل على رأس تاريخ النسب العربي. ويظهر المثل أن القبيلة أيضاً اتخذت مع الإسلام عادة اشتقاق نسبهم من نظام النسب العربي التقليدى وذلك بخلق سلسلة نسب وهمية.



وكما تظهر شجرة النسب، فإن تاريخ النسب العربي يماثل في القسم الاساسى منه التقاليد اليهودية التي استقى منها. واسم نسمة العربي(؟) الوارد عند بارت قد يكون ممثلاً لاسم بسملة اليهودى، حيث أن نقطة الباء قد تكون جعلت للنون خطأ. وقد يكون اسم عيص Is(؟) لدى بارت كتابة خطأ لعيسو (= Esau).

وبالنسبة للمكان الذى جاء فيه «وكان الروم أصفر» فهناك ما يشبه ذلك لدى هشام بن محمد الكلبي (المتوفى عام ٨١٩ أو ٨٢١ ميلادية) وهو من ثقافة التاريخ والأنساب العربية القديمة. وقد أشار لها كتاب الأغاني لأبي فرج الاصبهاني (المتوفى ٩٦٧ ميلادية)، في المجلد ١٢، ص ١٥٠. فهناك يجرى الحديث عن رجلين، قيس بن عاصم، وعمرو بن الاهتم، كان الواحد منهما يتهم الآخر أمام النبي محمد بأنه ليس من أصل عربي. و«زعم عمرو بن الأهم أنه (أى قيس) انحدر من صلب الروم؛ فقد كان أحمر». وفي هذا المثل يتضح التقليد اليهودى كأصل استندت عليه الحادثة: ففي كتاب التوراة باب ٢٥، جاء أن عيسو كان محمراً منذ الولادة. وبما أن أسماء الألوان السامية تتغير كثيراً فمن الممكن اعتبار «الأحمر» و«الاصفر» كقيم لونية متماثلة.

ترجمة: محمد على حشيشو

فريدريش روكرت

(١٧٨٨ - ١٨٦٦)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

وكان هذا الرأى جديدا مثيرا لمناقشات عنيفة بين اساتذة اللغة، ولكن العالم الشاب لم يبرح مداوماً على اعتقاده هذا حتى انه بعد ذلك بسنوات طويلة أفاد برأيه في ان الروح الألمانية وحدها هي التي تتمكن من استيعاب خزائن الآداب الأجنبية طرا، دون ان تضيق مع ذلك خصائصها الذاتية، مثلها في ذلك مثل تقبل المرأة البلورية للالوان والأشكال بلا تفريق، ثم لاذ بها تعكسها عكسا تاما بينما لا تزال بلورا صافيا ...

لم يحب روكرت الحياة الجامعية ولا التدريس ولذلك ترك جامعة بينا وعاش كشاعر حر، وكان ذلك في زمان حروب الاستقلال في ألمانيا، فنظم قصائد دعى فيها قومه لمقاومة نابليون وما زالت بعض هذه الاشعار مشهورة حتى يومنا هذا نظرا لما تذخر به من حب الشاعر لوطنه ونفوره من المعتدى الأجنبي ... وفي تلك الفترة قام روكرت بتأليف المسرحيات، مستمدا بعض مواضيعها من الأساطير الشرقية او حكايات ألف ليلة وليلة، ومع أنه كان لا يجيد على الاطلاق تأليف الروايات التمثيلية، لاسيا وأنها كانت تخرج من بين يديه خالية من الحياة فقيرة إلى القيم الجمالية، فانه لم يبرح التأليف في هذا اللون الأدبي طوال حياته حيث دون فيه ما دون، فن مسرحية دعاها «نابليون» الى موضوعات مأخوذة عن التوراة والتاريخ الألماني. وكانت آخر تجربة له في مجال التمثيلية ملهمة عن التاريخ الأرمني القديم ...

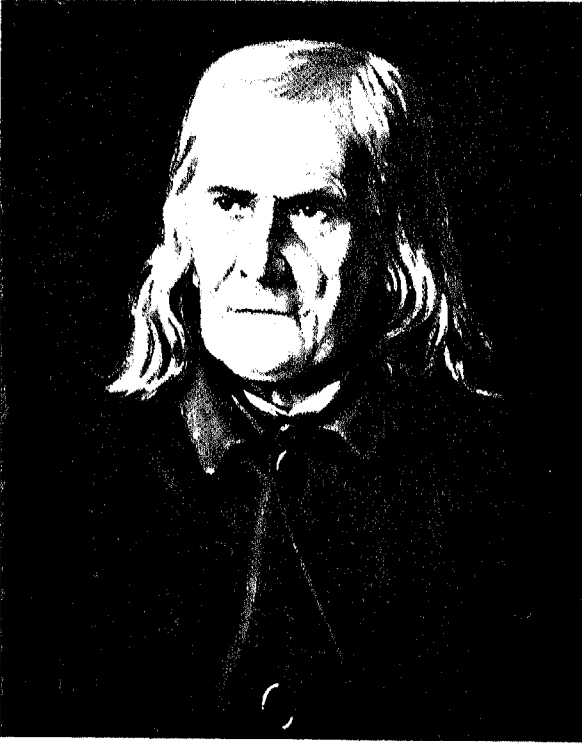
سافر روكرت الشاب على عادة معاصريه الى ايطاليا حيث اقام هناك لمدة من الزمان ولكنه لم يكن شغوفا بهذه المملكة كما أننا لا نعثر في كتبه على آثار لهذه السياحة الا في أشعار معدودة. ولكنه عند عودته الى الشمال زار مدينة فينا التي عاش فيها «يوسف فون هامر - بورجستال» أستاذ اللغات الشرقية؛ وكان روكرت قد عزم على الالتحاق بالأكاديمية الاستشراقية في فينا، عندما أشرف على التاسعة عشرة من

توفي الشاعر المستشرق فريدريش روكرت Friedrich Rückert منذ قرن واحد، او على وجه التحديد في ٣١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٦٦.

والحق انا لسنا ندرى أكانت عبقريته أكبر في مجال الشعر ام في مضمار اللغات الشرقية، ولعله مما يبعث على الأسف ان هذا العالم الفذ لم يحظ بتقدير مواطنيه فما زال الشعب الألماني يجهل حتى الآن الكثير من أعماله في حقل الاستشراق، خاصة وأنه كان ذا باع طويل في ترجمة الآداب الشرقية الى الألمانية حتى أنه ليس من اليسير حصر كل ما ألف من أشعار وما ترجم من أعمال. ولقد أقبل الشعب الألماني في القرن التاسع عشر على قراءة وترديد أشعار روكرت التي مجد فيها الأسرة؛ ومن اشهرها بعض الأبيات العذبة التي كان يترنم بها الأطفال في المانيا الى يومنا هذا؛ كما ان لروكرت انتاج غزير من الأشعار الغرامية التي ألهم بعضها الموسيقار الموهوب «شوبرت» مما دفعه الى تصنيف ألحان لها. وعلى الرغم من ذلك لم يدرك الجمهور أن شاعره المحبوب كان في الوقت نفسه مترجما عبقرى الإلهاب، بندر أن يوجد مثله على مر العصور. ورغم كل هذا فأحيانا ما كان روكرت يشكو حاله بقوله :

لا يثير النفوس ما أوحىني به آلهة الشعر ...
ولا يلتفت العلماء الى ما ألفت في مضمار اللغات ...

ولد فريدريش روكرت سنة ١٧٨٨ عن عائلة حاكم في مدينة «شفاينفورت» في شمالي بافاريا، وكثيراً ما وصف في اشعاره النهر والحقول والبساتين والغابات التي كان يلهو ويعود فيها وهو طفل. وعندما شب درس اليونانية واللاتينية في جامعتي هايدلبرج وبينا ودافع عن أطروحته في اللغات القديمة وفلسفة اللغة التي تقدم بها سنة ١٨١١؛ وقد انتهى في هذا البحث العلمي الى ان اللغة الألمانية تشتمل على إمكانيات سائر اللغات بأجمعها فتشكل بذلك اللغة المثلى التي في إمكانها أن تبنى خصائص كافة الألسن.



فريدريش روكرت في خريف عمره.



الشاعر فريدريش روكرت في شبابه
نقدم شكرنا لبنت حفيد روكرت، السيدة باربارة شوخس Barbara Schöx
في كرافنار التي قدمت لنا هذه الصورة التي لم يسبق نشرها.

ولما كان دخله كشاعر حر وعالم مستقل لم يكف لسد نفقات عائلته فقد اضطر لأن يبحث عن وظيفة معلم في مدرسة او مدرس جامعي على الرغم من أنه كان يكره تلقين الدروس. وبعد مدة عينته جامعة «إرلانجن» في بافاريا الشمالية أستاذا للغات الشرقية مع أن بعض أعضاء ذلك المعهد العلمي كانوا قد رفضوا تعيين رجل اشتهر كشاعر ولم ينشر مؤلفا ما في فقه اللغة ولا في تاريخ الشرق ... ظل روكرت في هذا المنصب الى أن دعاه الملك البروسي الى جامعة برلين سنة ١٨٤١؛ وكان جد سعيدا باقامته في مدينة ارلانجن وسط كتبه وبين عائلته، وقد ترجم في هذه السنوات قسماً كبيراً من الأشعار العربية المشهورة، ومنها اشعار الحماسة لأبي تمام بكاملها فضلاً عن ترجماته عن الآداب الهندية والفارسية، وقد نظم آلاف الأشعار التي تدور حول تجاربه الذاتية وبستانه الذي كان مغروما به وكل ما حدث في عائلته التي كان متفانيا في حبها (وتوجد له أكثر من مائة قصيدة قرضها في رثاء طفلين من أبنائه) كما نشر قصائد وحكايات منظومة استمد مواضيعها من كتب التاريخ الإسلامي. وقد جمع روكرت

عمره، ورد طلبه آنذاك لتجاوزه السن القانوني للقبول. وهنا يتعلم روكرت أصول العربية والفارسية في أسابيع قليلة على يدي الأستاذ هامر - بورجستال الذي أهده قبل مفارقتها خاتماً وبضعة كتب. من هنا تبدأ حياة روكرت الفعلية التي تجمع بين فنون الشعر وعلوم اللغة .. وهكذا أقام العالم عدة سنوات في مدينة صغيرة مكبا على نسخ ما جاءه من الكتب والمخطوطات الشرقية والاقتباس عنها؛ فقد كان فقيراً لا يستطيع ابتياع هذه الكتب الاستشرافية كلها، ومع أنه كان يشكو كونه «معزولاً عن اسواق العلوم الشرقية» فقد وضع في تلك الفترة أساساً متيناً لآثاره المستقبلية، ولم يكتف بنسخ الكتب بغاية الاجتهاد فحسب بل أضاف الى المتون ملاحظاته الشخصية وصحح أخطاءها كما ترجم ما استحسنه من كل المتون التي قرأها. وصاغ بقلمه أشعاراً على نمط اسلوب الشاعر المتصوف مولانا جلال الدين الرومي، وأخرى تعكس روح الحافظ الشيرازي، وأخذ يترجم القسم الأكبر من القرآن الكريم؛ وعندما نشر «سيلفستر ده ساسي» مقامات الحريري سنة ١٨٢٢ ترجمها روكرت ترجمة رائعة قريبة من الاعجاز ...

№ 5 Lang-am Du bist die Ruh. (F. Schöberl, Op. 9)

Singstimme

Piano Forte

Ruh der Freude mild, die Sehnsucht du und was sie stillt, Ich wei, he dir
volltast und Schmerz, zur Wohnung hier mein Aug und Herz, mein Aug und Herz.

نشيد كلماته من تأليف الشاعر فريدرش روكرت (من ديوانه «ورود الشرق») وتلحين الموسيقار فرانس شوبرت (المتوفى عام ١٨٢٨)

التأمل والملايالام، والبربرية، والأرناوتية، والفنلندية، والسورية، والأرامائية والحبشية، والقبطية ...
وقد حكى احد ابناء روكرت أن أباه قد تعلم نحو الخمسين لغة. كما نتبين من مذكرات أولاده ومن أشعاره هو أن هذا العملاق كان إذا اراد درس لغة ما كرس لها نفسه لمدة لا تزيد على الستة او الثمانية أسابيع بحيث لا يلتفت في تلك الفترة الى اى لغة أخرى ويظل هكذا حتى يفهمها ويدرسها ويترجم عنها. وقد حدث ولده ان قساً سأله في شهر تموز (يوليو) ان يدرسه اللغة التاميلية - وهى من اللغات الهندية الجنوبية الصعبة - وكان الأستاذ يجهلها، ولكنه وعد الرجل أنه سوف يعلمه اللغة المذكورة في تشرين الثانى... ولم يوجد عند روكرت سوى انجيل مكتوب بالتاميلية وبضع ملاحظات قديمة لسائح اوروبى .. ووصف هو في شعر له كيف ابتداء بدراسة هذه اللغة «بسم الله» باحثاً عن اسم «الله» الذى لاشك انه موجود في الانجيل، وبعد أن عثر على الاسم العلى سهل عليه فهم كل ما حوله في المتن من «السموات والأرض» ... وهكذا

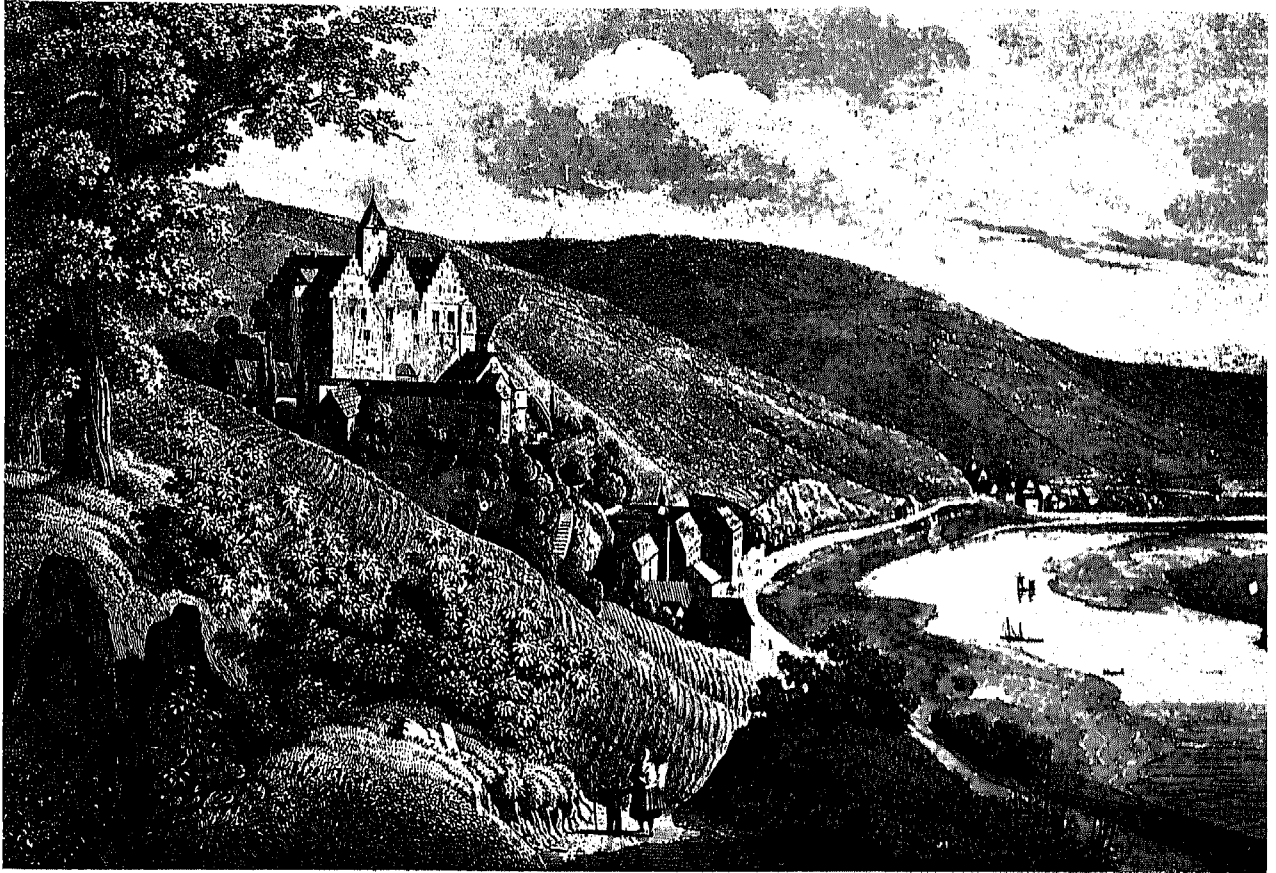
منها مجموعتين تحتويان على حكايات وأشعار حول الأحداث الهامة في تاريخ الاسلام، وعلى أجزاء من بعض رسائل الفلسفة والتصوف مصاغة كلها في لباس أشعار ألمانية رقيقة. ومن اطلع على هاتين المجموعتين الشعريتين وعنوانهما:

Sieben Bücher morgenländischer Sagen
und Geschichten;
Erbauliches und Beschauliches aus
dem Morgenlande

وجد فيهما مضمونا قيميا في أبهى شكل وأبداع تصوير. كانت مكتبة روكرت شاملة على كتب في لغات بلا عدد، وقد وصفها الشاعر نفسه قائلا إنها تحوى مؤلفات باللغات التالية:-

اليونانية والألمانية واللاتينية والصقلية والرومانية والفارسية والسانسكرتية والتركية والعربية ...

وزد على ذلك مراجع أخرى بالعبرية والكردية والأرمنية والبشتو والفارسية القديمة، ولغات جنوبي الهندستان مثل



لودفيج ريشتر : قصر ماينبرج. Ludwig Richter: Schloß Mainberg.

وكثيرا ما كان روكرت يزور اهل هذا القصر القريب من موطنه.

نشكر السادة المشرفين على ارشيف فريديش روكرت، بمدينة شفاينفورت ومطبعة فريت بها لتصريحها لنا بنشر هذه الصورة.

راجيا ان يمتنع الطلاب عن الاشتراك في الدرس بعد أن جعل موعده قبل طلوع الشمس.

وكان لدى روكرت خاصية أخرى ألا وهي أنه لم يعن بأشكال الكلمات على ما ينبغي بل كان يقرأ بعضها ملحنا في التلفظ بها، وكان في شيخوخته قد نسي النطق الصحيح لعدد من الكلمات مع أنه كان يحفظها عن ظهر قلب ويجيد كتابتها. ذلك أنه لم يسافر قط الى بلاد الشرق ولم يشاهد رجلا من العرب او الفرس او الهنود طوال عمره، وكان تعلمه قاصرا على الكتب وحدها ... واهتم روكرت بالدراسات اللغوية المقارنة كما هم بتأليف كتاب عن النحو المقارن للغات السامية حتى أنه قد تجاسر على المقارنة بين اللغات السامية والاندوجرومانية إلا أنه لم ينشر محصول بحوثه ولم نر نحن معشر المستشرقين في هذه الابحاث فائدة علمية، بل نعتبرها ثمرا لشطحات الخيال الرومانتيكي.

اما روكرت فكان هدفه الأعلى من هذه البحوث غير علمي وهو البرهنة على أن اللغات كلها فروع من أصل واحد وأنه من عرف الكثير منها وجد مفتاحا الى قلوب الناس

تعلم التاملية واستطاع ان يعلمها في تشرين الثاني ... !

وكان روكرت كلما درس لغة جديدة عاش فيها حتى أنه كان يتكلم بها في أحلامه على ما وصف هذا الحال في ابياته.

ولكنه من الغريب انه لم يكن معلما موهوبا فقد قصر عن فهم ما اعرض تلامذته من المشكلات، وحكى أحدهم وهو «باول ده لاجارد» أن روكرت لم يكن يدرس على الطريقة المعروفة التي تنهج الى توضيح المسائل من الوجهة اللغوية والنحوية كما كان لا يهتم بفقه اللغة كعلم مستقل، ولم يلحق تلامذته قواعد الصرف والنحو بل كان يشرح المتن لطلبته كما يبينه للأطفال عند بدء تعلمهم اللسان .. وبذلك كان يأخذ بيد التلميذ الى قلب اللغة ليتعرف على أسرارها وتوافق العبارات فيها وتشابك الكلمات. وأحيانا كان يترجم الشعر العربي او الفارسي الذي قرأه على طلبته ارتجالا في شكل منظوم .. وسعى روكرت الى الحد من عدد ساعات محاضراته على قدر الامكان، حتى أنه أحيانا ما عين ميقات بدء دروسه الجامعية في السادسة صباحا (11)

فأقام روكرت لمدة سبع سنوات، ثم عاد متقاعدا الى موطنه البافارى عام ١٨٤٨، وعاش هناك وسط كتبه فى داره المحاطة بالبساتين الى أن فاضت روحه فى ٣١ يناير ١٨٦٦.

قال روكرت واصفا موهبته الخاصة أنه احب اللغات فى حد ذاتها وأنه يعجب ويسر باللغة كلغة؛ ولا نجد فى الغرب شاعرا أقرب منه الى روح الشرق. كما كان له استعداد فائق التعبير عن المفاهيم والمعانى، ومع تبحره فى اللغات الشرقية كان ولوعا باللغة الألمانية التى تعمق فيها حتى ألم باشتقاقاتها الغائبة؛ كما وضع ألفاظا لكل من الكلمات العربية او الهندية التى لم يوجد مقابلا لها بالألمانية. وقال فيه أحد فقهاء اللغة «لو أن اللغة لم تكن موجودة فى عصره لصارت لروكرت اليد الطولى فى ايجادها وتشكيلها».

ومن الغريب أن روكرت لم يأت بالترجمة المنثورة، ولكنه كلما قرأ بيتا او قطعة مسجعة ترجمها فى الحال نظما او سجعاً، ونعثر لذلك على تراجمه المنظومة فى وسط المتون النحوية. وهو يعلق على ذلك بقوله :

«إن صنعة الترجمة هى ان ترى كيف تبدل أرواح المعانى فى أثواب الكلمات».

وهو لم يعبر عن فكرة واحدة له بشكل منشور بل اعترف قائلاً «إن الدنيا ليست عندى إلا مادة للشعر...»

وكان فكره وشعره شيئاً واحداً، فلم يفكر الا وهو ينظم حتى وصف أبسط أحداث حياته فى شكل رشيق، ومن ذلك أنه ألف ٣٨ قصيدة فى حدث غير هام ألا وهو سقوط الثلج فى أحد أيام نيسان وهو أمر نادر الحدوث فى ألمانيا...

ومن أقواله : «أن الدنيا تنعكس فى بلور الشعر وتبتجج به»، ولذلك لم يبرح يترجم بأبياته الى أن انتقل إلى رحمة الله.

ومن الطبيعى أن هذه الفعالية غير المحدودة انتجت أبياتا عديدة لا قيمة لها، وكثيرا ما ترجم هذا المستشرق الفحل بيتا واحدا مرتين أو أكثر وهو فى ذلك يسخر من نفسه بقوله :

«.. وإن والد أشعارى

هو عدم الحافظة

وأما هى النسيان...»

وكانت موهبته الشعرية مشابهة لموهبة شعراء الشرق إذ كان يحب اللعب اللفظى كما كان يرى

«أن اللغة فى بدايتها كانت لعبا بالكلمات والمعانى

فدعنا نلعب نحن أيضا بها...»

Ermutigung zur Uebersetzung der Hamäsa.

(1828.)

Die Poesie in allen ihren Zungen
ist dem Geweihten Eine Sprache nur,
Die Sprache, die im Paradies erklingen,
sch sie verwildert auf der wilden Flur.
Doch wo sie nun auch sel hervorgebrungen,
von ihrem Ursprung trägt sie noch die Spur:
Und ob sie dumpf im Wüstenglutwind stöne,
es sind auch hier des Paradieses Töne.

Die Poesie hat hier ein dürftiges Leben,
bei dürftigen Herden im entbrannten Sand,
Mit Blüthenstaub und Schattenduft umgeben,
mit Abendröth gelöscht den Mittagbrand,
Verschönt, versöhnt ein leidenschaftlich Streben
durchs Hochgefühl von Sprach- und Stammsverband,
Und in das Schlachtgeräusch liebt selbst gewoben,
die hier auch ist, wie überall, von Oben.

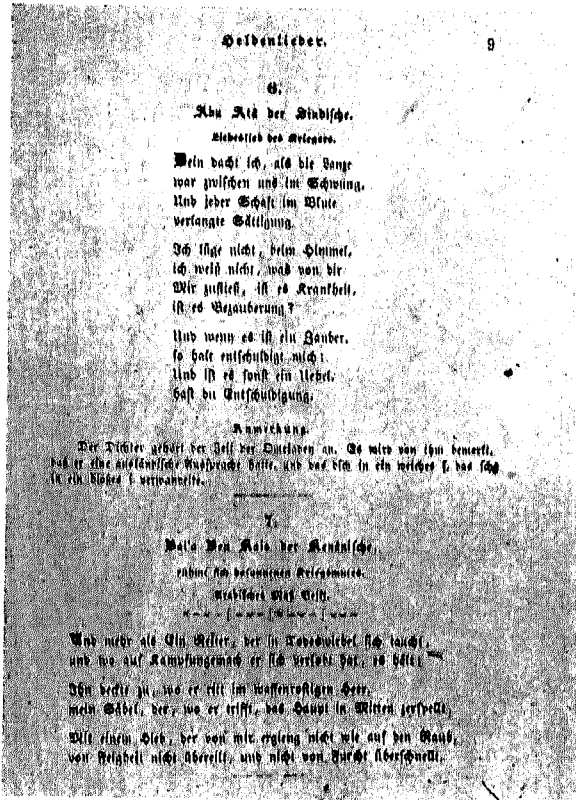
مصحفة انشد فيها روكرت قصيدة موحية صدر بها ترجمته الألمانية لكتاب الحماسة.

واستطاع ادراك الوحدة الأصلية للبشرية، تلك الوحدة الكامنة تحت ستار اللهجات المختلفة؛ وكان مقتنعا بأن اللغات لا تعدو فى مختلف اشكالها ان تكون إفصاحا عن الروح الالهية المطلقة (الواحدة) التى تنعكس فيها على وجه ثلاثى : فى الفرع السامى للغات وفى الفرع الاندوجرمانى وأما الفرع الثالث فيشتمل على كل ما تبقى من الألسنة، من الصينية الى لهجات القوقازيين. ولا شك إن هذه الأفكار لا أساس لها من الواقع ولكنها بنت التخيلات التى كانت سائدة فى ذلك العصر فى ألمانيا، ومع ذلك فهى تدل على مقصد روكرت الأسمى وهدفه الأعلى وهو أن يثبت بواسطة بحوثه العلمية وتراجمه الشعرية عن اللغات الأجنبية وحدة الاحساس عند كافة الأقوام، وأن يبرهن بذلك على أن العشق هو هو فى الأقاليم السبعة وفى قديم الزمان وحديثه ولذلك كتب عند ترجمته لأشعار «الحماسة» أبياته العجيبة القائلة :

إن الشعر فى اللغات جميعها

لغة واحدة لدى العارفين...

كل ذلك وهو أستاذ فى جامعة إرلانجن. اما فى برلين



ذكرت لك والخطي يخطير بيننا
وقد نتهلت من المقتطف السمر
فواش ما ادرى وإنتى لصادق
اداء عرائى من حبابك أم سيحتر
فإن كان سيحتر فاعذرينى على الهوى
وإن كان داء غيرته فلك العذر

قال بلعاء بن قيس الكناني

وفارسى في غمار الموت منفتيس
إذا تألى على مكروهة صدقنا
غشيتيه وهو في جأواء باسلة
عشيتبا اصاب سواء الرأس فانشلقا
بضربة لم تكن مینتى مخالسة
ولا تمجئتبا جتنبأ ولا فرقنا

صحيفة من ترجمة روكرت لكتاب الحاسة، تحتوى على قصيدتين عربيتين حيث يرى القارئ ان المترجم قد وفق كل التوفيق في محافظته على روح النص حتى انه ابدع في محاكاة بحر البسيط في ترجمته.

على العموم والألمان على الخصوص يعرفون الشعر ذا القافية الواحدة فان الشعر الألماني أقرب الى الموشح او المربع او المسدس الخ. وجدير بالذكر أن القافية في اللغة الألمانية لا تشكل بحرف واحد بل هي مركبة من تكرار مقاطع معينة من الكلمة او من كلمات كاملة ذات وقع واحد. اما المستشرقون فعندما عثروا على هذا الطرز في الآداب الاسلامية ظنوا أنه غير قابل للتطبيق في اللغة الألمانية لأنها «فقيرة في القوافي» وأن استعمال كلمات مقفاة بقافية واحدة

سيكون مطرد النغم، قبيح الصوت، صعب الفهم... ولكن روكرت بين ان تطبيق هذا اللون الشعرى في اللغة الألمانية ممكن كل الامكان، فأعتبرت غزلياته هذه مثالا في الجمال والرشاقة، وهى خفيفة القافية، حلوة الصوت والايقاع، عميقة الأفكار... ولم يلبث روكرت وصديقه «بلاتن» يستعملان طرز «الغزل» الوحيد القافية في أشعارهم حتى أخذوا عنهما شعراء آخرون وصار بذلك أسلوبا معروفا في الغرب أثناء اواسط القرن التاسع عشر.

أما قصائد روكرت التي نشرها تحت اسم المتصوف الاسلامى فلم تكن بمشابة التراجم الحرفية بل هي ملهمة من تراجم الأستاذ هامر - بورجستال التي نشرها في كتابه

لم يكن روكرت شاعرا رومانتيكيا يذوب في غرام لانهائي او يريد الحصول على الكواكب الدرية لينثرها تحت قدمي معشوقته بل كانت فنون الشعر في اعتقاده لعبا روحانيا ظريفا بديعا حتى انه يقول في بعض أبياته :

«الشاعر مثله كالبهلوان يمشى على حبال الكلام...»

وان هذا الاستعداد الاكروباقي هو الذى مكنه من تراجمه الفائقة التي لا شبهه لها في الدنيا بأسرها .

والآن فلنجمع أطراف فعالية روكرت في حوزة الآداب الفارسية والعربية ولندع تراجمه من اللغات الهندية وإن كان عددها أكبر من تراجمه كلها عن اللغات الاسلامية، فهي نعد بالآف. ولا نذكر كذلك أبياته المأخوذة من ترجمة لاتينية للشاعر الصينية القديمة ..

وصف روكرت الشعر العربى والفارسى بأنهما معشوقته ابحمىلتان وفي الحقيقة أنه كان لهما عاشقا صادقا من أول حياته الى آخرها ! كان اول ما نشره روكرت في حوزة الاستشراق مجموعة صغيرة سماها «من ديوان مولانا جلال الدين الرومى» (١٨١٩) وأدخل في هذه الأشعار النفيسة طرز الغزل في الآداب الألمانية، ولم يكن الشعراء الاوروبيون

«تاريخ الآداب الفارسية» وكان قد اعطاه لتلميذه هذا اثناء إقامته في فينا. ومع ذلك تعكس أشعار روكرت روح مولانا الرومي بكمال الصداقة ولم تزل تعتبر أجمل مرآة في الغرب لأفكار هذا الصوفي العظيم وإن كان الكثير من المستشرقين وغيرهم من أهل العلم قد قاموا بترجمة بعض آثاره. وكان روكرت على حق إذ أشار في أول هذه الغزليات الى معشوق مولانا جلال الدين وهو شمس الدين التبريزي المذكور اسمه في كل من أشعار الرومي :

«النور في المشرق، وأنا في المغرب
مثل جبل ينعكس على ذروته الضياء
إنني القمر الأشهب لشمس الجمال
فاصرف عني النظر، وانظر الى وجه الشمس ...»

وقد عني روكرت في الوقت نفسه بأشعار حافظ الشيرازي وكان إذ ذاك تأثير حافظ على شاعرنا جوته قد أتى بثمرة بديعة تمثلت في ديوانه «الغربي - الشرقي». وقصد المستشرق الشاعر كذلك الى تأليف رسالة شعرية في هذا الطرز إلا أنه علق أهمية كبرى على الخصائص الجمالية في الأسلوب الفارسي حتى أنه قام بتقليد الجناس واللعب اللفظي وكتب الى ناشر كتبه قائلاً :

«إنه من استوعب الروح الموجودة في أشعار جوته والشكل الظاهري في مولتي هذا وأضاف الى هذين الجوهرين الكتلة الجسمانية كما توجد في آثار هامر عسى أن يستطيع ادراك ماهية الشعر الفارسي دون أن يعرف الفارسية.»

وكان كتيب روكرت المدعو «ورود شرقية» (صدر سنة ١٨٢١، Östliche Rosen) يحتوي على أشعار رائعة البهاء بيد أن الشاعر كان يستعمل فيها ألعاب لفظية وقواف غير مألوفة، ورغم ذلك فإن القارئ الألماني لا يستغرب هذا الطرز بل أنه يسهج لحسن الإيقاع وسهولة النغمات، وليس من العجيب أن جوته الذي - مع كل ميله الى حافظ الشيرازي - لم يستحسن تقليد الغربيين للأشكال الشرقية كان قد نصح أهل الموسيقى أن يضعوا ألساناً لهذه الأبيات التي تبعث على الغناء ... بعد نشر كتابه هذا بأربع سنوات طبع روكرت بعض تراجمه لرباعيات حافظ، واستنسخ متن ديوانه كله، ونفهم من عدة أبيات في دفتر المسمى «يوميات شاعرية» أن الشاعر الفريد الإيراني لم يزل صديقه الروحاني حتى في شيخوخته، ولكن لم يكن أحد من زملائه على علم أن روكرت كان قد ترجم قسماً

غير صغير من ديوان حافظ الى ان نشر تلميذ له وهو «لاجارد» الأنف ذكره سنة ١٨٧٧ (أي إحدى عشر سنة بعد وفاة أستاذه) ٤٢ من الغزليات رويها من الرأى الى الياء و٢٨ رباعيا كان روكرت قد اهداها اياه سنة ١٨٤٧، وقد عثر الدكتور «كراينبورج» Kreyenborg على بواقي هذه الترجمة وهي ٨٥ شعرا رويها من الألف الى الدال، ونشرها سنة ١٩٢٦، وتعتبر هذه الترجمة قمة في الصدق والروعة والجمال وليتها جمعت في ديوان واحد بدلاً من كونها الآن متناثرة يصعب العثور عليها في المكتبات ...

كانت عادة روكرت أنه اذا اشتغل بأثار شاعر قام أولاً بنظم شعر مستقل ملهم من أفكار الأديب الشرقي ثم تعهد بترجمة حقيقية صادقة لكلمات الأصل وكذا لروحه. نشاهد هذه العادة ايضاً في معاملته للفردوسي الشاعر الجليل الإيراني. كان «لومسدن» احد المستشرقين الانكليز قد نشر متن الأسطورة المنظومة «شاه نامه» اي كتاب الملوك سنة ١٨١١، ورأى فيها الأديب الألماني «جورس» Görres افادة كاملة عن إحساسه الرومانتيكي فحكى قصص «شاه نامه» في شكل منشور ونشر كتابه الذي لا قيمة له من الوجهة العلمية سنة ١٨٢٠. اما روكرت فحقق متن هذا المؤلف الضخم ذي الستين الف بيت من الشعر ورغب في نشره، ولكنه قد سبقه في هذا المضمار المستشرق الفرنسي «مول» Mohl الا ان روكرت قد انتقد هذه الطبعة المليئة بالأخطاء انتقاداً شديداً، الأمر الذي نستدل منه على تعمقه في هذه المادة، ومن بين تراثه العلمي آلاف الأوراق الحايوة على حواش وملاحظات خاصة بأسلوب «شاه نامه» ولغته.

ألف روكرت عند أول اطلاعه على هذا الكتاب أقصوصة منظومة تعالج قتال رسم وسهراب وهي المقطوعة الشهيرة في «شاه نامه» حيث يروي فيها الشاعر كيف قاتل الوالد ولده دون أن يعرف أحدهما الآخر. واعتبر روكرت نظمه هذا أحسن شعر ألفه كما رأى أنه جدير بأن يهدي الى روح جوته ... لكن القراء الألمان لم يهتموا بهذا المؤلف الحزين، ولم يشعر احد بأن روكرت في الوقت نفسه قد قام بترجمة كاملة لشاه نامه بأسره ... وظلت هذه الترجمة العظيمة المنظومة التي لا تخلو من فائدة نحوية ولغوية كما انها ذات روعة جمالية بتقليدها للأسلوب الشعري الألماني القديم مخفية وراء أوراق الشاعر حتى أنها لم تطبع الا بعد ٣٠ سنة من وفاته ...

ولا غرو أن يلتفت روكرت الى الشاعر الإيراني الذي كان واسع الشهرة حتى في الغرب منذ ثلاثة قرون وهو الشيخ

سعدى الشيرازى الذى ترجم كتابه المشهور بعنوان «كلستان» (روضة الورد) السائح الألمانى آدم «أولياريوس» سنة ١٦٥٣، والذى قدر شعراء الغرب وإدباؤه أشعاره الأخلاقية غاية التقدير. وكثيرا ما نصادف فى أشعار روكرت بعض الاشارات لأفكار الشيخ سعدى لأنه كان يحب النصيحة فى لباس شعرى ... ولكن اشتغاله العلمى بآثار هذا الأديب لم يبتدئ الا بعد رجوعه من جامعة برلين متقاعدا، أى سنة ١٨٤٨ او ١٨٤٩. ولكنه فاتته الفرصة لنشر تراجمه وشكى ان مؤلفه الكامل يستره الغبار ... وكان من سوء حظله انه كان قد طبع فى هذه السنوات عدد من تراجم جديدة جميلة ولو كانت غير علمية لأشعار سعدى ورسائله، اما مترجمات روكرت فظلت مجهولة لم تمثل للطبع الا بعد عام ١٨٩٠، وهى مقطوعات من كلستان، وترجمة منظومة جميلة لشعر «بوستان» وعدد جدير بالذكر من «صاحبنامه» والمدائح والمرائى وديوانه الحافل بالخواشى التاريخية المفيدة؛ لأن المترجم قد عرف أن القارئ الغربى لا يستطيع فهم الايماءات والتلميحات دون معرفة الوضع السياسى فى القرن الثالث عشر.

وكان روكرت قد عثر على ديوان مولانا جامى (المتوفى عام ١٤٩٥) سنة ١٨٣١ واستنسخ منه عددا لا يستهان به من الأبيات بعد أن نقل بعض الأساطير الصغيرة للشاعر المهرورى فيما قبل. ووجد فى أبيات هذا الشاعر ظرافة بديعة ورشاقة طريفة تتوافق واستعداده هو، ولذلك نشر ترجمة لها فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان، وبحس القارئ أنه قد بذل جهده فى تقليد أعجب تشاكولات الأسلوب وفى ايجاد رموز غير معروفة وتلميحات غير مألوفة، كما عبر عن مقصده فى الشعر الذى أضافه الى ترجمته هذه :

«لئن قد اصطدت غزال المسك الذى علفته الرائحة فى مروج ايران، فأحضرت فى زناجير الايقاع الوطنى وسلاسل الألحان المستأنسة لأعرضه هنا».

توجد فى تراجم روكرت أسماء شعراء فارسيين أخرى، مثل نظامى الذى نشر مستشرقنا بعض الابواب من «إسكندرنامه» فى شكل منظوم، ثم مقطوعات من آثار فريد الدين عطار، وقصيدة لأنورى، وبضع رباعيات لعمر خيام، وهو لم يهمل الشعر الشعبى الفارسى. وكل ما ترجمه قريب من الأصل فى الايقاع وفى الكلمات الا أن الترجمة أحيانا ما كانت تفوق الأصل جمالا وعدوبة.

والكتاب الوحيد الذى نقله شاعرنا العبقري منشورا هو كتاب فى علم المعانى، أى الدقر السابع لـ «هفت قلزم» (البحور السبعة) الذى كان قد طبع فى لكهنؤ فى الهند سنة ١٨٢١، ودعا هامر - بورجستال تلميذه السابق للاشتغال بهذا المصنف المحتوى على كل الفنون من البديع والمعميات وما يختص به الشعر الفارسى وبالحاصة السبك الهندى من المشكلات اللغوية. وكان هذا العمل متفقا واستعداد روكرت «الأوروبانى» للعب بالألفاظ وصارت ترجمته هذه مع حواشيا والإيضاحات الطويلة مرجعا قويا لكل من أراد فهم البلاغة الفارسية على ما ينبغى. ونشاهد فى هذا المصنف أن لروكرت موهبة خاصة لإيضاح مسائل معقدة فى أسلوب خفيف مزين بعبارات باسمه وتلميحات فكهة، وان اطلعنا عليها زادنا أسفا أن روكرت لم يجمع معلوماته الفائقة فى مضمار الآداب الشرقية فى تصنيف يشتمل على تاريخ الآداب من الوجهة الجمالية.

هذا ما ورثناه فى مضمار الآداب الفارسية من فريدريش روكرت الذى لا مثيل له فى فن الترجمة المنظومة لا فى عصره ولا فى أيامنا هذه ... أما تراجمه عن اللغة العربية، وإن كان قسم مهم منها يكاد أن يكون مجهولا حتى لدى المتخصصين، فهى أكمل من عمله المذكور وأعجب، فان الترجمة عن الفارسية سهلة على الألمان نسبيا من الترجمة عن العربية.

كان روكرت اثناء دراساته خاصة فى أوائل أمره يشتغل بدراسة القرآن الكريم، وقد نشر بعض آياته فى ترجمة جميلة فى إحدى المجموعات الأدبية الألمانية سنة ١٨٢٤. وكان يسعى عام ١٨٤٢ الى طبع الترجمة بأسرها ولم يوفق فى ذلك وهكذا بقيت على حالها حتى نشرها المستشرق «أوجوست مولر» بعد وفاة المترجم بائى وعشرين سنة؛ وقد ذكر فى مقدمته أنه لا يوجد فى الدنيا من استطاع القيام بترجمة مساوية لتصنيف روكرت هذا، مع أن شاعرنا لم ينقل متن كتاب الله بتمامه بل اكتفى بترجمة نحو ثلاثة أرباعه، وحافظ فى الصياغة الألمانية على الأسلوب الخاص للقرآن الى حد ما وإن لم يتتبع النص الأصيل كلمة بكلمة. ويقال بلا مبالغة أن هذه الترجمة أقرب الى الجمال الإعجازى لألفاظ القرآن من كل التراجم التى صدرت فى اوروبا. وبجانب ذلك انتخب الشاعر بضع آيات وصنف منها أشعارا وأمثالا وأبياتا ألمانية.

صيفة من مخطوطة لترجمة روكرت للقرآن (سورة البقرة).
وهى محفوظة فى سجلات مدينة شفاينفورت، مسقط رأس الشاعر المترجم.

Als der zweite Satz

Im Brief.

Mein Brief

7. Wohl dem der Menschen menschen (sagt) ist
an Gott und an den jüngsten Tag;
allein sie glauben nicht.
8. Sie wollen Gott bekennen und die Gläubigen;
sagt sie bekennen nur sich selbst, und werthlos nicht.
9. In ihm sagen sie die Tugend;
Gott ist es, der sie an Tugend;
und ihm nicht Kraft geben;
denn sagt sie unglücklich.
10. Sagt man zu ihm: Nichts ist es, auf dem
so sagen sie: die Tugend ist.
11. Sie sind es, die Tugend ist, und werthlos nicht.
12. Sagt aber man zu ihm: gläubig,
allein sie nicht glauben!
so sagen sie: die Tugend ist,
allein sie Tugend glauben?
Es ja, die Tugend ist sie selbst, und werthlos nicht.
13. Denn aber sie sagen: die Tugend ist,
so glauben, sagen sie: die Tugend ist,
sagt man sie sind allein die Tugend;
so sagen sie: die Tugend ist, und werthlos nicht;
Tugend ist sie Tugend ist.
14. Gott selbst ist, und (sagt) sie in ihm Tugend ist.
15. Sie sind es, die Tugend ist, und werthlos nicht;
und sie sind Tugend ist.
16. Sie Tugend ist, die Tugend ist, und werthlos nicht;
so sagen sie: die Tugend ist, und werthlos nicht;
Tugend ist sie Tugend ist.
17. Tugend, Tugend und Tugend; Tugend ist sie Tugend ist.
18. Sie sind es, die Tugend ist, und werthlos nicht;
so sagen sie: die Tugend ist, und werthlos nicht;
Tugend ist sie Tugend ist.
19. Sie Tugend ist, die Tugend ist, und werthlos nicht;
so sagen sie: die Tugend ist, und werthlos nicht;
Tugend ist sie Tugend ist.

(Lauter.)
Im Brief, Brief 2. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19.
Tugend ist sie Tugend ist, und werthlos nicht;
so sagen sie: die Tugend ist, und werthlos nicht;
Tugend ist sie Tugend ist.

Alte D. 186 H

ولكن المراد من «هرة» هنا «صرة» وهذا معلوم في اللهجات الألمانية القديمة، و *gespickt* محشو بالسمن هو الحيوان النحيف الذى يحشى قبل ان يشوى ومعناه ايضا «الصرة المملوءة بالدراهم...»

وعلى هذا الطرز ترجم شاعرنا المستشرق المقامات كلها الا اربعا او خمسا، وزاد فيها ملاحظات وحواشيا مأخوذة من المراجع العربية، فنتعلم من ترجمته هذه كثيرا من عادات العرب ومن أمثالهم المأثورة، وهى فى الوقت نفسه مفيدة لمن قصد التعمق فى الكلمات الألمانية النادرة والعبارات الصائبة والمعميات الغريبة، وإن قرأها وداومت على الاطلاع عليها انشرح صدرك وانبسط قلبك وسبحان من أنعم على شاعر ألماني بهذه الموهبة الفريدة! وعندما اطلع «سيلفستر ده ساسى» على ترجمة روكرت لمصنفه المذكور اثنى عليه عاطر الثناء قائلا:

«بفضلكم صار لا ينبغي على من عرف اللغة الألمانية أن يتعلم العربية كى يتمكن من الإدراك الصحيح لكل ما يوجد من الآثار الشرقية من هذا اللون الأدبي!»

ومما يجدر بالذكر أن روكرت فى تراجمه كلها افتقر الى قواميس جيدة للغات الشرقية، لأنه لم يوجد فى ذلك العصر معجم كاف للغة الفارسية ولا للعربية، وكان المستشرق مجبوراً على استنساخ بعض القواميس الموجودة (كما فعل نفس الشيء بالمجلدين الضخمين السانسكرتيين...) مضيفاً إليها ما وجدته من العبارات والمعاني فى أثناء درسه دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين، فيصعب علينا ان نعلم كيف أمكن روكرت على الرغم من كل هذا القسط العلمى لإكمال تراجمه الرائعة التى لم يتجرأ على مثلها أحد منا نحن معشر المستشرقين المعاصرين مع وفرة القواميس وكثرة الكتب النحوية فى الغرب!

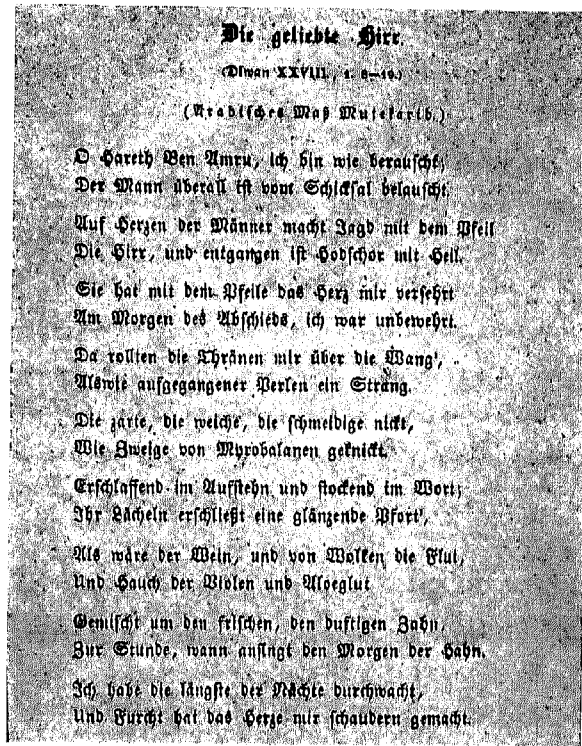
وأضاف روكرت بعد مدة قصيرة جوهرًا جديدًا الى ذخيرة العلوم وهو ترجمته لحماسة أبى تمام. طلب الى ناشر كتبه إصدار هذا المؤلف سنة ١٨٣١؛ ثم أراد قبل نشره تحقيق المتن المنشور على يد المستشرق «فرايتاج» Freytag أستاذ الدراسات الشرقية فى جامعة بون، ولذلك تأخر نشر هذا التصنيف الى أن لاحت له الفرصة للطبع عام ١٨٤٦. وصف هامر — بورجستال هذه الترجمة فى تقريره «كولد عملاق مولود من الاجتهاد الإستشراق وآلهة الشعر الألمانية» ونعترف أنه لا يسهل على قارئ غير واقف على أصول العربية تقدير هذه الأشعار الألمانية مع أنها كانت (او قل بالاحرى: لأنها كانت) امينة النقل للأصل العربى أمانة كاملة، لم يهمل المترجم فيها تشبيها غريبا ولا يحل

وفى الفترة نفسها لفت روكرت اهتمامه الى مقامات الحريرى التى نشرها «سيلفستر ده ساسى» فى باريس عام ١٨٢٢. وكل ناطق بالضاد يعلم أن هذا المصنف من نوادر الآداب العربية التى لم يسبكها يراع شاعر مثله، وأنه شبيه بفؤارة مشعشة من الألفاظ، إذ «لم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحته بمثاله». وكان المستشرق الفلمنكى «جوليوس» (المتوفى ١٦٦٧) قد اشتغل لأول مرة بهذه المقامات، وكذلك نشر «ألبرت شولتنس» فى جامعة ليدن مقامة أخرى، وترجم يوهان يعقوب رايسكه المقامة السادسة والعشرين عام ١٧٣٧. ثم نجد ترجمة للمقامة الثامنة بقلم «الكونت رزويسكى» والمقامة الثانية عشر بقلم الدكتور «بيسانى» وكلاهما نشر فى مجلة «معادن الشرق» فى فيينا. ولكن لم يكن لهذه التجارب قيمة علمية لأن مؤلفوها لم يستندوا الى متن عربى يؤثق به. لذلك اهتم الأستاذ «سيلفستر ده ساسى» الفرنسى بنشر النص الصحيح مستفيداً من مخطوطات شتى ومن المتن المطبوع فى كالكوئا بين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٤. وصدرت سنة ١٨٢٢ بعد أن أخذ مواطن الأستاذ الكبير «كوسين ده برسه فال» على عاتقه إصدار المقامات فى طبعة جديدة عام ١٨١٨. ويعد هذا التحقيق العلمى الذى يحتوى على ٦٦٦ صحيفة وهو مزود بحواش عديدة مرجعا معترف به.

أما روكرت فكان إذ ذاك يعيش منزويا فى قرية البافارية حيث اشترى هذا الكتاب الثمين على رغم ثمنه الهائل وقره هو المدقع ... وبعد عامين تجرأ على نشر ثمانى مقامات فى ترجمة ألمانية تعد فى مرتبة الاعجاز: قلدها أجناس الجناس والتجنيس من جناس لاحق وجناس زائد وتجنيس الإشارة وحافظ على ألعاب الألفاظ وعلى العبارات الشاذة، وإن أصاب فى متن الحريرى عبارات لا يمكن نقلها الى الألمانية كلمة بكلمة فقد ابدع هوفى لغتنا الألمانية ما يشبه المعنى الاصلى ويظهر من الفنون ما يحير العقول، ويسلم كل من أجاد اللسانين العربى والألماني أن المقامات الألمانية أكثر صنعة وابدع من أصلها العربى ... فلنعطى مثالا لطريقة روكرت فى ترجمته: فى المقامة الطيبية حيث يعالج الحريرى مسائل فقهية كل منها مبهم مزدوج المعنى اخترع روكرت مثلها فى الألمانية، مثل:

Ist ein Gelddieb, wer eine Katze stahl? — Ja, eine gespickte zumal.

ومقابل ذلك بالعربية: «هل يعتبر سارق هرة سارق مال؟ — أجل، وبالحاصة إن كانت الهرة محشوة بالسمن».



وهير تصيد قلوب الرجال
وافلت منها ابن عمرو حُرْ
رمتني بسهم اصاب الفؤاد
غداة الرّحيل فلم انتصير
فأسبل دمتي كفص الجثمان
أو الدّر رقراقيه المُنْتَهِد
بترهرة رنصة رودة
كخرطوبة ألبانة المُنْفِطِر
فتور القيام قطع الكلا
م تفتت عن ذي غروب خصر
كان المدام وصوب الغمام
وديع الخزامى ونشر القطر
يتمل به برود أنباها
إذا طرب الطائر المستحير
فبيت أكاده ليل التما
م والقالب من خشية مقشعير

صحيفة من ترجمة لإحدى قصائد امرؤ القيس مرفق بها الأصل العربي لهذه القصيدة، وكان المترجم قد ابدع في محاكاة بحر المتقارب في ترجمته الألمانية.

لم يحصل روكرت لترجمته هذه التي تشتمل على نحو ألف قصيدة وقطعة ما كان يتوقعه من مدح زملائه ولا من ثناء الجُم الغفير من القراء لأن الموضوع كان خشنا غير مألوف لم يتذوقه إلا من جد في قراءته وصبر على مطالعته. ولسنا ندرى متى قام روكرت بترجمة الأمثال العربية الألف والستمائة التي ظلت غير مطبوعة حتى الآن، وليس من المعلوم كذلك متى اشتغل بترجمة بضع المعلقات التي نشرت سنة ١٨٧٧ في مذكرات تلميذه «لاجارد»، ومن الممكن ان تكون قد دونت قبل عام ١٨٤٧ حين زاره تلميذه المذكور. فمن بينها معلقة طرفة ومعلقة عمرو، وهناك أيضا ترجمة عبقرية لمعلقة زهير. ولو سأل القارئ الصابر هل من مزيد؟ قدما اليه قصيدة «بانت سعاد» المشهورة لكعب بن زهير في ترجمة الأستاذ الكبير، ترجمة تليق بهذه القصيدة المؤثرة. وبين أوراق الشاعر المستشرق قصيدة أخرى اشتهرت في الشرق والغرب معا وسعى في ترجمتها الكثير من المستشرقين الألمان في القرن الماضي منهم كوسه جارتن Kosegarten وفايل Weil وهامر ورويس Reuss وغيرهم؛ وهي لامية العرب لشنفرى. اما ترجمة روكرت لهذا الشعر العظيم فهي عندنا

عقود الجمل المتشابكة، وأحيانا ما كان يسعى في المحافظة على الوزن العربي فترجم ما ترجم في بحر البسيط او الطويل او الوافر، او، إن لم يكن ذلك مستطاعا لأسباب جمالية، تبنى وزنا قريبا من البحر الأصلي. وزاد ذلك في صعوبة فهم الأشعار، اما القارئ الألماني غير المتخصص فربما يأخذ العجاء بإزاء تلك الأسماء الغريبة وصفات الخيول وأنساب الإبل... أما المستشرق فيصاب بالحيرة والعجب لهذه الترجمة الفريدة التي علق روكرت عليها من الحواشي ما يمكن جعله موسوعة خاصة لتاريخ العرب وآدابهم في القرون الأولى للهجرة. وما كان مقصد المترجم من هذا المصنف الشامل على مجلدين ضخمين الا القيام بالبرهان القاطع على أن سكان العالم بأسرهم متشابهون في الفضائل والهمم العالية، وقصد الشاعر أن يعرض أمام شعبه الألماني صورة من الأفكار والأحاسيس التي كان الشعب العربي يميز بها قبل ألف سنة أو أكثر، وهي العشق والحماسة والحلم وإكرام الضيف... وعبر عن هدفه هذا في شعر تمهيدى لترجمته يعبر فيه عن عقيدته في أن الشعر في كافة اللغات لسان واحد منشأه الحقيقي اللجنة قبل ان تفترق الأقوام وتختلط الألسنة...

أنه لفت اهتمامه الى آثار عمر بن أبي ربيعة وأحضر ترجمة لأبياته الغرامية، (مازالت بدورها غير كاملة ولا مطبوعة) ولم يهمل قصة عنتره بن شداد ...

وعسى ان يفهم القارئ سعة عبقرية روكرت من هذه الأسطر القليلة التي لم يذكر فيها ما فعل في حوزة اللغات الهندية وهي آلاف من الصحف من السانسكرتية واللغات الشعبية الهندية او الصينية او ترجمته لأجزاء من التوراة. توفي روكرت وهو يقارب الثمانين من عمره، وكان بلغ منه التعب والارهاق حدا بليغا بعد حياة حافلة أطفأ فيها جذوة يومه وأحرق فحمة ليله في العمل، على ما قاله زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
ثمانين حولا لا ابا لك يسأم

Ich bin der Lebensmühsal geworden satt, und wer
Gelebt hat achtzig Jahre, o glaub mir, satt wird der!

اشتاق الى الراحة الأبدية والى الرجوع الى بلاد الحب
الأزلى الذى لم يشك أبدا في وجوده، وهكذا عاد شاعرنا
الى منشأ اللغات السماوى والى منبع الشعر السرمدى ...

Sagt meinen Brüdern, die mich Toten sehen:
Ich bin nicht dieser Tote, den ihr seht.
Ich bin der Vogel, und der Käfig das,
Dem ich entfloge und der nun öde steht.
Ich bin der Schatz, und mein Verschluss ist hin
In Staub, da auf nun die Verklärung geht.
Ich danke Gott, daß er mich frei gemacht
Und meine Wohnung hat zu sich erhöht!

ترجمة روكرت لشعر عربى، مخفولة في سجلات مدينة شفاينفورت التي
صرحت لنا بنشر هذا الشعر الذى لم يسبق نشرها.

أحسن ما كتبه في حوزة الشعر العربى القديم، ولا أظن
أن أحدا فاقه في وصفه للذئاب الجائعة، وإن كانت
ترجمته للمعلقات كلها جميلة رشيقة وأحيانا ما كانت أحسن
من الأصل، وكأنها كانت في الأصل شعرا ألمانيا لأحد
فحول الكتاب. ولكن لم تنشر هذه القصائد الا بعد وفاته
هذا المستشرق بكثير، ولم ير هو منها في شكل مطبوع
الا واحدة ألا وهي ترجمته لديوان امرؤ القيس التي
نشرت سنة ١٨٤٣ عندما كان روكرت استاذًا في برلين
واستفاد في إحضاره من المتن المطبوع ومن مخطوطة
محفظة في مكتبة مدينة جوتا، وألحق بترجمته هذه الحواشي
المأخوذة من كتاب الأغاني وتاريخ أبي الفداء، ونعجب
مرة أخرى لسهولة ترجمته وعذوبة أسلوبه في نقل هذه
الأشعار، وكل هذه التراجم من الشعر العربى القديم وهي
التي لا يشق لها غبار. زد على هذا كله أن مستشرقنا
الشاعر ترجم ماترجم من الأشعار الموجودة في كتب
المؤرخين العرب مثلا الأبيات المروية في وفيات الأعيان
لابن خلكان (وهي لم تنشر كذلك بل ما زالت محفوظة
بخطه الصغير المطموس ضمن تركته العلمية وهي في
انتظار من يرفع عنها ستار النسيان) والأشعار في المجموعة
المدونة بقلم العالم الألمانى «كوسه جارتن»؛ ومن الطبيعى

١١-٣-١٤
Sagt meinen Brüdern, die mich Toten sehen:
Ich bin nicht dieser Tote, den ihr seht.
Ich bin der Vogel, und der Käfig das,
Dem ich entfloge und der nun öde steht.
Ich bin der Schatz, und mein Verschluss ist hin
In Staub, da auf nun die Verklärung geht.
Ich danke Gott, daß er mich frei gemacht
Und meine Wohnung hat zu sich erhöht!

قل لاهوائى زوى سبتا
انا مصفور وهذا قفصى
انا كمن وجاى ظلم
احد الله الذى خلقتنى
ليس هذا الميت والله انا
طردته منه وبقي لى رحنا
من تراب قد تجلى بالفتا
ومنى لى فى السالى ولما

عن ترجمة فريدريش روكرت لمقامات الحريري

DIE BEIDEN GULDEN

المقامة الدينارية

Mich hielt mit frohen Genossen — ein trauter Kreis umschlossen, — von welchem eingeschlossen war Geselligkeit — und Gefälligkeit — und ausgeschlossen Mißhelligkeit. — Und während wir nun die Fäden der Reden hin und wider spielten — und im Schwanken der Gedanken uns unterhielten — mit Gedichten — und Berichten — und Geschichten; — trat herein ein Mann mit gebrechlichem Mantel — und schwächlichem Wandel, — der den einen Fuß schleifte — und auf einen Stab sich steifte; — der sprach: O ihr köstlichen Steine der Schreine! — o ihr tröstlichen Scheine der Reine! — Froh gehen euch auf die Tage — und unter ohne Klage! — Freundlich weck' euch der Frühschein, — und lieblich schmeck' euch der Frühwein! — Seht einen Mann, der einst besessen — Haus und Hof, Esser und Essen, — Weiden und Weidende, — Kleider und zu Kleidende; — Gabe, zu schenken, — Labe, zu tränken, — Äcker und Äste, — Feste und Gäste. — Doch es stob der Sturm des Leides, — und es grub der Wurm des Neides, — und der Einfall der Unfälle, — brach über des Glückes Schwelle; — bis mein Hof leer ward — und dünne mein Heer ward, — mein Brunnen erschöpft, — mein Wipfel geköpft, — mein Lager staubig, — mein Barthaar straubig, — mein Gesinde murrend, — meine Hunde knurrend; — im Stalle kein Rossegestampf, — in der Halle kein Feuersdampf; — daß mir der Neider — ward zum Mitleider, — und der Schadenfroh — vor meinem Schaden floh. — In des Unglücks Klammer, — in der Armut Jammer — ward unser Schuh die Schwiel' am Fuß — und unsre Speise der Verdruß. — Wir schnürten knapp den Leib zusammen, — um zu ersticken des Hungers Flammen. — Ausging uns des Stolzes Befiederung, — und wir wohnten in der Niederung. — Statt Rosse blutig zu spornen, — gingen wir uns wund auf Dornen. — Der Tod bleibt unsre Zuflucht vor Bedrängnis; — wir klagen an das säumende Ver-

روى الحارث بن همام قال نظمتنى وأخذنا لى نادى * لم
يخب فيه منادى * ولا كبا قدح زنادى * ولا ذككت
نار عينا * فبيننا نحن نتجاذب أطراف الأناشيد *
ونتوارد طرف الأسانيد * إذ وقف بنا شخص عليه
سم * وفى مشيته قزل * فقال يا أخاير ألد خائر *
وبشائر العشائر * عيموا صباحا * وأنعموا أصطباحا *
وأنظروا الى من كان ذا ندى * وندى * وجدوة
وجداء * وعقار وقري * ومقار وقري * فما زال به قطوب
الخطوب * وحروب الكروب * وشرر شر الحسود *
وانتياب الثوب السود * حتى صفرت الراحة * وقرعت
الساحة * وغار المنبع * ونبا المربع * وأقوى الجمع *
وأقصر المضجع * وأستحالت الحال * وأعول
العيال * ونحلت المرباط * ورحم الغابط * وأودى
الناطق والصامت * ورئى لنا الحاسد والشامت *
وآل بنا الدهر الموقع * والفقر المدقع * الى أن
أحتدينا الوجى * وأغتدنا الشجا * وأستبطنا
الجوى * وطوينا الأحشاء على الطوى * واكتحلنا
السهاد * وأستوطنا الوهاد * وأستوطنا القتاد *
وتناسينا الأفتاد * وأستطبنا الحين المجتاح * وأستبطنا
اليوم المتاح * فهل من حرأس * أو سمنح مؤاس *
فوالذى أستخرجنى من قبلة * لقد أمسيت أخوا

hängnis. — Oder ist hier ein Beirätiger, — Menschenfreundlicher, Guttätiger — der einen Kraftlosen, Haftlosen stütze, — ein Tröpflein der Milde auf einen Saftlosen sprütze? — Bei dem, der mich hat entsprossen lassen von Kaile! — der den Mangel gab mir zu theile! — ich habe nicht, wo ich die Nacht verweile. —

Hareth ben Hemmam spricht: Um seine Notdurft zu letzen — und zugleich seinen Witz auf eine Probe zu setzen, — nahm ich ein Goldstück und wies es — und sagte: Dein ist dieses, — wenn du uns in Versen sein Lob lässest hören. — Und auf der Stelle ließ er sprudeln seine Brunnenröhren:

Gesegnet sei der Gelbe mit dem lichten Rand,
Der wie die Sonne wandelt über Meer und Land,
In jeder Stadt daheim, zu Haus an jedem
Strand,

Gegrüßt mit Ehrfurcht, wo sein Name wird
genannt.

Er geht als wie ein edler Gast von Hand zu Hand
Empfangen überall mit Lust, mit Leid entsandt.

Er schlichtet jedes menschliche Geschäft ge-
wandt,

In jeder Schwierigkeit ist ihm ein Rat bekannt.

Er pocht umsonst nicht an die taube Felsenwand,
Und etwas fühlt für ihn ein Herz, das nichts
empfand.

Er ist der Zaubrer, dem sich keine Schlang'
entwand,

Der Schöne, welchem keine Schönheit wider-
stand,

Der Held, der ohne Schwertstreich Helden
überwand;

Der Schwachen Kräfte gibt und Törichtern
Verstand,

Und Selbstvertraun einflößet, das mit Stolz
ermannt.

Wer ihn zum Freund hat, ist dem Fürsten an-
verwandt,

Wenngleich sein Stammbaum auf gemeinem
Boden stand.

Der trifft des Wunsches Ziel, dem er den Bogen
spannt.

Er ist des Königs Kron' und seiner Herrschaft
Pfand,

Er ist der Erde Kern, und alles sonst ist Tand.

Und wie er war am Ende, — streckt er seine Hand
nach der Spende — und rief: Wer verspricht, muß
segnen; — die Wolke, die donnert, muß regnen. —
Da gab ich ihm das Goldstück hin und sprach:

عَيْلَةً * لَا أَمْلِكُ بَيْتَ لَيْلَةٍ * قَالَ الْحَارِثُ بْنُ
هَمَّامٍ فَأَوَيْتُ لِمَفَاقِرِهِ * وَلَوَيْتُ إِلَى اسْتِنبَاطِ فَقْرِهِ *
فَأَبْرَزْتُ دِينَارًا * وَقُلْتُ لَهُ اخْتِبَارًا * إِنْ مَدَحْتَهُ نَظْمًا
* فَهُوَ لَكَ حَتْمًا * فَانْبَرَى يُنْشِدُ فِي الْحَالِ * مِنْ
غَيْرِ أَنْتِحَالِ :

أَكْرِمَ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهُ

جَوَابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفَرَتُهُ

مَأْثُورَةً سُمِعَتْهُ وَشُهِرَتْهُ

قَدْ أَوْدِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أُسْرَتُهُ

وَقَارَنْتُ نُجْجَحَ الْمَسَاعِي خَطَرَتُهُ

وَحُبِّبْتُ إِلَى الْأَنَامِ غُرَّتُهُ

كَأَنَّمَا مِنَ الْقُلُوبِ نُقِرَتْهُ

بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهُ

وَإِنْ تَفَانَتْ أَوْ تَوَانَتْ عَيْتَرَتُهُ

يَا حَبَّادًا نُضَارُهُ وَنُصْرَتُهُ

وَحَبَّادًا مَغْنَاتُهُ وَنُصْرَتُهُ

كَمْ أَمِيرٍ بِهِ اسْتَتَبَّتْ لِمِرَّتُهُ

وَمُتَرَفٍ لَوْلَاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهُ

وَجَيْشٍ هَمٌّ هَزَمَتْهُ كُرَّتُهُ

وَبَدْرٍ تِمِّ أَنْزَلَتْهُ بَدْرَتُهُ

وَمُسْتَشِيظٍ تَتَلَطَّطَى جَمَرَتُهُ

أُسْرَ نَجْوَاهُ فَلَانَتْ شِرَّتُهُ

وَكَمْ اسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهُ

أَنْقَذَهُ حَتَّى صَفَّتْ مَسْرَتُهُ

وَحَقٌّ مَوْلَى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهُ

لَوْلَا أَلْتَقَى لَقَلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ * بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ * وَقَالَ أَنْجَزَ

حَرًّا مَا وَعَدَ * وَسَحَّ خَالُ إِذْ رَعَدَ * فَتَبَدَّدَتْ

الدِّينَارَ إِلَيْهِ * وَقُلْتُ خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ *

Sei es dir zum Gewinn! — Er schob es in seinen Mund — und sprach: Gott erhalte mir's gesund! — Dann macht' er sich auf, von dannen zu wanken, — mit Grüßen und Danken. — Doch der Duft des Geistes, den er verstreute — berauschte mich so, daß ich nicht Aufwand scheute. — Ein zweites Goldstück nahm ich aus der Tasche — und sprach: Da haschel — Dieses ist dein, wenn du nach seinem Adel — uns nun auch hören lässest seinen Tadel. — Da ließ er auf der Stelle — noch einmal rauschen die Welle:

Verflucht der Heuchler mit dem doppelten Gesicht,
Dem kalten Herzen und dem Lächeln, das besticht.
Er ziert sich wie ein Liebchen, und wer liebt es nicht?
Und wie Verliebte schmachtet er, der Bösewicht.
Er stammt vom Abgrund, aus den Finsternissen dicht,
Doch überstrahlt sein falscher Schein der Sonne Licht;
Die Wahrheit dringt nicht durch das Trugnetz, das er flicht.
Er gibt der Welt in allem Bösen Unterricht,
Lehrt, wie man falsche Eide schwört und Treue bricht.
Er ists, um den man streitet, tobt und kämpft und ficht,
Er ists, der aus des Richters Mund dein Urteil spricht,
Um den der Dieb die Hand verliert am Hochgericht.
Für ihn verkauft man seinen Glauben, seine Pflicht,
Für ihn erkaufte der Schlechte sich ein Lobgedicht.
Er ists, um den das Herz aus Furcht dem Geiz'gen bricht;
Er ists, um den des Neides Blick den Reichen sticht.
Das schlimmste ist: Wer ihn bewahrt, dem nutzt er nicht;
Und wer ihn nutzt, der tut dadurch auf ihn Verzicht.
Darum verachtet ihn ein edler Mann und spricht:
Du Taugenichts, hinweg von meinem Angesicht!

Ich rief: Gott müsse deinen edlen Mund vergulden! — Doch er rief: Versprechen macht Schulden; — und ich gab ihm den zweiten Gulden — und sprach: Verwend' ihn zum Erwerb von Gottes Hulden! — Er schob ihn mit Dankgeflüster — in

فَوَضَعَهُ فِي فِيهِ * وَقَالَ بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ * ثُمَّ شَمَّرَ
لِلْإِثْنَاءِ * بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ * فَتَشَأْتُ لِي مِنْ
فُكَاہَتِهِ نَشْوَةً غَرَامٍ * سَهَّلْتُ عَلَى ائْتِنَافِ اغْتِرَامٍ *
فَجَرَدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ لَهُ هَلْ لَكَ فِي أَنْ
تَدُمَّهُ * ثُمَّ تَضَمَّهُ * فَأَنشَدَ مُرْتَجِلًا * وَشَدَا
عَجَلًا:

تَبَّأْ لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَازِقٍ
أَصْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
يَبْدُو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ
زِينَةَ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقِ
وَحُبَّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ
يَدْعُو إِلَى آرْتِكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَا لَمْ تُقَطَّعْ يَمِينُ سَارِقِ
وَلَا بَدَتْ مَظْلِمَةٌ مِنْ فَاسِقِ
وَلَا أَشْمَازَ بَاخِلٌ مِنْ طَارِقِ
وَلَا شَكَ الْمَطُولُ مَطْلَ الْعَائِقِ
وَلَا أَسْتُعِيدَ مِنْ حَسُودٍ رَاشِقِ
وَشَرٌّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَلَائِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَائِقِ
إِلَّا إِذَا فَرَّ فِرَارَ الْآبِقِ
وَاهًا لَنْ يَقْدِرُ لَهُ مِنْ حَالِقِ
وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الْوَامِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ الْمُحِقِّ الصَّادِقِ
لَا رَأَى فِي وَصْلِكَ لِي فَفَارِقِ

فَقُلْتُ لَهُ مَا أَغْزَرَ وَبَلَكَ * فَقَالَ وَالْشَّرْطُ أُمْلَكَ *
فَنَفَحْتُهُ بِالْدِينَارِ الثَّانِي * وَقُلْتُ لَهُ عَوْدَهُمَا بِالثَّانِي *
فَالْقَاهُ فِي قَمِيهِ * وَقَرْنَهُ بِتَوَامِيهِ * وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ
مَغْدَاهُ * وَيَمْدَحُ النَّادِيَّ وَنَدَاهُ *

den Mund zu seinem Geschwister — und hinkte ab am Stabe, preisend Geber und Gabe. — Hareth ben Hammam spricht: Mir sagte das Herz, es sei Abu Seid — und seine Lahmheit ein angelegtes Kleid. — Ich hielt ihn an und rief: Bei Gottes Gnade! — dein Witz verriet dich; warum gehst du nicht grade? — Er sprach: Und bist du der Hareth? — so bleibe mir ewig schwarz gehaaret, — der Lust gepaaret, — den Frohen und Edlen gescharet! — Ich sprach: Ich bin der Hareth ben Hemmam; — wie geht es mit dir und deinem Kram? — Er sprach: Bald frisch, bald lahm; — ich segle mit zweierlei Winden, — gelinden und ungelinden. — Ich sprach: Du solltest dich schämen, — Zuflucht zu einem Gebrechen zu nehmen. — Da verfinsterten sich seine Mienen — und er sprach: Laß dir dienen!

Ich hinke, doch nicht aus Vergnügen am Hinken
Ich hink', um zu essen, ich hink', um zu trinken.
Ich hinke, wo Sterne der Hoffnung mir winken,
Ich hinke, wo Gulden entgegen mir blinken.
Was man nicht erfliegen kann, muß man er-
hinken,
Viel besser ist hinken, als völlig versinken.
Die Schrift sagt: Es ist keine Sünde, zu hinken.

قال الحارث بن همام فجاجنى قلبى بأنه أبو زيد *
وأن تعارجه لكيد * فاستعدته وقلت له قد
عرفت بوشيك * فاستقيم في مشيك * فقال إن
كنت ابن همام * فحييت بإكرام * وحييت بين
كiram * فقلت أنا الحارث * فكيف حالك والحوادث
* فقال أقلب في الحالين بؤس ورخاء * وأقلب
مع الريحين زعزع ورخاء * فقلت كيف أدعيت
القرزل * وما مثلك من هزل * فاستسر بشره
الذى كان تجللى * ثم أنشد حين ولّى:

تعارجت لا رغبة في العرج
ولكن لأفرع باب الفرج
وألقي حبلى على غاربي
وأسئلك مسلك من قد مرّج
فإن لامني القوم قلت أعدروا
فليس على أعرج من حرج

*

AUS DEM DIWAN DES IMRULQAIS

Eine Wolke mit gedehntem Schoß,
Erdumfangend, stand sie still und goß,
Ließ den Zeltpflock sichtbar, wenn sie nachließ,
Und bedeckt' ihn, wann sie reichlich floß.
Und Eidechsen sahst du, kund'ge, leichte,
Mit den Tatzen rudern bodenlos.
Büsche ragten aus der Flut wie Köpfe,
Abgehau'ne, die ein Schlei'r umfloß.
Doch dem Regen folgt ein Guß, ein voller
Platzender, der rauschend niederschloß;
Den ein Ost ausmelkte, bis mit neuem
Schwall dazu kam eines Westes Stoß.
Und ein Meer ward, das kein weites Strombett
Chaims, Chofafs und Josors mehr umschloß.
Morgens vor des Sturmes Nasen ritt ich
Her auf schlankem, derbem, sehn'gen Roß.

من ديوان امرؤ القيس

ديمة هطلاء فيها وطف
طبق الأرض تحرى وتدّر
فترى الود إذا ما اشجذت
وتواريه إذا ما تعتكر
وترى الضب خفيفاً ماهرأ
ثانيا برثنه ما ينغفر
وترى الشجرأ في ريقها
كرؤوس قطعت فيها خمر
ساعة ثم انتحاهما وأبل
ساقط الاكفاف واه منهيم
راح تمرية الصبا ثم أنتحى
فيه شؤوب جنوب منفجر
لج حتى ضاق آذيه
عرض نجم فخفاف فيسر
قد غدا يحملني في أنفه
لاحق الإطلين محبوبك ممر

أرنست ترامب

(١٨٢٨ - ١٨٨٥)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

أرسل الى جامعة توبينغن Tübingen. ولما اتفقت رغبته وميوله، حينذاك، مع رغبة والديه وميولهما في أن يصبح الإبن قسيساً، التحق أرنست بكلية اللاهوت المعروفة بـ«شتيفت» Stift. ولقد كانت تلك الكلية تتمتع بشهرة واسعة، إذ كانت مركز الاشعاع الثقافي، والمعقل الروحي للمذهب البروتستنتي في ذلك الجزء من البلاد. ومن نافلة القول أن نذكر هنا، أنه ولعدة عقود سبقت التحاق صاحبنا بتلك الكلية، فقط، كان كل من الفيلسوف الكبير هيغل Hegel والشاعر الملهم هولدرلين Hölderlin ينتظان فيها. ونظراً لتعلق العبرية باللاهوت، شرع أرنست بدراستها، علماً بأنه كان قد أتقن اللاتينية واليونانية قبل مجيئه الى هذه الكلية. راح بعد ذلك يدرس السنسكريتية واللغات السامية على يد كل من البروفسور روت Roth والبروفسور إيwald.

بيد أن عملية القمع والارهاب، التي مارستها حكومات الولايات الألمانية المختلفة ضد «دعاة الحرية» عام ١٨٤٨، أدت الى زج الكثيرين من المثقفين، اساتذة وطلابا، في السجون. فقد انحدرت الطليعة المثقفة في هذه الحركة منذ عام ١٨٣٠ محاولة العمل على تغيير الأوضاع الألمانية، هادفة توحيد البلاد التي راحت تنقسم حينها الى ممالك، وايلات، ومقاطعات صغيرة. وهكذا فما ان حلت سنة ١٨٤٨ حتى تكلفت الجهود بأول اجتماع لمجلس الأمة الألماني. إلا انه سرعان ما انقلبت الحكومة وراحت تقوم بحركة قمع واسعة ضد «دعاة الحرية»، وانطلقت ترج بأتباعها في السجون. لم يستثنى أرنست، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء فألقى به في السجن لفترة من الزمن، انقطع خلالها عن الدراسة، لم يلبث حتى استأنفها وعمل على إنهاؤها بعد الافراج عنه.

توجه العلامة الشاب، بعد أن أقام فترة وجيزة في بازل Basel الى لندن. ولما كان قد حصل هناك على وظيفة مساعد أمين مكتبة في «مركز الهند الشرقية» East India House، فقد تسنت له من خلال عمله هذا فرصة لإثراء ثقافته بقضايا اللغات الهندية الحية وآدابها. ولم يفكر أرنست

تحفل الحركة الألمانية للدراسات الشرقية بأعلام كبار يعتبر أرنست ترمب أحد أقطابهم. لقد برع هذا العلامة في العديد من اللغات، وخلف آثاراً لم تقتصر في مضمونها على العربية وغيرها من اللغات السامية، بل شملت إلى جانب ذلك العديد من اللغات الأخرى. فترك لنا، فيما ترك، دراسات وافرة في لغات الهند الحية، أو هي، وتعبير أكثر دقة، لغات ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذي يعرف اليوم بباكستان الغربية. ولعل في اعادة نشر كتابين، من مجموعة مؤلفاته مؤخرًا، أحدهما في نحو لغة الباشتو Pashto والآخر في نحو اللغة السنديية، ما يدل على قيمة هذين المرجعين لدارس تينك اللغتين بالغة الصعوبة. بل وعسى أن يكون في ذلك إشارة إلى عدم ظهور ما يجاريهما جودة واصالة على الرغم من مرور قرن من الزمان ونيف على نشرهما لأول مرة.

ويجد المرء، في حياة المترجم له، تفاصيل وطرائف هي غاية في الغرابة. ولد أرنست في اليوم الثالث عشر من شهر آذار لسنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف للميلاد، في قرية ايلسفلد Ilsfeld في مقاطعة Württemberg الشمالية، لأب مزارع امتهن النجارة. واتسم الوسط الذي نشأ فيه على وجه العموم بالعوز والفاقة. لم يكن ذلك حال قريته فحسب، بل حال القرى والمدن المجاورة أيضاً، مما حدا بقطاع كبير من السكان الى الهجرة سعياً وراء الرزق. هذا وما زالت جماعات منهم تقطن جنوب روسيا، بلاد القوقاز على وجه التعيين، وما برحت فئة تعيش في ولاية تكساس الأمريكية حتى يومنا هذا. وانعكست في شخصية أرنست سميتان، امتاز بهما سكان جنوب غرب ألمانيا عموماً منذ عدة قرون، ألا وهما سجية الجلد وصفة التقوى. ولعل السجية الأخيرة قد نشأت وتطورت عن اعتناقهم للمذهب اللوثري والتي كانت تبلغ بهم حد التزمّت أحياناً. بدأ أرنست حياته الدراسية في الرابعة من عمره. وظهرت بوادر ولعه الشديد باللغات واهتمامه بها، أول ما ظهرت، حين انبرى يحلل لغة بعض غجر كان قد صادفهم. بعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية، في سن السابعة عشر،

F. Spring

Leipzig, den 29. März
1873.

gehrte Herr Professor!

Ist erlaubt mir Herr, für mit das Concept meines
Lingua zu sprechen: und dass sehr angenehm sein,
mit die die gute haben wollen, die alle sehr ist über-
gehen in das nötige Bemerkungen der Mitha sehr
auf den Rest zu bemerken als beilegen will ich frag-
ten 1) für Begriffen meines bis jetzt gebräuch-
lichen. 2) meine kleine Grammatik: 3) meine
Abhandlung Grammatik. Es ist mir, dass alles gut sein
werden wird, um mich, pro constructione, all wichtig ist.
fragt/braten, Es will ich mir selbst nicht aufpassen, das, was
ich bis jetzt gebräuchlich anlegen kann, anzuzeigen, obwohl ich es
nicht zum Herrn, weil mir es etwas in der Natur zu wider ist.
Herr Herr in einem für Herrn Herrn in Gefälligkeit für mich
danke.



Es ist mir sehr angenehm sein,
mit die es mir möglich wird zu be-
rathen können, es ist es der Herr
in am Montag den Restat anzu-
stellen.

mit besten und meinen
anwesenden für mich
F. Spring

بالرجوع الى المانيا في تلك الأثناء، وذلك نظراً لما كانت تبعث عليه الحالة السياسية فيها من الشعور بالقرف واليأس. وما أن عرضت عليه «الجمعية الكنسية للتبشير» Church Mission Society أمر الذهاب إلى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو في لغاتها الحية، حتى استجاب غير متردد. وقد شجعه على ذلك الوعد الذي قطعتة الحكومة البريطانية على نفسها بنشر كل ما يقوم بتأليفه. ولا ريب بأن مثل هذا العرض ومثل ذلك الوعد ليدل على المكانة التي بلغها أرنست في ذلك العهد المبكر من حياته.

تختلف الروايات حول تاريخ ارتحاله لأول مرة الى الهند. بيد أن سنة ١٨٥٤ هي أكثر السنوات قبولاً لدينا. نزل بادئ الأمر مدينة بومباي Bombay. توجه بعدها الى كراتشي Karachi حيث مكث فيها عدة شهور. وفي مدة تدعو في قصرها الى العجب، أتقن أرنست اللغة السندية، تلك اللغة التي تتميز بالصعوبة المتناهية. كما أتقن في الوقت عينه اللغة الفارسية. وسرعان ما طبقت شهرته آفاق الأوساط السندية والبريطانية. فنحه الفستون Elphinston حاكم بومباي بلقب مواطن شرف، كما رسم قسيساً للكنيسة الانجليكانية وذلك اعترافاً بفضله، إذ انه قام وقتذاك بترجمة «كتاب المراسم الدينية العامة» Common Prayer Book من الانجليزية الى الفارسية. الا أن الحال لم يلبث على ما هو عليه طويلاً، إذ راح أرنست يعاني من صعوبات الطقس هناك، ودبت فيه علة خطيرة، عليها الملاريا، فنقل على أثرها الى بيت المقدس، بفلسطين، للعلاج. أقام اثناء وجوده في هذه المدينة بصحبة علم رائد من أعلام الإستشراق في القرن الماضي الا وهو القنصل الألماني في ذلك الحين هناك جيورج روزن Georg Rosen (الذي قام بترجمة مجلدين من عمل جلال الدين الرومي «المنوى المعنوى» الى الألمانية لأول مرة). كما انكب يعمل على تعميق درايته باللغة العربية. هذا وقد أتيح له هناك التعرف على شابة ظريفة هي باولين لندر Pauline Linder والتي راحت تشاركه حياته الزوجية منذ شهر تشرين الأول لسنة ١٨٥٦.

عاد أرنست، بعد قضاء فترة النقاهة وشهر العسل، قافلاً الى كراتشي تصحبه عروسه. وهناك وفي شهر أيلول من العام التالي للزواج (١٨٥٧)، من البارى عليهما بمولود ذكر، بيد أن الأم الشابة لم تلبث سوى ثلاثة أيام عقب الميلاد حتى فارقت الحياة. وربما كان طقس كراتشي الرديء وراء هذا الحادث الأليم، أو عساه

أن يكون أيضاً، الفزع والتوتر العصبي اللذان ألما بها مغبة وصول أبناء الثورة والاضطرابات العسكرية في الهند الشمالية، وعلى اثر ذلك لم يجد صاحبنا مخرجاً لمحتته سوى السفر الى أوربا يسعى لتوفير ظروف ملائمة لوليد. لم يمض عليه في سبيل ذلك طويلاً، إذ واثته فرصة التعرف على آنسة تنحدر من أسرة كريئة، من مدينة شتوتجرت Stuttgart فتزوج منها، وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

قفل أرنست وعروسه الجديدة عائدين الى كراتشي. ثم قصدا من هنالك هدفهما المرسوم ألا وهو بيشاور Peshawar بالقرب من الحدود الأفغانية. كانت رحلتهما هذه عبارة عن مغامرة شاقة كادت أن تودي بحياتهما. فلقد كان عليهما ان يبحرا خلال ذلك، لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، في نهر «اندوس» (او نهر السند) Indus. وان يركبا، ولثلاثة ايام، عربة تجرها الحاموس، الى لاهور Lahore ثم أنهما قد نقلتا على محفة تنأوب حملها اثنان وعشرون من الخدم الى ان وصلا بيشاور قاطعين بذلك خمسمائة كيلومتراً.

استقبل البريطانيون، والسكان المحليون، الباثان Pathan، صاحبنا وزوجته استقبالا حاراً. وانبرى أرنست، في الحال يدرس لغة الباشتو Pashto، والتي لا تقل صعوبة عن اللغة السندية بشئ، فأثقتها بسرعة مذهشة بل إنه راح يمارس الوعظ والإرشاد بها بأقرب فرصة ممكنة. وعلى الرغم من معاودة إصابته بين الفترة والاخرى بحمى الغب، لم يأل جهداً في محاولته البحث عن لغة حية جديدة. فما ان أتيحت له فرصة لقاء ثلاثة أشخاص من أهالي «كافرستان» حتى تعلق بهم واعتبرهم «عينات ممثلة لدراسة لغة اهالي تلك المنطقة». (لقد تغير اسم منطقتهم من كافرستان الى نورستان فيما بعد). انبرى صاحبنا يهين لهم الظروف الملائمة ويعمل على اغرائهم بالبقاء عنده مدة كافية تنسئ له خلالها دراسة لغتهم. ويصف لنا أرنست الموقف فيقول: «لقد كنت أحتفظ بهم ثلاث أو أربع ساعات كل يوم، مقدماً لهم بين الفترة والاخرى وجبات من الحلوى عاملاً على تسليتهم كي لا ينفذ صبرهم». ويضيف قائلاً: «إن ظنه قد خاب» فيما يتعلق بمظهرهم. فقد توسم فيهم امتشاق القوام وبياض الوجه وملاحته، فوجدهم داكئي البشرة، «رغم الحمرة التي راحت تكسو وجوههم والتي إن عادت الى أمر فإنما عادت الى الخمر المعتق الذي راحوا يحتسونه». وحرى بنا أن نشير هنا، إلى ان توسم أرنست ما توسمه ارتكز على ما كان يشيع

بين الناس من أن أهل «نورستان» ينحدرون من اليونانيين الذين صاحبوا الإسكندر الأكبر حين قدم هذه البلاد. ثم انطلق بعد ذلك يدرس لغة البراهوى Brahui، تلك اللغة التي تتكلمها أقلية تعيش في «بلوتشتان» ولقد نشر بحثاً قيماً في هذه اللغة عام ١٨٨٠. (ليس لهذه اللغة صلة بالإيرانية أو بلغات شمال الهند، كما هو الحال بالنسبة للباشتو والسندى، ولكنها تتصل بلغات جنوب الهند الغير آرية). كما أنه درس لغة ونحو كل من «الكشميرى» و«النيبالى». هذا ولا زال كتابه في نحو اللغة الأخيرة مخطوطاً.

أضطر أرنتس، على أثر معاودة المرض له، الى مغادرة بيشاور، مما خلف اللوعة والأسى في النفوس. ولما عادت له صحته، عكف في شتوتجارت Stuttgart يدرس المواد التي كان قد جمعها خلال وجوده في الباكستان. كان ذلك ما بين سنتي ١٨٦٠-١٨٦٣. ثم أخذ يعمل قسيساً في قرية فولينغن Pfullingen، التي تقع على مقربة من القرية التي شهدت مسقط رأسه، ما بين عامي ١٨٦٤-١٨٧٠. هذا ولم يتوقف خلال ذلك عن متابعة بحثه العلمي بل راح ينشر الكتب والمقالات العديدة، باللغتين الألمانية والإنجليزية. لم يكن أمر تعيين صاحبه كأستاذ للغات الشرقية في جامعة توبينغن Tübingen التي نال منها درجة الدكتوراه، بمستحق؛ بيد أنه ولما كان شريط الذكريات في أذهان زملائه في تلك الجامعة، ما انفك يسجل نشاط أرنتس السياسى خلال ثورة ١٨٤٨، لهذا السبب بل ولأسباب أخرى نجعلها، فقد حيل دون بلوغه ذلك الهدف. فبقى هذا العلامة الأوربى، علامة اللغات السامية واللغات الهندية الحية، يعمل قسيساً في تلك الأبرشية المتواضعة. ومع ذلك فيمكن القول بأن أرنتس، ورغم كل الصعوبات، قد نعم خلال تلك الفترة، بحياة عائلية هنيئة.

وفي عام ١٨٧٠ عادت الحكومة البريطانية تعرب عن اهتمامها بخبرته، فطلبت منه العودة الى الهند ليقوم بترجمة كتاب السيكت المقدس «آدى غرانت» Adi Granth نظراً لما تتمتع به تلك الديانة من أهمية سياسية في حياة الهند. وما أن شرع في مهمته الجديدة حتى ادرك استحالة الاضطلاع بها دونما مساعدة من متكلمى تلك اللغة، فهي لغة معقدة عويصة. التفت الى جهابذة السيكت ينشد امدادهم له، بمعرفتهم ولكن ظنه سرعان ما خاب بهم، فهم، على حد قوله «لم يستطيعوا أن يزودوني

الا بتفسيرات تقليدية أثبتت مقارنتها بالنصوص المختلفة تناقضها وفسادها، بل انهم قد عجزوا، في كثير من المناسبات، عن تقديم أى شرح أو تفسير». فلم يجد بداً حينها من التعويل على نفسه. فراح يعد بطاقات مفهومة للكلمات والقواعد النحوية القديمة ويقوم بدراستها وتمحيصها. كل ذلك بطبيعة الحال يهدف التمكن من دراسة واستيعاب ذلك الكتاب المقدس، والذي يزيد حجمه على حجم القرآن الكريم بعدة أضعاف. هذا ولعله من الطريف أن نذكر، في هذه العجالة، بأن السيكت لم يأبوا لعمل أرنتس لا ولم يقدروه حق قدره، بل وعلى النقيض من ذلك فانهم ما انفكوا يذكرّون «سوء التصرف والإثم الكبير الذى كان يرتكبه بالتدخين بحضرة الكتاب المقدس»! غير أن السلطات في لاهور، ولا عجب، قد قدرت تلك الجهود حق قدرها. وعمل البريطانيون قسارى جهدهم لإقناعه بالبقاء.

لقد تكبد أرنتس في تحليل خطوط كتاب السيكت المقدس جهداً أعياء وأضعف عينيه، فلم يقو على البقاء في تلك البلاد. فل هذه الأسباب الصحية وبسبب حنينه الى الوطن، الذى راح يتأجج، قفل أرنتس عائداً الى ألمانيا في سنة ١٨٧٢. وهناك عمل على إنجاز ترجمة الكتاب، آتف الذكر، فنشر في مجلد ضخّم عام ١٨٧٧. كما ألحقه بعدة دراسات عن ديانة السيكت.

لم يبارح أمل الحصول على كرسى الأستاذية في جامعة توبينغن مخيلة صاحبه. ولعل ما جاء في رسالة له مؤرخة في ١٨٧٣/١/٢٤ ما يعكس المرارة التي كان يعانها وهو ما زال في سن الخامسة والأربعين، فهو يقول: «ولما كنت أعلم بأن الجهود كلها تبذل في سبيل لإظهارى امام الملأ بالعجز، فسأرفق بطلب استخدامى قائمة بالمؤلفات التي تمت طباعتها؛ كمثل كتاب قواعد السنديّة وكتاب قواعد الأفغانية ... الخ؛ رغم مخالفة ذلك لطبيعتى».

بعد أن عمل أرنتس كمحاضر Privatdozent في قسم اللغات السامية في جامعة توبينغن، ولفترة قصيرة، في أواخر العام المذكور سالفاً، انتقل الى جامعة ميونخ ليشغل كرسى الأستاذية في قسم اللغات السامية فيها. وأمل وقتذاك أن يتمكن من القيام بأعمال نافعة في كل من اللغة العربية والآثيوبية وسواهما. وهكذا فقد نشر، اثناء وجوده في ميونخ، «مقدمة لدراسة قواعد اللغة العربية». كما حقق وترجم «أجرومية» محمد بن داود الى الألمانية، وكان ذلك

wichtig für die richtige Auffassung der passiven Construction, wie wir gleich sehen werden.

Wie das **فَاعِلٌ** so ist auch das **نَائِبُ الْفَاعِلِ** doppelter Art, entweder **مُظَهَّرٌ** (ein offenbares Nomen), oder **مُسَمَّرٌ** (ein Pronomen); das letztere kann wieder **مُنْفَصِلٌ** (absolutes Pronomen), oder **مُتَّصِلٌ** (angehängt) sein, und als solches wieder **بَارِزٌ** (offenbar, wie in **فُتِرَتْ**), oder **مُسْتَتَرٌ** (verborgen, wie in **فُتِرَ**).

Aus dem Bemerkten ergeben sich im einzelnen folgende Regeln:

I. Die passive Construction ist im Arabischen nur da anwendbar, wo der Thäter nicht genannt wird, z. B. **ضُرِبَ زَيْدٌ**, „Zaid wurde geschlagen“.

Dadurch unterscheidet sich das Arabische speciell von seiner Schwestersprache, dem Aethiopischen, welches sich die Möglichkeit bewahrt hat, bei der passiven Construction auch das active Subject durch Hilfe von Praepositionen (wie **በ**, **ለ** etc.) einzufügen, z. B.: **ለ-ገላት ተረፈ ስላሳ** „da wurde erfüllt, was gesagt worden war durch Jeremias, den Propheten“ (Matth. 2, 17). Auch das Hebräische ist in dieser Hinsicht noch freier und kann das handelnde Subject, wo es nöthig ist, vermittelt einer Praeposition (**ל**), stärker noch durch (**מִן**) dem passiven Satz unterordnen, z. B.: **מִיְהוָה מֵעֲדָי נִקְרָא מַעֲשָׂיו**, „von Jehovah werden die Schritte eines Mannes richtig gestellt“ (Ps. 87, 28), während im Syrischen diese Construction (mit Hilfe

صحيفة عن مقالة إرنست ترنب عن النحو العربي:

Beiträge zur arabischen Syntax, Sitzungsberichte der Kgl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philos.-philol. Classe, 5. Mai 1877.

مفعمتين بالتعليقات والشروح، حرى بدارس نحو العربية عدم اغفال الإطلاع عليها. كما راج ولعه بالأثيوبية يتبدى، وقد استمرراً لمجتها على وجه الخصوص. ففي خلال أقصر وقت بات يتقنها ويميز أدق دقائق اللحن فيها. ومن الطريف أن نذكر هنا، بأن تجرته انحصرت في هذا المجال، بدراسة رجل أثيوبي، كانت قد أحضرته إحدى

عام ١٨٧٦. وبعد عمله هذا محاولة ممتازة حقيقة بالتقدير، رغم النقد الذى وجهه له، فى حينه، الأستاذ فلايشير H. L. Fleischer، علامة اللغة العربية. (وقد ندر أن يفلت بحث فى هذا الحقل من نقد الأستاذ المذكور، وذلك لبراعته وتفوقه فيه.) كما قام أرنست بدراسة «كتاب المفصل» للزنجشى دراسة وافية، ظهرت فى مقالتين طويلتين

البعثات الدينية، الى اوربا. هذا وقد تمخضت تلك التجربة عن عدة مقالات تعالج الأبعاد المختلفة لتلك اللغة كتبها ما بين عامى ١٨٧٨-١٨٨١.

بيد أنه، ولما كان لكل أجل كتاب، ولكل طاقة حدود، لم يعد بمقدور أرنست أن يتحمل المزيد. فدراسة لغات شبه القارة الهندية العويصة، وقضاء ربح من الزمان يصارع صعوبات المناخ أثناء اقاماته المتقطعة فيها، ودأبه الحثيث على دراسة لغات أخرى كالعربية التى تتصف بتعقيدها وصعوبتها... كل ذلك عمل على إرهاق قوى صاحبنا وإعياء صحته. فلم تلبث عيناه، التى قرأت وتفحصت الآلاف العديدة من الصفحات المختلفة، بما كتته بين ثناياها من غامض الخطوط ومعقدها، لم تلبث هاتان العينان حتى تردت فى حمأة جحيم الظلمة، فحرم المسكين من نعمة البصر وحرم من القدرة على القراءة والكتابة، عدته وعتاده فى الحياة. هذا ولم تفتأ الظلمة الكبرى أن حلت حين راحت تلك الظلمة الدامسة تزحف الى عقله الجبار فتشله. وينتقل، على أثر ذلك، الى أحد المستشفيات يمحىها أياما حزينة حتى يوافيه الأجل المحتوم. وهكذا يعود أرنست، بعد تطوافه الكبير فى عالم اللغات، وبعد حياة لم يكن للإستقرار فيها مكان، يعود الى دار الخلود، الى منزل السلام الدائم يوم عيد الفصح المجيد الذى وافق فى الخامس من شهر نيسان لعام خمس وثمانين وثمانماية وألف للميلاد، بالغا من العمر سبع وخمسين سنة.

إننا اليوم لنقف عاجزين عن الإحاطة بكل ما خلفه هذا المستشرق الكبير من آثار، وذلك لغزارته وتعدد جوانبه. لقد اهتم باللغات كلغات، وليس كأداب، وراح يسبر غور قطاع هام فى عالم هذه اللغات، ألا وهو عالم شبه القارة الهندية، فعبد طريقه ومهد سبيله أمام اللاحقين من العلماء والذين راحوا يقتفون اثاره ويتبعون خطاه.

ونحن إن حاولنا استعراض جزء من أعمال هذا اللغوى العظيم، فانه يمكن القول بادئ ذى بدئ، إن عشقه للسندية وتعلقه بها قد فاق تعلقه ولعه بسواها من اللغات الحية. لقد انطلق، كما تشير كتاباته، يتتبع اثارها فى طول البلاد وعرضها. فهو يذكر، مثلا، هضبة مكلى Makli Hill التى تقع بالقرب من العاصمة القديمة للسند، والتى تبعد مسافة ستين ميلا عن كراتشى قائلا: «لعل المعابد والأضرحة فى هضبة مكلى أروع ما يمكن مشاهدته من الآثار فى بلاد السند والهند. (ونحن هنا لا يسعنا

إلا أن نوافقه على ذلك، إذ ان هذه المقبرة، والتى تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة، عبارة عن آية فى جلال الهندسة المعمارية الاسلامية وكثر رائع من كنوزها، بنيت أضرحتها ما بين عامى ١٥٠٠-١٧٥٠).

يعتبر «كتاب القراءة السندية» باكورة انتاج أرنست فى هذه اللغة. وقد استعمل الحروف العربية والسنسكريتية فى كتابته. ولا نعتقد أن هذا الكتاب قد نال تقدير أهل السند، وذلك لما يتضمنه من نصوص فى اللاهوت المسيحى. فهو قد كتبه اصلا ليستعمله المبشرون الذين يرغبون فى الذهاب الى تلك الديار.

نشر بعد ذلك مقالات عديدة فى «قواعد اللغة السندية». راح يقارن فى هذه المقالات اللغة السندية باللغات الحية الأخرى التى تطورت عن البراكريت.

وفى أواخر عام ١٨٧٢ نشر كتابه الهام «قواعد اللغة السندية» والذى ألحت الحاجة اليه، فأعيد طبعه مؤخرأ. ولما كان أرنست قد عاش البيئة السندية بأبعادها المختلفة، وعاش الناس على اختلاف مستوياتهم، فقد تسنى له التعرف على آدابهم الشعبية، وبالذات أغانيهم واساطيرهم. وتمخضت معرفته وجهوده فى هذا المضمار عن اثني عشر مجلد، ما برحت مخطوطة، لتلك الآداب. ويعتقد أرنست، كما يعتقد الرحالة البريطانى الشهير السير ريتشارد برتن Richard Burton، بأن السندية تملك أكبر مجموعة شعرية شعبية أصيلة بين لغات الهند، «إن حادى العيس فى فيافى الصحراء، والزوج المكوم الذى راح يقف وراء محرائه، ذلك المحراث الذى إن هو الا غصن شجرة انحنى طرفه، ليحفظا عن ظهر قلب ابياتا واياتا من ذلك الشعر، ينشدها بين الفينة والأخرى عملا على قطع ساعات النهار. إن استمرار وشيوع هذا النوع من الادب الشعبى بين هؤلاء الناس، حتى يومنا هذا، ومنذ عهود هى غاية فى القدم، أمر ساعد عليه نحوال أولئك المنشدين والشعراء القبليين عبر البلاد». إلا ان أرنست نفسه، لم يستغف قصائد ذلك التراث الهائل. فهو يقول، «إن الناس لا يحسنون سوى ترداد القوافى والتلاعب بالكلمات حتى ولو كان ذلك على حساب الإتساق المنطقى للأبيات»! هذا ولم يمقت فى حياته أمرا كما مقت ذلك النثر «الجاف الممض» الذى جاء فى أعمال المفكرين الدينيين من أمثال مخدوم محمد هاشم، الذى ما عنمت شهرة ترجمته لأجزاء من القرآن الكريم الى اللغة السندية ولأول مرة، فى مطلع القرن الثامن عشر، تعم

الأوساط السندية. إنه كلغوى رفض تكرار استعمال الألفاظ العربية والفارسية في هذه النصوص. إلا أن سعادته كانت تبلغ الذروة حين كان يصدف قصائد سندية خالصة.

ويعتبر تحقيق «الأعمال الشعرية» لشاه عبد اللطيف، الإنجاز الرئيسى لأرنست في حقل الدراسات السندية. (إن أعمال هذا المتصوف الكبير وشاعر القرن الثامن عشر مازالت تستهوى أفئدة الناس في مختلف بقاع تلك الديار) ولقد اختار صاحبنا بادئ ذى بدئ إحدى حكايات هذا العمل الضخم، ألا وهي حكاية «سورات»، وراح يقدم للقارئ الألمانى تحليلاً لها، نشرته إحدى المجلات العلمية الألمانية. هذا ويبقى أمر اختياره لهذه الحكاية بالذات، والتي هي أقل أجزاء مجموعة «الرسالو» Risalo بهجة، كما ان نصها قد تشوه وتقطعت اوصاله مما يصعب علينا فهمه. ثم انه وكتوطئة لتحقيق هذا العمل، والذي اكتملت طباعته في لبيزك عام ١٨٦٦، فقد ترجم «سر سورات» الى الألمانية. وكان ذلك في سنة ١٨٦٢. ولقد استعمل أرنست، في اخراج هذا الكتاب الى حيز الطباعة، الحروف الهجائية العربية بعد أن أجرى تعديلات طفيفة عليها. غير إن استعمال هذه الحروف بما اجراه عليها أرنست من تعديلات، اتفقت وفهمه اللغوى، ليجعل أمر قراءة السندية أكثر صعوبة على الفرد السندى المعاصر، علماً بأن حروف الهجاء العربية كان قد شاع إستعمالها رسمياً منذ عام ١٨٥٢ في البلاد. ومع هذا فاننا لنتفق مع أرنست «بأن المرء الذى يجهد في قراءة أعمال شاه عبد اللطيف (في أى صورة كانت) سيجد جزاءه متعة يحظى بها بقراءة النصوص الجميلة المنتشرة في كل مكان». إنه لمن الطريف ان نجد أرنست هنا، وقد أعرب عن استمرائه لشعر شاه عبد اللطيف. فهو في مناسبات أخرى راح يعمم ويصدر الاحكام بأن التناقض والتتابع المخطوء هي من صفات شعر السند. كما انه اعتقد جازماً بأن ظاهرة التصوف ان هي إلا تشويه لحقيقة الإسلام الحنيف متأثراً بعوامل هندية!

واذا ما كان لأرنست الحق كل الحق بأن يقول كل ما يريد، فان ذلك لا يعنى بحال ان نوافقه على كل ما يقول. فما لا ريب فيه لدينا، هو أنه في احكامه لم يخرج عن منطق ونظرة أولئك المبشرين البروتستانتين الضيقة، والذين كانوا يرغبون عن أى شكل من اشكال التصوف. فكيف يكون الحال إذن حين راحوا يصدفونه وقد تطور الى أشكال وأنماط شعرية محملة بالرمزية،

في ذلك الجزء الشرقى من ديار الاسلام؟ يضاف الى هذا حقيقة ان الامام بتاريخ ظاهرة التصوف أمر لم يكن شائعاً في عهد صاحبنا. لا ولم يكن استخراج ودراسة المصادر الأولية قد جرى بعد. وما كان قد حقق حتى عهده لم يكن يمت إلى المصادر المتقدمة من تاريخ التصوف بصلة، مما حال دون الدراية بأراء الكثيرين من أعلام التصوف الأولين؛ أمثال الجنيد وتابعيه، كما حال دون التمكن من سبر غور التجربة الصوفية. وثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا ألا وهي عدم تبحر أرنست نفسه في دراسة القرآن الكريم أو تمكنه من إدراك معانيه. فهذه الأسباب مجتمعة كفيلة بأن تبرر لصاحبنا عجزه وترديه في مرارة الحيرة كلما كان يصدف أية قرآنية او نصاً شعرياً تكتنفه الاستعارات والتشبيهات القرآنية. ولم يقف عجزه عند فهم القرآن الكريم فحسب بل امتد في أحيان كثيرة الى الأحاديث النبوية الشريفة الشائعة، هذا إن لم نذكر عجزه عن فهم كتاب «مثنوى» لجلال الدين الرومى.

وكتاب «نحو اللغة السندية»، والذي سبق ذكره، يعتبر خاتمة ثمرات أرنست في مجال اللغة السندية. ويضاهى هذا العمل كتابه «نحو الباشتو» الذى تم نشره في سنة ١٨٧٣، والذي يشكل أنموذجاً حياً لعقلية أرنست الثاقبة، وقدرته على فهم أدق دقائق نحو اللغة. هذا على الرغم من ربطه للباشتو باللغات الهندية لا بالإيرانية، وهي فكرة مردودة، عني عنها الزمان.

وثمة حقيقة تدعو للأسف الشديد ألا وهي أن عدداً من دراساته في لغات بعض قبائل جبال الهملايا مازال مخطوطاً ولما يخرج إلى حيز الطبع بعد. ينسحب هذا القول أيضاً على بحثه في نحو اللغة النيبالية. كما انى لعل ثقة من أنه لو حققت له، فرصة اخراج ذلك البحث، الذى أعرب، في إحدى رسائله، عن رغبته الأكيدة بالكتابة فيه، في اللهجة الإيرانية، لحظينا بأثره من الطرافة والقيمة بمكان كبير، ولشكل مدخلا طيباً لدراسة لفظ اللغة الفارسية، كيف لا وهو الذى كان قد أتقنها في لهجتها الإيرانية والهندية عن طريق الممارسة. كما قام بتدريسها في صيف عام ١٨٧٣، في جامعة توينغن. كما لم تكن الملاحظات التى أبداها وقتذاك علامة اللغة الفارسية خودسكو Chodzko حول لفظ هذه اللغة لتلقى قبولا أو قناعة لديه. وكان أرنست قد أعرب، في نفس الرسالة، أيضاً عن رغبته في متابعة دراسة نحو لغة البراكريت

الوسيط، أو الهندي القديم، تلك الدراسة التي كانت ستغطي منطقة شمال الهند في العصور الوسطى. وهو عمل لم يضطلع به أحد بعد، رغم مرور مئة عام على محاولة أرنست.

ولا يفوتنا، قبل أن نختتم هذه الترجمة العاجلة لحياة أرنست ترمب الاكاديمية، من أن نذكر أن الجهود التي بذلها، في السنوات الأخيرة من حياته، في دراسة اللغة الأثيوبية، لم تثمر عن نتائج فيها من ابداع واصالة البحث ما تعودناه منه وما كان من شأن لغات الهند الحية، في منطقة باكستان الغربية على وجه التحديد.

لا ريب بأن مجال الترجمة الكاملة لحياة هذا المستشرق الكبير، والعرض النقدي الشامل لأعماله، هو غير هذا. فلقد انحصر هدفنا هنا في تقديم عرض سريع يتسنى من خلاله للقارئ المهتم التعرف وتكوين فكرة عاجلة عن أبعاد هذا العلامة المبدع، والانسان المسئول. لقد

تفوق أرنست ترمب كعلامة لغة، ولقد زهد وتواضع في حياته كإنسان. كان يفضل عزلة العلم عن مخالطة الناس. هذا ولعل فيما كتبه يوم كان في ميونخ، وفي سنة ١٨٧٥ على وجه التحديد، ما يوضح لنا موقفه هذا، فهو يقول: «وحتى هنا، في ميونخ لا أخرج إلى الناس ولا أختلط بأحد، وأنا إلى الوقت أو القدرة العقلية لمثل ذلك...». إن من عرف عالمنا الكبير عن كتب ليؤكد لنا خصلة الخير فيه وشكيمة التواضع، فهو لم يغتر بعلمه لا ولم يتردد في مساعدة المحتاج. لقد قام احساسه بالمسؤولية أصلاً على أساس من حياته الدينية وقوة إيمانه الروحي، ومن وحيها راح يتصرف. إن طبقات المثقفين في السند لن تنسى، ما حيت، فضل هذا العلامة، تماماً كما لن ينسى الهندوس فضل علامة الهندية الألماني ماكس مولر Max Müller، فاليهما يعود فضل السبق في تعريف الغرب على كنوز تراث تلك الديار. ترجمة: احمد شركس

* * *

ZUHAIR SPRACH:

*Ich sah das blinde Schicksal umtasten nach dem Fang,
Wen's greift, der stirbt, und wen es verfehlt,
der altert lang.
Wer sich nicht in die Leute vielfältig schicken kann,
Den wird ein Huf hier treten, und beißen dort ein Zahn.
Wer seine Ehr bewahret mit Huld, der mehret sie,
Und wer nicht Tadel scheuet, entgeht dem Tadel nie.
Wer in die Fremde wandert, verliert den Freund zu Haus,
Und wer sich nicht auszeichnet, den zeichnet niemand aus.*

DEUTSCH VON FRIEDRICH RÜCKERT

قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تُميته، ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب، ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

الرحّالون الأمّات إلى البلاد العربّية

بقلم : الأستاذ محمد علي حشيشو

فحسب، بل وكذلك على ما قدموه من معلومات جديدة تماماً، واكتشافات جغرافية واثولوجية بالغة الأهمية بالنسبة لاجزاء كبيرة من اليمن والحجاز وشرقي الاردن. وقبل الخوض في موضوع اولئك الرحالين الثلاثة، رأينا من المجدى ذكر مقدمة موجزة عن حركة الرحلات الألمانية إلى الشرق الأدنى مع استعراض نماذج منها حتى رحلة نيبور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

كان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة عليه، وما ندعوها اليوم بالشرق الأدنى، مناطق ذات جاذبية خاصة لدى قدماء الرحالين والجولة من الإغريق والرومان. فكان من مفاخر الرحالة المقتدر الطموح أن يتمكن من زيارة مصر ومشاهدة آثارها الهائلة، ومن التعرف إلى النيل الخالد وسر فيضانه الصبغ المعجز. ولكن بانهار العالم الروماني أمام غزوات البرابرة من الشمال والشرق، وبانتشار نظام الاقطاع في اوروبا،

إن للرحلات التي قام بها الأوروبيون في بلاد الشرق، ولما قصوه عن مشاهداتهم فيها أثراً بالغاً في تاريخ الإستشراق، ودوراً لا يستهان به في ايقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضاراتها. وللألمان من هذه الرحلات وما كتب عنها نصيب يستحق أن يذكر كورقة جديدة في تاريخ الاستشراق الألماني. وسنتعرض في هذه المقالة إلى ذكر ثلاثة رحالين ألمان، أو ناطقين بالألمانية، زاروا البلاد العربية في القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الأدنى، وبدأت بحملة نابليون إلى مصر وسوريا، تلك الحملة التي كشفت النقاب عن أسرار كثيرة كانت مجهولة عن مصر وبلاد العرب. أما أولئك الرحالون فهم : كارستن نينور، وأولريش زيتسن، ويوهان لودفيج بوركهارت. ولا تقوم شهرتهم على غرابة التجارب والمجازفات التي مروا بها

ونشوء الإسلام وفتوحاته في شمال أفريقيا وفي الشرق. بدأ عهد جديد في حركة الرحلات من أوروبا إلى الشرق الأدنى. ومع أن الاقطاع خلق عراقيل كثيرة في سبيل التنقل الحُر، إلا أن المسيحية ساعدت على تنشيط السفر وتوسيع حركة التجول. إذ أن الدوافع الدينية التي أدت بالأتقياء إلى زيارة الأماكن المقدسة المنتشرة في الشرق الأدنى والبلاد المقترنة بتاريخ الكتاب المقدس هي التي سادت حركة الأسفار الأوروبية إلى الشرق في القرون الوسطى. فبينما كان الرحالة الوثني سائحاً فضولياً، كان سائح القرون الوسطى في الغالب حاجاً إلى بيت المقدس وبلاد الأناجيل. ولذا فإن مذكرات الحجاج إلى فلسطين هي أقدم ما خلفه لنا الرحالون الأوروبيون من آثار مخطوطة عن الشرق الأدنى في أوائل العهد الإسلامي. وقد ظل سيل الأوروبيين يتدفق على سوريا وفلسطين من القرن التاسع الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر، عندما انتقل الحكم إلى أيدي السلاجقة فأخذوا يضيقون الخناق على الحجاج المسيحيين، مما أدى فيما بعد بطريق غير مباشر إلى شن الحملات الصليبية المختلفة. ويضيق بنا المجال هنا لوقمنا بتعداد الحجاج الألمان الذين أمروا الأراضي المقدسة قبل الحملات الصليبية وأثناءها. ولكن القارئ يستطيع الرجوع إلى المؤلفات المختصة التي تتناول هذا الأمر).

وتماشياً مع روح العهد الصليبي والقرون الوسطى فإن روايات رحلات تلك الفترة لا تحمل شيئاً من الود للعرب والإسلام وتزخر بالغيرة على الأراضي المقدسة والخوف عليها من عبث الأيدي المعادية للمسيحية. ومع ذلك فبالرغم من التشابه في لهجة تلك الروايات الأولى إلا أنها ذات قيمة خاصة حيث أنها تقدم معلومات أساسية قيمة عن التاريخ الحضاري للشرق الأدنى في تلك العهود المبكرة، كما أنها تختلف باختلاف شخصيات الكتاب ووجهات النظر التي انطلقوا منها. فهناك مثلاً الرحلة التي قام بها عام ١٢١١ أحد كبار رجال الدين واسمه فيلبراند فون أولدنبورغ على رأس بعثة دبلوماسية من الإمبراطور الألماني أوتو الرابع إلى ملك القدس الأرمني ليونحنصوس الوراثية على عرش القدس. فإلى جانب وصف مدن سوريا وفلسطين وكل من الأماكن المقدسة بالتفصيل يبدى أولدنبورغ إلى جانب مهمته الدبلوماسية اهتماماً خاصاً بدراسة الشؤون العسكرية في الشرق، مما يتضح من وصفه الدقيق، الفريد من نوعه في تلك الفترة،

(١) انظر إلى المراجع في نهاية المقالة.

للتحصينات العسكرية في سوريا. فتدهشه صور، أقوى قلعة للصليبيين آنذاك، بتحصيناتها سواء من البحر أم من البر، خلافاً لصيدا التي كان الألمان قد دمروها في حملة عام ١١٩٧ وأبادوا حصونها شر إبادة. واشتد إعجاب أولدنبورغ ورفاقه عندما شاهدوا قصرًا في بيروت، أرضه مبلطة بالمرمر وجدرانه مغطاة بالرسوم الرائعة، وحدائقه غناء تتوسطها النوافير. وكانت القدس بأيدي المسلمين آنذاك؛ ورغم أنه كان يسمح للنصارى بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المقدسة بصحبة رسول سلطاني كان يأخذ ضريبة عن كل شخص، إلا أن أولدنبورغ لم يستطع أن يخفى استيائه وشعوره بالمذلة والخضوع تجاه هذا الحال. وكانت خاتمة حجه زيارة إلى نهر الأردن عبر بيسان وأريحا حيث شوهدت كنيسة مدمرة في المكان الذي قام يوحنا بتعميد السيد المسيح فيه. وعندما أراد الحجاج الاستحمام بماء الأردن، أثاروا بذلك سخرية البدو المحيطين بهم الذين راحوا يعكرون الماء ويقذفونه بالحجارة.

هذه رحلة يمكن أن تكون نموذجاً لعدد من الرحلات أثناء حكم الصليبيين في سوريا وفلسطين. ولكن عندما عاد المسلمون فاستعادوا البلاد قلت بطبيعة الحال حركة الأسفار الأوروبية في المنطقة طيلة قرن كامل. فلما أطل القرن الرابع عشر، وتغير موقف الحكام المسلمين وأصبحوا أكثر تسامحاً تجاه الحجاج المسيحيين عاد سبيل الرحالين يتدفق إلى البلاد المقدسة من جديد. ومن أطرف هذه الرحلات تلك التي قام بها فيلهلم فون بولدنزيله، من مدينة مندن بوستفاليا، تكفيراً عن نذر قطعه على نفسه وتقرباً من الرب، والتي صورها في رواية ممتعة للغاية تفوق بما تتنازبه من دقة الوصف وقوة الملاحظة كثيراً من قصص الرحلات المعاصرة لها.

بدأ بولدنزيله مع مرافقيه رحلته عام ١٣٣٢ من إيطاليا إلى آسيا الصغرى حيث تعرف على ساحلها وعلى جزر الأرخبيل الهامة ثم وصل ليلة عيد الميلاد إلى صور التي وجد ميناءها في حراسة المسلمين، وجميع تحصيناتها المسيحية مدمرة تدميراً تاماً. وكانت خطته أن يزور مصر أولاً، ثم يعود إلى الأراضي المقدسة. ولذا فقد عبر الصحراء من غزة إلى القاهرة على ظهر الجمال في سبعة أيام. وفي رواية الرحلة يسترسل رحالته في وصف مصر وتاريخها القديم ونيلها الخالد، «نهر الفردوس»، الذي يخصب البلاد كل عام ويصب بالقرب من الاسكندرية. ولذا فالامطار نادرة في مصر، الغنية بالحيوانات والنباتات

الغريبة. ويذكر أنه رأى في القاهرة ثلاثة أفيال حية يصف شكلها وخرطومها وأنيابها بدقة، كما أنه شاهد زرافة بلغ عنقها من الطول بحيث أنها كانت تلثم طعامها من سطح أحد البيوت المرتفعة. ولكن أكثر ما أدهشه في القاهرة الأماكن التي يقدس فيها البيض بالطرق الاصطناعية. ويدهش صاحبنا لمنظر الأهرام التي شاهد عليها كتابات كثيرة بلغات مختلفة. وقال له بسطاء الناس إن الفراعنة كانوا يستخدمونها كخزانات للمؤونة، ولكنه اقتنع بعدم إمكان صلاحيتها لذلك، إذ وجد باطنها عند انحداره إليه مليئاً بالحجارة. وتمكن بولدنزليه في القاهرة من مقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي أسبغ عليه حماية خاصة وسلمه إذناً (فرمان) يوصى جميع رعاياه به خيراً، ويسمح له بزيارة الأماكن المقدسة، ويعفيه مع مرافقيه من دفع أية رسوم عن ذلك. وهكذا استطاع رحالتنا أن يتنقل مع حاشيته في ربوع بلاد المسلمين بأمان واطمئنان أكثر منهما في بلاد النصرانية، على حد قوله. فكان في كل مكان يصل إليه يبرز إذن السلطان، فيقف المسلمون ويقبلون التوقيع ويضعونه على جباههم احتراماً، ثم يأمرهم باحضار الطعام والشراب وتقديم الحراس والمرافقين. وكانت هذه التسهيلات حقاً أمراً نادراً لم يكن رحالة القرون الوسطى ليحلم به.

وفي مسيرة ثلاثة عشر يوماً وصل بولدنزليه سوريا. وفيها جذب البدو اهتمامه، فصفهم بأنهم قوم رحل يقطنون الخيام ويحملون التروس والرواح ويمتطون الجمال ولا يعبأون كثيراً بالسلطان ولا بتوقيعه، وان بوسعهم لو اتحدوا أن يحتلوا مصر وسوريا معاً. وعند بلوغ القدس لوحظ الخفاف الذي يحيط بالمدينة، فكانت مشكلة الماء تحل بمخزانات يجمع فيها ماء المطر وينقل بقناة من الجيرون إلى المدينة. ورأى بولدنزليه أن المسلمين كانوا ينزعون احتديهم عند دخول قبة الصخرة، حيث كان يقوم معبد سليمان، وأنهم كانوا يقبلون الأرض مرات عديدة (قاصداً الركوع)، وكان يتمنى الدخول إلى المسجد أيضاً لولا منع ذلك على النصارى. وعومل بولدنزليه في القدس أيضاً بعناية خاصة، حتى أن أمير المدينة ترك له مفاتيح كنيسة القيامة حيث أقام رجال الدين من حاشيته القداس، وتناول بعض أتباعه القربان المقدس. وبعد انتهاء القداس رفع اثنين من رفاقه إلى مرتبة الفروسية، وهذه أول إشارة إلى بدء التقليد في منح لقب فروسية القبر المقدس. وراعى الأمير العربى هذه المراسم حتى أنه لم يكن يسمح

لأحد بدخول الكنيسة دون موافقة بولدنزليه. إن ما كتبه رحالتنا هذا عن فلسطين ومدنها يفيض بالعاطفة الدينية بسبب ما كانت تثيره هذه الأماكن المقترنة بقصص العهد الجديد في نفسه من أحاسيس، سواء في بيسان أم أريحا أم غور الأردن أم الناصرة. وعندما وصل ورفاقه دمشق أدهشته المدينة بموقعها الجميل ونشاط حركتها وكثرة سكانها. ويصف الحركة التجارية المزدهرة فيها ويذكر القوافل القادمة من بغداد والهند والحملة بالحجارة الكريمة وأصناف الحرير والتوابل والعطور، والمتجهة بهذه السلع غرباً إلى موانئ البحر الأبيض السورية. وهو يشهد في روايته على براعة الصناعات اليدوية الفنية في دمشق، كما يشير بالثناء إلى مهارة أطبائها. واحتاز بولدنزليه جبال لبنان حتى بلغ الساحل بعد ركوب ثلاثة أيام. وقد أثارته مناظر لبنان الساحرة واصابه العجب لوفرة خيراته وتنوع ثرواته الزراعية، فأراضيه حسنة الفلاحة وجباله غنية بالنباتات، تكسوها أشجار الأرز والصنوبر، وأغلب سكانه من الموارنة الذين، على حد قوله، ينتظرون الحملة الصليبية التالية لمحاربة المسلمين إلى جانب الفرنجة. ومن بيروت ركب بولدنزليه وحاشيته متن البحر وعاد أدراجه إلى أوروبا.

تعليمات وارشادات مفيدة حول كيفية الاستعداد للرحلة، وافضل الطرق، ووصف البلاد الواقعة عليها. وقد اشتهر كتابه حتى اعتبر افضل مرجع سياحي للبلاد المقدسة في القرن الرابع عشر.

وفي عام ١٤٨٣ قامت جماعة من الألمان يرأسها زعيم ديني من ماينتز يدعى برنارد فون برايدنباخ بالحج إلى الأراضي المقدسة تكفيراً عن الذنوب مع رحلة طويلة في ربوع الشرق طبعت تفاصيلها عام ١٤٨٦ باللاتينية في كتاب اجتاحت شهرته جميع أوروبا آنذاك^(٢). وكانت جماعته تتألف من نبيلين شابين هما الفارس فيليب فون بيكن والكونت يوهان فون زولز، بالإضافة إلى اثني عشر فارساً وباروناً آخرين، والرسام ايرهاردت رويقتش، الفنان بالنقوش الخشبية، وخمسة قسس وراهبان، ورحالة خبير هو فيليكس فابري، مع عدد من المترجمين والخدم والطهاة والاتباع. وبعد الاستعدادات الواسعة، كان من العسير على افراد هذه المجموعة الكبيرة أن يبدأوا الرحلة الشاقة سوياً دفعة واحدة. لذا فقد انقسموا إلى فئات غادرت ألمانيا في مواعيد مختلفة واتفقت على اللقاء في البندقية. ثم اقلعت سفينتهم من البندقية، وبعد رحلة في البحر المتوسط دامت عدة أسابيع وصلوا يافا في أول تموز (يوليو)، ثم فرض أهل المدينة عليهم عزلاً صحياً لمدة اسبوع، سمح لهم بعده بالسفر إلى القدس. وبعد الزيارات التقليدية إلى كنيسة القيامة وبيت لحم وبيسان ونهر الاردن، انقسمت الجماعة ثانية إلى عدة فئات عاد أغلبها إلى يافا، بينما اتجه برايدنباخ واثنتان من رفاقه إلى دير القديسة كاترين في جبل سيناء، ومنه انحدروا إلى البحر الأحمر حتى وصلوه في الثالث من تشرين الأول (اكتوبر). وفي القاهرة حصل لهم حادث غريب، فقد ظنهم بعض تجار الرقيق عبيداً فارين، فقبض هؤلاء عليهم وأرادوا بيعهم لولا أنهم نجحوا في مقابلة السلطان الاشرف قايتباي، سلطان مصر، الذي أمر بالافراج عنهم. وفي القاهرة كذلك أدهشتهم «معجزة» فقس البيض بوضعه في روث الحيوانات الحار داخل افران خاصة. وهذا أمر ظل يذكره الرحالون الاوروبيون باستمرار حتى اواخر القرن الثامن عشر. ثم انتقلت جماعتنا هذه منحدره نهر النيل عبر رشيد إلى الاسكندرية حيث مات الكونت فون زولز الشاب من وعثاء السفر وعناء الترحال. وفي الثامن من كانون الثاني (يناير) عام ١٤٨٤ وصل برايدنباخ البندقية.

(٢) انظر الى المراجع في نهاية المقالة.

إن الكتاب الذي يضم قصة هذه الرحلة لا يحتوي على تسجيل وصفي دقيق لمراحلها مع صور من رسم رويقتش فحسب، وانما يقدم وصفاً مفصلاً للأراضي المقدسة وتعليقات وملاحظات طريفة عن عادات وتقاليد البلاد، مع ترجمة لحياة النبي محمد وعُتصر للتشريع الاسلامي وقاموس موجز للكلمات والتعابير اليومية العربية بالاضافة إلى ارشادات متنوعة للحجاج، ونصائح عملية لاتقاء ومعالجة الامراض المحلية. وقد نالت الرسوم التي حفرها رويقتش شهرة واهتماماً اكثراً من النص المخطوط، فهناك خريطة مفصلة للأراضي المقدسة وصور للحيوانات المختلفة كوحيد القرن والزرافة والتمساح وقرود هائل لم يستطع الرحالون أن يعرفوا اسمه. وهناك رسوم اخرى توضح الأزياء التركية والعربية واليهودية واليونانية والسريانية والهندية. كما أن صورة رويقتش المحفورة بالخشب التي تمثل كنيسة القيامة هي اول صورة مطبوعة لهذه الكنيسة اطلاقاً. وقد احرز الكتاب نجاحاً كبيراً عند صدوره حتى ترجم إلى الألمانية والانجليزية ولغات اخرى. واستخدمه واستند اليه عدد كبير من الرحالين الاوروبيين فيما بعد. واستقى عدد من الرسامين المعروفين مواضيعهم من رسومه. ويذكر لامبرت^(٣) أنه عندما فتح قبر برايدنباخ في كاتدرائية ماينتز عام ١٥٨٢ وجدت جثته محفوظة على أحسن حال بفضل مواد التحنيط التي كان قد احضرها معه من الاسكندرية إلى ألمانيا.

وقبل أن نختم ذكر هذه المجموعة من رحالي القرون الوسطى نود أن نضيف إليها رحلة نبيل ألماني ظلت قصته موضع تساؤل وشك حتى اليوم، رغم صدق ودقة مقاطع كثيرة منها. أما هذا الرحالة فهو آرنولد فون هارف، نبيل من يولش بالقرب من كولونيا، قام برحلة لمدة ثلاثة اعوام كتب قصتها بلهجة الراين الأسفل واكسبته شهرة كبيرة. غادر فون هارف كولونيا عام ١٤٩٦ بدافع زيارة الاماكن المقدسة، ولكن الحماس الديني ليس وحده هو الذي حفزه إلى السفر والتجوال، بل إن حبه للاكتشاف والبحث والتنقيب كان له نصيب كبير في ذلك أيضاً. وبعد أن وصل إلى البندقية أبحر إلى الاسكندرية ومضى إلى القاهرة، ومن ثم إلى جبل سيناء. وهو يودنا أن نصدق بأنه قطع شرق شبه الجزيرة العربية كله إلى عدن، وأنه أبحر إلى سيلان حيث زار الهند ومدغشقر وجزيرة سقطرة،

(٣) انظر الى المراجع.

وتساق جبال القمر واكتشف منابع النيل، وأنه اتبع مجراه حتى عاد إلى القاهرة ثانية. ويزعم بعد ذلك أنه عاد إلى أوروبا عبر فلسطين وسوريا وتركيا. وفون هارف، ككثير من رحالي القرون الوسطى، يمكن أن يصدق في أجزاء من أقواله ولكن ليس في كل ما يروي. فقصته تحتوي على الكثير من الخرافات ووحوش البحار العجيبة والجنيات المحاربات. وهناك أحد احتمالين: فاما أن نرفض مغامرة فون هارف عبر شرق الجزيرة العربية، وأن نفترض انه مضى من مصر إلى فلسطين رأساً، ولكنه فضل ابتكار قصة رحلة خيالية تعيده إلى مكان يمكنه، ابتداء منه، أن يسرد حقائق جديدة بالتصديق. أما الاحتمال الثاني فهو أن نصدق زيارته للجزيرة العربية، وفي هذه الحالة لابد لنا من الافتراض بأنه عند بلوغه عدن عاد إلى مصر عن طريق لم يذكرها في روايته، مفضلاً أن يبتكر طريقاً أطول، بحيث أنه لم يصف إلى رحلته شيئاً جديداً فحسب، بل أخفى جزءاً منها في الوقت نفسه أيضاً. ولأسباب فصلها بيكنجهام في مقال له حول أوائل الرحلات إلى الجزيرة العربية،^(٤) يميل المرء إلى تصديق الاحتمال الأول، والقول بأن فون هارف لم يزر الجزيرة العربية ولا الهند ولا أعلى النيل. فالى جانب أسماء مدن لا وجود لها في الجزيرة العربية، فان وصفه لمكة غريب يعث على الريبة الشديدة في صدقه. فبالرغم من سفره علانية كنصراني، يزعم فون هارف أنه رافق الحج مع عدد من النصارى واليهود حتى بلغوا مشارف المدينة. ولأنه لمن المستبعد جداً أن يسمح لغير المسلم بمرافقة الحجاج بعد الاحرام، فكيف بمشاهدة مكة لإطلاقاً. ويود فون هارف أن يقنعنا بأن مكة «مدينة خصبة تحيط بها الحدائق الغناء ذات الثمار الوفيرة النادرة» وأنه كان يجرى إلى جانبها «نهر كبير جميل» يصب في البحر الأحمر. أما المسجد، على حد زعمه، فعلى ارتفاع يفوق أى مسجد آخر في العالم. ويزعم رحالتنا أنه تقدم وجماعته إلى الكعبة «الواقعة في نهاية الجهة الشرقية» من ساحة المسجد «حيث يقوم ضريح النبي». ويمكن الاعتقاد بأن فون هارف كان قد سمع أو قرأ وصفاً للمدينة المنورة وغيرها من مدن الجزيرة العربية، فاختلط الأمر عليه، وجعل ذلك وصفاً لمكة. ولكن رغم اجزاء روايته المشكوك في صحتها، إلا أنه، حيث يصف أماكن زارها بالفعل، يثبت أنه عميق المعرفة دقيق الملاحظة خليق بالثقة. وباحتكاكه بأهل مصر وفلسطين من التجار وجامعاه بالألمان الذين رأهم منتشرين

(٤) ذكر مقاله مع المراجع.

في كل مكان على اختلاف مهتهم، فقد جمع فون هارف معلومات لا يستهان بها عن الشرق الأدنى، بحيث ان وصفه لحياة القاهرة ومشاغلا وأوجه نشاطها وتفاصيل ما كتب عن مصر يفوق كل ما رواه معاصروه. وندرك من روايته بكل دقة أحوال الطرق والسفر في أوروبا والشرق في تلك الآونة. إذ يولى فون هارف اهتماماً خاصاً بظروف السياحة ويدرج في كتابه كل ما يحتاج إليه المسافر من كلمات وعبارات شائعة وأرقام بلغات البلاد التي يمر بها. كما أنه أولى عناية خاصة بالرسوم التي تبين الملابس والأزياء الوطنية المختلفة.

من كل ما تقدم ندرك أن الدافع الديني الذي اشتد بانتشار الإسلام ظل حتى القرن الخامس عشر هو السائد في حركة سياحة الأوروبيين، بما فيهم الألمان، إلى منطقة الشرق الأدنى. وحتى ذلك الحين ظلت معرفة الأوروبيين عن بلاد العرب مقتصرة على سواحل سوريا والأراضي المقدسة ومصر، كما أن طرق السفر البحرية والبرية ظلت إلى حد بعيد هي نفسها، تطرق دون تغيير اساسي عبر الأجيال. ولكن نتيجة لاكتشاف الطريق البحري إلى الهند حول أفريقيا في القرن الخامس عشر، والاحتكاك بمراكز تجارة الهند والشرق الأقصى الغنية، فقد أخذت الدول البحرية الأوروبية في التنافس على سيادة المنطقة، فقامت مستعمرات برتغالية، وابعثتها انجليزية وهولندية وفرنسية في الهند وما حوفا، ولعب الدافع التجاري دوره في زيادة أهمية البحر الأحمر وبلاد الشرق الأدنى كجسور موصلة بين أوروبا والهند. وبرزت أهمية سواحل الجزيرة العربية جميعاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأصبحت موضع تنافس شديد بين القوى الأوروبية لأهميتها بالنسبة للتجارة وحماية السفن والطرق التجارية. وكان جميع الأوروبيين الذين ارتادوا سواحل الجزيرة العربية أو اخترقوها خلال هذين القرنين إما مسلمين ارتدوا عن المسيحية، أو غزاة أو رسلا متنكرين كانوا يحملون أنباء هامة إلى أوروبا، أو بحارين انتشلوا من سفن محطمة، أو أسرى معارك بحرية. ونظراً لعجز الألمان آنذاك عن الخوض في ذلك المعترك التجاري، فانه لم يكن لهم نصيب يذكر مما كتبه أولئك الرحالون الأوروبيون المغامرون أمثال فارتيا وألفونسو دالبوكرك والانجليزى مدلتون والفرنسيين باربير ودى لاغريلوديتير عن الجزيرة العربية من روايات ومذكرات كان لها اثر كبير، رغم ضحالة محتواها العلمى، في إثارة الفضول لمعرفة المزيد عن هذه البلاد وكشف

النقاب عن جغرافيتها ومدنها وسكانها وتاريخها الطبيعي. وإذا حرم الألمان من أى نصيب تجارى فى المحيط الهندى والبحر العربى، إلا أنه كتب لواحد منهم أن يكون الرائد فى تأليف أول كتاب علمى عن اليمن والساحل الغربى للجزيرة العربية فى أوروبا، وأن يكون العضو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من بعثة استكشافية علمية هى الأولى من نوعها إلى بلاد العرب، ليقوم بتسجيل هذه الرحلة. وليصبح كتابه حجر الأساس الذى بنى عليه كل من اعقبه من رحالين ومكتشفين أوروبيين فى ربوع شبه الجزيرة العربية.

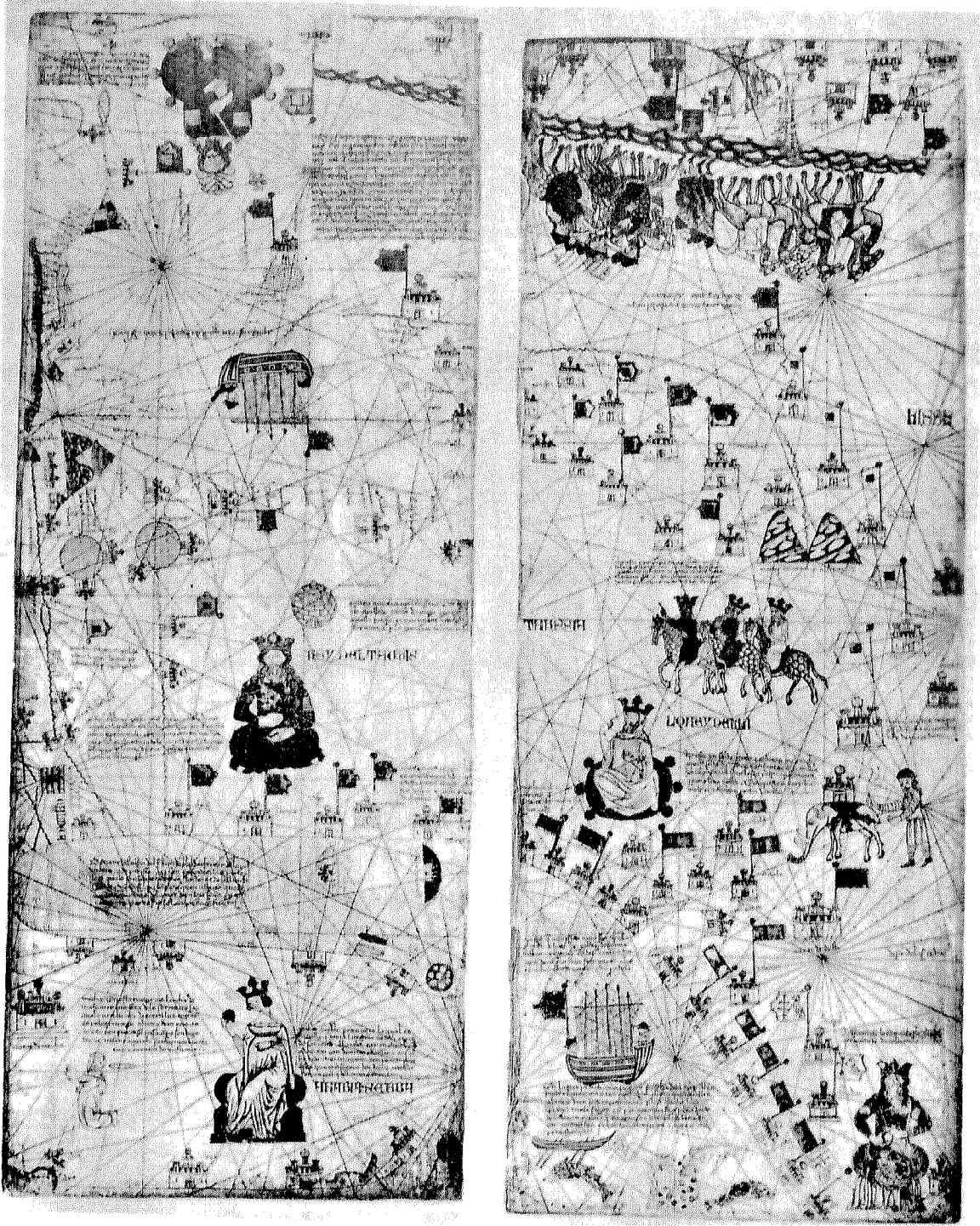
فى منتصف القرن الثامن عشر اقترح استاذ اللغة العبرية فى جامعة جوتنجن الألمانية ومستشار البلاط الدانمركى آنذاك ميشائيلس على ملك الدانمارك فريدريك الخامس إيفاد بعثة علمية إلى شبه جزيرة العرب للقيام بأبحاث جغرافية وأخرى تتعلق بالكتاب المقدس. واختير أعضاء البعثة كل حسب اختصاصه بحيث يتم التعاون فيما بينهم جميعاً دون رئاسة أحد منهم. أما أعضاء البعثة فكانوا: بيتر فورسكال، عالم نباتى، وكريستيان كرامر، جراح وعالم حيوان، وفريدريك فون هافن، عالم لغوى ومستشرق، وجيورج فيلهلم باورنفايند، رسام وفنان، وخادم سويدي يدعى برغ غرن، وأخيراً كارستن نيبور، مهندس المانى ولد عام ١٧٣٣ بالقرب من هانوفر، ودرس المساحة والرياضيات فى جامعة جوتنجن، وشاء القدر أن يكون الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أعضاء البعثة، وعاد بمفرده ليكتب التفاصيل نيابة عن رفاقه الراحلين.

غادرت البعثة كوبنهاجن عام ١٧٦١ واتجهت إلى القسطنطينية ومنها إلى الاسكندرية فالقاهرة. ثم ابجرت من السويس على البحر الأحمر عابرة ينبع حتى بلغت جدة. وكانت الرحلة لا تخلو من الخطر بسبب الصخور المرجانية والتوءات الكثيرة وازدحام السفينة بالمسافرين. ويسجل نيبور أن التحصينات القديمة التى بنيت فى جدة لمقاومة البرتغاليين كانت مدمرة، وكانت بيوت جدة معظمها من الخشب وينقل الماء إليها على ظهور الجمال من خزانات على التلال المجاورة. ولم يكن ميناء البلدة أكثر من سوق تجارية بين الهند ومصر، يسيطر عليها الانجليز. وبعد انتظار شهرين فى جدة، حيث عومل الرحالون الأوروبيون بكثير من الود والتساهل، ظهر فى الميناء مركب متجه إلى الحديدة، فاستقلوه رغم صغر حجمه وغرابة شكله. وبعد ستة عشر يوماً بلغوا لبها، وكان حاكمها رجلاً مهيباً، مستقيماً، حسن الطباع. وأخفى الرحالون عن

حاكم لبها غايتهم من استكشاف اليمن. وأخبروه أن وجهتهم مخا حيث سيلتحقون بسفينة انجليزية إلى الهند. كانت لبها بلدة فيها عدد قليل من البيوت الحجرية. أما أغلبها فقد بنى بالطين، بينما نمت الأعشاب الكثيفة على سقوفها. وكان اقرب مكان لماء الشرب يبعد ثلاثة أميال عن البلدة البائسة فى ميناها، والتى تعيش بالدرجة الأولى على تجارة القهوة. وكانت بلدة بيت الفقيه المركز الداخلى لتجارة القهوة فى طريقها من جبال اليمن إلى لبها والحديدة ومخا. وكانت الحديدة ذات مرفأ صغير افضل بقليل من مرفأ لبها. أما مخا فكانت الميناء الرئيسى لتجار القهوة القادمين من مصر وسوريا وإيران وشمالى افريقيا.

وعندما زار أعضاء البعثة بيت الفقيه استقبلهم الحاكم المحلى بكرم وود، وسمح لهم بالتنقل فى كل مكان، فالتقوا هناك بعدد من المثقفين العرب الذين لم يكن منظر الاوروبيين امراً غريباً عنهم. ومن بيت الفقيه قاموا بجولات عديدة عبر اليمن، فزاروا تعز وصنعاء والقرى الجبلية، ووجدوا أن السياحة فى اليمن اقل خطراً منها فى أى بلد آخر. ولتجنب اللصوص واستبعاد الشكوك اتخذ نيبور زى رجل فقير بسيط وامتنع حماراً وراح يحول فى ربوع تهامة حتى تعرف إلى جميع بقاعها. وفى المرتفعات الداخلية اكتشف مزارع القهوة، حيث كانت الصخور البركانية تستخدم كجدران داعة لمزارع القهوة التى جعلت شرفات مدرجة. ورغم ثروة البلاد بزراعة القهوة، إلا أن هذا المنتج الزراعى كان عاجزاً عن كفاية كثير من القرى التى كانت تضمحل تحت وطأة الفقر وسوء الحال، والتى كانت الذرة تشكل الطعام الرئيسى لسكانها.

وفى مخا اسيتت معاملة رحالينا فى بادئ الأمر، ثم أحسن اليهم بعد أن نجح كرامر فى معالجة حاكم المدينة. ويصف نيبور تجارة مخا التى يحتكرها الانجليز، كما يذكر الامتيازات التى كانت تمنحها لهم سلطات الجمارك والمكوس خلافاً لغيرهم من التجار العرب والأتراك والهنود. وخلال فترة اقامتهم فى مخا فجعوا بموت فون هافن بعد مرض شديد ثم دفن فى مقبرة الاوروبيين هناك. ثم غادرت الجماعة مخا تلبية لطلب الإمام بالمثل بين يديه فى صنعاء، وفى منتصف الطريق مات فورسكال بعد مرض شديد أيضاً، بحيث خسرت البعثة بهاتين الضحيتين أفضل مستشرق وأبرع نباتى بينهم. ولما وصل الرحالون صنعاء استقبلهم الامام بالترحاب والود. ويصف نيبور القاعة الكبيرة ذات السقوف المقوسة حيث كان الامير يجلس



الخريطة الخامسة في «الأطلس القتالاني» الذي رسمه «كريسكس» في مدينة بالمّا على جزيرة مايوركا الإسبانية عام ١٣٧٥.
 Safari-Verlag, Berlin. نشر سافاري لتصرّيحها لنا بنشر هذه اللوحة.

متربعاً على الوسائد الوفيرة، وعليه ثياب خضراء فاخرة موشحة بالذهب. وبعد تقبيل يديه وأطراف ثوبه، أخبره الرحالون بأنهم في طريقهم إلى الهند وأنهم مروا ببلاده لينقلوا وصف ثروتها وريختها وأمنها إلى أبناء بلادهم. وعندها سمح لهم الامام بالبقاء ما شاءوا. ولكنهم لم يمكثوا أكثر من عشرة أيام حاولوا أن يجتمعوا فيها أكثر ما يمكن من معلومات عن المدينة وما جاورها. ويذكر نيبور أن صنعاء كانت محاطة بسور من الطابوق وأنه بنيت اقنية في الجبل المجاور لنقل المياه الوفيرة إليها. وكان في المدينة سبع بوابات، واثنان عشر حماماً وعدة قصور فخمة. وكان السكان أقل عدداً مما كان مظهر المدينة ينم عليه لأول وهلة، إذ كانت الحدائق تغطي معظم مساحتها المترامية الأطراف. وبنى بعض البيوت بالحجارة، بينما بنى معظمها بالطابوق المحفف بحرارة الشمس. ولم تكن الاخشاب المستخدمة في النجارة وفيرة بل كانت تجلب من مكان يبعد بمقدار رحلة ثلاثة أيام من صنعاء. ولكن الفواكه كانت وفيرة، فمن الاعناب وحدها كان يوجد عشرون صنفاً بحيث كانت تصدر كميات كبيرة من الزبيب. ويصف نيبور كثيراً من مظاهر المدينة الاجتماعية بحيث قدم في ذلك معلومات جديدة تماماً بالنسبة لابناء عصره، كوصفه لعادات اهل البلد وحياتهم اليومية واصحاب الحرف اليدوية الذين كانوا يعملون في الطرق العامة، وخانات المسافرين والتجار، والحمامات العامة، ومازالت الصورة الزاهية التي رسمها نيبور لصنعاء تمتع القارئ حتى اليوم.

وعندما غادرت الجماعة صنعاء بعث الامام لكل من افرادها بمجموعة من الملابس الوطنية كهدية منه، كما جهزهم برسالة إلى حاكم تخا ليمدهم ببعض المال. ويذكر نيبور أن الامام كان من السخاء والجلود تجاه الغرباء بحيث كان الأتراك كثيراً ما يستغلون طيب معدنه فيمكنون الشهور الطويلة في صنعاء يتسكعون وينفقون على حسابه. وتحت وطأة شمس آب مرض نيبور وكرامر وباورنفايند في طريقهم إلى تخا. وحين غادروها واتجهوا إلى الهند مات باورنفايند وبرغ غرن أثناء الطريق، وفي بومباي مات كرامر بعد بضعة شهور. وهكذا فقد فرض مناخ اليمن الحار ضريبته على أرواح الجميع باستثناء نيبور الذي ظل أربعة عشر شهراً في بومباي عاد بعدها إلى أوروبا عبر مسقط وخليج البصرة والعراق وسوريا. وكان من نصيب نيبور، الذي قاوم حتى النهاية، وأبدى نشاطاً وهمة وقوة احتمال لاحد لها خلال الرحلة كلها، أن يكتب قصة

هذه الحملة الاستكشافية وحده. وقد حاول بنجاح كبير أن يسجل الاكتشافات التي قام بها جميع افراد البعثة، لا مغامراته وحدها فقط، لا بل إن قصته تكاد تخلو من أى طابع شخصي يتعلق بذاته هو، ويمكن اعتبار كتابه خلاصة نتائج هذه البعثة وتنصهر فيه اعمال جميع اعضائها، رغم أن البعثة انتهت قبل موعدها المرسوم ولم تحقق كل المهمات التي كان ملك الدانمارك قد حددتها لها.

وكجميع كتب رحلات القرن الثامن عشر، فإن رواية نيبور حافلة بكل ما يمكن تسجيله من ملاحظات ومعلومات كانت تعتبر ذات أهمية لإنسان ذلك القرن، الذي يدعى بحق عصر التفتح العقلي. فيحتوي كتابه على وصف كل ما يمكن أن تقع عليه عين اوروبى متعطش للمعرفة، كما أنه يحاول الجواب على كل ما يدور برأسه من اسئلة : فمن وصف عام لمصر ومذاهبها وسكانها وتجارها، مع تفاصيل ممتعة عن آلات الري والفلاحة والطواحين وعصارات الزيت وأفران تفقيس البيض، إلى وصف حياة أهل مصر وأزيائهم ومباضهم ولهوهم في ساعات الفراغ، إلى وصف عام لموانئ الجزيرة العربية وحركة تجارتها النشيطة، وبحث مناخها وجغرافيتها وسكانها، وتعليقات عن الدين الإسلامى ومذاهبه وتعريف بالعرب الحاضرة والبدو وعاداتهم وتقاليدهم. ولكن ما يميز كتاب نيبور عن أمثاله من كتب الرحلات في عصره أن الصفة الغالبة في أسلوبه هي روح البحث العلمى المجرد عن التحيز والحكم المسبق، فعقله المتزن، وتفكيره الهادئ الذى لا يعرف التغرص لم يؤديا به إلى التسرع في اصدار احكام سطحية حول البلاد وسكانها. ولعل لأصله الرينى الألماني، والغاية العلمية من رحلته الفضل في خلو لهجته من «الروح الامبريالية» التي تميز الكتب الاوروبية الاخرى عند الحديث عن العرب وسكان بلاد الشرق الأدنى. فهو لم يعتبر نفسه قطعاً أسمى من اولئك الذين جاء ليدرس أحوالهم، بل كان ينظر حوله بعين الفيلسوف الذى يرى الكل من خلال الجزء، ويدرك الأمر الأساسى من الحدث العارض. وكانت الصفات الانسانية العامة هي التي تجذب اهتمامه، وروح الانصاف هي التي تملى عليه احكامه، كما أنه لم يكن متأثراً بوهم التفوق الاوروبى العنصرى بحيث يحرمه ذلك من الشعور بالود تجاه شعب شرقى. ولذا فقد تكيف لتقاليد اليمن فوراً، دون أن يخطر على باله أن في ذلك أى مس لكرامته ولسمعة بلاده؛

وانحنى لامام اليمن وقبل يديه كعاهل لا يقل في بلاده
قدراً عن الملك فريدريك في الدانمارك .

لقد ظل كتاب نيبور لاكثر من قرن ونصف قاعدة
ونموذجاً أصيلاً لكل من يريد أن يعرف شيئاً عن بلاد
العرب، ومرجعاً لكل رحالة جاب الجزيرة العربية بعده.
وإن ميزته العظيمة كمرجع علمي تعود بالدرجة الأولى
إلى شدة نيبور في ضبط نفسه وكبح جماحها. وإن هذه
الموضوعية التي تميز كتابه تملأ القارئ كذلك بالثقة في صدق
ودقة ملاحظات المؤلف وتعليقاته. وقد ثبت صدق هذه
الملاحظات أمام امتحان الأجيال القادمة من الرحالين
بحيث يحار القارئ في ايها يمتدح أكثر : الدقة والصدق
في وصف ما رآه نيبور بعينه، أم التمهيص والصحة في
ذكر ما جمعه سمعاً أثناء تحرياته الشخصية عن البقاع
التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه. فقد كانت مهمته
أن يخبر ملكه ومواطنيه عن الجزيرة العربية كلها، وليس
عن اليمن وحدها فقط. وإذ كان ملماً بأهم المؤلفات
العربية والأوروبية عن جغرافية الجزيرة العربية، فقد كان
حريصاً على سؤال كل من كان يصادفه من العارفين
وجمع كل ما كان يسمعه من أقوال المتعلمين المثقفين
في الخانات والمقاهي والأسواق العامة من جدة حتى
صنعاء. وكان يقارن ويدرس حتى ينتهي إلى القول
الأكثر صدقاً والأقرب من الحقيقة؛ وإن ذلك القسم
من كتابه الذي يتناول فيه بقاع الجزيرة التي لم يزرها
بنفسه هو الأكثر قيمة، حتى يمكن القول بأنه قدم
أوروبا من مرتبة التخمين إلى مرتبة المعرفة عن شبه
الجزيرة العربية .

أما أهم ما سجله نيبور بعد تمحيص وتحقيق فهي الحركة
الوهابية بعد أن أدرك بعد نظره خطورتها وطاقها النامية
في الجزيرة العربية. ولو اعتبرنا ملاحظاته عن الاسلام
عموماً لوجدناها تميل إلى الايجابية اكثر من التجريح.
فقد أدرك أن المبادئ الأساسية والأركان الأصلية للإسلام
ليست عداوية بطبيعتها، وأن المسلمين عموماً لا يضطهدون
اتباع الأديان السماوية الاخرى إلا إذا شعروا في ذلك
بتهديد مباشر لهم. وعرف أن النبي دعا إلى الايمان بسدين
أكثر بساطة في الأصل مما أضاف إليه المفسرون والمؤولون
فيما بعد من بدع وتعقيدات. وفي الكلام عن الحركة
الوهابية يقول :

«منذ حين من الزمن نشأت حركة دينية جديدة ...
أشعلت ثورة في أرجاء شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل

فيما بعد أن يزداد نفوذها في البلاد ... فقد علم عبد الوهاب
أن الله وحده هو الخلق بالعبادة والدعاء، كخالق الكون
وسيد العالم ... واعتبر محمداً وعيسى المسيح وموسى
وغيرهم من الأنبياء عند السنة مجرد عظماء يمكن قراءة
سيرهم وتواريخهم مع التصحيح، وأنكر أن يكون أى كتاب
قد كتب بالوحي الالهي، أو انزل من السماء على يد
جبريل ... إن دين عبد الوهاب الجديد يستحق إذن
أن يعتبر اصلاحاً للدين الحمدي، معيداً إياه إلى بساطته
الأصلية. ولعله ذهب في ذلك إلى أبعد مما فعله غيره
من المصلحين ... »

ورغم أن نيبور لم يتعرض إلى ذكر آل سعود من الدرعية،
الذين ناصر المصلح الديني وكتب لهم أن يلعبوا دوراً
تاريخياً كبيراً، إلا أن ما ذكره عن الوهابية في أوائل
عهدهما وعن سيرة المبشر بها محمد بن عبد الوهاب
موضوعي وصائب إلى حد بعيد .

لقد صدر كتاب نيبور «رحلات خلال جزيرة العرب»
بالألمانية عام ١٧٧٢ ثم ترجم إلى الفرنسية والانجليزية
وظل المرجع الوحيد عن اليمن والجزيرة العربية لأكثر
من نصف قرن. أما نيبور نفسه فقد عاد عام ١٧٦٦
وقوبل بما يستحقه من تكريم علمي واجتماعي وأصبح
عضواً لعدد كبير من الجمعيات العلمية حتى مات عام
١٨١٥.

منذ صدور كتاب نيبور عام ١٧٧٢ حدثت أمور كثيرة
في منطقة الشرق الأدنى مما زاد من فضول الأوروبيين
لزيرة هذه البقاع ومعرفة المزيد عن قلب الجزيرة العربية.
فقد تحققت نبوءة نيبور بشأن حركة الوهابيين التي أخذت
تحتاج أرجاء الجزيرة العربية. ولا يتسع المقام هنا لسرد
الوقائع التاريخية التي حدثت في المنطقة حتى بداية القرن
التاسع عشر بالتفصيل، ولكن يكفي القول بأن نهضة
الوهابيين واستيلائهم على مكة ثم تدخل الأتراك وحملة
نابليون في مصر وانتصار محمد علي على ممالك مصر،
كل ذلك ساعد على مضاعفة اهتمام أوروبا بالشرق
الأدنى. وقد جاب عدد لا يستهان به من الأوروبيين
بلاد العرب في المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر
وكتبوا قصص رحلات لا تخلو من الأهمية، ولكن رحالة
ألمانياً جريئاً جمع بين العلم والمغامرة يجذب اهتمامنا بوجه
خاص، إذ يشكل حلقة الوصل بين نيبور المدقق الأمين،
وبوركهارت الفقيه المتبحر في علوم الدين الإسلامي واللغة
العربية، وكاشف النقاب عن مكة والمدينة. أما هذا
الرحالة فهو اولرش ياسبر زيتسن.

ولد زيتسن عام ١٧٦٧ في قرية صوفينغروودن في شمالي ألمانيا ودرس في جامعة جوتنجن الطب والعلوم الطبيعية والهندسة وساهم منذ حداثة سنه بنشاط علمي كبير بحوث اشتهر اسمه في أوروبا بفضل مقالاته العلمية في حقول الحيوان والنبات والاقتصاد. وتوجت جهوده العلمية عام ١٧٩٥ بتعيينه عضواً في جمعيتي الأبحاث الطبيعية في برلين وفيينا. ونظراً لصلاته الوثيقة بأهم علماء الفلك والطبيعة والجغرافيين والرحالين فقد صمم على القيام برحلة إلى الشرق وأفريقيا يقطع فيها الشرق الأدنى حتى يصل أفريقيا الغربية لاكتشاف منابع النيجر. وتعهد الدوق فون غوتا بحماس برعاية رحلته وتأمين كل ما يحتاج إليه من آلات فلكية وجغرافية. وفي ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٨٠٢ غادر زيتسن منطقة ييفر إلى غوتا ثم فيينا. وعبر البلقان إلى القسطنطينية حيث مكث فيها ستة شهور. وبعد جولة في جزر الأرخبيل اتجه في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٠٣ إلى حلب ومكث فيها عاماً ونصف العام ليتعلم العربية. ثم سافر إلى دمشق ومكث فيها وقتاً طويلاً وعبر جبال لبنان، ومربصور، ثم انحدر إلى القدس ووصلها في ٧ نيسان (أبريل) عام ١٨٠٦. وتجول في أرجاء فلسطين ثم انحدر بعد عام إلى منطقة البتراء وعبر صحراء سيناء واجتاز السويس إلى القاهرة. وهنا مكث من مايس عام ١٨٠٧ حتى آذار (مارس) ١٨٠٩. وبعد جولة إلى الفيوم عاد إلى السويس وأبحر منها إلى جدة، ومضى منها إلى مكة التي بلغها في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٠٩ وبقي فيها مدة يرسم خطة دقيقة للكعبة. وبعد الحج زار زيتسن صنعاء وعدن، ثم اتجه من الساحل إلى مرتفعات اليمن مع عدد من الجمال متذكراً كطبيب شرقي باسم الحج موسى. ولكنه قتل بالقرب من تعز ولم يعرف القاتل ولا سبب القتل حتى الآن، ولكن الغالب أنه لم يقتل طمعاً في أمواله وقافلته وإنما بايعاز من إمام صنعاء الذي شك بحقيقة إسلامه والغرض من رحلته. وعلى أي حال فقد سبق لزيتسن أن مر بامتحان دقيق على أيدي الوهابيين في مكة واثار الشكوك حوله هناك، وكان خطوه أنه سافر عبر الطريق نفسها. وكان زيتسن اثناء رحلته قد بعث بعدة مخطوطات وقطع أثرية إلى غوتا وهي تشكل المحفوظات الأساسية للمتحف الشرقي هناك، كما أنه كان قد بعث برسائل وأبحاث نشرت في عدة مجلات معاصرة. ولكن أغلب مذكراته وكتابات وحاجاته فقدت، ولم ينقذ منها إلا ما كان قد أرسله إلى أوروبا. ومن هذه المذكرات يتضح مدى اهتمام زيتسن باستخدام رحلته لأغراض البحث

العلمي، فهي زاخرة بالمعلومات القيمة في حقول الحيوان والنبات والتعدين والزراعة والجغرافيا والتاريخ القديم. وقام عدد من العلماء باصدار مذكراته بعد موته بعدة أعوام^٥). وهكذا فإن المسألة التي حرمت أوروبا من اكتشافات عظيمة الأهمية ومن ثمرة أبحاث هذا العالم الجريء المغامر في الحجاز واليمن قد حرمت كذلك من بعض الشهرة التي كتب لها أن تكون من نصيب رحالة من أصل سويسري عريق.

ولد يوهان لودفيج بوركهارت عام ١٧٨٤ في لوزان ودرس منذ عام ١٨٠٠ في لايبزغ، ومنذ ١٨٠٤ في جوتنجن. ولما رفض الخدمة تحت راية نابليون فقد سافر عام ١٨٠٦ إلى إنجلترا ودرس اللغة العربية والعلوم الطبيعية في لندن وكامبردج بتعمق ومثابرة، استعداداً للقيام برحلة إلى الشرق وأواسط أفريقيا بتكليف من الجمعية الأفريقية البريطانية. وفي ١٤ شباط (فبراير) عام ١٨٠٩ أبحر إلى مالطة ومنها إلى حلب متذكراً كسافر مسلم هندي باسم الشيخ ابراهيم بن عبد الله. ليستطيع بذلك تبرير أية لكنة أجنبية قد تلاحظ في نطقه العربي. واستغل اقامته في سوريا (ما بين حلب ودمشق) في التبحر في دراسة لغة وتاريخ وجغرافية بلاد العرب والإسلام. وكان يقنع سائليه من السوريين إذا طلبوا إليه أن يتكلم الهندستانية بالتحدث بالألمانية السويسرية التي تمتاز بالأصوات الحلقية. غير أنه تمكن اثناء اقامته في سوريا من اتقان العربية والتحدث بها بطلاقة ونطقها على الوجه الصحيح، ومن التضلع في اصولها، حتى أن بعض فقهاء حلب كانوا يستعينون بمعرفته احياناً على تفسير بعض النصوص والمسائل المعقدة. وسافر بوركهارت خلال الفترة ما بين ١٨١٠ و ١٨١٢ إلى لبنان وحوارن وشرقي الاردن، واهتم كثيراً بما شاهده من آثار وكتابات من عهد تراجان وماركوس اوريلوس. وأثناء طريقه إلى القاهرة في منتصف عام ١٨١٢ اكتشف آثار البتراء القديمة مما أذاع شهرته بين علماء الآثار في كل مكان في العالم. وكانت خطة بوركهارت أن يبدأ رحلته الاستكشافية الأفريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة في القاهرة، تمكن من مقابلة محمد علي باشا، الذي أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمدّه بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبة. وإذا اعتبر هناك جاسوساً لباشا مصر فقد منع من مواصلة رحلته، فألتحق بقافلة كانت تسير كل عام

(٥) ذكر الكتاب مع المراجع.

ut in eis erudiret israhellem et ut consuetudinem haberent prestandi ꝛc. Sic fortassis idipsum non incongrue dici potest in proposito ut scilicet sarracenos dimittat dñs vel in flagellum vel exercitui populi xpiani. Sed ego nichil temere diffiniens id doctoribus relinquo. Hoc unū scio psalmista testante. quia iudicia dei abyssus multa ꝛc. Quis autem nouit sensum dñi. aut quis consiliarius eius fuit. Apostolus etiā clamat. Valtitudo diuitiarū sapientie et scientie dei. q̄ incōprehensibilia sunt iudicia eius. et inuestigabiles vie eius. Et tantū de Sarracenis.



Sarraceni lingua et littera vñitur Arabica hic inferiūs subimpressa.

Dal	Dal	Feh	Heh	Gym	Teh	Te	Be	Aleph
ⲁ	Ⲃ	ⲃ	Ⲅ	ⲅ	Ⲇ	ⲇ	Ⲉ	ⲉ
Ayn	Dal	Ta	Da	Sad	Saym	Gym	Zaym	Pe
Ⲋ	ⲋ	Ⲍ	ⲍ	Ⲏ	ⲏ	Ⲑ	ⲑ	Ⲓ
hehe	Nun	Mym	Lam	Lam	capl	Enbly	ffa	Saym
ⲓ	Ⲕ	ⲕ	Ⲍ	ⲍ	Ⲏ	ⲏ	Ⲑ	ⲑ
Ⲓ	ⲓ	Ⲕ	ⲕ	Ⲍ	ⲍ	Ⲏ	ⲏ	Ⲑ
ⲑ	Ⲓ	ⲓ	Ⲕ	ⲕ	Ⲍ	ⲍ	Ⲏ	ⲏ
Ⲑ	ⲑ	Ⲓ	ⲓ	Ⲕ	ⲕ	Ⲍ	ⲍ	Ⲏ
ⲏ	Ⲑ	ⲑ	Ⲓ	ⲓ	Ⲕ	ⲕ	Ⲍ	ⲍ
ⲍ	Ⲏ	ⲏ	Ⲑ	ⲑ	Ⲓ	ⲓ	Ⲕ	ⲕ
Ⲍ	ⲍ	Ⲏ	ⲏ	Ⲑ	ⲑ	Ⲓ	ⲓ	Ⲕ

من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى بجندي وسنار. وفي بجندي تحول مع قافلة أخرى عبر طريق لم يطررها أوروبي بعد، تمر ببربر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة.

وهنا لابد من ذكر عرض موجز لما حدث في الجزيرة العربية من تطورات على يد الوهابيين وبسببهم منذ غادر نيبورالين حتى دخول بوركهات الحجاز. فحين مات ابن سعود عام ١٧٦٥ الذي كان قد ناصر محمد بن عبد الوهاب، واستطاع بسيفه وعشيرته أن ينشر الفكرة الجديدة ويوطد أركانها، كان الوهابيون يسيطرون على جميع أرجاء نجد. وواصل ابنه عبد العزيز مهمة أبيه فهدد مكة، وبعث بابنه سعود إلى خليج البصرة فاكتمسح الكويت، ثم اجتاحت كربلاء وهدد حدود بغداد. وفي عام ١٨٠٣ دخل الوهابيون مكة ولكن أهلها قتلوا رجال حاميتهم فيها بعد حين. وباءت محاولة الوهابيين في الاستيلاء على المدينة وجدة بالفشل. ولكن بعد مقتل عبد العزيز في العام نفسه جدد ابنه سعود الهجوم على الحجاز فاستولى على المدينة المنورة عام ١٨٠٤ وعلى مكة عام ١٨٠٦ وعلى جدة بعد ذلك بقليل. وفي الأعوام التالية تخطى غزاة الوهابيين حدود الجزيرة العربية فهاجموا النجف ودمشق التي قاومتهم بنجاح. وفي عام ١٨١١ كانت امبراطورية الوهابيين تمتد من حلب شمالاً حتى المحيط الهندي، ومن خليج البصرة والعراق شرقاً حتى البحر الأحمر. وبلغ ذعر الحكومة العثمانية حداً بعيداً، حتى حثت محمد علي باشا والحت عليه مراراً في القضاء على نفوذ الوهابيين. وأرسل محمد علي ابنه طوسون على رأس جيش لم يستطع الصمود في بادئ الأمر، ولكنه تمكن بعد تعزيزه من استرجاع المدينة عام ١٨١٢، ومكة عام ١٨١٣. ورغم قيام محمد علي بنفسه بقيادة جيش مصر في أواخر عام ١٨١٣، إلا أنه أصيب بخسائر جسيمة؛ غير أن المقادير شاءت أن تضرب الوهابيين بموت قائدهم سعود في أول مايس عام ١٨١٤، أي قبل دخول بوركهات إلى جدة بشهرين. وبعد أربعة أعوام تم القضاء على الامبراطورية الوهابية الأولى عام ١٨١٨ عندما اعتقل ابن سعود وخليفته عبد الله على يد إبراهيم باشا وتم اعدامه في القسطنطينية.

وهكذا فقد كان من حسن طالع بوركهات، ومما ساعد على تحقيق زيارته إلى مكة والمدينة أن وافت المنية سعود قبل دخوله جدة بشهرين، وأن كان محمد علي، المتحرر المتسامح، الذي سبق أن قابله في القاهرة موجوداً في الطائف آنذاك. ولم ير بوركهات في جدة أكثر من بلدة

ذات بيوت حجرية مرتفعة، وجدران تخطف الابصار لشدة بياضها، وتحصينات مهذمة، ومدفع كبير وبضعة أشجار نخيل، وصحراء جرداء تحيط بها من كل جانب. وكانت جدة قد اضمحلت تحت حكم الوهابيين بسبب ضعف مواسم الحج، وخوف التجار من إرسال بضائعهم إلى بلاد يعوزها الاستقرار. أما سكان البلدة فكانوا خليطاً من العرب الحجازيين الاقحاح، واليمنيين والحضارسة والمصريين والسوريين والأتراك والهنود وأهل الملايو. وكان كثير من هؤلاء من يتزاوج من الجوارى الحبشيات. وكانت جدة ميناء الجزيرة العربية ومصر، وسوق البضائع الهندية وقهوة اليمن. وكان مدى رخاء البلدة يتوقف كلياً على نشاط تجارتها. ولم تقم فيها صناعة بناء السفن لافتقارها إلى الاخشاب اللازمة. ولم تكن حرفها لتتجاوز الحاجات المحلية كالخياطة وصناعة النعال. ويختتم بوركهات وصفه المفصل بلحظة بالتنبؤ التالي:

«عندما ستضمحل سلطة الأتراك في الحجاز، وهذا ما سيحدث عندما تنقطع موارد مصر عن التدفق على ذلك البلد بفضل حكم قدير مستقر كحكم محمد علي لمصر، فسيأخذ العرب بثأرهم للخضوع الذي يتقبلونه مرعفين تجاه قاهريهم؛ ومن المحتمل أن ينتهي حكم العثمانيين في الحجاز بعد مشاهد كثيرة من سفك الدماء.»

ثم واصل بوركهات رحلته من جدة إلى الطائف، حيث كان محمد علي قد أقام مقرراً لقيادة جيشه، وعبر الطريق فوق سلسلة من التلال والصخور الجرداء تتخللها الوديان الحصبة. وكجدة، فقد كانت الطائف قد انهارت كذلك تحت حكم الوهابيين، فبدت خرائب تكاد تكون مهجورة، بينما كانت في السابق سوق القهوة اليمنية عبر الطريق البري. وكانت تمتد فوق سهل رملي تحيطه تلال منخفضة تنتشر على سفوحها البساتين وحقول الحنطة والشعير ترويتها الجداول المنحدرة من المرتفعات.

وفي الطائف استطاع بوركهات، بفضل تبحره في اصول الدين والفقه الإسلامي وقواعد اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير أن يزيل كل شك حول حقيقة اسلامه بعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً أمام قاضي مكة الذي كان موجوداً في الطائف آنذاك. ولا تخلو مقابلاته مع محمد علي في الطائف، وما كان يدور بينهما من أحاديث، من أهمية تاريخية ومن طرافة في اللقاء أضواء على جوانب من دهاء ذلك الحاكم الكبير وطريقة تفكيره السياسي.

وغادر بوركهات الطائف في بداية أيلول (سبتمبر) متجهاً إلى مكة حتى وصلها بعد رحلة يومين في جو عاصف.

وفي مكة قام قبل كل شيء بفرائضه الدينية داخل بيت الحرام. وحضر مراسيم الحج على جبل عرفات. وامضى ليلته في مسجد المزدلفة واشترك في مراسيم الرجم والتضحية في وادي منى. وأطلق موكبا الحج السورى والمصرى مدفعين إعلاناً بفجر يوم الحج وايداناً بموعد الصلاة. ومن قمة عرفات أشرف بوركهارت على السهل الممتد دونه واستطاع أن يعد حوالى الثلاثة آلاف خيمة، الفان منها للموكبين السورى والمصرى ومرافقى محمد على وجنوده وألف لعرب الحجاز. أما أغلب الجموع فقد كان بدون خيام. وعندما خيم الليل حملت آلاف المشاعل، ورفع اربعة وعشرون منها أمام باشا مصر، محمد على، ومثلها أمام باشا دمشق، سليمان. واطلقت المدافع والصواريخ في السماء وراحت الفرق الموسيقية تعزف، وانتقلت جموع الحجاج في هرج صاخب إلى المزدلفة. وبعد خطبة الامام أدى الحجاج فريضة صلاة العيد ثم انتقلوا إلى وادى منى. إن وصف بوركهارت لتفاصيل الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة وزيارة العمرة وعرفات ووادى منى وملاحظاته عن مكة عموماً واهلها ومظهرهم وعاداتهم ونفسياتهم وتجارتهم اذق واتم ما كتب إطلاقاً حتى أنه لم يترك شيئاً جديداً يوصف لمن جاء بعده من الأوروبيين إلى بيت الحرام. ومن ملاحظاته المهمة أيضاً وصف قوافل الحج المختلفة وطرق تحركاتها، واهمها الموكبان السورى والمصرى، وتليهما قوافل حجاج إيران التى تمر ببغداد ثم يتصل قسم منها بالموكب السورى وقسم يواصل السفر عن طريق البصرة، وقوافل شامى أفريقيا التى تمر بتونس وطرابلس ثم تلتحق بالموكب المصرى.

بعد القيام بما تبقى من الفرائض في وادى منى وفي مكة سافر بوركهارت في كانون الثانى (يناير) عام ١٨١٥ إلى المدينة المنورة وزار ضريح الرسول. ولكنه أصيب في المدينة بحمى اطرحته الفراش. ولما تحسنت صحته قليلا انحدر إلى ينبع ومنها إلى القاهرة حيث انشغل بمراجعة مذكراته واتمامها لنقلها إلى الجمعية الافريقية، وفي الوقت نفسه أخذ ينتظر قافلة فزان طويلا ليرافقها ويواصل رحلته إلى افريقيا. ولكن قواه التى انهكها المرض خائته، ففاضت روحه في الوقت الذى كانت القافلة قد استعدت فيه للسفر في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨١٧. ودفن في المقبرة الإسلامية بعد أن اقيمت له جنازة خليقة بابراهيم بن عبد الله، الحاج التقي الورع، والعلامة الضليع.

وكالرحالة نيبور، فان بوركهارت عالج جزءاً محدوداً،

ولكن هاماً في الوقت نفسه، من شبه الجزيرة العربية. إذ أن المنطقة التى استكشفها نيبور كانت هامة بالنسبة للأوروبيين بسبب شهرتها العريقة بالتجارة والخصب. ولكن المناطق التى استكشفها بوركهارت في الحجاز كانت لاتزال سرّاً عميقاً مهمماً. ولم تكن علاقتها بالتجارة بمقدار ارتباطها بتعاليم ومراسيم دين غريب عن الأوروبيين. مشير لدهشتهم بقوته وثباته. وهكذا فقد غادر بوركهارت الحجاز وهو يحمل معه أدق تفاصيل سجلت قط عن الكعبة ومراسيم الحج وتجارة الحجاز وسكانها. وكان اهتمامه الرئيسى مركزاً على دراسة العرب، بدوهم وحضرهم. وتحليل مجتمعهم وطبائعهم وتعاليمهم الدينية. ورغم أنه لم يساهم كثيراً في توسيع المعارف الجغرافية الدقيقة عن الحجاز إلا أنه قدم دراسة مفصلة واسعة عن المدن الرئيسية كمكة والطائف وجدة. ومن هذه المراكز راح يتحرى بدقة نيبور وتمحيصه عن كل ما يتعلق بالجانب الغربى من قلب الجزيرة العربية وتكوينه السكانى، بحيث قدم معلومات جديدة شيقة عن قبائل هذه القاع وتعدادها وعاداتها وأسلحتها ونظم معيشتها ومناطق استيطانها وخيوطها وجمالها.

ويعتبر بوركهارت البدو من أنبل الشعوب التى عرفها. وهم، رغم كل أخطائهم، أرفع من الأوروبيين في كثير من الصفات، كما أنهم أرقى من الأتراك في كل اعتبار. وقد يحبون السلب والنهب، غير أنهم يعوضون عن ذلك بفصائل اخرى، أما الأتراك، في نظره، فيشتركون في صفات البدوى السيئة ولا يتمتعون إلى جانبها بأية صفة حسنة. والبدو يحب الحرية بطبعه، وقد جعله هذا الحب يفضل خيامه في الصحراء على حياة الاستقرار الناعمة. والقبائل البدوية، رغم نزاعاتها القبلية، إلا أنها جميعاً تتمتع بكبرياء قومية تجمع بينها، كما اتضح من استيائها لانتصارات محمد على وألمها لأية خسارة تصيبها على أيدي قوات أجنبية. ويرى بوركهارت أن من أرقى صفات الخلق البدوى عطفه ومعروفه وإحسانه وسلوكه المسالم عندما لا تثار كبرياؤه وتجرح كرامته.

لقد ابدت الجمعية الأفريقية البريطانية اهتماماً كبيراً بما كتبه بوركهارت من مذكرات وملاحظات وتعليقات اثناء سفره فنشرت على التوالى جميع كتبه الموضحة في نهاية هذه المقالة. وقد كتب بوركهارت جميع مؤلفاته بلغة انجليزية سليمة تمتاز بالاسلوب الرفيع، رغم أنه لم يبدأ في تعلمها إلا في الخامسة والعشرين، ورغم أنه كان يسجل مذكراته سرّاً وعلى عجل تحت عباءته أو خلف جملة،

التعصب والخرافة. ولقد رسم اوائل الرحالين صورة غامضة غربية للشرق الأدنى، فراح من جاء بعدهم يصححونها ويضيفون إليها حجراً بعد حجر، حتى أصبحت أقرب إلى الحقيقة. وإذا ترك امر دراسة الشرق وحضارته وتاريخه وأديانه للعلماء المتخصصين في فروع الاستشراق المختلفة، فيكفي الرحالين المنصفين عموماً، والألمان الذين كنا بصددهم خصوصاً، فخر المساهمة في إزالة كثير من سوء الفهم والتغرض والتعصب، فالمعرفة الصحيحة تزيل الخوف والعداء، وتقيم اسساً جديدة للفهم والصادقة.

خوفاً من اكتشاف أمره واثارة شكوك مرافقيه في حله وترحاله. وقد خلف بوركهارت في وصيته كل ما جمعه من مخطوطات عربية تبلغ الثمانمائة مجلد بجامعة كامبردج، التي بدأ فيها دروسه العربية الأولى.

*

من كل ما سبق ندرك أهمية الدور الذي لعبه الرحالون الألمان، أو الناطقون بالألمانية، منذ العهود المبكرة حتى اوائل عصرنا الحاضر، في تطوير الاستشراق في أوروبا، وجعله موضوعاً دراسياً خاضعاً للبحث العلمي بدلاً من

مراجع البحث

من أهم الكتب التي تبحث في سير الحجاج الأولين إلى الأراضي المقدسة التالية:

- H. von Wissmann, Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Stuttgart 1965.
- Lahrkamp, Helmüt: Nordwestdeutsche Orientreisen und Jerusalemwallfahrten im Spiegel der Pilgerberichte. (Oriens Christianus, Bd. 40, 1956).
- Riezler: Jerusalempilger und Kreuzfahrer aus Bayern. (Forschungen zur deutschen Geschichte, Bd. 18, Göttingen, 1878).
- Röhrich, R.: Die Deutschen im Heiligen Lande, Innsbruck, 1894.
- Tobler, Titus: Bibliographia geographica Palaestinae, zunächst kritische Übersicht gedruckter und ungedruckter Beschreibungen der Reisen ins Heilige Land. Leipzig, 1867.
- وبالنسبة لرحلة برايدلباخ، انظر:
- Lambert, R. S.: The Fortunate Traveller, London, 1950:
- Breidenbach, B. von: Perigrinationes in: وكتابه باللاتينية: Montem Syon, 1486.
- وبخصوص فون هارف انظر:
- Beckingham, C. F.: Some Early Travels in Arabia: (The Journal of the Royal Asiatic Society, 1949).
- وكتابه ظهر بعنوان:
- Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff von Cöln durch Italien, Syrien, Ägypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palästina, die Türkei, Frankreich und Spanien, wie er sie in den Jahren 1496 bis 1499 vollendet, be-

schrieben und durch Zeichnungen erläutert hat, herausgegeben v. Dr. E. v. Groot, Cöln, 1860.

أما بشأن نيور وزيتسن وبوركهارت فانظر:

- Hogarth, D. G.: The Penetration of Arabia, London, 1904.
- Kiernan, R. H.: The Unveiling of Arabia, The Story of Arabian Travel and Discovery, London, 1937.
- Pirenne, Jacqueline: À la découverte de l'Arabie. Paris, 1958.
- وقد صدرت كتبهم التالية:
- Niebuhr, K.: Beschreibung von Arabien, 1772.
- Reisebeschreibung von Arabien und andern umliegenden Ländern, 2 Bde., 1774—78.
- Reisen durch Syrien und Palästina, 1837.

انظر ايضاً:

- Thorkild Hansen: Reisen nach Arabien. Die Geschichte der königlich-dänischen Jemen-Expedition. Hamburg 1965.
- Ulrich Jasper Seetzen's Reisen durch Syrien, Palästina, Phönizien, die Transjordan-Länder, Arabia Petraea und Unter-Ägypten, Herausgeber: F. Kruse, Berlin, 1854—59.
- Burckhardt, J. L.: Travels in Nubia, 1819.
- Travels in Syria and the Holy Land, 1822.
- Travels in Arabia, 1829.
- Notes on the Bedouins and Wahabys, 1830.
- Arabian Proverbs, 1831.

الأبحاث العربية الجنوبية :

إدوارد غلازر

(١٨٥٥ - ١٩٠٥)

بقلم : الأستاذة ماريّا هوفر

العربي وأوجه حياتها الثقافية. وفيما يتعلق بأقدم العصور خاصة نعرف وثائق قليلة نسبياً، وهي في الغالب لا تحتوى على تفاصيل كثيرة. ولكنها تزداد عدداً في الأزمنة التالية وتصبح أكثر إفصاحاً وتقدم عدة تفصيلات في غاية الأهمية. ومع ذلك فإننا لا نعرف دوماً إلا على مقاطع متفرقة لا بد من جهد جهيد لإتمامها والربط فيما بينها؛ وكثيراً ما نكره على الاكتفاء والتوقف عند نقاط قلقة غير أكيدة.

وقامت في الجنوب العربي قبل الإسلام ممالك أربع : سبأ وقحان ومعين وحضرموت. وكانت أقدم هذه الممالك وأطولها بقاء مملكة سبأ. وكان شكل الدولة في بادئ الأمر ثيوقراطياً، أى أن إله البلاد كان في الوقت نفسه ملكها؛ وكان نائبه الديوى يلقب بالملكرب. وفيما بعد، أى ابتداء من ٤٠٠ ق.م. فصاعداً، نجد في سبأ مملكة دنيوية؛ ومع ذلك فقد ظلت الصلة بالدين إلى عهود متأخرة وثيقة جداً. وكان على المملكة السبئية خلال عهد طويل أن تخوض معارك حامية وخاصة مع الدول الأخرى في الجنوب العربي، وكان الخطر يهدد وجودها أكثر من مرة. ولم تتحقق وحدة مجموع بقاع الجنوب العربي القديمة إلا حوالي ٣٠٠ ميلادية وذلك تحت سيادة ملك واحد هو شمّر يهرعش الثالث. وفي عام ٥٢٥ ميلادية فقدت هذه المملكة استقلالها وخضعت أولاً للسيادة الاثيوبية، وفيما بعد للسيادة الفارسية، إلى أن تم فتح هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية أيضاً تحت راية الإسلام في القرن السابع.

ومع أننا نستطيع أن نحدد نهاية استقلال الجنوب العربي زمنياً، إلا أن وجهات النظر تختلف اختلافاً كبيراً إلى حد ما فيما يتعلق بتحديد التسلسل التاريخي. ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى طبيعة النقوش التي كانت — وخاصة في العهود

تشير عبارة «الجنوب العربي» في الحقل العلمي إلى جزء صغير نسبياً من شبه الجزيرة العربية، وهو ما يدعى اليوم باليمن وحضرموت. وقد نشأت في هذه البقاع قبل ظهور النبي محمد بزمان طويل حضارة راقية مازالت شواهدنا — إلى حد ما على الأقل — بادية للعيان حتى اليوم. فهناك خرائب اسوار عظيمة وحصون ومعابد وقنوات للرعى تشير جميعها إلى مقدرة تكنولوجية عالية وإحساس فني دقيق جداً كان يتمتع بهما سكان الجنوب العربي القدماء، كما تشير إلى المستوى الذى بلغوه من الثروة والرفاه. ويتحدث عن ذلك الكتاب المقدس والمؤرخون اليونانيون والرومانيون الذين كانوا يطلقون على تلك البقاع اسم «بلاد العرب السعيدة». أما مصدر تلك الثروة فكانت التجارة. إذ كانت السلع القادمة من الشرق، من الهند والصين، والمتجهة إلى مصر وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط، تمر، خاصة في الأزمنة القديمة، «بطريق البخور» التي كانت تبدأ من مينائى عدن وقنا وتتحرق شبه الجزيرة العربية كلها إلى الشمال. واشتهرت تلك الطرق التجارية بهذا الاسم بسبب السلع التي كانت تنتج في الجنوب العربي نفسه وتصدر بكميات كبيرة كالبخور وغيره من الأفاويه.

ويمكن الإطلاع على الأوضاع السياسية والثقافية للجنوب العربي القديم من النقوش الحجرية العديدة التي انتهت إلينا. فهي الوثائق الكتابية الوحيدة المتبقية من عهود الحضارة الرفيعة القديمة والتي يعود أصلها إلى البلاد نفسها بحيث تكون بهذه الصفة أكبر قيمة وأعظم أهمية من جميع ما انتهى إلينا من روايات المؤلفين اليونانيين والرومانيين والعرب المتأخرين. ورغم عدد هذه النقوش الكبير — إذ بلغ ما نعرفه منها عدة ألوف — غير أنها لا تعطى صورة خالية من الثغرات عن الدول القديمة في الجنوب

الأقدم - إما لا تحمل تواريخ إطلاقاً أو مؤرخة حسب أعوام حكم ملوك العصور البارزة دون أن تعرف تواريخها المطلقة على وجه التحديد.

لقد قدمنا للمقالة بهذه المعلومات القليلة لنعطى فكرة تقريبية عن البقاع والحضارة التي تتناولها دراسات الجنوب العربى بالبحث. وللمسا نصيب حاسم فى استكشاف البلاد التى دعاها استاذ جامعة جوتنجن ميشائيلس فى القرن الثامن عشر بحق «إحدى أغرب البلاد»، كما لها نصيب قاطع فى حل رموز نقوشها التذكارية وبذلك كشف النقاب عن لغتها وتاريخها وحضارتها؛ لا بل يمكن أن نقول بأن الدراسات السبئية أنشئت هنا كعلم قائم بذاته.

وكان استكشاف الجنوب العربى دوماً ومازال مجازفة جريئة. إذ أن الظروف المناخية وطبيعة الأرض تفرض أقصى المطالب على المسافرين وذلك حتى اليوم رغم استخدام الطائرة والسيارة لتغلب على المسافات. ويضاف إلى ذلك تهيب السكان ورفضهم لكل دخيل أجنبى. كما أن الخلافات الدائمة بين القبائل المختلفة تجعل السفر فى غاية الخطورة وتحول دون المضى فى اتباع طريق معينة. وإن أهم المناطق التى يمكن أن تعطى أغلب وأطرف المعلومات عن الأوضاع القديمة هى بالذات الأصعب بلوغاً للمسافر. وإزاء كل ذلك يزداد إعجابنا بشجاعة وصمود وتضحية الرواد الأوائل فى استكشاف الجنوب العربى بوجه خاص. وأول نمسوى بين هؤلاء الرجال الذين لا يهابون المخاطر «زيجمفريد لانجر» Siegfried Langer. ويعود منبته إلى تشيكوسلوفاكيا الحالية التى كانت آنذاك جزءاً من المملكة النمساوية - المجرية. ولد لانجر عام ١٨٥٧ فى ميرن Mähren ودرس فى فيينا من جملة ما درس اللغات الشرقية وعنى خاصة باللغة العربية. ومكنه وجود بعض العرب السوريين من التمرن على التحدث بالعربية أيضاً. ورغم أنه كان يعيش تحت ظروف خارجية صعبة إلا أنه تمسك بالجهد ومثابرة شديدين بدراسته التى كانت آنذاك لا تبعث بكبير أمل فى النجاح المادى. وفى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٨٨١ بدأ رحلته إلى الجنوب العربى. وكان قد حصل على إعانات مادية من عدة جهات بحيث كان حسن العدة من هذه الناحية. وبعد إقامة ستة شهور فى سوريا بدأت رحلته الحقيقية خلال شبه الجزيرة العربية. واضطر إلى التخلّى عن خطته فى بلوغ الجنوب من خلال عسير بسبب ثورة كانت ناشبة فى تلك المنطقة. ومضى بالسفينة إلى الحديدة وانتقل من هناك عبر زران

وضف إلى صنعاء، عاصمة اليمن، التى كانت تحت السيطرة التركية آنذاك. وإذا وصل هناك لم تسمح له السلطات التركية بمواصلة سفره داخل البلاد؛ بل أجبر على العودة إلى الحديدة. وهكذا واصل سفره إلى عدن؛ ومن هناك بعث إلى أوروبا بالرسوم التى أتمها حول رحلته حتى تلك المرحلة وبنسخ عن نقوش عربية جنوبية استطاع أن ينقلها هناك، بحيث أمكن بذلك إنقاذها والحفاظة عليها للباحثين فيما بعد. وعلى أثر ذلك بحين قصير لاقت رحلة لانجر الجريئة نهاية فظيعة مؤلمة. إذ بينما كان يحاول اختراق قلب حضرموت متنكبراً بزي بدوى، قتله مرافقوه من أهل البلاد. وقيل أنهم أطلقوا عليه الرصاص من سلاحه نفسه بينما كان يستحم فى أحد الأنهار.

بعد موت زيجمفريد لانجر المفجع بحين قليل بدأ نمسوى آخر عمله الاستكشافى فى الجنوب العربى، ونعنى به إدوارد جلازر E. Glaser. وكان هو أيضاً من أهل تشيكوسلوفاكيا الحالية. وولد فى دويتش - رست Deutsch-Rust عام ١٨٥٥ وكان عليه أن يقضى أعوام دراسته، كلاجر، فى حرمان شديد وشظف من العيش. وبعد انتهاء دراسته الثانوية التحق أولاً بجامعة براغ، ثم انتسب فيما بعد إلى جامعة فيينا حيث حصل على وظيفة فى المرصد. وفى فيينا اهتم كذلك بكثير من الاجتهاد بدراسة اللغة العربية، إذ كان قد عزم منذ سنى المدرسة على أن يصبح رحالة استكشافياً، واختار فيما بعد شبه الجزيرة العربية خاصة هدفاً له. وكان استاذة فى العربية أول الأمر فارموند Wahrmond ثم تلاه داوود هاينرش موللر David Heinrich Müller. وأيقظ الأخير اهتمام جلازر بالجنوب العربى حيث نجح فيما بعد بأعماله الاستكشافية. ولإعداد خططه على أحسن وجه ممكن توجه إلى مصر وتونس. وعمل هناك معلماً منزلياً ونال فى ذلك فرصة إتقان اللغة والعادات العربية تماماً. ومكنته هذه المعارف الدقيقة بالإضافة إلى شجاعته وبراعته الحارقة فى معاشرّة الناس من بلوغ نجاحاته الفريدة فى رحلاته وهى نجاحات لم تفقها، لا بل لم تبلغها، أية رحلات استكشافية فى الجنوب العربى حتى يومنا هذا.

وتقع رحلات جلازر إلى الجنوب العربى فى الأعوام ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤. ومن رحلته الأولى التى مولتها فيينا وباريس احضر معه ما يقارب الـ ٢٨٠ نسخة من النقوش مع أربعة نقوش حجرية أصلية طالبت بها الاكاديمية فى باريس مقابل ما أسهمت به لتمويل الرحلة. وكان جلازر قد أصيب إصابة شديدة بالحمى بعد وصوله

الحديدية. وحين بلغ صنعاء كان عليه أن يظل هناك عاماً بطوله في انتظار وصول جواز سفر من استانبول، لم يسمح له الحاكم التركي بدونه أن يواصل سفره. ومع مرور الوقت تمكن جلازر من كسب ثقة هذا الرجل بالذات الذي أصبح صديقاً وعوناً له في مناسبات تالية. وقام جلازر من صنعاء بثلاث جولات استكشافية تفحص خلالها خرائب ونسخ ما شاهد فيها من نقوش. وعرض حياته اثناء ذلك عدة مرات للخطر ولكنه تمكن من النجاة في كل مرة من دسائس مرافقيه.

وفي العام التالي بعد عودته، أى في ١٨٨٥، بدأ رحلته الثانية إلى الجنوب العربي. ومول رحلته هذه كلها تقريباً من حسابه الخاص. وهنا أيضاً توجه في بادئ الأمر إلى صنعاء وراح ينقب باحثاً ومستكشفاً المنطقة الممتدة بين صنعاء وعدن. واستطاع هذه المرة أن يجمع عدداً كبيراً جداً من النقوش الحجرية، انتقل جزء منها إلى المتحف البريطاني في لندن وجزء إلى برلين حيث باع كذلك ٢٥٠ مخطوطاً عربياً. ومن الأرباح التي درتها عليه هذه المواد العلمية تمكن جلازر إلى اكبر حد من تمويل رحلته الثالثة والناجحة نجاحاً خاصاً.

وفي هذه المرة، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٧، مضى من عدن في رحلة دامت ٤٤ يوماً إلى صنعاء قام فيها بدراسة ورسم ونسخ كل ما بدا له هاماً وشيقاً اثناء الطريق. ولكن هدفه الحقيقي كان العاصمة السبئية القديمة مأرب، التي تقوم على انقاضها اليوم قرية صغيرة غير هامة، يصعب الوصول إليها كثيراً مع ذلك. ولم يتمكن من قبله إلا الفرنسيان آرنو Arnaud وآليني Halévy من التغلغل إليها. واستطاع جلازر، متذكراً في زى فقيه عربى وبصحبة أصدقاء له من أهل البلاد، أن يبلغ مأرب وأن يجمع هناك خلال ستة أسابيع مواد نفيسة كثيرة. ونسخ عدداً كبيراً من النقوش، منها ما هو مهم جداً، وزار السور البيضوى الكبير بالقرب من مأرب، وهو ما يدعى اليوم بمحرم بلقيس، والذي كان في الماضي أهم معبد لإله القمر والمملكة السبئية، وزار كذلك بقايا السد الهائل الذي كان يتمتع في الماضي بشهرة عالمية مع ما يتصل به من قنوات للرى أحالت في الماضي السهل الممتد على جانبي وادى ذنه إلى أرض خصبة معطاء. ويعتبر وصف ومقاييس هذه المنشآت وكذلك بقية نتائج أبحاث جلازر في مأرب ذات أهمية لا حد لها حتى اليوم، رغم أعمال الحملة الاستكشافية الضخمة التي قامت بها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان عام ١٩٥٢. وكان

بوسع جلازر في رحلته الثالثة هذه بالذات أن يقوم بأبحاث وإنجازات أعظم للحقل العلمي لو أنه لم يضطر إلى إنهاؤها قبل الأوان بسبب افتقاره إلى المال؛ وما لا يفهم حتى اليوم، رغم أنها حقيقة مرة، أن بلاده رفضت أن تقدم له أى عون مالى. أما قصة رحلته إلى مأرب فقد قام مولر ورودوكاناكيس N. Rhodokanakis بنشرها حسب مذكراته عام ١٩١٣ («مجموعة ادوارد جلازر ١: رحلة ادوارد جلازر إلى مأرب»).

وفيما بين عام ١٨٩٢ و ١٨٩٤ قام جلازر برحلته الرابعة والأخيرة إلى الجنوب العربي. ومضى هذه المرة أيضاً من عدن إلى صنعاء، ولكنه اتجه في طريقه أكثر غرباً عابراً تعز. وكان وضعه في صنعاء كالمعتقل عملياً، إذ انه لم يستطع مغادرة المدينة بسبب الثورات في جميع أرجاء البلاد. وعند ذلك وجد لنفسه مخرجاً، وهو أنه علم بعض البدو فن طبع الألواح المنقوشة على نوع معين من الورق بطرقها عليه بحيث تنشأ صورة مطابقة تماماً للأصل. وهكذا انتشر البدو الذين درهم على ذلك في ضواحي المدينة القريبة والنائية بحثاً عن النقوش واحضروا من اماكن لم يصلها رحالة بعد مواد كثيرة غنية. وبذلك عرفت لأول مرة النقوش القتبانية بوجه خاص. واشترى متحف تاريخ الفن في فيينا ما جمعه جلازر في هذه الرحلة من نقوش حجرية وغير ذلك من النفائس الأثرية.

مات جلازر عام ١٩٠٨ في ميونخ. ولا يمكن تقدير إنجازاته وخدماته في سبيل العلم كما لم يتفوق عليه في ذلك الحقل أحد بعد. وبفضل ما جمعه من كميات هائلة من النقوش والقطع الأثرية ومعلوماته الطبوغرافية الدقيقة ووصفه المسهب التفصيلي للخرائب الأثرية أمكن لأول مرة إنشاء الدراسات السبئية كعلم قائم بذاته. ولم ينته العمل على ما جمعه حتى اليوم بعد، بل هناك كنوز من الآثار مازالت تنتظر البحث والدراسة والنشر. أما ما خلفه جلازر من تركة علمية واسعة فقد اشترته اكاديمية العلوم في فيينا.

وكانت «بعثة الجنوب العربى الاستكشافية» التي اوفدتها اكاديمية العلوم في فيينا العمل العلمى التالى الذى قامت به النمسا فى الجنوب العربى. وكان أعضاء البعثة د. ه. مولر وأ. سيمونى O. Simony وف. كوسمات F. Kossmat وأ. يان A. Jahn وطبيب، بالاضافة إلى الكونت السويدى لاندبرغ Landberg، الذى سرعان ما انفصل عن الآخرين، وسكرتيره ج. ف. بورى G. W. Bury ومع أن البعثة لم تستطع أن تبلغ هدفها الاصلى، وهو



نيكولاس رودوكاناكيس

الأكاديمي كعالم جغرافي. وأدى به عمله الجامعي فيما بعد إلى الانتقال إلى الصين ومن ثم إلى توبنجن بألمانيا، حيث يعيش حتى اليوم كاستاذ متقاعد. وتمت رحلته الأولى بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وذلك بصحبة ك. راتينز C. Rathjens، واتجهوا فيها من الحديدية إلى صنعاء، ومن هنا سعى كل منهما إلى استكشاف جهة مختلفة من المنطقة المجاورة. ومع أن الاهتمام الجغرافي احتل مكان الصدارة، إلا أن علمي الآثار والنقوش الحجرية فازا بمعارف ومكاسب غنية بفضل أبحاث العالمين المتعددة الجوانب، كما يحق لهما أن يشهرا بالقيام بأول حفريات أثرية في الجنوب العربي كان من نتائجها كشف النقاب في حقه عن معبد الإله تألب.

وقام فون فيسمان بالرحلات الثلاث الباقية في الأعوام ١٩٣١ و ١٩٣٩ و ١٩٥٨ جاعلاً حضرموت هدف أبحاثه. واخترق في ذلك مناطق لم تستكشف بعد كما جاء كذلك بنتائج غنية متعددة الوجوه كما في الرحلة الأولى. وكان بصحبة فون فيسمان في هذه الرحلات بالإضافة إلى الهولندي د. فان در مويلن D. van der Meulen. وزوجته الدكتورة بيتينا فون فيسمان وهي سيدة من فيينا، والدكتور فون فاسيلفسكي v. Wasielewski. واللايدماير A. Leidlmair، وهو نمسوي أيضاً. إن العالم الأثنولوجي ف. دوستال W. Dostal هو في

استكشاف حضرموت، لامتناع السلطات عن إعطائهم ترخيصاً بالدخول، إلا أنها اتجهت نحو جزيرة سوقطره وفيما بعد انتقلت إلى المكلا، على الساحل الشرقي من حضرموت. واعطى هذا التغير غير المقصود في هدف الرحلة نتائج هامة: فبالإضافة إلى ملاحظات علمية طبيعية وجغرافية سجل ما يدعى بلغات مهرا (المهرية والشخرية والسوقطرية) وهو عمل بالغ الأهمية نظراً لبدء زوال هذه اللغات المنتشرة في ساحل مهرا وفي الجزر المحيطة. وقام ج. ف. بوري بجمع النقوش العربية الجنوبية تحت رمز SE وهما الحرفان الأولان لعبارة «بعثة الجنوب العربي» باللغة الألمانية. وقد نشرت جميعها.

وقام فيلهلم هاين Wilhelm Hein كذلك برحلة عام ١٩٠١ جاب فيها كذلك المناطق الشرقية من حضرموت ومكث بضعة شهور في فشن، أهم قرية في بلاد مهرا، وجمع مراجع لغوية (المهرية والحضرية) ومعلومات احصائية واسعة عن سكان فشن واقنع عند عودته رجلاً من حضرموت وآخرين من سوقطرة أن يصطحباه إلى فيينا، حيث قدما أجل الخدمات كمراجع لغوية وسيطة. وبعد فترة طويلة تلت ذلك رحلات ه. فون فيسمان H. v. Wissmann إلى الجنوب العربي. ومع أن فون فيسمان ليس نمساوياً بالولادة إلا أنه قضى حياته منذ الطفولة في النمسا، كما أن صلته وثيقة بفيينا بفضل بداية عمله



إدوارد جلازر

القديمة وكذلك بأعماله الخاصة بلغات بلاد المهرا أن يبلغ شهرة علمية رفيعة. وفيما يتعلق بالحقل الأخير نذكر كذلك منشورات أ. يان وف. هاین، وخاصة ما قدمه ماكسميليان بيتر Maximilian Bittner من دراسات نحوية ومعجمية خاصة بالمهرية والشخرية والسوقطرية وكانت مجموعات النصوص التي نشرها العلماء المذكورون القاعدة التي استندت عليها هذه الدراسات. وخلق بيتر بذلك أساساً لا بد لكل عمل قادم في هذا الحقل أن يقوم عليه. كما أن دراساته ذات أهمية كبيرة للعلوم السبئية كمواد مقارنة.

أما أهم تلامذة مولر واكبر مساعد له فيما بعد فهو نيكولاس رودوكاناكيس Nikolaus Rhodokanakis الذي يمكن أن يعتبر بحق كامل المؤسس الحقيقي للدراسات السبئية كعلم مستقل يجب أن يؤخذ بمأخذ الجد. ولد رودوكاناكيس في الاسكندرية عام ١٨٧٦ وهو من أصل يوناني - وكان أجداده يعيشون في جزيرة خيو، واضطروا إلى مغادرتها فراراً من الأتراك - ومنذ نعومة أظفاره ترعرع رودوكاناكيس في النمسا وامضى بقية حياته فيها وشعر بانتمائه الكامل لهذه البلاد. ودرس في بادئ الأمر الحقوق غير أنه سرعان ما انكب على دراسة الاستشراق في جامعة فيينا ثم أصبح استاذاً نظامياً عاماً لمدة طويلة في غراتز حيث توفي في نهاية عام ١٩٤٥. وبعد بضعة

الوقت الحاضر آخر نمسوى زار الجنوب العربي، وعلى وجه التحديد حضرموت. وقام بدراسات تتعلق بتاريخ القبائل وبحوث اثنوغرافية عامة لدى كثير من القبائل القاطنة هناك وعنى في ذلك عناية خاصة بقضايا مراحل البداوة الأولى المبكرة.

وكما يتضح مما أوردناه حتى الآن فقد اسهمت النمسا بنصيب كبير في بحث ودراسة مناطق حضارة الجنوب العربي. ولا يقل عن ذلك ضخامة، إن لم نقل أكثر أهمية وأبعد أثراً، ما قدمه العلماء النمسيون من خدمات وأعمال في تقييم النقوش والمواد التي جمعها الرحالون المستكشفون تقيماً علمياً دقيقاً. ومن الرحالين انفسهم من عمل في هذا الحقل كأعمال جلازر مثلاً؛ وقد يكون الكثير مما توصل إليه من نتائج باطلا اليوم، أو مشحوناً بالخيال البعيد عن الحقيقة، إلا أنه أصاب في بعض ما توصل إليه بنظرة عبقرية. ولن نقسو بالحكم على جلازر بسبب «شطحاته» وحواشيه التي غالباً ما تبدو على جانب من الغرابة ولا تمت للموضوع بصلة، إذا ما اعتبرنا كثرة تجارب خيبة الأمل المريعة التي مر بها هذا الرجل المثالي الذي كرس كل جهوده وقواه في خدمة الواجب المقدس الضخم الذي اختاره لنفسه.

ومن رواد الدراسات السبئية د. ه. مولر. إذ استطاع بعمله على حل ونشر عدد كبير من نقوش الجنوب العربي

أبحاث لغوية عربية كرس نفسه بولاء كامل ومثابرة حديدية للدراسات السبئية. وكان يتمتع بموهبة خارقة لذلك، وتمتاز أعماله بنظرة عبقرية تدرك الشيء الجوهرى وبطريقة علمية صارمة. ومن مجموعات نقوش جلازر الوفيرة اختار أصعبها وقام بنشرها ضارباً مثلاً أعلى بأسلوبه العلمى الدقيق. وإذا استدعت لإكتشافات جديدة فى النقوش وغيرها من الآثار اليوم تصويماً فى بعض وجهات النظر آنذاك، وخاصة فيما يتعلق بعدد من التفاصيل التاريخية التى لم تعد صحيحة - فإن ذلك لا يقلل شيئاً من خدمات رودوكاناكيس العلمية الجليلة. وقد قام فى ميدان الدراسات المعجمية والنحوية كذلك بالإنجازات طليعية ناجحة كما فعل كذلك فى ميدان دراسة واقع الجنوب العربى. وفى تفسير النصوص المتعلقة بالحقوق العقارية باصطلاحاتها الموجزة الغامضة استعان بدراسته الحقوقية السابقة ومعرفته الجيدة للأوضاع فى مصر أثناء عهد البطالسة. وترجمة وتفسير هذه النقوش العسيرة الفهم تمكن رودوكاناكيس من رسم صورة حية للاقتصاد العقارى والزراعى وما يتعلق به بأوثق الصلات من ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية عامة كانت سائدة فى الجنوب العربى القديم، وهى صورة ما زالت يحتفظ بصحتها حتى يومنا هذا.

وكانسان يتمتع بطيبة قلب كبيرة وبمزاج رقيق شديد الحساسية، إلا أن رودوكاناكيس لم يكن ليترك فى العلم مجالاً للمهاودة. فهنا كان تجاه نفسه وتجاه زملائه وتلاميذه أشد ما يكون حزمًا وصرامة. وكان قيل أن يقدم مخطوطاً للطبع، يعيد كتابة بعض الصفحات مرتين وثلاثاً، لأنها لم تكن لتجتاز امتحانه العسير فى اليوم التالى، رغم أنها لم تكن تكتب إلا بعد تمحيص وتدقيق طويلين. وليس من السهل قراءة أعمال رودوكوناكيس، إذ أن اصطلاحاته واسلوبه التعبيرى تكاد تذكر فى كثير من الحالات بنقوش الجنوب العربى. ولكن أعماله محكمة دقيقة كهذه أيضاً، وإذا بذل المرء جهده لدراستها باهتمام وانتباه حقيقيين، لأفاد من ذلك كثيراً.

ومن أغنى الأبحاث السبئية بعدة دراسات كبيرة وعدد كبير من المقالات فى المراجع العلمية أيضاً أدولف غرومان Adolf Grohmann فدراسته حول رموز الآلهة والحيوانات الرمزية مازالت أساساً لبحث ديانة الجنوب العربى القديمة. ومنذ حين قريب نشر العالم الذى بلغ الثمانين من عمره فى كتابه «شبه الجزيرة العربية» (المختصر فى علم التاريخ القديم ٣/٣) معلوماته الوفيرة عن تاريخ وحضارة شبه

الجزيرة العربية، بحيث أصبح فى متناول يدنا مرجع مهم، كذلك بالنسبة لدراسات الجنوب العربى.

وقام أحد تلاميذ رودوكاناكيس وهو كارل ملاكر Karl Mlaker بنشر بحث أساسى حول ما يدعى بقوائم الرهائن الإلهية فى معين توصل فيه الى نتائج هامة فى ميدان علم التأريخ، ما زال جزء منها هاماً حتى اليوم رغم جميع التطورات فى هذا القطاع بالذات من الابحاث السبئية. وهو متقن فيما يقدمه من تفصيلات حول طبيعة ومكانة «الرهائن الإلهية» فى الجنوب العربى، وهم، كما يفسرهم، أشخاص رهنوا لسداد نذور قطعت لإله أو لمعبود. وبما يؤسف له أن العمل المهنى كان يستنزف كثيراً من وقت وجهه ملاكر بحيث لم يتمكن من وضع معلوماته التاريخية واللغوية الغنية فى خدمة العلم كما كان يرغب. ثم انتزعه الموت قبل أوانه بكثير.

وكان من حسن حظى أيضاً، أن تتلمذت على رودوكاناكيس. وحتى اطروحتى التى تقدمت بها للدكتوراه اختصت بالنقوش الحجرية، وما زال هذا العلم حتى اليوم الميدان الرئيسى الذى أبحث وأعمل فيه. وبعد نشر ما لم ينشر بعد من نقوش بعثة الجنوب العربى المذكورة سابقاً، والعمل على نقوش حجرية أخرى، قمت بتأليف كتاب فى قواعد العربية الجنوبية القديمة التى اعتبرتها لا غنى عنها للبحوث السبئية وكذلك للغات السامية المقارنة. وبعد الانتهاء من طبع الكتاب احترقت جميع نسخه تقريباً عام ١٩٤٣ أثناء غارة جوية على لايبزغ، ولكنه أعيد طبعه فيما بعد استناداً إلى احدى النسخ القليلة التى امكن انقاذها. وكجزء تكملى للكتاب كان قد قرر منذ البداية وضع منتخبات للمطالعة مع مفردات مشروحة وكان على ملاكر أن يقوم بتأليفها. ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك؛ فقررت أن يكون هذا العمل مع ملحق وتصحيح جزئى للقواعد على أساس النصوص الجديدة المكتشفة حديثاً جزءاً من برنامجى القادم.

وبدأت فى العمل على القواعد فى جراتز وبعد الحصول على إجازة التدريس الجامعى أنهيته فى فيينا. ودرست العربية الجنوبية القديمة والاثيوبية فى جامعة فيينا لبضعة أعوام. وكنت اقطع التدريس عدة مرات أثناء هذه المدة واتجه إلى توبنجن لدراسة أهم لغات اثيوبيا السامية على يدى الاستاذ إينو ليتان. وبما أنه لم تكن للمدرس الجامعى فى النمسا أى امكانيات معيشية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد بقيت فى توبنجن، كضييفة فى بادئ الأمر، ثم طلبت نقل الاذن بالتدريس إلى هنا ورحت أحاضر



حجر محفور عليه كتابة، من اليمن، مدون عليه اسم شخص...

الطريقة غير المباشرة تفرض على المرء العمل بكثير من الحذر والنقد الصارم إذا ما أراد أن يتجنب ضلال السبيل والتهيه في ببداء الوهم الكاذب. ومن السهل أن ندرك أيضاً أن النتائج التي سنتوصل إليها في ذلك غالباً ما تكون أقل من العمل المبذول. ولكن المهمة في حد ذاتها على جانب كبير من السحر وهى تستحق كل جهد، وإنى لأرجو أن أتقدم خطوة أخرى إلى الأمام في طريق البحث في دين الجنوب العربى القديم. وقد وجدت عوناً قيماً لهذا العمل بالذات في نتائج أبحاث فيسمان التاريخية الجغرافية. فهى تعطى أولاً عرضاً لأماكن عدد كبير من المعابد، وبذلك تمكن من تحديد انتشار الآلهة المختلفة، كما أنها تعطى فكرة، وذلك بوجه عام على الأقل، عن التطور التاريخى للدين.

وإلى جانب الاهتمام الذى امتد عبر عدة اعوام بدراسة قضايا الدين العربى الجنوبي القديم، فإن القطاع اللغوى من الدراسات السبئية ظلت وما تزال شغلى الشاغل. إذ على هذا الاساس وحده يمكن القيام بعمل مثمر في حقول البحث الأخرى. وهذا هو مبدئى كذلك بالنسبة للتدريس الجامعى؛ وإنى لأرجو بذلك أن أواصل التراث النمى الطيب الثابت في الأبحاث السبئية وأن أسلمه كذلك إلى أيدي الجيل الصاعد.

في أثناء اقامتى التي دامت عدة اعوام في توننجن،

في حقلى الاختصاصى في إطار قسم الدراسات الشرقية في الجامعة، إلى أن استدعيت عام ١٩٦٤ إلى جراتر لاحتلال مقعد الدراسات الشرقية الذى خلا هناك.

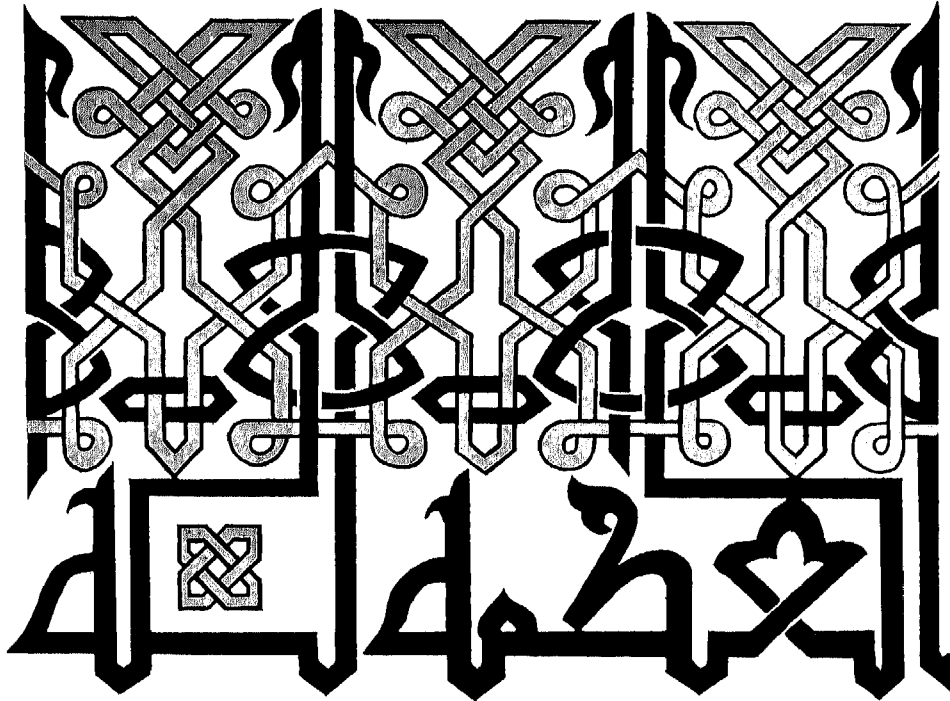
وفي توننجن بدأت بتكليف من أكاديمية العلوم النمىية بنشر ما لم ينشر بعد من مخلفات جلازر العلمية، وهو عمل مازال مستمراً وسيستغرق بعض الوقت أيضاً. وفوق ذلك فقد اوليت اهتماماً شديداً بأديان ما قبل الاسلام في شبه الجزيرة العربية، حيث تركز اهتمامى بالدرجة الأولى على الجنوب العربى. وبين الالاف العديدة من النقوش العربية الجنوبية لا يوجد نص واحد يعالج اموراً دينية بالذات، كأن يحتوى مثلاً على اساطير أو مراسيم دينية أو تراويل. ويبدو هذا أكثر غرابة عندما تكشف النصوص من الجهة الأخرى بوضوح عن مدى الاهمية المركزية التي كان يتمتع بها الدين في الحياة العامة والخاصة. ومما تقدمه النقوش من مادة لدراسة الدين القديم إلى جانب بضع نقاط انطلاق قليلة نسبياً، أسماء الآلهة بالدرجة الأولى. وفي هذا العدد الغفير من الأسماء كانت المهمة الرئيسية التي تتطلب الحل: فرض نظام معين لهذه الأسماء، وادراك كل من الصور الإلهية الكبيرة على اختلاف اشكال ظهورها، والتي يحمل كل منها اسماً خاصاً، وأخيراً محاولة معرفة شىء عن طبيعة ووظيفة المسمى من الاسم نفسه. ومن البديهي طبعاً أن مثل هذه

وعوناً لا غنى عنهما، والذي يعتبر تطويراً حاسماً للبحوث السبئية، فقد كرس فون فيسمان نفسه كذلك لعدد من البحوث الهامة الأخرى في هذا العلم، وإننا نلرجو أن يزيد الدراسات السبئية غنى بأعمال كثيرة أخرى.

من هذا العرض يتضح بما لا يقبل الشك أن الزعم الذي تقدمنا به في بداية المقال حين قلنا بأن النمسا أسهمت في استكشاف ودراسة الجنوب العربي من كل ناحية بنصيب حاسم، إنما هو قول برزناه وأثبتنا صحته كاملاً وبالتمام. وفي ذلك لا يجوز أن ننسى خدمات وأعمال العلماء الآخرين ولا أن نقلل من شأنها. أما السبب في عدم ذكر اسمائهم وتقدير أعمالهم هنا فليس أكثر من أن موضوع هذا المقال اقتصر على الأبحاث النمسية للجنوب العربي دون غيرها.

اتاحت لي الفرصة عدة مرات للعمل في تعاون مثمر مع فون فيسمان، كان من نتائجه أيضاً اشتراكنا في تأليف ونشر كتاب : «أبحاث حول الجغرافية التاريخية للجنوب العربي قبل الإسلام». وإلى جانب ذلك قام فون فيسمان برسم خريطة الحقبة بتصديري لمجموعة من النقوش من مخلفات جلازر («مجموعة ادوارد جلازر-٢»). ومن عمل كان مقررأ في الأصل كتعليق على هذه الخريطة فقط نشأ أخيراً أهم كتاب في الأبحاث السبئية لفون فيسمان وهو : «مجموعة ادوارد جلازر-٣ : حول تاريخ وجغرافية الجنوب العربي القديم». وفي هذا الكتاب المفصل الشامل لا يظهر فون فيسمان كجغرافي ومؤرخ متبحر في العلم غنى في الأفكار فحسب، بل إنه خاض بطريقة تثير الدهشة مسائل الدراسات السبئية نفسها على اختلاف أنواعها. وإلى جانب هذا الكتاب الذي أصبح مرجعاً

ترجمة : محمد علي حشيشو



«العظمى لله» - عن مدرسة قراطاي بقونيا ، تركيا .

فيلهلم آلورد

(١٨٢٨ - ١٩٠٩)

بقلم : الأستاذ مانفريد أولمان

كان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر في منتصف القرن الماضي إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه في بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوي. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق فيلهلم ألفارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أما مدينة غرايفسفالد التي لا تبعد عن جزيرة روغن Rügen على الساحل الألماني من بحر البلطيق فمعروفة كسقط رأس كاسبار دافيد فريدريش (١) C. D. Friedrich رسام الرومانطيقية الألمانية الكبير. والمدينة صغيرة إلا أن جامعها عريقة في القدم. فقد أسسها الدوق فراتيسلاف فون بومرن-فولغااست Herzog Wratisslaw von Pommern-Wolgast عام ١٤٥٦. وعمل فيها كأستاذ للتاريخ إرنست موريتز آرندت (٢) Ernst Moritz Arndt، الشاعر الوطني لحروب التحرير. وقد ارتبطت اسرة ألفارت كذلك بجامعة غرايفسفالد منذ عدة أجيال. فقد برز بيتر ألفارت Peter Ahlwardt المتوفى عام ١٧٩١ كفيلسوف ولاهوتي، بينما قام ابنه كريستيان فيلهلم ألفارت Christian Wilhelm Ahlwardt المتوفى عام ١٨٣٠ واستاذ الأدب الأغريقي بترجمة أعمال كاليماخوس (٣) Kallimachos وبندار (٤) Pindar. وقبل وفاته بعامين، في الرابع من يوليو (تموز) عام ١٨٢٨، رزق بابن سماه تيودور فيلهلم، سنسرد سيرة حياته بإيجاز.

كان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر في منتصف القرن الماضي إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه في بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوي. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق فيلهلم ألفارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أما مدينة غرايفسفالد التي لا تبعد عن جزيرة روغن Rügen على الساحل الألماني من بحر البلطيق فمعروفة كسقط رأس كاسبار دافيد فريدريش (١) C. D. Friedrich رسام الرومانطيقية الألمانية الكبير. والمدينة صغيرة إلا أن جامعها عريقة في القدم. فقد أسسها الدوق فراتيسلاف فون بومرن-فولغااست Herzog Wratisslaw von Pommern-Wolgast عام ١٤٥٦. وعمل فيها كأستاذ للتاريخ إرنست موريتز آرندت (٢) Ernst Moritz Arndt، الشاعر الوطني لحروب التحرير. وقد ارتبطت اسرة ألفارت كذلك بجامعة غرايفسفالد منذ عدة أجيال. فقد برز بيتر ألفارت Peter Ahlwardt المتوفى عام ١٧٩١ كفيلسوف ولاهوتي، بينما قام ابنه كريستيان فيلهلم ألفارت Christian Wilhelm Ahlwardt المتوفى عام ١٨٣٠ واستاذ الأدب الأغريقي بترجمة أعمال كاليماخوس (٣) Kallimachos وبندار (٤) Pindar. وقبل وفاته بعامين، في الرابع من يوليو (تموز) عام ١٨٢٨، رزق بابن سماه تيودور فيلهلم، سنسرد سيرة حياته بإيجاز.

درس فيلهلم ألفارت اللغات الشرقية في مدينته من ١٨٤٦ حتى ١٨٥٠ على يوهان غوتفريد كوزغارتن (٥) Johann

كان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر في منتصف القرن الماضي إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه في بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوي. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق فيلهلم ألفارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أن تلقته من قوى دافعة. ويجب أن يكشف أمام القارئ عن مجرى تطور فروع الأدب وسط الحركات السياسية والتقدم أو التخلف الاجتماعي، كتعبير عن الأفكار المحركة للزمن». غير أن آلفارت لم يستطع بطبيعة الحال تحقيق هذا الهدف. فقد كان لا يزال يفتقر إلى جميع الشروط اللازمة آنذاك، وحتى اليوم يبدو أن الزمن لم يمن بعد لوضع مثل هذا التأريخ الأدبي. ولم يستطع آلفارت أكثر من جمع أحجار بناءية تؤدي إلى هذا الهدف الأسمى. إلا أنه ركز جهوده على نقاط أساسية، فأبدع مؤلفات اعطت حقل اللغة العربية وآدابها دوافع حاسمة.

وفي بادئ الأمر ظهر كتاب في نظرية الأدب بعنوان: «حول الشعر وفن القريض عند العرب»، غوتا ١٨٥٦، وهو مؤلف تذكاري قدمه بجامعة غرايفسفالد بمناسبة الاحتفال بمهرجانيها اليوبيلي لمرور اربعائة عام على تأسيسها. وأراد به أن يشرح مبادئ الشعر العربي لفئات واسعة من المثقفين. وكتبه بلغة تفيض حماساً وعاطفة جياشة. وسعى فيه إلى إظهار المكانة الرفيعة التي يحتلها الشعر العربي في انظار العرب أنفسهم، وإلى عرض المبادئ والمقاييس التي يعتمد عليها العرب في تحديد قيمة قصائدهم الشعرية. وبحث كل المسائل التي تتعلق بموقف الشاعر من الطبيعة والبشر والله، كما أراد أن يفسر السبب الذي جعل هذا الشعب الشعري يحجم عن تطوير الشعر الملحمي أو الدرامي. ويمكن السبب، كما يعتقد آلفارت، في الذاتية الفردية عند العرب، وفي «عجزهم عن التخلي عن الروح الفردية بحيث يتمكنون من فهم الأوضاع والأشخاص موضوعياً ووصف ذلك بصورة موضوعية أيضاً». ولم ينشأ الشعر الملحمي لأن القبائل كانت متفرقة منقسمة على بعضها، بحيث لم يتوفر لديها ماض قومي موحد. ولم ينشأ الشعر الدرامي لأن العرب لا يفقه الماضي إلا كجموعة من الحوادث المنفردة، ولا يفهمها فيما تحدثه من تأثيرات متبادلة، ولأنه لا يستطيع إبداع شخصيات منتزعة من الحياة وعرضها في أداء تمثيلي. إن الذاتية الفردية تعيق الممثل المسرحي عن فن تلمص طابع الشخصية التي يمثلها. ومقابل ذلك فإن الشعر الوجداني الذي تجدد فيه الحياة النفسية الباطنية للفرد اكتفاءها الكامل قد قطع مراحل واسعة من التطور.

وفي عام ١٨٧٠ نشر آلفارت دواوين شعراء الجاهلية: النابغة الذبياني وعنترة وطره وزهير وعلقمة وامرئ القيس حسب مراجعة أبي الحجاج الأعلم الشنتمري. ومع أن هذه الطبعة أصبحت اليوم بحاجة إلى المراجعة والتنقيح،

كما أن طبعات جديدة حلت محلها، إلا أنها ظلت حتى اليوم، وبعد مرور مائة عام على صدورهما، الطبعة النموذجية التي مازال المستشرقون الأوروبيون يستخدمونها ويعتمدون عليها. وفي مقدمة طبعته طرح آلفارت مسألة صحة هذه القصائد ومدى أصالتها. وكرر هذه المسألة في كتابه الذي صدر عام ١٨٧٢ «ملاحظات حول صحة الشعر العربي القديم». ويسجل آلفارت هنا التباين في تسلسل الأبيات والاختلاف في أطوال القصائد ونسبة أبيات متشابهة تماماً لعدة شعراء مختلفين والافتقار إلى أي ذكر للآلهة القديمة والطقوس الدينية الوثنية. وينظر ثاقب راح يناقش جميع الاحتمالات التي يمكن أن تكون قد سببت هذا التشويه في النقال والرواية. فقد تكون هذه القصائد، خلال فترة القرن ونصف القرن التي مرت منذ نظمها وتدوينها، قد مرت بتحوير شديد إما بسبب أخطاء في ذاكرة الرواة أو لتزوير متعمد من طرفهم. وفي تشكيكه الخاص في روايات حماد الراوية وخلف الأحمر فإن آلفارت يحكم بكثير من الشك والريبة على مدى صحة الشعر الجاهلي وسلامته ككل. ويقول في ذلك: «في التاريخ القديم، لا بل وأكثر من ذلك في تاريخ الأدب يلعب الجنون وسرعة التصديق وحب التلفيق والسذاجة دوراً يثير القلق، كما أن الشخصيات الاسطورية الفاتنة بسحرها تراقص حولنا وتطاردنا خطوة خطوة». وفي القسم الثاني من كتابه يجمع آلفارت ما بين النداء الحار للاهتمام بدراسة الشعر العربي القديم والتحذير من الاستخفاف بما ينطوي عليه ذلك من مشقة وصعوبات. وقد تلاشى نداؤه: فحتى اليوم، وبعد مائة عام، يجب أن نتمنى مع آلفارت «أن تنتشل دراسة الشعر من الإهمال الذي تعاني منه فترة طويلة وعلى أيدي الغالبية». وكان تحذيره موجهاً إلى طبعة ديوان النابغة الذبياني التي أصدرها هارتفيغ ديرنبورغ (٧) Hartwig Derenbourg وطبعة ديوان علقمة لألبرت سوسين (٨) Albert Socin، وقد وصف هذين العاملين دون وجل بالفجاجة وعدم النضوج.

وإلى جانب هذه المؤلفات النظرية والنقدية قام آلفارت بنشر نصوص من الشعر العربي: كالخمريات من ديوان أبي النواس (١٨٦١) والأصمعيات (١٩٠٢) وهي المجموعة الشعرية التي وضعها الأصمعي للأمير الأمين لتعريفه قليلاً بأعجاد الماضي العربي.

وفي سن الشيخوخة عالج آلفارت أصعب مادة وأجفها في الشعر العربي: فقد نشر ديواني شاعري الرجز، العجاج والزيفان (١٩٠٣) ثم ديوان روبة بن العجاج (١٩٠٤).

ولم تكن هنالك أية أعمال سابقة في هذا الموضوع سوى المجموعة الصغيرة التي أصدرها محمد توفيق البكري في القاهرة عام ١٣١٣ هجرى بعنوان «كتاب أراجيز العرب» وسوى قصيدة للعجاج طبعها ماكسيميليان بتر (٩) Maximilian Bittner في فيينا عام ١٨٩٦. ورغم اعتماده على نسخة حديثة فقط في كل مرة فقد أصدر ألفارت نصاً يستحق الثقة والتقدير، ولم يستطيع إصدار ملحقات له إلا النمسي رودلف غاير (١٠) Rudolf Geyer. وحتى اليوم لم يستطع الرجاز أن يجدوا ناشرين جديدين لهم: وهذا دليل على الانجاز الخارق الذي حققه ألفارت في هذا المجال. غير أن ألفارت لم يكتف بنشر النص العربي فقد كان قال في عام ١٨٧٢: «إن الشعر نبات وطني مرتبط بالبلاد التي نشأ فيها ويقتصر في نموه على التربة التي انبتته بنحسب وازدهار بحيث يبدو تقويمه وتقديره في أية تربة أخرى مستحيلاً». وعلى رغم ذلك ترجم الآن ديوان رؤبة إلى الألمانية (برلين ١٩٠٤)، واختار تفعيلات من عشرة مقاطع وأحد عشر مقطعاً، أى مقلداً الوزن الأصلي تقريباً مع استغنائه في ذلك عن القافية. ويثير في إخلاصه اللغوي دهشة القارئ، حيث لا يتلأشى الطابع الشعري العربي للأبيات في ذلك. وكالمثل الأصلي فان الترجمة أيضاً صعبة القراءة، إذ يغتصب ألفارت اللغة تماماً كما فعل الرجاز. فما الذي دفعه إلى هذا التقليد الشعري في الترجمة؟ هل كان يريد تجربة براعته وفنه الكلامي؟ وهل انتقلت إليه عدوى روح رؤبة الهزلية الغريبة؟ لا شك في هذا؛ وأكثر من ذلك: أنه تمنى لو أن الشعراء الألمان تفكروا كذلك في هذه القوافي «بحيث يدركون منها لصالحهم الخاص ما يصلح للتقليد وما لا يجوز اتباعه».

وبالإضافة إلى أعمال ألفارت حول الشعراء، هناك طبعتان لعمليين تاريخيين: ففي عام ١٨٦٠ أصدر «كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية» لمحمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الذي أبدى إعجابه الشديد بروعة أسلوبه وجلائه وإيجازه. وفي عام ١٨٨٣ أصدر نصاً كان قد اكتشفه في مخطوط بدون عنوان أو مؤلف، مدرج تحت رقم: Berlin Petermann II 633 ويتعلق بجزء من فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان وبتحليل ثاقب للمضمون أثبت ألفارت أنها كانت المجلد الحادى عشر من كتاب الأنساب والأشراف لأحمد بن يحيى البلاذرى.

إلا أن ألفارت قدم انجازاً فاق في أهميته جميع ما نشره من مخطوطات: فقد قام بترتيب وفهرسة المخطوطات العربية

للمكتبة الملكية في برلين التي أصبحت فيما بعد المكتبة البروسية الحكومية. وكان في مكتبة برلين سابقاً ما يقارب ٦٠٠٠ مجلد من المخطوطات العربية، أضيف إليها عام ١٨١٧ مجلدات أخرى من ممتلكات القائم بالأعمال البروسى لدى الباب العالى، هاينرش فريدرش بارون فون ديتز. ونمت هذه المجموعة المتواضعة نسبياً نمواً سريعاً في عهد الملك فريدريش فيلهلم الرابع، الذى كان محباً راعياً للفنون والعلوم، كما اهتم الامبراطور فيلهلم الاول بشراء مخطوطات أخرى. ثم ساهم القنصل البروسى في دمشق يوهان غوتفريد فترشتاين (١١) Johann Gottfried Wetzstein في ١٨٥٢ و ١٨٦٢ ب ٢١٠٠ مخطوطة؛ وباع البروفسور هاينرش بيتزمان (١٢) Heinrich Petermann للمكتبة بين ١٨٥٣ و ١٨٥٧ وكذلك عام ١٨٧٠ ما يزيد على الألف ومائة مجلد؛ وخلف المستشرق ألويس شبرنغر (١٣) Alois Sprenger عام ١٨٥٧ كذلك ١١٠٠ مجلد؛ وابتيع عام ١٨٨٤ من شركة بريل في لايدن بهولندة ما يزيد على الألف مجلد من مجموعة الكونت لاندبيرغ (١٤) Graf Landberg؛ وفي عام ١٨٨٧ انتقلت ٢٤٠ مخطوطة كان قد احضرها معه ادوارد غلازر (١٥) Eduard Glaser من رحلاته في جنوب الجزيرة العربية عام ١٨٨٥-١٨٨٦ إلى حوزة المكتبة، وبالإضافة إلى مقتنيات صغيرة أخرى من المخطوطات بلغ مجموع ما في حوزة مكتبة برلين ٦٤٥٠ مجلداً، وهى مجموعة لا تقل في أهميتها عما في امهات المكتبات الأوروبية الاخرى الاقدم عهداً في باريس ولايدن ولندن واكسفورد، وتضم في محتوياتها جميع فروع الأدب العربى. وقد حصل ألفارت عام ١٨٦٣ على التكليف بترتيب هذه المخطوطات وفهرستها. وقد أقر بأنه كان يكرس لهذا العمل للذى كان يقوم به في منزله في غرايفسفالد كل يوم عشر ساعات على الأقل ولمدة عشرين عاماً. واحتاج طبع بيان الفهارس وحده إلى اثني عشر عاماً أخرى. وعندما ظهرت المجلدات العشرة السميكة من القطع الرباعى عام ١٨٩٩ كان ألفارت قد أنجز عملاً كان فريداً من نوعه في اتساع مواده ودقة ضبطه وذا أهمية راسخة ثابتة بالنسبة لحقل دراسة اللغة العربية وآدابها.

لقد كان على ألفارت أن يتخلى عن المشروع الذى خطط له في شبابه: وهو تأليف تاريخ للأدب العربى يبعث الحياة في القوى الباطنية الداخلية للفكر العربى. والآن فقد كان قد وضع الأسس التى يمكن أن يقام عليها الهيكل الخارجى لتأريخ الأدب العربى على الأقل. وقد

اعترف كارل بروكلمان (١٦) Carl Brockelmann بامتنان أنه ما كان بمقدوره أن يكتب مؤلفه «تاريخ الأدب العربي» لولا بيان الفهارس الذي أعده آلفارت.

لقد أصبح فيلهلم آلفارت في سكوت عزله واحداً من عظماء المستشرقين الألمان المختصين بالعربية. فبقدرته على إثارة

الحماس وتفانيه في البحث وحياته في صومعة الدرس والتحصيل كان يجسد لودعية علمية تبدو وكأنها أخذت تتلاشى في عصرنا المتحيز المسعور، رغم أنها يجب أن تظل قسماً مضيئاً عبر كل العصور.

ترجمة: محمد علي حشيشو

ملاحظات المترجم

العلوم في فيينا. كان عالماً لغوياً فذاً وقام بنشر مخطوطات في عدة لغات شرقية.

(١٠) رودلف غاير: مستشرق نمسوي ولد في فيينا في ١٨٦١ وتوفي فيها عام ١٩٢٩. درس اللغات الهندية في جامعة فيينا في بادئ الأمر ثم تحول إلى اللغات السامية وتفرغ لدراسة اللغة العربية بالذات. أصبح عام ١٩١٥ استاذاً نظامياً للغات السامية ورئيساً للمعهد الشرقي في جامعة فيينا. كان اهتمامه يدور بوجه خاص حول الشعر الجاهلي والبيئة الجاهلية. قام بنشر كتاب الوحوش للأصمعي وديوان أوس بن حجر وعالج ديوان رؤية بن العجاج وغير ذلك.

(١١) يوهان غوتفريد فترشتاين: مستشرق ورحالة بجاجة ولد عام ١٨١٥ في أولزيتس وتوفي عام ١٩٠٥ في برلين. درس منذ عام ١٨٣٦ اللاهوت في لايبزغ وبعدها تفرغ للغات الشرقية. واصل دراسته في أكسفورد وختمها في برلين عام ١٨٤٦ حيث نال إجازة تدريس اللغة العربية. أصبح عام ١٨٤٨ قنصلاً بروسيا في دمشق وتوصل إلى عقد اتفاقية صلح بين الحكومة التركية والدروز وتمهد أمر المسيحيين في سوريا عام ١٨٦٠. سجل ملاحظاته حول حوران وبدو سوريا في مؤلفات هامة وجمع عدة مخطوطات من الشرق.

(١٢) هاينرش بيترمان: مستشرق ولد عام ١٨٠١ وتوفي عام ١٨٧٦. أصبح عام ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية في برلين. قام من ١٨٥٢ حتى ١٨٥٥ برحلات إلى تركيا وإيران ثم زار فلسطين وسوريا بين ١٨٦٧ و١٨٦٨. كتب عدة مؤلفات في قواعد اللغات الشرقية كما دون قصة رحلاته في كتاب خاص.

(١٣) ألويس شيرنغر: مستشرق ولد عام ١٨١٣ في قرية بجبال التيرول وتوفي عام ١٨٩٣ في هايدلبرغ. ذهب عام ١٨٣٦ إلى لندن وعام ١٨٤٢ إلى الهند حيث عمل رئيساً للمعهد العالي في دلهي وكالكوتا حتى ١٨٥١. وحين عاد إلى أوروبا أصبح استاذاً في برن من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. نشر مخطوطات عربية وفارسية هامة كما ألف كتاباً عن حياة الرسول وتعاليمه وآخر عن جغرافية الجزيرة العربية.

(١٤) الكونت لاندبرغ: مستشرق سويدي أصبح إيطالياً منذ عام ١٨٨٤. ولد عام ١٨٤٨ في غوتنبورغ بالسويد وتوفي عام ١٩٢٤ في نيزا. قام منذ عام ١٨٧٢ بعدة رحلات إلى الشرق لتعلم اللهجات العربية. أصبح بين ١٨٨٨ و١٨٩٣ قنصلاً عاماً للسويد والنرويج في القاهرة وترأس عام ١٨٩٨ البعثة العلمية إلى جنوب الجزيرة العربية التي أوفدها أكاديمية العلوم في فيينا. كتب عن اللغة العربية ولهجاتها ونشر مخطوطات عربية أيضاً.

(١٥) إدوارد غلازر: رحالة ألماني ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٠٨ في ميونيخ قام برحلات في جنوب الجزيرة العربية عام ١٨٨٣ وكذلك من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٤ وجمع نقوشاً ومخطوطات هامة. وكتب عن تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها منذ أقدم العصور حتى عهد الرسول.

(١٦) كارل بروكلمان: مستشرق متخصص باللغات السامية والتركية ولد في روستوك عام ١٨٦٨. عمل منذ عام ١٩٠٠ استاذاً للغات الشرقية في برينسلاو وكوفنبيرغ وهاال وبرلين. اشتهر بإنجازاته العظيم الفريد «تاريخ الأدب العربي» وبكتبه الأخرى عن تاريخ اللغات السامية وتاريخ الشعوب الإسلامية وكتب قواعد اللغة العربية.

(١) كاسبر دافيد فريدريش: ولد في غرايفسفالد في ١٧٧٤ وتوفي في دريسدن في ١٨٤٠. أشهر مثل الرسم الرومانتيكي للمناظر الطبيعية في ألمانيا. اشتهر برسم الظواهر الطبيعية الخلابة على ساحل بحر البلطيق.

(٢) إيرنست مورتس آرندت: شاعر ألماني عاش من ١٧٦٩ حتى ١٨٦٠ اشتهر بأشعاره الوطنية الحاسية. اشتغل في التأريخ والصحافة وناضل بقلمه ضد نابليون ومن أجل وحدة ألمانيا تحت دستور ألماني. عمل عام ١٨١٨ استاذاً للتاريخ في بون ثم عزل من منصبه من ١٨٢٠-١٨٤٠ بتهمة الديمقراطية. أصبح عام ١٨٤٨ نائباً في برلمان فرانكفورت.

(٣) كالبياخوس: شاعر يوناني عاش بين ٣١٠ و ٢٣٨ ق.م. ويعتبر مؤسس تاريخ الأدب اليوناني.

(٤) پندار: شاعر وجداني يوناني عاش بين ٥٢٢ و ٤٤٢ ق.م.

(٥) يوهان غوتفريد كوزغارتن: مستشرق ومؤرخ ولد في جزيرة روغن Rügen على بحر البلطيق عام ١٧٩٣ وتوفي في غرايفسفالد عام ١٨٦٠. درس اللاهوت واللغات القديمة في غرايفسفالد وأصبح عام ١٨١٧ استاذاً نظامياً للغات الشرقية في جامعة فيينا ثم انتقل ليحتل نفس المقعد في جامعة غرايفسفالد عام ١٨٢٤. اشتهر باهتمامه الرئيسي باللغة العربية وآدابها فأصدر دراسة عن ابن بطوطة ونشر معلقة عمرو بن كلثوم (١٨١٩) كما نشر جزئين من تاريخ الطبري (١٨٣١-١٨٣٧) وديوان بني هذيل.

(٦) هاينرش أيفالد: لاهوتي بروتستانتي ومستشرق ولد في غوتنغن عام ١٨٠٣ وتوفي فيها عام ١٨٧٥. عمل من ١٨٣١ حتى ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية في غوتنغن. عزل من منصبه لأسباب سياسية ثم انتقل عام ١٨٣٨ استاذاً في قسم الفلسفة في جامعة توبنغن. وبعد خلافات فكرية عاد إلى غوتنغن عام ١٨٤٨. واشترك عام ١٨٦٣ في تأسيس الاتحاد البروتستانتي. عزل عام ١٨٦٧ من قسم الفلسفة بسبب نشاطه المعادي للحكومة البروسية. لقد كان أيفالد أحد الممثلين الرئيسيين لعلم اللغات السامية وخاصة العربية في القرن التاسع عشر.

(٧) هارتفيج ديرنبورغ: مستشرق فرنسي من الطائفة الاسرائيلية ولد في باريس عام ١٨٤٤ وتوفي فيها عام ١٩٠٨. درس على المستشرق فلايشر في لايبزغ وعلى أيفالد في غوتنغن. وبعد أن عمل في تدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية الحية في باريس عين عام ١٨٧٩ استاذاً في المعهد نفسه. أهم أعماله إصدار كتاب النحو لسيبويه (باريس ١٨٨١-١٨٨٩).

(٨) ألبرت سوسين: مستشرق ولد في بازل عام ١٨٤٤ وتوفي في لايبزغ عام ١٨٩٩. درس منذ عام ١٨٦٢ اللغات الشرقية في بازل وجنيف وغوتنغن ولايبزغ. قضى مدة عامين من ١٨٦٨ حتى ١٨٧٠ في مصر وسوريا والعراق حيث قام بأبحاث هامة حول اللهجات العربية وحول السريانية والكردية. أصبح عام ١٨٧٦ استاذاً نظامياً في توبنغن وفي ١٨٩٠ في لايبزغ. أصدر عام ١٨٦٧ «قصائد علقمة» كما ألف عدة كتب حول اللهجات العربية والآرامية الحديثة وكتاباً لقواعد اللغة العربية. (٩) ماكسيميليان بتر: مستشرق نمسوي ولد في لوبونزتر عام ١٨٦٩ وتوفي في مودلينغ عام ١٩١٨. كان استاذاً للغات الشرقية في جامعة فيينا منذ عام ١٩٠٦ وكذلك في الأكاديمية القنصلية وكان عضواً في أكاديمية

الملك المحتاج أفعل ذلك واجتنب الحرم والزل الطائف
 فسار المحتاج حتى نزل الطائف ثم إنه كتب إلى سيد الملك
 إنك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ولا تأمر برجمه
 ومصادمته بكثر مدد و مدد وسلاحه لأن له في
 قتله ومناجزته وكتب إليه أفعل ما تحمي فأمر أخصابه
 أن يجهزوا الفتح ثم أقبل من الطائف وقدم مقدمته
 فنصبوا المنجنيق على أبي قبيس فلما عبطوا إلى بني
 رأي من بني منكر المحتاج المنجنيق منصوبة فقال الأمير
 ابن شهاب الكلبي وهو ينسب في القين من حسن بن جندب
 فقال القيني

الطويل

لعمري أرى المحتاج لو خفت ما أرى
 من الأمر ما أفيث تعدلني نفسي
 فلم أخرجنا من أرمي بالهجم قبلنا
 ولم أخرجنا من أرمي بالهجم قبلنا
 خرجنا لبيت الله نرعى شؤره
 وأجبارة زقن الوليد في العرس
 دلفنا له يوم الفناء من مبي



يُولْيُوسُ قِيلْهَاوزِن

(١٨٤٤ - ١٩١٨)

بقلم: الأستاذ انطونات شال

وقد كان فلهاوزن سعيداً بهذه التركة فيما بعد، مع راتبه الضئيل عندما أصبح استاذاً خارج الملاك في هاله. لم يكن فلهاوزن طفلاً معجزة على الإطلاق. فقد كان هزيراً متحفظاً، كما أن معلماً كتب في شهادته المدرسية أنه يفتقر إلى كل قدر من الخيال. وفي سن الخامسة عشرة انتقل إلى المدرسة الثانوية (الليسيوم) في هانوفر، ولم يكن هناك طفلاً معجزة أيضاً؛ إلى أن بدأ عام ١٨٦٢ دراسة اللاهوت في جوتنجن كما كان ينتظر من ابن القسيس آنذاك. وراح يدرس في البداية دون لذة واهتمام حقيقيين، وكان التأمل اللاهوتي والفلسفي بالنسبة له في سنواته الدراسية الأولى شيئاً مقبهاً ككل ما يفرض بالإكراه. وراح ينتظر الرجل الذي لم يكن قادراً على تعليمه بعض العلم فحسب، بل وقادراً على إرشاده أيضاً. ولم يكن هناك فائض من أمثال هؤلاء الرجال في جامعة جوتنجن وخاصة في كلية اللاهوت فيها، إلى أن وقع بين يديه في فصح عام ١٨٦٣ كتاب إيفالد حول تاريخ بني إسرائيل فلاقي في نفسه هوى شديداً حتى أنه عزم على تعلم اللغة العبرية التي لم يكن قد تعلمها حتى ذلك الحين بعد. ويقول في ذلك: «لئن لم أكن أفهم المشاكل اللاهوتية؛ ولكن ما همني كان إيفالد وكذلك الكتاب المقدس، الذي كنت ملماً بدقائقه بحكم نشأتي». ويكتب فلهاوزن في مكان آخر: «لقد أنقذني إيفالد، أنا الذي كنت أقابل بالسخرية غالباً آنذاك».

وهكذا فقد كسب هاينرش إيفالد (١٨٠٣ - ١٨٧٥)، الذي أصبح غريب الأطوار في سني عجزه، وأحد «كبار جوتنجن السبعة»، تلميذاً آخر استطاع بغريزته التي لا تخطئ أن يدرك ويستخلص لنفسه ما في تفكير إيفالد

إذا تجرأ كاتب هذه السطور، الذي لم يولد في فترة حياة يوليوس فلهاوزن، أن يكتب عن فلهاوزن في هذه المجلة، فإنه لا يفعل ذلك إلا لأنه أتيح له من خلال اتصاله الوثيق المستمر بأستاذه الجامعي جلال اثني عشر عاماً أن يعرف تفاصيل شخصية كثيرة عن سلفه في الوظيفة الجامعية وصديقه الشخصي الحميم^(١). وبهذه المعرفة حول شخص فلهاوزن التي انتقلت بالاتصال الانساني المباشر وبالمعرفة التي تتناول مؤلفاته وأعماله والتي تمت بمواصلة الاطلاع الدائب، فإنني سأحاول فيما يلي أن أرسم معالم سيرة يوليوس فلهاوزن كرائد طليعي في ميادين أبحاث الكتاب المقدس والدراسات الإسلامية والعربية.

ولد يوليوس فلهاوزن في السابع عشر من مايو عام ١٨٤٤ في مدينة هاملن في سكسونيا السفلى على نهر الفيزر وكان أبوه قسيساً لتلك البلدة الهانوفرية الريفية بحيث أتيح لابن أن يتعرع في اتصال مباشر بالشعب. وقد علق على ذلك مرة بقوله: «لئن مدين لذلك الوضع بالكثير، وربما بأفضل ما عندي».

وعاش فلهاوزن مع الطبيعة هنا كأبناء الريف، فكان يشعر مباشرة وبدون وساطة بتغير فصول السنة، ويستمتع ببداية مطاردة الأبقار والأغنام وكأنه عيد بهيج. وكان مزارع عجوز قد أحاط الصبي بحبه ورعايته الشديدين، حتى جاءه ذات يوم وأسرله بأنه أعد وصيته ثم قال له بلهجته الريفية العامية: «وقد ذكرت لك بشئ فيها أيضاً»^(٢).

(١) انظر رثاء ادمارد شفارتز Eduard Schwartz لفلهاوزن، ص ٣٢٧ من مجموع المؤلفات، المجلد الأول، برلين ١٩٣٨.

(٢) "Da stehst du ok in"



تصوير يوليوس فلهاوزن.

عام ١٨٧٢ استدعى فلهاوزن إلى جامعة غرايفسفالد كاستاذ نظامي للعهد القديم. وهناك عقد قرانه على الابنة الكبرى للكيميائي لمبرشت Limpricht. وظل زواجه السعيد بدون أطفال. وفي عام ١٨٧٦ جاء أولريش فون فيلاموفيتس Ulrich von Wilamowitz إلى غرايفسفالد، وبذلك حصل على زميل كان في مستواه. وبفضل فيلاموفيتس أثر اهتمامه باللغات الكلاسيكية كواقع مثير. وفي عام ١٨٧٤ نال فلهاوزن درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة غوتنجن بدراسة حول الفريسيين والسدوسيين. وفي هذا العمل المبكر يتضح أن صورة التاريخ اليهودي قد اتخذت لديه أشكالا معينة خاصة. وبعد ذلك بفترة قصيرة، أي عام ١٨٧٦، بدأت سلسلة الأعمال الكبيرة التي اكسبت فلهاوزن مكان القيادة في أبحاث العهد القديم والديانة الإسرائيلية. وفي دراسته حول تأليف ال-Hexateuch أي التوراة مع كتاب القضاة، فصلت الطبقات الأدبية بصورة محددة بعضها عن البعض الآخر. وكان الحديث حول اليهوديين والإيلوهيين وحول الكتاب الأصلي دائراً منذ زمن طويل، كما أن فرضية أجزاء المخطوط الأصلي وما أعقبها من تمتات كانت أمراً مقطوعاً فيه

من عظمة وعمق وكنية. وكان إيفالد لا يظل عالماً في التفاصيل الجزئية، بل كان همه الرئيسي إدراك الترابط الحيوي والعلاقات الأساسية. ومن إيفالد تعلم فلهاوزن هذا الفن الذي كان يمارسه بالنسبة لأدق المواضيع وأصعبها ببراعة لا تجارى. وبعد إنهاء دراسته اللاهوتية تجرأ فلهاوزن لابتداء من عام ١٨٦٧ على حضور الحلقات الدراسية التي كان إيفالد يعقدها عصرًا حول النصوص الشرقية. ثم حدث شقاق بين المعلم وتلميذه حول الاحتجاج الفلاني لعام ١٨٦٦، ضد ضم هانوفر إلى روسيا. فقد رفض إيفالد روسيا رفضاً باتاً، بينما رفض فلهاوزن أن يتبعه في ذلك، ولم تنقش أسباب هذا الشقاق فيما بعد أيضاً بينه وبين معلمه.

وقبل اندلاع الحرب الألمانية الفرنسية في ١٨٧٠/١٨٧١ بوقت قصير أنهى فلهاوزن سني دراسته بالتقدم إلى درجة الليسانسية في التاسع من يوليو (تموز) عام ١٨٧٠. وكشفت اطروحته مبكراً عن مواهبه وكانت تحمل العنوان اللاتيني : De gentibus et familiis Judaeis quae 1. Chron. 2,4 enumerantur أي : «حول القبائل والأسر العبرية، كما جاءت في سفر العدد ٢، ٤». وفي

من حيث الأساس. أما فلهاوزن فقد كان أول من قام بأعماله هذه بدراسات تحليلية تستند إلى النص الحى نفسه. فبغريزة العبرى كان يستخرج الجوهر الأساسى من المتن، ذلك الجوهر الذى يخضع للبرهان والدليل القاطع، ويترك الباقى، الذى لا يهم كثيراً فى الوقت الحاضر، لأولئك الذين يملكون الجلد والأناة الكافيين لتحرى أمره. وهكذا تبرزه فى الـ Pentateuch أى التوراة الطبقات الكبيرة الثلاث دون أن يصبح التقسيم شديد الدقة والتشعب بحيث يصبح بذلك غامضاً وباعثاً على الشكوك.

إن على أبحاث التاريخ الخليفة بهذا الاسم أن تستند إلى التقاليد المتوارثة التى تتناولها هذه الأبحاث. فإذا ما انتقلت هذه التقاليد المتوارثة المتسلسلة بالدرجة الأولى بوساطة تراث أدبى، فإن القضايا والمسائل الأدبية والتاريخية ترتبط بعضها ببعض الآخر وتتشابك بحيث يصعب الحل فيما بينها. وإنه لمن أخطر الأشياء على البحث التاريخى أن يظل عالقا بالمسائل الأدبية. وقد حالت طبيعة فلهاوزن الخاصة الباحثة وراء الحقائق والوقائع دون اتخاذه من نقد الـ Pentateuch أى التوراة (كتب موسى الخمسة) هدفاً نهائياً للبحث والدراسة. إذ لم يكن هدفه تأريخ الأدب ولا نقد الأدب وإنما كان التأريخ نفسه. ويتضح ما أرادته فى الحقيقة من عنوان كتابه الشهير الذى ظهر عام ١٨٧٨ : «تاريخ بنى إسرائيل، المجلد الأول» والذى ألحق وتمم فيما بعد بكتاب «مقدمة لتاريخ بنى إسرائيل» (١٨٨٣ - ١٨٨٦). وبذلك بعث عالم منسى ضائع بعثاً جديداً. وتحولت التوراة من معضلة تاريخية إلى ما كانت عليه قديماً: إلى نهج كهنوتى منبعث من الحياة والخدمة الحياة. وعرض كل ذلك بلغة واضحة شفافة كالبلور خلت من كل صقل لغوى علمى متكلف.

وبعد هذا المؤلف لم يعد فلهاوزن يتوقع أن تستدعيه كلية لاهوت لمنصب الاستاذية، وكان عليه أن يتقبل فكرة البقاء فى جامعة كانت امكانيات التطور والارتقاء محدودة فيها، والاكتفاء بالحفاظ على الأفضل والأصيل لنفسه. وادى به هذا إلى التخلي عن استاذية اللاهوت فى غرايفسفالد عام ١٨٨٢. وإذ تخلى عن كليته الخاصة، منحت كلية الفلسفة الدكتوراة الفخرية. وعينته الحكومة استاذاً خارج الملاك للغات السامية فى هاله. ولم يعجبه الحال هناك، وكان سعيداً حين استدعته بعد ثلاثة اعوام كلية اللاهوت فى جامعة ماربورغ ليصبح استاذاً نظامياً فيها. وكانت اعوام ماربورغ فى مناح كثيرة أسعد أوقاته اطلاقاً. وحين سئمت نفس فلهاوزن حقن العهد القديم

بعد حين، لم تستهوه دراسة الكتابة المسارية التى أصبحت أكثر شهرة آنذاك بقدر ما استهواه الوجه الآخر لدين يهوه وقانونه الذى انتهى أخيراً إلى يسوع المسيح، ونعنى بالطرف المقابل: الإسلام كما نشأ فى الجزيرة العربية وبالقدر الذى ظل يرتدى قالباً عربياً خالصاً فيه. وحين كان لا يزال فى غرايفسفالد ألقى مرة محاضرة عامة عن محمد. وخلال زيارته إلى إنجلترا بدعوة من ويليام روبرتسون سميث آنذاك اقتبس من مخطوط كتاب المغازى للواقدي أقدم وأرصن رواية متوارثة عن محمد فى المدينة، كما اقتبس من ابن سعد الوثائق الهامة المتعلقة بانتشار الإسلام. وفى فترة هاله وماربورغ، حيث اهتم بالعربية بالدرجة الأولى، نشأت المشاريع والأعمال الأولية لمؤلفاته التالية، أو القسم الأكبر منها على الأقل. وفى غوتنجن أنهى تاريخ الدولة العربية وانهارها (١٩٠٢) وكذلك الشروح والمقالات التى نشأت من الحواشى والتعليقات الخاصة ببحثه المذكور.

ومنذ الآن راح فلهاوزن ينكب بكل قوته واهتمامه على الشعر العربى والاحاديث والروايات العربية المتوارثة. ولم يمض وقت طويل حتى ألم بالأنساب العربية كمحدث عربى. ولم يبق عالفاً فى شبك الشعر العربى الذى ذهبت عدة مواهب ضحية له. ومن خلال اهتمامه بالعالم العربى القديم انتقل رأساً إلى صيرورة ونشوء آخر دين منزل فى أفق الكتاب المقدس. وحتى قبل ظهور النبى محمد كانت الديانة الوثنية التى تدين بها القبائل العربية والقائمة على تعدد الآلهة فى سبيلها إلى الانحلال، وكانت قد بدأت تم بينهم ديانة توحيدية غربية تجريدية، وكان قد ظهر التساؤل حول هدف الوجود على الأقل. وقد ولدت نفس تأثيرات التفرعات البرية الفطرية للمسيحية فى الولايتين الرومانيتين جزيرة العرب وفلسطين، ولدت فجأة عملية اختار غربية فى العالم العربى، كانت تصعيداً للحس الحياتى يتفوق على نمط الحياة الطبيعية المعتاد بحيث قدمت بذلك عجيبة الاختمار للإسلام. واكتفى فلهاوزن بالتأكد أولاً من تحديد ومعرفة التربة التى نشأ عليها الإسلام وبإدراك التناقض بين الديانة الساذجة التقليدية، أى الوثنية، وبين عناصر الدين الجديد.

وبينما نجعل تفاصيل فترة الرسول المكية تتوفر معلومات أكثر حول العمل التنظيمى الذى تطور ونشأ فى المدينة: فن خضم الروايات والاحاديث التى سرعان ما نمت وأصبحت كالأساطير اختار فلهاوزن الروايات المباشرة وخاصة تلك التى اشتملت عليها الوثائق التى كان السباق إلى نشرها

والتي تظهر كيف توصل النبي إلى إحلال السلام في البلاد بتوجيه طاقات الشعب الفتية المتدفقة إلى الخارج بدلا من تضاربها الواحدة ضد الأخرى. وبذلك مهد فلهاوزن من الأمام ومن الخلف الطرق التي تؤدي إلى المسألة التاريخية لنشوء الاسلام وصيرورته. ولكنه افتقد إلى الطريق الكامل الذي أدى بالعرب بعد وفاة الرسول إلى السيادة على مملكة عالمية لمدة تزيد على القرن. ولحسن الحظ، فقد بدأ تاريخ الطبري الضخم في الظهور في هذه الأعوام، وقد اقتبست فيه كتب التاريخ القديمة كل على حدة، بحيث أصبح من الممكن متابعة تطور الاحاديث والروايات والسير المتوارثة. وأدرك فلهاوزن خلافاً للحكم الذي كان سائداً أن ثروة القصص المتوارثة حول الفتوحات الكبيرة الأولى ما هي إلا مظهر خداع، ولكنها في رواياتها حول نشوء الخلافات المذهبية والفرق الكبيرة تقدم مجموعة وافرة من المعلومات المباشرة الأصيلة. ومن دراسة الروايات المتوارثة نمت بصورة عضوية فكرة عرض الخلافة الأموية. وكان تعاقب الخلافة في الاسرة الاموية ابتداء من معاوية الداهية حتى الكارثة الختامية المريعة خلية باغراء قصاص على سرد هذه الوقائع. ولكن كتابة تاريخ من نوع رفيع تحتاج إلى قطبية تولد حركة إيقاعية منتظمة في المادة التاريخية. ووجد فلهاوزن هذه القطبية في التوتر القائم بين الدولة والدين، بين سياسة الحكم التي ولدتها الدولة، والشيوعية التي يحتمها الدين. وكانت التناقضات بين عرب الجزيرة ذوى المراس الصعب والذين يصعب اخضاعهم للنظام وبني جلدتهم في سوريا وفيما بين النهرين الذين نشأوا نشأة سياسية وعسكرية بفضل انتمائهم الطويل للدولة الرومانية وللكنيسة المسيحية، لقد كانت هذه التناقضات سبباً في انهيار العروبة الحرة الأصيلة أمام استبداد العباسيين الخاضعين للتأثير الايراني. ورغم أن أمثال هذا العمل قليلة في مكتبتنا، إذ يعتبر في حجمه الضخم أروع عرض مملكه للتاريخ السياسي للاسلام حتى انهيار الدولة الأموية، إلا أنه لا يقرؤه إلا القليلون فقط.

ثم انتهت فترة ماربورغ السعيدة قبل الموعد الذي كان فلهاوزن يتمناه. فبعد وفاة پاول دى لاكارد Paul de Lagarde في ٢٢ ديسمبر ١٨٩١ استدعى فلهاوزن إلى غوتنجن كخلف له، وكان رودلف سمند Rudolf Smend يحتل مقعد الاستاذية لأبحاث العهد القديم في كلية الفلسفة. وفي غوتنجن تحول كتاب «مقدمة في تاريخ بني اسرائيل» إلى مؤلف عظيم بعنوان «التاريخ الاسرائيلي واليهودي» (١٨٩٤)، وصلت طبعاته حتى عام

١٩١٤ إلى السبع، وظهر عام ١٩٥٨ في طبعته التاسعة. وبما أن فلهاوزن عرض مؤلفه تحت هذه العبارة: «يهوه إله اسرائيل واسرائيل شعب يهوه»، فقد نال عرضه التاريخي بالمفهوم العلمى والفنى قوة تعبير لم يبلغه مؤلف قبله في حقل التاريخ القديم.

وبعد إنهاء المؤلفات العربية اتخذ فلهاوزن لنفسه مهمة تفسير الأناجيل الثلاثة الأولى، وانكب على عمله حتى انتهى منه بالسرعة التي امتاز بها. وظهرت ترجمات وتفسير أناجيل مرقس ومتى ولوقا بسرعة، الواحدة تلو الاخرى في ١٩٠٣ و ١٩٠٤. وكان من ميزات فلهاوزن أنه لم يعالج الأمر من زاوية اللغة اليونانية الكلاسيكية، التي لم تكن ستفيد كثيراً بالنسبة للعهد الجديد، وإنما جاء الأمر من زاوية اللغات السامية: فما كان آرامياً في التفكير وطريقة التعبير أدركه فوراً بمجرد سماع اليونانية المجردة من المرونة والخالية من قوة التعبير. وقد علمنا على فهم لغة الانجيل مرقس فعلا وبوجه خاص وأظهر من خلال ثغرات عديدة أن أقدم رواية متوارثة، ليس الشفوية فحسب، بل وكذلك المخطوطة، كانت آرامية الأصل.

ويوجد فلهاوزن في تفسيره للأناجيل الثلاثة الأولى علاقاتها التاريخية بعالم أفكار وأحاسيس العهد القديم. ثم أتبع ذلك بتحليل لكتاب الرؤيا وبخين حول تاريخ الحوارين. وفي عام ١٩١٤ ظهر التحليل النقدي لتاريخ الحوارين، وكانت حالته الصحية قد أعاقت طبع الكتاب عدة مرات. وفي السابغ من يناير عام ١٩١٨ أنقذت المنية يوليوس فلهاوزن من استنهاد حقيقى. إذ بلغ حداً لم يعد عنده قادراً على العمل، ومما زاد من شعوره بقسوة ذلك أن فكره ظل صافياً يقطاً حتى النهاية.

لقد كان لأعمال فلهاوزن الخاصة بالتاريخ الاسرائيلي اليهودى أبعد الأثر. ولكن كاتب سيرته كارل هاييرش بيكر بحق حين يقول عن فلهاوزن: «ولكن ربما كانت عبقرية الانجاز الفردى أقوى في حقل الدراسات العربية. ففي ميدان العهد القديم كان له سابقون، بحيث كانت الاسئلة قد أثرت هناك، وكانت المشكلة في متناول اليد، رغم أن دخوله الميدان هو الذى أدار عجلة البحث. ويختلف الأمر تماماً بالنسبة لعرضه لتاريخ الخلافة العربية. فهنا شق بقوة لا مثيل لها حتى الآن سبل سير في ادغال

◀ صحيفة من الترجمة الألمانية التي قام بها فلهاوزن لديوان الهذليين والتي لم تنشر حتى الآن.
نشكر الأستاذ أنطون شال لوضعه هذا التصوير تحت تصرفنا.

كان لا يمكن اختراقها، كما بدأ في تحويل أجزاء منها إلى منتزهات منسقة منظمة»^(٢)

وحتى ما قام بنشره من مخطوطات يدل على قدرة الناشر على الحكم التاريخي. ففي الملاحظات السابقة لترجمة الواقدي^(٣) يقارن الواقدي بابن اسحق في بحث مختصر غنى بالمضمون والفائدة. وقد يقدم الواقدي في بعض الحالات المادة الأصلية، ولكن في اغلب الحالات التي يفرق فيها الواقدي وابن اسحق، يقدم لنا الأخير ما هو أفضل وأكثر أصالة. ومع أغاني الهذيلية، التي أصدر فلهاوزن قسمها الأخير بالعربية والترجمة الألمانية عام ١٨٨٤^(٥)، وذلك تنمة للقسم الأول الذي أصدره كوزيغارتن Kosegarten عام ١٨٥٤، ألحق فلهاوزن تقييماً تاريخياً بالإضافة إلى رسائل محمد والسفارات التي وفدت عليه والتي أصدرها فيما بعد كقسم ثالث في الكراس الرابع من «دراسات وأعمال أولية» في برلين عام ١٨٨٩. وعلى وجه العموم فليس هناك ما يدعو إلى الشك في أصالة الرسائل الأخيرة. فغالبا موجه إلى قبائل بعيدة لا أهمية لها. وهي لا تتمشى وروح الرسائل التالية، ولكنها لا تظهر محمداً كنبى حازم لا يعرف الهوادة، وانما كسياسى عملى لا ينظم مراكز معتنى الاسلام حسب مبادئ عامة ثابتة، وانما حسب اتفاقات مختلفة تقريبا، وأنه يتفاوت في مطالبه وفي عروضه كثرة وقلة بتفاوت الأشخاص والظروف.

أما كتاب «بقايا الوثنية العربية، مجموعة ومفسرة» (برلين عام ١٨٨٧)، وهو أول عرض تاريخي في حقل دراسات اللغة العربية لفلهاوزن فيتعلق بتاريخ الأديان. وكل ما تملكه تقريباً من أخبار عن الوثنية العربية يعود في مرجعه إلى العهد الاسلامى، بحيث صبغت جميعها بالصبغة الإسلامية. فالوثنية تشوه باظهار الناحية السلبية عندما تتناول أموراً يرفضها الإسلام، بينما تشوه باظهار الجوانب الحسنة في الحالات التي ورث الاسلام فيها أموراً وثنية. ويحاول فلهاوزن تطهير الجذور الوثنية من الجاهليين ليتعمق في الاصول

(٢) انظر Carl Heinrich Becker, Julius Wellhausen في

Islamstudien، المجلد الثاني، لايبزغ ١٩٣٢، ص ٤٧٤-٤٨٠.

(٤) Muhammed in Medina. Das ist Vakidi's Kitab al Maghazi in verkürzter deutscher Wiedergabe, herausgegeben von Julius Wellhausen. Berlin, 1882.

(٥) هناك ترجمة ألمانية للقسم الأول موجودة على شكل مخطوط. وقد استخدمت في قاموس اللغة العربية الكلاسيكية، Wörterbuch der Klassischen Arabischen Sprache، راجع فهرس الموضوعات ص XI من الكراس الأول، فيسبادن ١٩٥٧. وترى صفحة من المخطوط إلى جانب هذا الكلام.

الوثنية الحقيقية؛ وبذلك ينفخ الحياة في الآلهة والقرايين الوثنية وفي الأعياد والأسواق العربية القديمة، وفي الايمان بالأرواح والسحر. وبذلك يلقي أضواء شديدة على دين بنى اسرائيل، ومن الجهة الأخرى يساعد على تفهم ما هو عربى في العهد القديم.

وتعالج دراسته «المدينة قبل الاسلام» (في دراسات وأعمال أولية، الكراس الرابع، القطعة الأولى، برلين ١٨٨٩) كذلك تاريخ ما قبل الاسلام، مؤكداً على الناحية السياسية أكثر من الناحية الدينية. وفي دراسته «مقدمة إلى أوائل تاريخ الاسلام» في دراسات وأعمال أولية، الكراس السادس، برلين ١٨٩٩، يتفرغ فلهاوزن للإسلام نفسه. وفي هذه المقدمة يعالج تاريخ الاسلام، باستثناء فترة محمد نفسها، حتى وقعة الجمل (٦٥٦ ميلادى). ومنذ الصفحات الأولى من هذه الدراسة تتضح المشكلة الرئيسية. إذ تتناول الأمر خيطين من الروايات المتوارثة الواحد منهما يستبعد الآخر، أحدهما سيف ويمثل الاتجاه العراقى المتحيز، والثانى ابن اسحق، والواقدي، والمدائنى وابن الكلبي ويمثلون اتجاه المدينة القديم الرشيد. وهناك روايتان لرجلى دين مسيحيين معاصرين للاحداث تؤيدان أمانة الاحاديث المدنية بالمقارنة بالاحاديث العراقية. وبالتحقق من تفوق الاحاديث المدنية يتحقق العمل الرئيسى لتأريخ هذه الفترة.

وبعد مقاتلى «الفرق الدينية السياسية المتعارضة في أوائل عهد الاسلام» و«معارك العرب والروم في عهد الأمويين» اللتين نشرتا في أبحاث وأبناء جمعية جوتنجن للعلوم عام ١٩٠١، توج فلهاوزن أعماله جميعاً بتأليف ذروة انتاجه في التاريخ الإسلامى وهو: «المملكة العربية وسقوطها» الذى نشر في برلين عام ١٩٠٢، والذى يتناول التاريخ الاسلامى حتى نهاية الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ميلادى. وهناك عرض مختصر يتناول المصادر المتوفرة لهذه الفترة وميولها وأهميتها. فأبو مهنف يمثل الاتجاه العراقى الكوفى، وهو يميل بعواطفه إلى العراق ضد سوريا، وإلى جانب على ضد الأمويين. أما أبو معشر والواقدي فيمثلان الاتجاه العلمى المدنى وهما يتابعان، على تقاليد رواة المدينة الثقات، تاريخ العهد الاموى بموضوعية علمية دون ابداء ميل عاطفى ملموس للأمويين. أما الروايات السورية التي تميل إلى الامويين فقد اندثرت، ولكن آثاراً منها بقيت محفوظة في التاريخ المسيحي. أما المدائنى فقد كان موالياً للعباسيين. ويتمسك فلهاوزن في تقييمه للمصادر بهذه الأسس، دون أن يتخلى من حين لآخر عن إصدار حكمه من حيث وجهات النظر الموضوعية. وكما يؤكد كارل هاينرش بيكر

والقوى الرئيسية للتحويل والتطور التاريخيين. وكان يسعى بنجاح إلى إدراك وعرض تضارب القوى الداخلية للحدث التاريخي.

لقد كان أستاذي إينوليمان، الذي استدعى عام ١٩١٤ إلى جامعة جوتنجن كخلف لفلهاوزن، شديد السعادة بصداقته لأكثر مستشرق في عصره. وكان لا يذكره إلا بأسمى آيات التقدير والاعجاب وكان هو الذي ألقى كلمة الجنازة عند تشييع جثمانه (٧). لقد قدر لتيودور نولدكه ويوليوس فلهاوزن أن يرفعا لواء زعامة الاستشراق في ألمانيا دون أى منازع. أما السؤال عن الأعظم بين الاثنين فقد أجاب عليه نولدكه بتواضع رقيق وثقة أكيدة بالنفس حين وصف نفسه بالموهبة، وربما بالموهبة العظيمة، بينما وصف فلهاوزن بالعبقرية نفسها (٨).

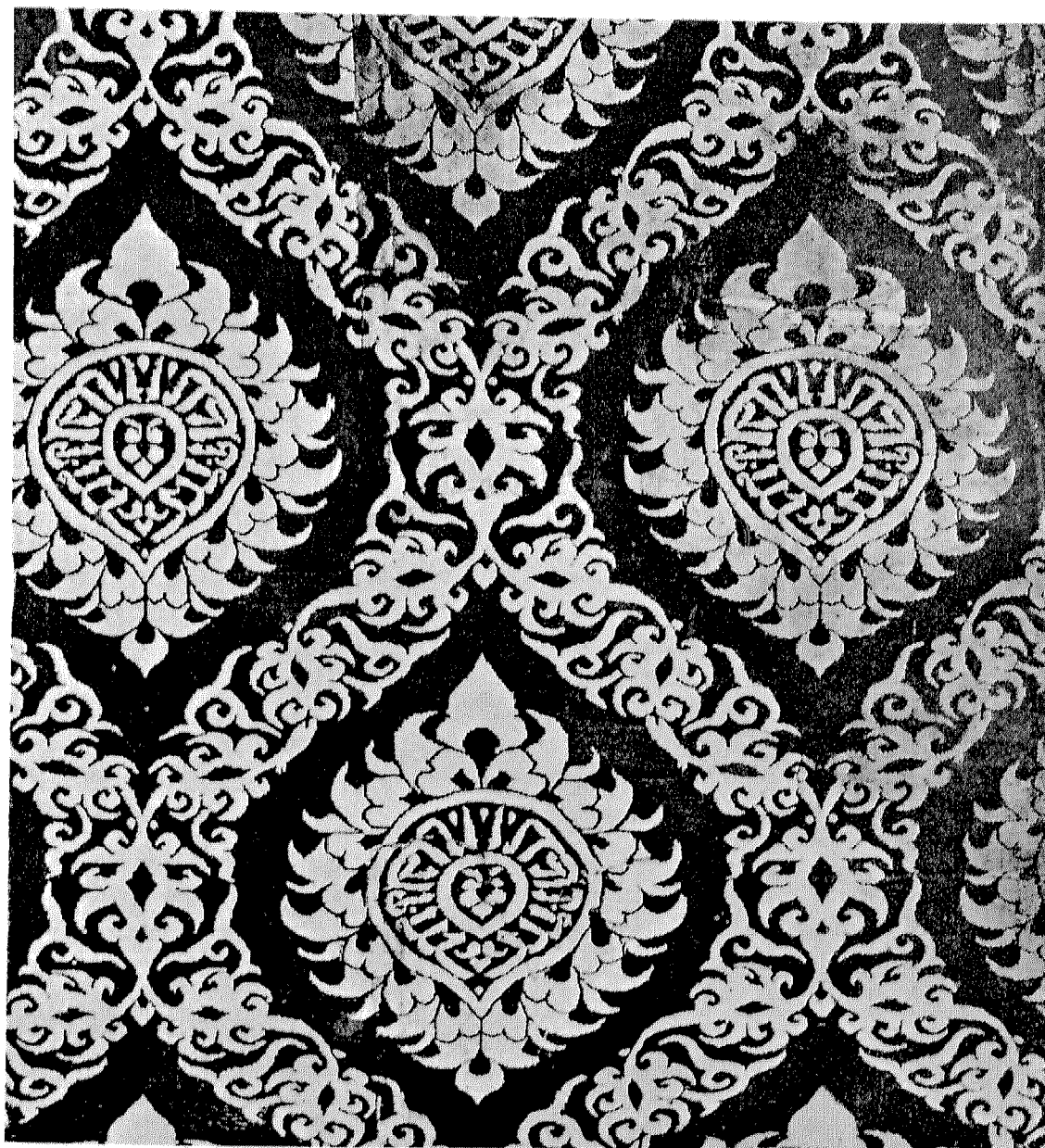
(٧) راجع هذه الكلمة الجنازية مختصرة في مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG، المجلد ١٠٦، ١٩٥٦، ص ١٨-٢٢ تحت عنوان Erinnerung an Julius Wellhausen.

(٨) كذلك إينوليمان Enno Littmann في كتابه: نصيب الألمان في علوم ودراسات الشرق الأدنى: Der deutsche Beitrag zur Wissen-schaft vom Vorderen Orient، شوتنجارت وبرلين ١٩٤٢، ص ٢٠.

في رثائه (٦)، فإن هذا الكتاب الذى لم يلق اعتباراً يذكر في بادئ الأمر «أصبح انجيلا لا غنى عنه بالنسبة لمؤرخ بواكر العهد الاسلامي».

لقد كانت طبيعة فلهاوزن الاساسية تتسم بالبساطة. فحين كان يكتب، كان يضع أمام عينيه هدف التعبير عن رأيه بأبسط شكل ممكن، فكان لا يتخلى مع ذلك عن الجلاء والوضوح. وكان يتمتع بطبع مستقل ولا يعرف الخطرسة الفكرية. وكان له خصوم كثيرون دون أن يوجد بينهم عدو شخصى واحد. وأدى صممه إلى عزله دون أن يصبح شديد الارتياب والحساسية. لقد توحدت في يوليوس فلهاوزن ميزات المؤرخ وعالم اللغات، وصفات الحدس الشديد والدقة اللغوية في كل متكامل لا مثيل له. وكان ملماً بجميع تفاصيل الفترة التاريخية التى يعالجها كالأوضاع السياسية فيها، والأحوال الاقتصادية، وطرق المسكن والمعيشة والغذاء، وأزياء الملابس والرأس، والمسائل الحقوقية والعادات. ولكن هدف أبحاثه ظل دائماً التأكيد على خطوط التطور الكبيرة والرئيسية، واكتشاف العوامل

(٦) راجع C. H. Becker, Islamstudien، المجلد الثانى، لايبزغ، ١٩٣٢، ص ٤٧٥.



تيودور نولدكه

(١٨٣٦ - ١٩٣٠)

بقلم: الأستاذ ايتو ليمتات

ولد المستشرق إينو ليمتات في أولدنبورج في ١٦/٩/١٨٧٥ ودرس في جامعات برلين وهاله وجرايفزفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كمحاضر للغات الشرقية في جامعة برنستون في الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية في جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفي جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبون عام ١٩١٦، وأخيراً في توبنجن من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً في بعثات الآثار الأمريكية إلى سوريا والحبيشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبيشة. ومن أهم مؤلفاته: «حول تفسير النقوش النوبية» (١٩٠٤)، و«تاريخ الأدب الإثيوبي» (١٩٠٧)؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبيشة» في أربعة أجزاء (١٩١٠ - ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية في اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و ١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» في ستة أجزاء (١٩٢١ - ١٩٢٨ و ١٩٥٢/١٩٥٤).

والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمية غريبة عن العالم، ولم تكن محدودة الأفق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه في سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين ممن عاشوا الأعوام الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملي في اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلاً بالتركية في فيينا، كما كان في لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التي كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أي شخص آخر من زملائه المختصين. وفي الخامسة عشرة من عمره اضطر إلى التوقف عن الدراسة مدة ربيع عام لاصابته بفقر في الدم. وعندما انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى اعفائه من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية في المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التي راح يدرسها باجتهاد تحت إشراف والده في هاربورج، وكذلك في لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفي خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوي دراسة اللغات القديمة والشرقية، غير أن شخصية الأستاذ إيفالد^(٢) الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

رغم الهدوء الذي كان يسود بوجهه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعاً حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة^(١) بطابع شخصيته المؤثرة، ولولاه لما أمكن تصور أي تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه في الثاني من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ في مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عميداً للمعهد الثانوي المتوسط. وقد خلدت المدينة ذكره بتنصيبه مواطناً فخرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين. وأسرته نولدكه واسعة الانتشار في شمالي غربي ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلدسهاميم، كان يعيش في بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه في هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا للتفاني في أداء الواجب، كما أيقظ فيه، كعالم للغات القديمة، حب علوم الأوائل، ذلك الحب الذي لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه في مطلع حياته صبيّاً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك في الألعاب الرياضية لفتية هاربورج، ويتحدث بلهجتهم، غير أن اشتراكه في ذلك لم يتسم بالحوية والقوة الكافية. وقد عوض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعمق الاحتكاك الشخصي بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة

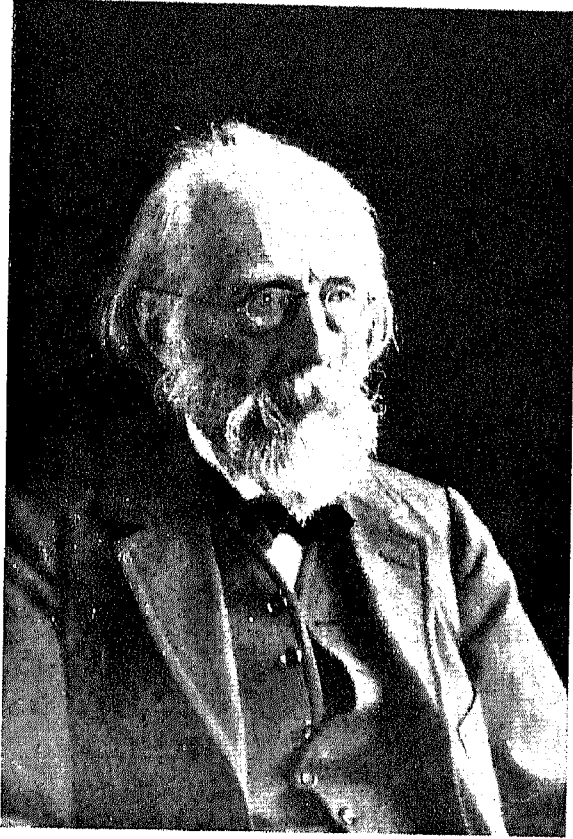
حياته، رغم أنه اضطر فيما بعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير إيفالد الرئيسى كان يكمن في أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه أكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة الفارسية والتركية، ثم تعلم السنسكريتية بإشراف الأستاذ بنفائى^(٢).

وفي عام ١٨٥٦ ظهر أول مؤلف لنولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، فطبع مؤلفه واعتبر في الوقت نفسه أطروحة الدكتوراه بحيث نال في أغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: "De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Qorani" وترجمة ذلك بالعربية: «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما نولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتائج فتوة لا يتسم بالنضوج، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز في كتابه «تاريخ القرآن» الذى نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و ١٨٦٠ أعوام «تجواله وترحاله». فقد اتجه أولاً إلى فيينا للتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار أستاذ علوم اللغة العربية الشهير فلايشر^(٣). وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأمر عينيه. وفي خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيجة في العمل المجد على المخطوطات العربية الموجودة هناك في حلقة من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك أواصر صداقة عميقة مع ميشائيل يان دى خويه^(٤)، المستشرق الهولندى العظيم. وفي تلك الأثناء أقامت أكاديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان نولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذى كان مقرراً، ليدرس في غوتا وبرلين مخطوطات كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفي ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللغة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما: الألمانى شبرنجر^(٥) والابيطالى أمارى^(٦). وما كان من الأكاديمية إلا أن ضاعفت الجائزة ووزعت المبلغ بالتساوى على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذى لم يتجاوز سنه الاثنين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز في

الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانا أكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على إتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفائز أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشرنا إليه سابقاً: «تاريخ القرآن»، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب مبكراً جميع خصائص طريقة نولدكه فى البحث؛ معرفة شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض ما لا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لا بد منه أن تسبب طريقته هذه تنافراً بينه وبين استاذة لإيفالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عاتياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذة الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث نولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بمقول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جائراً مس كرامته وحرية الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

وقد كتب عن أعماله وتجاربه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسائله إلى استاذة لإيفالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تخلو كذلك من اهتمامه الحيوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد نولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم أطروحة الكفاءة التدريسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتحلى عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن أبحاثه ودراساته العلمية. واهتم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة لهجاتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدعى إلى جامعة كيل ليخلف الأستاذ ديلمان^(٨). وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كيل، كما اعتقد نولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاكارد^(٩)، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بائسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول



*Noch einmal meinen besten Dank und meine
sollen Anerkennung Ihrer Leistung!
Ihr ergebener W. W. W. W.*

الاستاذ تيودور نولدكه قبيل وفاته.

الايان والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة»
التي يلجأ إليها حتى مؤمنون الراشدون أكثر فأكثر. «
إذ أن «عقلانيته» كانت من عود قوى، كروحه، التي
كانت تعمر في جسد ضعيف كجسده.
وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة.
إذ أن مكتبة جامعة كيل، التي كانت لا تملك من الكتب
الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا النزر القليل، حصلت
من مخلفات أدلر (١٢)، الذي توفي عام ١٨٣٤، وهو
في منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيغ -
هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب
السرياني. وكانت هذه الكتب هي الدافع إلى اهتمام
نولدكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع
الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة في كتابه «تاريخ
القرآن»، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات
السريانية، والسريانية الحديثة والمنشدية. وظهر

على كرسى الاستاذية في كيل. ولكن نولدكه لم يدعه
يعانى طويلا من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ
إيفالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغم أنه كان يود أن يكون
خليفة استاذة في منصبه العلمى، إلا أنه كتب إلى جوتنجن
قائلاً: إنه لا يعرف أحداً يرغب في التخلي من أجله
عن منصب إيفالد الشاغر أفضل من لاكارد، الذى يعتبره
واحداً من أنبغ المستشرقين وأمتن العاملين لحقاً. حقاً،
لقد كان محزناً ذلك القدر الذى كان يعد شخصياً أولئك
العظماء الثلاثة: إيفالد ولاكارد ونولدكه، الواحد منهم
عن الآخر. ومن المسلم به أن طبائعهم كانت متباينة جداً.
إذ لم يكن إيفالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء
التي تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولدكه
فكان يؤمن بحق رأى الحر لكل إنسان، وكان يناقش
الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاكارد رومانتيكياً،
كان نولدكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان
إيفالد ولاكارد ينساقان بطريقتهم العاطفية إلى إصدار أحكام
جائرة. أما نولدكه فقد كان في القضايا العلمية مفعماً
بروح العدل المجردة من العاطفة. وفي الرابع من تشرين
الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى
إيفالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات
بالكلام القاسى. وقد كانت رسالة قصيرة، وجبهة،
حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم
لاستاذة بأسلوب يملك الخواس. وكان نولدكه قبل ذلك
قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيفالد في رسائل
إلى صديقه الأبوى فيززلر (١٠)، دون أن يفقد في أى منها
أسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاكارد يهاجم
نولدكه كثيراً في مؤلفاته، هجوماً علمياً وشخصياً. ويختم
نولدكه دفاعه في وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية:
«أما أن أجيب على اتهامى بالتجنى المقصود على الحق،
فهذا ما لا تقبل به كبريائى».

وفي الفترة التي قضاهما في كيل اهتم نولدكه بالعهد القديم،
الذى كان عليه شرحه في محاضراته، كما اهتم باللغة الآرامية
بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابي: «المؤلفات المختصة
بالعهد القديم» و«أبحاث في نقد العهد القديم». وكان
الأول عرضاً شعبياً، والثاني يشكل الأساس العلمى لذلك.
ومع أن هذين الكتائين قد أصبحا قديمين في معلوماتهما
إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات قلهاوزن (١١) الطليعية
في هذا الحقل، فقد كانا عملياً ممتازين في عصرهما
كافيين لإسباغ آيات الفخار على أى عالم مختص بشئون
العهد القديم. ولم يكن نولدكه يعرف حلاً وسطاً بين

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لا يزال في كيل، بينما ظهر كتابا قواعد السريانية والماندية اثناء وجوده في ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات طليعية من الدرجة الأولى لإطلاقاً. ولتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منقياً في مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التي تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لا لفهم الأدب الآرامي الشرقي فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذي صدر فيما بعد في طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الانجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحي. وفي ربيع ١٨٧٢ استدعى نولدكه إلى الجامعة الألمانية التي انشئت آنذاك حديثاً في ستراسبورج؛ وفي خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان من المفروض أن يستدعى في عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب في عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولاييزج وجوتنجن، حيث كان مركزه في ستراسبورج ثابتاً الجذور. ومع ذلك فقد ابتهج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يخلف لاكارد. ومنذ عام ١٩٠٦ أحيل نولدكه على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار ألمانيا، أراضي الألزاس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأوا أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذي اشتهر اسمه في جميع أنحاء العالم. فغادر في ربيع ١٩٢٠ المدينة بمحض اختياره واتجه إلى كارلزروه ليقم مع ابنه هناك. وظل هنا مدة أحد عشر عاماً قضاها في يقظة فكرية تامة، إلى أن فارق الحياة في صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متمكن على كرسي الشيخوخة، بعد أن كان في اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كونراد فريدناند ماير^(١٢).

وفي ستراسبورج صدرت كتب نولدكه الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تعدد ألا يؤسس لنفسه «مدرسة» خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه عدتهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التي كان يعقدها في غرفة عمله تتناول مجموع حقول اللغات

السامية باستثناء اللغة البابلية - الآشورية والنقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان، كأستاذه إيفالد، يفرض على تلامذته مطالب عالية؛ فعملوا منه أن يكونوا أمناء في أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرهم إلى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات القلقة التي لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحججة والبرهان. وحين كان أحد التلاميذ يلحن في القراءة أو يخطئ في أحد بحور الشعر أو في الترجمة، كان جسم الاستاذ الصغير الشديد الحركة يهتز بقلق يمتد ويسر، كما كان، في الحالات الشديدة، يتعالى فجأة من مكانه المعتاد في زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتي الحاصين يشتركون في ساعاته التدريسية أيضاً. وقلما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنتظمة. ورغم السهولة والسلاسة التي كانت بهما تنصاع له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والثروة الفكرية التي كانت تتصف بها أحاديثه - إلا أنه لم يكن يحب إلقاء الخطب العامة. وقد تخلى عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم في ستراسبورج عن قصد، إذ كان الاستاذ القدير ادوارد روبس^(١٤) يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد ألف نولدكه في ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة في حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان في جوتنجن قد اشتغل على دراسة الشعر العربي القديم. وفي ستراسبورج ألف ترجمات وشروح خمس مقالات واعطى بذلك مثلاً فريداً من نوعه في وضوح التفسير، لغة ومثلاً. ولغرض الدقة في تحديد الحيوانات والنباتات التي وردت في النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وبيحته حول «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» كان أول من عالج العربية مغالبة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخي. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته التامة للمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له في جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك في ترجمته لكتاب تأريخي سرياني، وبوجه خاص في كتابه «تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين. مترجم من

Karlsruhe i. P. 22. September 53.

Sehr geehrter Herr Professor!

Besten Dank für die Übersendung Ihrer Schrift, die ich
mit großer Freude gelesen habe. Die großen Erzählungen, durch
die Sie sich in der Geschichte haben, sind mir zum Teil unbekannt, zum
Teil so gut wie gar nicht bekannt. Mit der Geschichte des Tamerlane nach der
Reise von Marco Polo's ersten Auftreten bis in die Zeit, wo das Alexander-
Epitaph alle Kräfte verlor, bin ich leider unversichert, aber
was sich die Stücke arabischer Sprache, wenn auch vielfach nicht-
arabischer Herkunft, über das Bedrukenleben und die großen
Taten der alten Muslime erzählen, das ist es, was mich
angezogen. Natürlich ist es nicht immer leicht, das
Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Ausschmückung
zu sondern. So glaube ich in der alten Überlieferung über den
Tod des kleinen Hussein ziemlich das wirklich Geschehene
zu erkennen, namentlich das die Regierung sich die große Mücke
gab, den Tod zum Aufgeben eines hoffungslosen Unternehmens
zu veranlassen, und das die Führer der Regierungstruppen des Thron-
agnaten und Kinsorgs die blühendsten Widerstände waren, wie es
die Legende darstellt. Dagegen in der Erzählung über Abdullah Wahid
so ziemlich alles unhistorisch ist, dass es den Kinsorgs sehr

من رسالة الأستاذ نولدكه إلى الدكتور رودى پارت. (يوجد امضاء نولدكه لهذا المکتوب على ص ٣٥).
نشكر الأستاذ پارت في جامعة توبنجن لتصريحه لنا بنشر هذه الرسالة، ولما افادنا به من معلومات قيمة عن تيودور نولدكه.

الفارسية القديمة بينما ترك الشعر الوجداني الفارسي الحديث
جانبا بسبب ازدواج معناه.
وقد كرس نولدكه لأبحاثه في اللغات السامية المقارنة
مؤلفين هما: «أبحاث في علم اللغات السامية» و«أبحاث
جديدة في علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة،
ومعرفة اللغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس،
وانما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية
الهامة، متمسكاً في ذلك دوماً بما هو قائم فعلاً، ومجتنباً

تاريخ الطبري ومرفق بايضاحات وتبانات تفصيلية». وقد
أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الحماسيات
القومية الإيرانية، التي قرأ من أجلها اسطورة الفردوسي
المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى
أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) وأدبها، وهي
تمتاز بالصعوبة الشديدة، وفي هذه الدراسات حدد نهائياً
وبصورة قاطعة الطابع الحقيقي لهذه اللغة، تماماً كما فعل
صديقه أندرياز (١٥). وقد أهتم كذلك بدراسة النقوش

Ham 876 = 1856/57
 87
 ZUR GRAMMATIK DES CLASSISCHEN ARABISCH.

So auch nicht hast du dich entfernt, den Paradiesgarten zu suchen' Ham. 792 v. 3 und وَاِنَّهُ اَعْلَمُ بِالضَّائِفِ مَا جَسَدُوا 'und Gott weiss am besten, welche Mühe sie in S. auf sich nahmen' Ham. 284 v. 6. Aehnlich die Voransetzung eines zu einem Participle oder Verbaladjectiv mit Artikel gehörigen Ausdrucks: وَمَا هُوَ عِنْدَ الْخَدِثِ الرَّجِيمِ 'und nicht ist es eine Geschichte, die man nur so über sie erzählt' Zuhair, Mo. 29;

فَقِيَ لَيْسَ بِالْأَرْضِ بِأَذْنِي مَعِيَّةٍ وَلَا فِي نَيْتِ الْحَيِّ بِالتَّوَلُّجِ

ein Mann, der nicht mit dem elendesten Leben zufrieden ist und sich nicht in die Häuser des Stammes eindringt' Ham. 764 v. 3; 1852 = 1853/54

وَالْحَرْبُ صَاحِبَهَا الصَّيْبُ عَلَى ثَلَاثَتِهَا الْعَزْمُ

und der Mann des Kampfes ist der Feste, der bei dessen Schwankungen energisch bleibt' Ham. 532 v. 1;

وَالْخَيْلُ أَجْوَدُهَا الشَّاهِبُ عِنْدَ كَيْفِهَا الْأَزْمُ

und das beste Rennpferd ist das wetthauende, das beim Ueberstürzen der Rosse bissig ist' Ham. 532 v. 5. Ein weiteres Beispiel Chiz. 3, 563.

Eine ungewöhnliche, aber auch den obigen Fällen ähnliche, Trennung des Zusammengehörigen ist in سَاقًا ذَاتَ قَطْرِ عَلَى الْأَصْعَابِ = عَلَى الْأَصْعَابِ سَاقًا ذَاتَ قَطْرِ, ein Bein, das von den Genossen schmerzlich vermisst wird' Agh. 21, 69, 21 = Jaq. 1, 665, 12 und ebenso mit قَطْرًا ذَاتَ قَطْرِ, das den Genossen sehr werth ist' Agh. 21, 70, 1 = Jaq. 1, 665, 13.

Ganz ungewöhnlich hart ist die Wortstellung aber in folgenden Stellen: لَوْ أَنَّ كَرْمِي صِيدَ 'würde dieser erjagt, so erhielte er meinen Werthen (= Vater) am Leben' Hudh. 2, 14;

فَمَا مِنْ قَتِي كُنَّا مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا بِهِ نَقْتِي مِنْهُمْ عَمِيدًا نَادِلًا

und es giebt unter den Menschen keinen Mann, den wir als einzigen für ihn zum Führer, der ihn ersetzen sollte, suchen möchten' Ham. 1165 v. 3. Ferner der berühmte Vers Farazdaq's

وَمَا مَثَلُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَثَلُكَ أَوْ أَمَةٍ حَيٍّ أَوْ بَعْدَ قِيَامَتِهِ

und nicht giebt es unter den Menschen einen Lebenden, ihm näherkommend, ausser einem Fürsten, dessen Muttervater sein eigener Vater ist' Wright, Op. ar. 67 und sonst citirt.

Der Angewandte ist ein mütterlicher Oheim (des Fürsten).

وَيَزْعُمُ أَنَّهُ جَهَّانُ بْنُ جَهَّانٍ
 وَبِزْعَمِهِ جَهَّانُ بْنُ جَهَّانٍ

أَنْ يَكُونَ ذُو السِّبَةِ لِحَبْلٍ أَوْ يَكُونَ ذُو السِّبَةِ لِحَبْلٍ

الفرضيات القلقة. وقد ساعد بعدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة باللهجات العربية والحشبية، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد. وفي حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها: «بحث حول تاريخ رواية الأسكندر» و«دراسة حول رواية أحيقار». وساهم كذلك في إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث في مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتنياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب. لقد كان نولدكه سيد الأسلوب العلمي والأسلوب الشعبي معاً. وإن خمسة من كتبه، وهي «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» الذي ذكرناه سابقاً، و«حياة محمد»، و«مقالات في التاريخ الفارسي»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية تراثاً عاماً للعالم المثقف.

وفي عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكاري بمجلدين، اشترك في تأليف صفحاته الألف والمائتين مستشرقون عن الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا في ذلك على مبايعته وتقديره. وفي عيد ميلاده الثمانين سرنى أن أحمل إليه في ستراسبورج كتاباً تذكاريًا من جمعيتنا (١٦) مع كلمة إهداء من السيد إيلزر (١٧) ومنى. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالي:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا من بعدنا إلى الآثار
ولكننا نحن الدين كنا مقربين إليه لا يمكن أن نفكر
بمؤلفاته وأعماله دون الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين
تعرفوا إليه عن كتب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام.
ففي كيل هناك عالم اللاهوت ليسبيوس (١٨)، واستاذ التاريخ
القديم فون كوتشمث (١٩). أما بين تلاميذه في ستراسبورج
فهناك خصوصاً ي. بارت (٢٠)، الاستاذ السابق في برلين،
وبيفان (٢١) الاستاذ الحالي في كامبردج، وبيتزولد (٢٢)
وبرونو (٢٣)، الاستاذان السابقان في هايدلبرج، وفرينكل (٢٤)
الاستاذ السابق في برسلاو، وجيورج ياكوب (٢٥)،
الاستاذ الحالي في كيل، ورودوكانا كيس (٢٦)، الاستاذ الحالي
في غراتس، وستوك هركرونيه (٢٧)، الاستاذ الحالي في لايدن،
وتوري (٢٨)، الاستاذ الحالي في نيويشن، كونكتيكت
بالولايات المتحدة الأمريكية. وكانت تربطه بالعلماء
دى خويه في لايدن، وجويدى (٢٩) في روما، وجولد-
تسيهر (٣٠) في بودابست، وراينش (٣١) في فيينا، وج

هوفان (٣٢) في كيل صداقة متينة. وكان كل من نولدكه
وفلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أهم منه نفسه بكثير.
وكان يتبادل الرأي بنشاط مع إدوارد ماير (٣٣) وإدوارد
شفارتز (٣٤). وكان يكرس وقتاً طويلاً للاتصال الخطي
مع أصدقائه وزملائه. وكان في مراسلاته أميناً منتظماً.
وإنه ليشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الهزيل
الجسم، الذي بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب
السبع مائة بحث، والذي كان يساهم بنصيب فعال في أعمال
كليته وجامعته ومصير وطنه، والذي كان قارئ صحف
نشيط، والذي كان يحضر كل محاضرة وكل تقرير علمي
للكتب الجديدة تحضيراً في غاية الدقة والتمحيص والتفصيل
كان يجد رغم كل ذلك متسعاً من الوقت لكتابة عدة آلاف
من الرسائل. وفي الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله
تبدأ غالباً بالشكوى من ضعفه الجسدي، ولكن سرعان
ما كانت تتلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم
يكن ذلك ممكناً إلا بأرادته الحديدية في رفض كل ما كان
يعوقه عن العمل. وكانت تساعد في ذلك بكل حرص
وعناية زوجه المخلصة التي احتفظت يد المنية منه عام
١٩١٦.

وكثيراً ما كان نولدكه يدعوا نفسه بالعقلاني؛ ولكنه لم يكن
كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه
بدلاً من ذلك مثلاً للعقل الإنساني السليم في الشئون العلمية؛
أما في المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصبح عاطفياً
تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكي وصوفي.
ولذا فانه لم يهتم كذلك بدراسة التصوف الشرقي، الذي
لعب من دون شك دوراً هاماً جداً في الإسلام. وقد
رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب
على كثير من المصاعب والمزعجات. وقد كان بوجه أن
يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد غمرته السعادة
الكبرى حين أظهر له تيودور مومسن (٢٥) اعترافه بعلمه،
عندما اعترض نولدكه على بعض ما جاء في بحث لمومسن
حول السياسة الرومانية في الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور نولدكه يمثل العالم الألماني من الطرز
القديم في ذرى كماله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم
معرفة التامة للحقة بنفسه، متواضعاً بكل ما في هذه
الكلمة من معنى؛ فقد كان ينفر من كل جعجعة فارغة
وغرور وحب للظهور.

لقد ولى بفقده عهد عظيم من عهود العلم البشرى.

ترجمة: محمد علي حشيشو

تعليقات.....

لمحمد علي حشيشو

(١٠) فريدرش يوليوس آوغست فيزير (F.J.A. Wieseler) عالم آثار ولغات قديمة. ولد في ألتنبزله في شمال ألمانيا في ١٨١١/١٠/١٩ وتوفي في جوتنجن في ١٨٩٢/١٢/٣. كان من تلامذة الاستاذ إيفالده، ثم مال إلى دراسة اللغات الكلاسيكية والآثار. أصبح منذ عام ١٨٥٤ استاذاً للآثار واللغات القديمة، وقام برحلات علمية كثيرة ونشر عدة أبحاث تظهر اهتمامه بالجمع بين الآثار القديمة وعلم اللغات الكلاسيكية.

(١١) يوليوس فلهاوزن (J. Wellhausen) مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي، ولد في هاملن في ١٨٤٤/٥/١٧ وتوفي في جوتنجن في ١٩١٨/١/٧، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت في غرايفزفالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات أصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الإسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام».

(١٢) يعقوب جيورج كريستيان آدلر (J. G. C. Adler) عاش بين ١٧٥٦ و ١٨٣٤، وأهتم بدراسة القرآن والكتاب المقدس.

(١٣) كونراد فريدناند ماير (Conrad Ferdinand Meyer) من أكبر شعراء سويسرا، ولد عام ١٨٢٥ وتوفي في زيوريخ عام ١٨٩٨.

(١٤) ادوارد رويس (Eduard Reuss) عالم لاهوت انجيلي ولد في ستراسبورج عام ١٨٠٤ وتوفي فيها عام ١٨٩١. أصبح استاذاً منذ ١٨٣٤ وكان من ابرز ممثلي طريقة البحث التاريخي النقدي في علم اللاهوت.

(١٥) فريدرش كارل أندرياس (Friedrich Carl Andreas) مستشرق مختص بالدراسات الإيرانية ولد عام ١٨٤٦ في باتافيا وتوفي عام ١٩٣٠ في جوتنجن. ألف عدة أبحاث حول النقوش الفارسية الوسطى وحول اللهجات الإيرانية الحديثة.

(١٦) جمعية العلوم في جوتنجن.

(١٧) لا تعرف هويته.

(١٨) ريشارد أدلبرت ليسيوس (R. A. Lipsius) عالم لاهوت انجيلي ولد في جيرا عام ١٨٣٠ وتوفي في فيينا عام ١٨٩٢. كان استاذاً في فيينا وكيل وبيننا وساهم بأبحاث هامة في تاريخ العقائد الدينية وفلسفة الدين وكذلك في تفسير العهد الجديد.

(١٩) ألفرد فون غوتشميت (Alfred von Gutschmid) باحث تاريخي ولد بالقرب من دريسدن في ١٨٣١ وتوفي في توبنجن عام ١٨٨٧. كان استاذاً منذ ١٨٦٣ في كيل وكولمبيرج وبيننا وتوبنجن. اختص بدراسة تاريخ الشرق القديم وخاصة إيران.

(٢٠) يعقوب بارت (Jakob Barth) عالم باللغات السامية من الطائفة الإسرائيلية ولد في إقليم بادن عام ١٨٥١ وتوفي في برلين عام ١٩١٤.

(٢١) أنتوني أشلي بيغان (Anthony Ashley Bevan) مستشرق وعالم لاهوت بريطاني مختص بدراسة الكتاب المقدس واللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي عام ١٩٣٣. (ان كلمة «الحالي» في مقالة الاستاذ ليتمان تشير الى ان دونت المقالة بعد وفاة نولده بقليل، اي في عام ١٩٣١).

(٢٢) كارل كريستيان إيرنست بترولد (C. C. E. Bezold) مستشرق وعالم باللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفي في هايدلبرج عام ١٩٢٢. أهتم خاصة بدراسة اللغة والحضارة الاشورية.

(١) اقتبس المقال عن خطاب تأييدي ألقاه العلامة ليتمان عام ١٩٣٠.

(٢) هاينرش إيفالده (H. Ewald)، مستشرق وعالم مختص بالعهد القديم، ولد في جوتنجن في ١٨٠٣/١١/١٦ وتوفي فيها في ١٨٧٥/٥/٤. ظل استاذاً في جامعة جوتنجن من عام ١٨٣١ الى ١٨٣٧، ثم انتقل إلى جامعة توبنجن، وعاد إلى جوتنجن ليحال على التقاعد عام ١٨٦٧ بسبب معارضته لإقسام يمين الولاء لملك بروسيا. وكان لمؤلفاته حول اللغة العبرية وتفسير العهد القديم وتاريخ بني اسرائيل أثر بارز عظيم في الدوائر العلمية المختصة بهذه الحقول.

(٣) تيسودور بنفلي (T. Benfey) عالم باللغة السنسكريتية وباحث في اللغات والأساطير الشرقية، ولد في نورتن في ١٨٠٩/١/٢٨ وتوفي في جوتنجن في ١٨٨١/٦/٢٦. كان استاذاً في جامعة جوتنجن وأسس بأبحاثه علم القصص الخرافية المقارنة.

(٤) هساينرش ليبرشت فليشير (H. L. Fleischer) مستشرق شهير ولد في شاندان في ١٨٠١/٢/٢١ وتوفي في لايبزج في ١٨٨٨/٢/١٠ حيث عين منذ ١٨٣٥ استاذاً للغات الشرقية، وبرز كأحد رواد البحث في اللغة العربية في ألمانيا. ومن أشهر أعماله إصداره تفسير البيضاوي في مجلدتين، بالإضافة إلى أبحاث كثيرة في اللغة العربية.

(٥) ميشائيل يان دي خوييه (M. J. de Goeje) من أشهر المستشرقين وعلماء العربية في هولندا. ولد في دورنبرج (في فريسلند) في ١٨٣٦/٨/١٣ وتوفي في لايدن في ١٩٠٩/٥/١٧ حيث كان استاذاً للغات الشرقية منذ ١٨٦٦. ومن مؤلفاته الأولى: «مذكرات في تاريخ وجغرافية الشرق». أما أهم أعماله فأصداره للمؤلفات الجغرافية العربية تحت عنوان: «المكتبة الجغرافية العربية» في سبع مجلدات، ويعتبر مرجعاً هاماً للجغرافيين العرب ومؤلفاتهم.

(٦) ألويس شبرنجر (Aloys Sprenger) مستشرق ولد في التيرول في ١٨١٣/٩/٣ وتوفي في هايدلبرج في ١٨٩٣/١٢/١٩. أقام منذ ١٨٤٣ في الهند وترأس من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٧ المعاهد الإسلامية العليا في كالكوتا ثم عين استاذاً للغات الشرقية في برن بسويسرا من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. من أشهر كتبه «حياة ومحمد وتعاليمه» و«طرق البريد والسفر في الشرق» و«جغرافية الجزيرة العربية القديمة».

(٧) ميشيل آماري (M. Amari) مؤرخ ومستشرق ايطالي ولد في بالرمو في ١٨٠٦/٧/٧ وتوفي في روما في ١٨٨٩/٧/١٦. قضى وقتاً طويلاً من حياته في المنفى ثم عاد عام ١٨٥٩ إلى إيطاليا وأصبح وزيراً للتعليم من ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤. أشهر لأبحاثه القيمة حول جزيرة صقلية أثناء الحكم العربي.

(٨) آرغوست ديلمان (A. Dillmann) مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي. ولد في ولاية فورتنبرج بألمانيا في ١٨٢٣/٤/٢٥ وتوفي في برلين في ١٨٩٤/٧/٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً في كيل، وعام ١٨٦٤ في غيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الإثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

(٩) پاول أنتون دي لاگارد (P. A. de Lagarde) مستشرق وفيلسوف حضاري ولد في برلين في ١٨٢٧/١١/٢ وتوفي في جوتنجن في ١٢/٢٢/١٨٩١. عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية في جوتنجن ومازال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحليله لنصوص العهد القديم. اشتهر كذلك بمقالاته السياسية التي تتناول النقد الحضاري والمشعبة بالروح القومية الرومانتكية.

(٢٣) رودلف برنوو (R. Brünnow) ولد في الولايات المتحدة من عائلة ألمانية سنة ١٨٥٨؛ ثم اتمّ تحصيل اللغات السامية وبخاصة العربية في ألمانيا؛ عين استاذاً في جامعة برنستون في الولايات المتحدة عام ١٩١٠، وتوفي هنالك سنة ١٩١٧.

(٢٤) زيجموند فريينكل (Sigmund Fraenkel) مستشرق اخص باللغات السامية ولد عام ١٨٥٥ وتوفي عام ١٩٠٩. اشتغل بدراسة اللغة الآرامية وساهم في العمل على تاريخ الطبري.

(٢٥) جيورج ياكوب (Georg Jacob) مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الإسلام ولد عام ١٨٦٢ في كولنبرغ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل وأهمّ خاصّة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبيكاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب.

(٢٦) نيكولاوس رودوكاناكيس (N. Rhodokanakis) مستشرق نمسوي ولد عام ١٨٧٦ وتوفي عام ١٩٤٥. أهمّ بدراسة اللغة العربية وآدابها وأصدر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات مع ترجمة له. وساهم كذلك في دراسة حضارة جنوب الجزيرة العربية.

(٢٧) كريستيان سنوك هيرغرونجه (Ch. Snouck Hurgronje) مستشرق هولندي ولد عام ١٨٥٧ وتوفي عام ١٩٣٦ وأهمّ بالدرجة الأولى بدراسة الفقه الإسلامي. يعتبر بالنسبة لهولند كنولده بالنسبة لألمانيا. أصبحت أبحاثه وإعماله أساساً للدراسات الإسلامية الحديثة حيث أنها قدمت نظرة تاريخية لحقوق الدين والتشريع والحضارة الإسلامية. ظل استاذاً في لايدن، مركز الاستشراق الهولندي الشهير، من ١٩٠٦ حتى ١٩٢٧.

(٢٨) تشارلز كوتلر توري (Charles Cutler Torrey) مستشرق أمريكي اخص باللغات السامية ولد عام ١٨٦٣ وعمل استاذاً في جامعة ييل من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢، وتوفي عام ١٩٥٦.

(٢٩) اجنازيو جويدى (Ignazio Guidi) مستشرق ايطالي بمستوى تيودور نولدكه ولد عام ١٨٤٤ وتوفي عام ١٩٣٥. قدم أبحاثاً هامة في علم اللغة العربية وساهم في نشر مخطوطات في التاريخ الاسلامي وعلم اللغة. (٣٠) اجناز جولدزيهر (I. Goldziher) مستشرق مجري من الطائفة الاسرائيلية ولد عام ١٨٥٠ وتوفي في بودابست عام ١٩٢١. بعد أن اتمّ دراسته في بودابست أقام مدة عام في مصر حيث كان اول اوروبي درس في الأزهر في القاهرة، مركز دراسة الفقه الاسلامي. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً في بودابست. وأهمّ في بادئ الأمر بالأبحاث المتعلقة باليهودية، إلا أنه عاد فتفرغ كلياً للدراسات الاسلامية. وأهمّ كتيبه «دراسات محمدية» مجزئين و«رسائل في علم اللغة العربية» و«محاضرات في الإسلام» و«اتجاهات تفسير القرآن».

(٣١) ليورائيش (Leo Reinisch) باحث لغوي وعالم باللغة والحضارة المصرية القديمة ولد في النمسا عام ١٨٣٢ وتوفي في ١٩١٩.

(٣٢) جيورج هوفمان (G. Hoffmann) ولد عام ١٨٤٥ وتوفي عام ١٩٣٣. خلف نولدكه في منصبه كأستاذ ومستشرق في جامعة كيل.

(٣٣) ادوارد ماير (E. Meyer) مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و ١٩٣٠.

(٣٤) ادوارد شوارتز (E. Schwartz) عالم باللغات الكلاسيكية ولد في كيل عام ١٨٥٨ وتوفي في ميونيخ عام ١٩٤٠. كان استاذاً في جوتينجن وفرايبورج وستراسبورج وميونيخ. أهمّ خاصة بالأدب الاغريقي.

(٣٥) ثيودور مومسن (Th. Mommsen) مؤرخ وحقوق كبير ولد في ١٨١٧ في شمال ألمانيا وتوفي عام ١٩٠٣ في شارلوتنبورج. اشترك عام ١٨٤٨ حين كان استاذاً في لايبزج في الحركة الديمقراطية آنذاك ففصل بسبب ذلك. ثم أصبح استاذاً في زيوريخ وبرسلاو وبرلين حيث درس التاريخ القديم. أصبح من ١٨٧٣ حتى ١٨٧٩ نائباً ليبرالياً في البرلمان البروسي، ومن ١٨٨١ حتى ١٨٨٤ عضواً في الرايخشتاغ. كان من خصوم بسمارك وله عدة مؤلفات تاريخية هامة. وحصل عام ١٩٠٢ على جائزة نوبل للأدب.

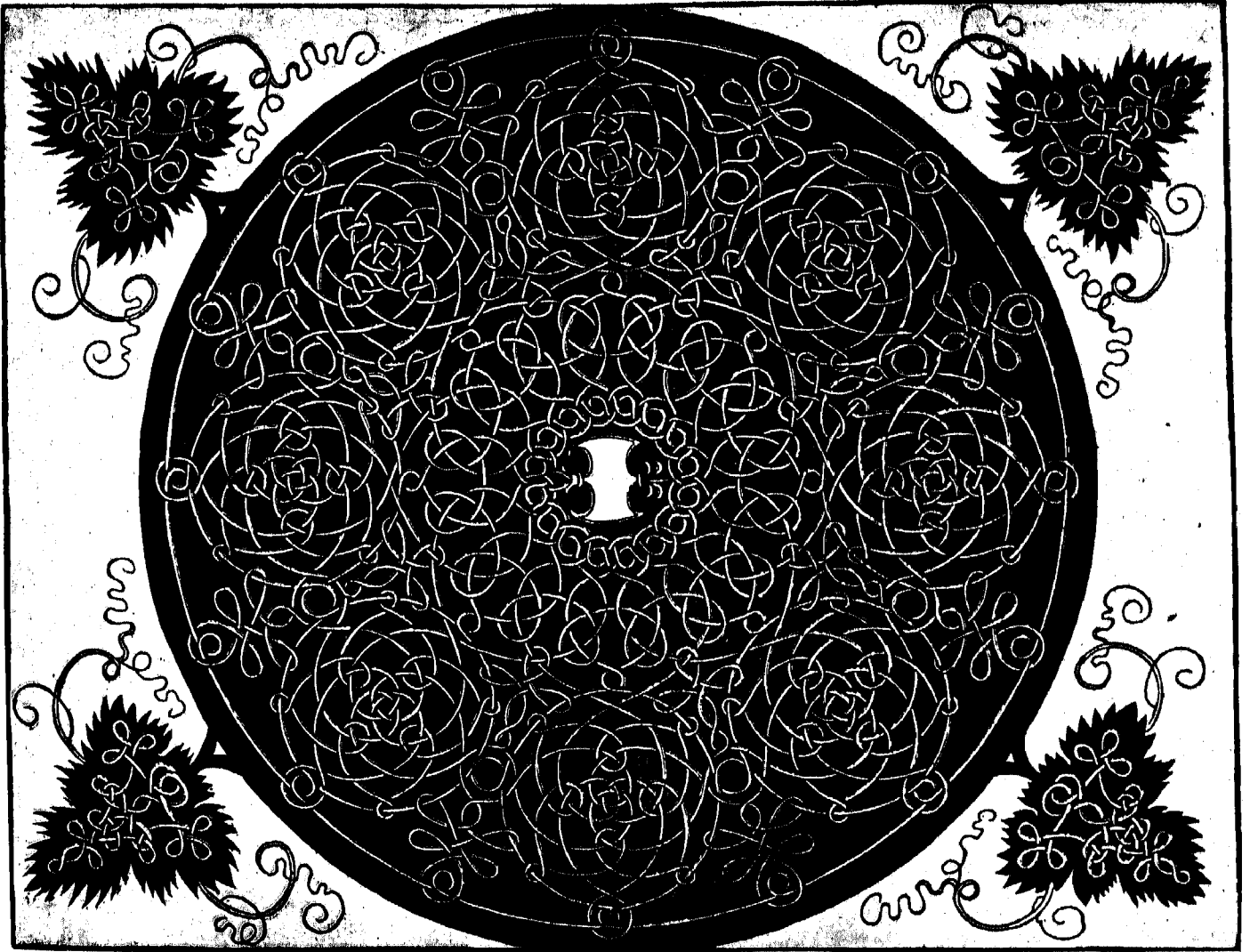
بعد اتمام هذا المقال تسلمنا نص بعض الذكريات للاستاذ الدكتور فؤاد حسنين على عن العلامة نولدكه، ويسرنا ان نضيف قسماً منها الى مقال الاستاذ لئتمان.

تيودور نولدكه (٢ مارس ١٨٣٦ - ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠)

لن انسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونخ وكنت حديث عهد بالمانيا وجامعاتها، وشاء الله ان ارى واسمع نعي هذا المستشرق العظيم في معهد من اكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من اشهر رجالات المانيا الذين كرسوا حياتهم لخدمة الشرق والشرقيين، ونولدكه لم يكن غريباً على، وانا الذي شغفت بدراسة الشرق العربي، لغاته وآدابه، حضاراته ودياناته، قديماً وحديثاً، فكان لزاماً على ان اتعرف على آثار هذا العلامة كلما اتحت لي فرصة. وقد عرفته في مصر لا عن طريق المصادر الالمانية، فقد كنت اجهل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزيين عالمين، وهما دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس، وذلك لان المستشرقين الانجليز اسندوا اليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين في المرجعين السابقين.

في ذلك اليوم دخل (فريتز هومل) العالم المتواضع والشيخ الذي نيف على السبعين قاعة البحث عابسا مضطرباً، لقد كان اليوم عبوساً قمططيراً، وما كاد يصل الى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب «مات نولدكه» واستطرد في الحديث عنه وراثته.

مات زعم المستشرقين الذي وان كان في العالم القديم يذكر في الحديد لا ينكر. مات نولدكه الذي رفع لواء الاستشراق عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذي كان اما في فرد واجيالاً في شخص. نولدكه هو المستشرق الذي خلق علوماً لم تكن معروفة من قبل، وهجم على اعوص المشكلات فحلها لنا ووضع ايدينا على حقيقتها، فهو لم يمت الا بعد ان ترك للعالم اربعة وعشرين سفراً، واكثر من سبعمائة بحث في الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.



البرشت دورر: عقدة ثمانية.

.... والآن احب ان اضع بين يدي القارئ صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته، وهذه الصورة ليست من عمل ريشتي او من وحي خيالي بل هي حقيقة مسجلة في مقدسة الطبعة الثانية من الجزء الاول من كتابه في (تاريخ القرآن) الذي نشره (فريدريش شواللي). فقد ارسل ناشر هذا الكتاب الى (نولدكه) عام ١٨٩٨ بخطاب يرغب فيه اليه ان يعيد نشر هذا الكتاب او يقترح عليه عالما آخر يراه اهلا للقيام بهذه المهمة، فاجابه (نولدكه) «.... فرفضت انا لاسباب عديدة وذلك لانه لم يكن في استطاعتي ان اعيد نشر هذا الكتاب في ثوبه الجديد الذي قد يرضيني، لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زونا طويلا تلميذي وصديقي الاستاذ (شواللي) الذي اظهر ارياحه واستعداده لتادية هذه الرسالة. فقد جعل من هذا الكتاب الذي الفته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المقتضيات العلمية الحديثة، اقول الى حد ما وذلك لان آثار تهوّر الشباب لا يمكن محوها جميعها الا باعادة تأليف كتاب جديد، وكثير من المسائل التي كنت اعتقد قليلا او كثيرا بصحتها، تبينت لي فيما بعد انها غير مؤكدة...»

فؤاد حسنين على

جيورج ياكوب

(١٨٦٢ - ١٩٣٧)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

الذين اشتغلوا، على ما قال، «بوضع اللغات السامية في عصر الجليلد». أما بالنسبة له فكانت تصح هذه الحقيقة : «إن مقياس علم خليك بالحياة يتوقف دوماً على مدى ما يقدمه هذا العلم بطريق غير مباشر من فائدة للمجال العملي أيضاً» - كما كتب عام ١٩١٧.

ولد ياكوب في السادس والعشرين من مايو عام ١٨٦٢ في مدينة كينكزبيرغ Königsberg، وفقد والده في سن مبكرة. والغالب أنه ظل يعيش فيما بعد مع أمه وأخواته دون أن يفكر في الزواج. وبدأ ككثير من معاصريه بدراسة علم اللاهوت والاستشراق؛ ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية وعلم أخلاق الشعوب بدلاً من اللاهوت. وكان تيودور نولدكه استاذاه في ستراسبورغ؛ وعلى يدي هاينريش ليبيرشت فلايشر، العالم النحوى الكبير، تعمق في دراسة النحو العربى. ثم نال الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٨٨٧ ببحث رسم معالم اهتماماته المستقبلية وهو: «تجارة العرب الشمالية البلطيقية». وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التجارية التي كان يشتريها العرب من البلاد الشمالية البلطيقية، وذكر في ذلك بوجه خاص حجر الكهرباء الذى كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعرب. ثم اهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا في صيغ دائمة التجدد؛ ومن أخصب أعماله المقالات التي نشرها حول «رواية عربى عن فولدا وشليزفيج وزوست وبادربورن ومدن ألمانية أخرى»، التي نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠، ثم وسعت وزيد عليها وأعيد طبعها عدة مرات حتى عام ١٩٢٧، وما زالت حتى اليوم عظيمة الأهمية لدراسة الاوضاع الألمانية في العصر الوسيط.

ومن بين هذه الدراسات الشرقية - الغربية أيضاً محاضراته

توفى المستشرق الكبير جيورج ياكوب حينما بدأت أتعلم العربية، ومع ذلك كانت تربطني به أكثر من علاقة روحية : فعلى يديه نال أستاذى الأول في اللغات الإسلامية، هانس إيلنبرج Hans Ellenberg، درجة الدكتوراه برسالة أعدها عن الفنون والصناعات عند القزويني؛ وعلى يديه أيضاً نال أستاذى الذى حضرت عليه الدكتوراه، ريشارد هارتمان Richard Hartmann، درجة الأهلية للتدريس في رحاب الجامعة. ومن هنا أستطيع لنفسى أن أدون نبذة عن حياة وأعمال هذا المستشرق العالم الذى كان له الفضل الأكبر في شق آفاق جديدة كل الجدة على مناهج الدراسات الشرقية في ألمانيا حتى مطلع القرن. وإنى لأستند في هذا المقال على دراسة نشرها «إنوليتان» في دورية جماعة المستشرقين الألمان بمناسبة ذكرى وفاة صديقه ورفيق علمه.

وحتى نتفهم موقف ياكوب لا بد أن نعلم أن الثقافة الاغريقية والرومانية كانت لا تزال المعيار الحضارى الوحيد المعترف به في ألمانيا حتى أوائل هذا القرن، وكان ماعداه لا يستحق العناية!

كما كان يوجد بين المستشرقين تيار لا يهتم إلا بالأبحاث والدراسات اللغوية البحتة، دون التفكير بالانجازات الحضارية للإسلام (وكما كان يقال «فقد كانت عائشة بالنسبة لهم لا تتعدى كونها اسم فاعل مؤنث من الفعل الثلاثى عاش») وكان علماء اللغات السامية يحاولون أكثر فأكثر سبر أغوار طبقات تاريخ اللغات السامية. وتصدى ياكوب لهذه الاتجاهين بكل ما لديه من طاقة؛ لا بل إنه مضى في مقاومته إلى حد نشر مقالة له بعنوان «التعصب للكلاسيكية على نهج حفارى قبور الثقافة الألمانية»، ولم يتورع عن استخدام أقسى العبارات ضد بعض زملائه

حول «العناصر الثقافية الشرقية في الغرب» عام ١٩٠٢، وكذلك كتابه الذى صدر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والذى يرجع ويشار إليه أكثر من جميع مؤلفاته الأخرى وهو: «تأثير الشرق على الغرب»، وخاصة خلال العصر الوسيط». وعلى هذا الكتاب تستند فى كثير أو قليل جميع الأبحاث والمؤلفات التالية التى تعالج موضوع تأثيرات الشرق الحضارية على الغرب.

وبعد أن حصل ياكوب على درجة الدكتوراه فى لايبزغ، راح يعمل فترة من الزمن فى مكتبة الدولة فى برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس فى السلك الجامعى فى كرايفزفالد تحت إشراف ألفارد، مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية فى برلين والعالم الصليبي الممتاز بالشعر العربى القديم وتاريخ العهود الإسلامية الأولى. وقد يكون من المحتمل أنه اتجه بتأثير من ألفارد إلى دراسة الشعر العربى القديم؛ وتلا بحثه «دراسات للشعراء العرب» عام ١٨٩٣ مؤلف يعتبر أساسياً فى ميدانه وهو «الحياة البدوية فى ضوء الشعر الجاهلى». ويقدم هذا العمل الذى وسع وغير وزيد عليه عدة مرات لوناً جديداً تماماً فى الاستشراق الألمانى (ولذا فقد قام عدد من زملائه بتقريضه ونقده بتجريح لا رحمة فيه) إذ حاول ياكوب فى هذا البحث لأول مرة أن يستخرج من الشعر الجاهلى معلومات عن طريقة حياة البدو ومعيشتهم. فبالنسبة له، لم يكن الشعر الجاهلى كنزاً للكلمات النادرة والأشكال النحوية الغريبة، وإنما مرآة تنعكس فيها طريقة حياة حلقة حضارية قد تبدو لأول وهلة شديدة الغرابة بالنسبة لنا. وبطريقة مشابهة قام عام ١٩٠٦ بوصف خجارة فارسية مع كل ملحقاتها فى العصر الوسيط كما تبدو من خلال أشعار حافظ الغزلية. وحتى إذا أكد اليوم بشكل أقوى على الطابع الثابت الرتيب للشعر الجاهلى بحيث لا يعتبر انعكاساً للواقع بالقدر الذى فعله ياكوب، فإن مما لا شك فيه أنه من خلال الوصف والتعابير التى يزخر بها الشعر الجاهلى - كوصف مواقع النيران، والخيام وتوابعها وأثاثها، وأحمال قوافل الجمال - يمكن اكتساب عدة تفاصيل قيمة، ذات أهمية قصوى بالنسبة لعلم أخلاق الشعوب. وبعد كتاب «حياة البدو فى الجاهلية» عام ١٨٩٧، تلت فى فترة متأخرة دراسات عن الشنفرى الذى حاول ياكوب أن يقلد لاميته بالشعر الألمانى - ولكنه بطبيعة الحال لم يلق النجاح الذى حققه روكرت من قبله. ومع ذلك فكثيراً ما كان ياكوب يهتم بنظم قصائد يقلد فيها الشعر الشرقى، سواء كان عربياً أم فارسياً أم تركياً.

ومن كرايفزفالد اتاحت لياكوب الفرصة للسفر إلى تركيا، حيث استيقظ اهتمامه بالتركية، وكتب لهذا الاهتمام أن يعطى ثماراً خصبة فيما بعد. وفى عام ١٨٩٦ ذهب كمدرس جامعى إلى هاله Halle وأصبح هناك فى الوقت نفسه أميناً لمكتبة جمعية المستشرقين الألمانية. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحتل كرسيًا جامعيًا فى إيرلانجن، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى كيل حيث بقى يعمل فيها حتى وفاته.

وفى استانبول اتاحت لياكوب فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان، وكانت تركيا تمتاز آنذاك بهذه الألعاب. وبدأ هذا الفن لياكوب، العارف الخبير بالفن المسرحى الأوروبى والمعجب الكبير بمسرحيات شيكسبير، ذا سحر خاص، بحيث بدأ يهتم فى بحث تاريخ ألعاب الظل، التى فتنته كثيراً، لأنها لم تقتصر على بلد واحد بل شملت الشرق بطوله وعرضه. أما امتيازه الخاص فى هذا الميدان فهو اكتشافه لألعاب ظل للمؤلف المصرى ابن دانيال (المتوفى عام ١٣١١)، الذى قدم عام ١٩٠١ أولى المعلومات عنه. وكان يدرس ويفحص المخطوطات القليلة الخاصة بهذا النوع من الأدب بكل دقة وعناية، وكان يعيد الدراسة والتدقيق دوماً، رغم أن المتن كان يحتوى على صعوبات يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها. واستطاع عام ١٩١٠ أن ينشر عينات متفرقة من هذه الأعمال وأن يعرف العالم على «طيف الخيال». وفى العام نفسه كتب استناداً إلى ما كانت تحتويه تلك النصوص حول «سوق سنوية مصرية فى القرن الثالث عشر». وإذ أدرك ياكوب أن ألعاب الظل أو طيف الخيال فى البلاد الإسلامية لا يمكن أن توجد دون نماذج جاءت من الشرق الأقصى، فقد راح يدرس تقاليد الهند والشرق الأقصى فى هذا الميدان، وتعلم فى سن متقدمة السنسكريتية والصينية، ليتمكن من متابعة دراسة هذا الفن. وكان أول عمل كبير وشامل نجم عن دراساته الطويلة كتابه «تاريخ مسرح ألعاب طيف الخيال فى الشرق والغرب» الذى صدر عام ١٩٢٥ فى طبعة ثانية موسعة. وبالإشتراك مع پاول كاله Paul Kahle استمر على دراسة وبحث أعمال ابن دانيال وساهم فى تأليف مقالات لأبحاث كاله عن ألعاب طيف الخيال العربية، كما أصدر عام ١٩٣٠ مؤلفاً عن ألعاب الظل الهندية.

وكما واجه جيورج ياكوب مسألة مسرح الظل لأول مرة فى تركيا، فقد كرس لمسرح الطيف التركى كتاباً خاصاً عرف الألمان فيه لأول مرة على قصص كاراغوز الهزلية الشعبية المحبوبة - وهو عمل تابعه هلموت ريتير بطريقة



جورج ياكوب

نموذجية. ولكي يتصور الانسان مدى الجهد المبذول في هذا الانجاز، فلا بد له أن يفكر بأن الدراسات التركية قلما كانت تجد مكاناً لها في حقول العلم في الجامعات الألمانية في مطلع القرن الحالى. وإنه لعمل ياكوب الكبير وامتيازه الخاص أن يتمكن من ايقاظ الاهتمام بتركيا العثمانية وجميع اوجه ثقافتها. وهنا - كما كان الأمر في العربية - اتسع ميدان اهتماماته اتساعاً مدهشاً؛ فقد كان اهتمامه بالغاً بالنحو التركى وبضرورة إعداد كتاب مساعد لتدريس اللغة العثمانية، وقد تعلمنا من كتابه المساعد - بين كتب أخرى - قراءة التمارين الأولى باللغة التركية العثمانية. إذ يضم كتابه قصصاً خرافية واشعاراً صوفية ونماذج باللهجات العامية ونصوصاً كلاسيكية بحيث يقدم للمبتدئ عرضاً جيداً ومختارات طريفة من الأدب التركى. وكما هو الحال في كل أعماله فقد ظهر هنا أيضاً حب

جورج ياكوب لكل ما هو شعبى - إذ كان أول من شرح وحلل خطب القصاصين والمداحين الأتراك. ومن صفاته المميزة أنه لم يتردد في الحرب العالمية الأولى، عندما كانت ألمانيا وتركيا تحاربان جنباً إلى جنب، لم يتردد في تأليف معجم مساعد لرجال البحرية والمرضات، حيث كان في تلك الأعوام منهمكاً إلى حد بعيد في الدراسات التركية عموماً. ومع ذلك فانه لم يهمل العربية قطعاً بل إنه كان يحاضر كذلك في مسائل تتعلق بالعهد القديم .. ومن أعماله الكبيرة أيضاً احياء «المكتبة التركية»، وهى تلك المجموعة من النصوص والدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام الحضارى والتي تشتمل على أكثر من خمس وعشرين دراسة هامة منذ عام ١٩٠٤. وقد نشرها وحده أولاً، ثم اشترك في ذلك مع المستشرق السويسرى رودلف تشودى R. Tschudi فيما بعد، واخيراً معه ومع المستشرق الكيلى

قد تأثر بالقوس الإسلامى (كما يظهر مثلاً فى مسجد ابن طولون فى القاهرة). وإذا لم يعد ياكوب بنفسه إلى تناول هذا الحقل فيما بعد إلا نادراً — وكان خبيراً ممتازاً بالطنافس الفارسية — فقد كان يشجع كثيراً من طلابه على الاهتمام بمسائل الصنعة اليدوية، كما يرد ذكرها وتعرض فى المصادر الإسلامية. فقد كان ياكوب نفسه يتمتع بطبيعة فنية قوية، وكان «رومانسياً ناقدًا»، كما وصفه كارل هاينريش بيكر فى مقالته التقديرية الجميلة بمناسبة ذكرى عيد ميلاد ياكوب الخامس والسبعين. وقاده ذلك الميل الفنى كذلك إلى موضوع يتعدى حدود ألعاب الطيف والأساطير — إلى موضوع الأحلام: فدراساته حول الأساطير والأحلام التى صدرت عام ١٩٢٣ — ١٩٢٤ فى هانوفر تعطى الدليل على مدى انجذابه لهذا الحقل الجانبى ما بين الواقع الملموس وما فوق العالم الحسى — وكثيراً ما فسر المفكرون والمؤلفون الإسلاميون لعبة طيف الخيال كرمز لعمل اللاعب الخفى، الله، على ما يقول ابن الفارض.

لقد كان كل ما كتبه ياكوب متجهاً إلى الحياة، فى جميع مظاهرها وأشكالها المختلفة. وسواء أعالج مؤلفات العرب الجغرافية، أم كتب حول ما نشر حديثاً عن فلسطين، وسواء أدرس النحو التركى، أم نشر أشعار سلطانين تركيين، وسواء أترجم اشعاراً صوفية فارسية إلى الشعر الألمانى، أم استخرج منها معلومات عن الحياة فى إيران فى العصر الوسيط — كان فى كل ذلك يبدى اهتمامه الدائم بكل ما هو نابض بالحياة. ومع أنه لم يسافر كثيراً، وكان يستقى شروحه فى الغالب من اختباراته الخاصة، إلا أن استعداده اللغوى الممتاز كان يعطيه سنداً وقوة كبيرين هنا. وقد دعاه بيكر فى مقالته التقديرية المذكورة أعلاه «بذى الفتوة المنفرد فى ميدان العلم» — رجل لم يكن من السهل دوماً الاتفاق والتعامل معه، إذ كان يعرب عن آرائه فى الغالب بخشونة ودون أى مراعاة؛ ولكن بيكر أكد كذلك على أن ياكوب كان يتمتع بمقدرة نادرة على رؤية العلاقات التاريخية الكبيرة وعلى الانغماس فى تفشيف فى استقصاء وبحت التفاصيل بكل جهد وعناية. ولم يشتمل افقه على العالم الشرقى من الصين عبر الهند إلى البلاد الإسلامية فحسب، بل تناول كذلك دراسة الفولكلور والأدب الأوروبى؛ ولكى يدعم دراساته جيداً فقد كان يهتم كذلك بالعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بها. وكان يعيد النظر دوماً على دراساته ويعيد العمل عليها، ويكيفها إلى أحدث مستوى علمى، ولكن مما يؤسف له

اللاحق تيودور منزل Th. Menzel، الذى تابع أعمال ياكوب حول المسرح التركى بنجاح كبير. وفى هذه السلسلة ظهر ذلك الكتاب الذى عرف الألمان لأول مرة على إحدى الطرق الإسلامية؛ ونعنى به دراسته للطريقة البكتاشية (١٩٠٨). ويعتبر هذا الكتاب عملاً طليعياً حقيقياً، إذ لم يكن أحد يعرف حتى ذلك الحين أى شىء عن تكوين الطرق الإسلامية وتاريخها؛ والبكتاشية بالذات — التى لعبت فى تركيا دوراً كبيراً جداً نظراً لارتباطها بالانكشارية — تتمتع بأهمية كبرى فى ميدان علم أخلاق الشعوب وكذلك فى دراسة تاريخ الأديان، فقد بقيت فيها عدة عناصر غير إسلامية، كما أنها تحمل معالم شيعية كثيرة. وحتى اليوم يعرف كل تركى القصص الكثيرة التى تدور حول إجابات شيوخ البكتاشية التى تمتاز بحضور البدئية وسرعة الخاطر. وبهذا العمل افتتح ياكوب دراسة التصوف الشعبى فى الإسلام؛ وإن قيامه بعد ذلك ببضعة أعوام بضم كتاب ريشارد هارتمان البديع «عرض القشبرى للتصوف» إلى المكتبة التركية، ليظهر مدى اهتمامه أيضاً بالتعريف بالأسس النظرية للتصوف الإسلامى فى قالب واضح سهل القراءة والفهم فى أوروبا.

وكما أبدى ياكوب اهتمامه منذ دراساته الأولى بالقضايا الموضوعية بعينها رافضاً أى رأى لا مبرر له حول المسائل اللغوية البحتة، فقد جذبه الفن أيضاً بجميع أشكاله — ابتداء من الفن المسرحى، الذى سبق أن ذكرناه أعلاه، حتى فن العارة والبناء. وما لاشك فيه أيضاً أن المتعة الفنية الخالصة قد لعبت دوراً هاماً كذلك فى انشغاله الطويل بدراسة هياكل ورسوم ألعاب الطيف الصينية. وكان الفن الإسلامى فى تلك الأعوام لا يزال ميداناً مجهولاً إلى حد بعيد، بحيث لم يحصل إلا تحت إدارة فيلهلم فون بوده W. v. Bode على مكان فى معرض الفنون العام لمتاحف برلين. ولم يبدأ التفهم الجديد للفن الإسلامى فى ألمانيا إلا بعد افتتاح المعرض الكبير لروائع أعمال الفن الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩١٠. وكان ياكوب أيضاً هو الذى اشتغل فى البيان الإيضاحى على الفن السلجوقى والفن التركى والفن الإسلامى فى الهند — وكان كل من هذه الموضوعات جديداً تماماً ولم يخضه أحد بعد عملياً. ولكن هذا العالم الذى لا يعرف الكلل كان قبل ذلك قد نشر، فيما يتعلق بدراساته عن العلاقات الثقافية بين الإسلام وأوروبا، كان قد نشر عام ١٩٠٥ دراسة حول انتقال الأقواس المدببة والأقواس الشبيهة بمحذوة الحصان فى فن العارة، ويعتبر أمراً محتملاً أن القوس المدبب الغوطى

Kiel 16. 10. 1931

In dr. 118 I.

Herrn Professor Dr. Lichtenstadter,

Gute Nacht! Ich habe mich für Ihre Arbeit und Ihren
freundlichen Brief herzlich bedankt, da ich mich sehr
gern informieren will. Das Lichtenstadter hat mich zu
jungen Jahren so viel Freudezeit eingebracht, daß
ich oft bedauere habe, es geschrieben zu haben. Gütte
ist wohl Ihnen ein Liez über den jüdischen Antisemitismus
zu schreiben oder irgendwelchen jüdischen Antisemitismus, so fällt
mir das größte Hindernis des jüdischen Antisemitismus
und jüdischen Antisemitismus, die mich sehr interessieren können,
daß jüdische und logische jüdische Entwicklung sich einmal
decken, was jüdisch jüdisch ist, aber dann war
mit nicht gedacht. So bin ich über das jüdische
jüdische und jüdische jüdische

رسالة بعث بها جيورج ياكوب إلى الدكتور إله ليشتنشتاير Ilse Lichtenstadter، وكانت قد بعثت إليه ببحثها الذي حصلت به على الدكتوراه وعنوانه
«النسيب في الشعر العربي القديم». وفي هذه الرسالة يكيّل ياكوب اللعنة على عالم اللغات السامية بريتوريوس Prätorius (توفي ١٩٢٧) ملقباً إياه
بـ «أكبر تيس أخرق في القارة».

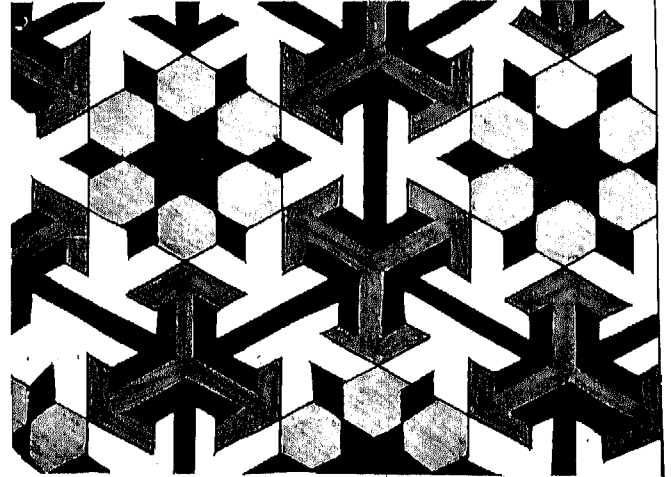
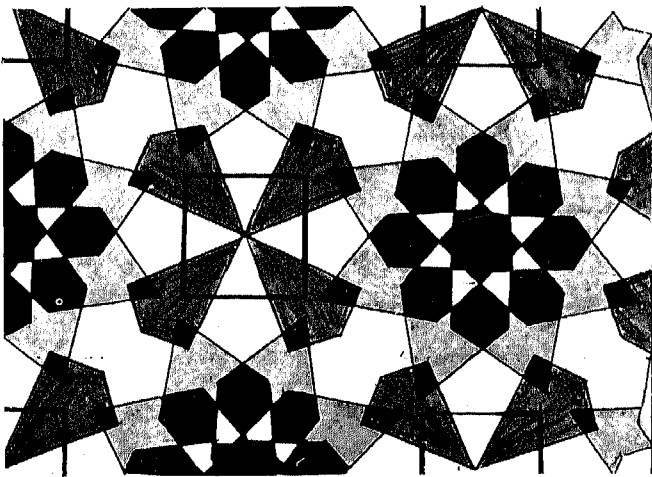
وتبدأ الحكاية الاسطورية صيرورتها بنقل تجربة الحلم إلى حالة الوعي.»

ألا يشبه بذلك الصوفيين الاسلاميين الذين يولون الاحلام دوراً كبيراً والذين كانوا دوماً يشيرون إلى الحد المتأرجح بين العالمين؟ وبهذه الصورة ينطق دوماً الشاعر التركي كشتري، الذي يرجع إلى غزله في لعب الكارا غوز منذ زمن طويل لتفسير اللعب تفسيراً صوفياً (وكان ياكوب في الحقيقة أول من درس ألعاب الكارا غوز دراسة علمية)؛ وبهذه الصورة أيضاً ينطق أعظم مغن في التصوف العربي بطريقته الخاصة التي لا يمكن تقليدها. ونعني به ابن الفارض:

فطيف خيال الظل يهدي إليك في
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
تري صور الأشياء تجلى عليك من
وراء حجاب اللبس في كل خلقه.

ترجمة: محمد علي حشيش

أنه كان يوزع أغلب نشراته العلمية في آخر سني حياته في عدد محدود من النسخ المطبوعة بالآلة الكاتبة. وكانت صفة الشمول والكلية التي امتاز بها تمتد لتتناول أبعد الميادين وأقصاها، ونشعر في جميع أعماله بطابع شخصيته القوية العنيدة. ولقد شق الطريق إلى دراسة الشرق الإسلامي، دراسة تمتاز بطابع تاريخي حضاري وكذلك فولكلوري، مكافحاً في ذلك ضد العقلية اللغوية الضيقة القديمة، وكذلك ضد الاتجاه المتحجر في الدراسات السامية في عصره، ويمكن أن نلمس مدى نفوذه وأثره العلمي في مؤلفات كثيرين من أصدقائه وتلامذته وأعمالهم. ولعله كانت تكمن وراء جميع أعماله الرغبة «في التفهم العلمي لصيرورة الشعر»، أو بعبارة أخرى، تخطى ذلك الحد الذي يفصل بين العلم والفن. فقد كان ذلك الميدان الجانبي الجذاب المثير، حقل أبحاثه الخاص. وما أجمل قوله في كتابه «الاساطير والأحلام»: «إن الحلم هو شعر لا واع. والحلم يبدع مسرحية، تظهر فيها شخصيات يفرض عليها أدوارها.



أوغست فيشر

(١٨٦٥ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

جعل معهدنا الشرقى مركزاً لتدريس فقه اللغة العربية وبالخاصة النحو العربى ، فقد اهتم بمسائل النحو المجرد وكان صاحب علم غزير باحثاً فى المشاكل اللغوية والنحوية ولاشك انه استحق ان يدعوه زملائه أعلم المستشرقين وشيوخهم فى الغرب كله بعد وفاة أستاذه الفرنسى حتى اننا نعتز على ثمار علمه فى التصحيحات العديدة التى أضافها الى قسم كبير من المصنفات فى مجال اللغة العربية وآدابها سواء أكانت قواميس ام كتب تأريخية ، ولكنه مما يثير الأسف انه مع تأليفه الملاحظات القيمة والحواشى المفيدة التى لاصحها العدد فهو لم يجمع نتائج أبحاثه ومحصول أعمال سلفه العظمى فى كتاب شامل لفقه النحو واللغة العربية ، ومع ذلك يعد فلايشر أستاذاً لكبار المستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إذ كان يحضر دروسه الطلاب من الأقاليم السبعة وأصبح معهد لايبزيغ مثالا نموذجيا لدرس العربية حسب النهج العلمى فى الغرب .

أما أستاذنا أوغوست فيشر فأخذ كثيراً من علمه عن تلميذ لفلايشر يدعى هاينريش توربكه H. Thorbecke الذى توفى فى سنة وفاة أستاذه (١٨٨٨) : وهكذا عين فيشر فيما بعد فى منصب فلايشر فى جامعة لايبزيغ وصار أميناً على تراثه العلمى . والحق أن فيشر كان شبيهاً لأستاذه الكبير فى وجوه كثيرة ، الأمر الذى نستدل عليه من المقال الذى كتبه عن فلايشر سنة ١٩٣٠ ، وكان هو الآخر ينهج الفلسفة الوضعية للغة فى أبحاثه العلمية ويطبق فى درسه طرق البحث التحليلية ، فهو لم يقبل صحة افادة ما إلا بعد التثبت منها علمياً ، ولذا كان - رحمه الله - ناقداً لايرحم لكل من أهمل الأصول اللغوية والنحوية فى التراجم سواء عن العربية ام التركية إلى اللغات الغربية ولم يعرف التسامح مع من كان يقوم ببناء القصور العلمية فى الهواء دون ان يقيم اساسها النخوى على صورة لا غبار عليها ...

أذكر بوضوح لقاءنا الأول بأوجوست فيشر ، وكان ذلك فى أحد مؤتمرات المستشرقين الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ على وجه التقريب ... شاهدناه وهو الذى عرفنا اسمه منذ بدأنا دروس اللغة العربية ، وكان آنذلك شيخ قصير القامة ، يقارب الثمانين من عمره ، وإن لم تزل عيناه السوداوان تلمعان تحت جبينة العريض المتوج بالشعر الابيض كلما تحدث فروى من الكتب العربية ما روى أو نقد آثار زملائه - وكان شديد النقد لاذع اللسان ... أما نحن - «الأطفال فى عائلة المستشرقين» - فقد كنا نصغى الى حديثه وكأن على رؤوسنا طير . فطالما تعلمنا من اللغة العربية وآدابها الكثير - بعد إتمامنا درس قواعد النحو الاولى - من الكتاب الذى نشره الأستاذ فيشر مجدداً فيه ومنقحاً لكتاب الأستاذ برونو وبذلك صار يدعى هذا المؤلف بالألمانية :

Brünnow-Fischer, Arabische Chrestomathie aus Prosaschriftstellern,

وعنوانه بالعربية :

«تسهيل التحصيل وهو كتاب مدرسى يتألف من نخب مختارة من الكتب العربية» ويعد هذا الكتاب من أهم مراجع دراسة اللغة العربية فى ألمانيا ، فكم من الطلاب اشتغل بحكاياته واستفاد من قاموسه القيم منذ ان صدرت طبعته الأولى سنة ١٩١٣ !

لم نكتف فى ذلك الوقت بالتعجب لأبحاث هذا الشيخ الجليل المتبحر فى النحو العربى بل رأينا فيه حفيداً روحياً لمؤسس الاستشراق العلمى فى أوروبا ألا وهو سيلفستر ده ساسى الفرنسى المتوفى عام ١٨٣٨ ؛ وكان التلميذ الأشهر لهذا المستشرق الشهير الأستاذ هاينريش لبرخت فلايشر H. L. Fleischer (١٨٠٦ الى سنة ١٨٨٨) الذى كان استاذ اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيغ وهو الذى

لينزج ١٦/٢/١٩٤٥

حضرة المستشارة العالمية الدكتور ا. شميل

عزيزتي وصلني خطابك الرفيق الذي تهنئتي فيه بعيد ميلادي
الثمانين وتتمنييت لي كل سعادة وخير، وقد أضفت اليه شعرا
عربيا وزوجت صحيفتيه تزويقا فنيا جيدا، فتقبلته بيد السرور
وقرائه بلسان الفرح وأحبه بقلب سلوى بحور وإنني لأشكر
لمي ما أبديته لمي من العطف وما تجلت عنه عبارتك
اللطيفة من حسن الظن بي.

ورجائي عدم المزاخلة في تأخير الشكر حيث كانت لاسي
سوانح قهرية منها تقرب بعض سنو بقبلك منفي أميركانية

صحيفة من مكتوب لأوجوست فيشر بحث به الى مؤلفة هذا المقال في شهر شباط ١٩٤٥.

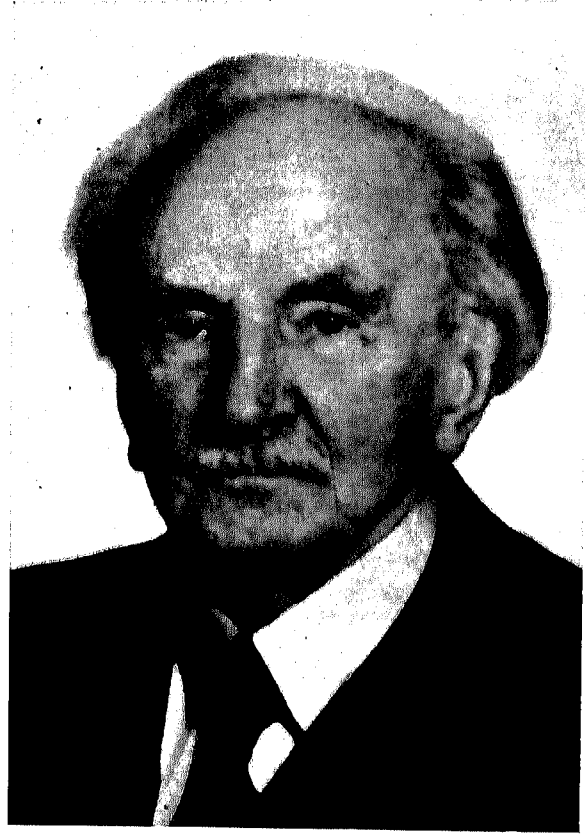
«درست فصلا دراسيا واحداً في مدينة ماربورج على يدي
ولهاوزن الذي ضرفني عنه اذ لم استطع ان استزيد منه علماً،
ولانه كان بصدد بناء دارا لنفسه مما عاقه عن إعداد الدروس
لي (فقد كنت تلميذه الوحيد في اللغة العربية). وأحب
مدينة ماربورج منذ ذلك زمان...»

ثم حصل فيشر على درجة الدكتوراه من جامعة هاله سنة
١٨٨٩، وكان موضوع أطروحته مأخوذاً عن «علم الرجال»
وقد برهن في هذه الأطروحة على غزارة علمه في اللغة
العربية، وعلى ان اطلاعه على المصادر التاريخية القديمة
يستحق كل تقدير وثناء، ونشاهد حتى في باكورة تأليفه
البحث المنقب عن الحقيقة العلمية المطلقة، فهو لم يدع
تعبيراً غريباً ولا كلمة مبهمه الا وسعى الى فهمها وايضاها
بكل اجتهاد، مستعينا بكافة المصادر اللغوية والتاريخية.

كان هذا هو اسلوبه العلمي، فهو لو أراد ان يحقق
معنى جملة واحدة او ينقب عن تعبير نادر استعان بكل
المتون والشواهد التي كانت لديه او كانت محفوظة في متاحف
الغرب والشرق (ولا اظن انه يوجد من متن عربي قديم إلا
وعرفه معرفة خبيراً) ولذلك الازع الملح لبلوغ الحقيقة العلمية
اشهر فيشر فيما بعد كناقد لا تغمض عيناه عن هفوات

ولد أوجوست فيشر سنة ١٨٦٥، ودرس اللغات الشرقية
قاصداً في أول الأمر الاشتغال بالتوراة واللغات السامية؛ ثم
ركز همته على درس العربية والتركية، واقام في فترة
دارسته لمدة فصل دراسي واحد في جامعة ماربورج على نهر
لان ليستفيد هناك من دروس ولهاوزن Wellhausen المؤرخ
العظيم (١٨٤٤ الى ١٩١٨) الذي كان قد اشتهر أولاً بنقده
لمتون التوراة من الوجهة التاريخية (فصار لذلك أحد مؤسسي
علم اللاهوت العصري في الغرب)؛ ثم نشر بعد ذلك ابحاثه
في مجال تاريخ العرب في عصر الجاهلية وفي عهد الرسول
وعهد بني أمية، وكان هو العالم الواسع الصيت العميق
البحث الذي لم تزل كتبه عن خروج الخوارج وعن دولة بني
أمية مفيدة للغاية حتى يومنا هذا، خاصة لأنه سلك فيها
طريقة جديدة في البحث عن التاريخ الاسلامي وكانت
له موهبة خاصة لفهم الروابط الداخلية بين الحوادث
التاريخية وايضاح الوقائع وتمثيل خصوصيات الأشخاص
المشاركين في وقائع الدهور.

لذلك قصد فيشر في شبابه الى درس العربية على يدي
ولهاوزن. وكتب بعد ذلك بستين سنة في بطاقة بحث بها في
يناير عام ١٩٤٦ الى مؤلفة هذا المقال وهي اذ ذاك مدرسة
في جامعة ماربورج:



صورة الأستاذ اوجوست فيشر في أواخر أيامه .
نشكر الأستاذ الدكتور يوهان فوك الذى أنعم علينا بهذا التصوير.

لتحقيق مسائل لغوية تتعلق باللهجات العصرية (فلنذكر انه توجد هناك مثلاً مقالة ذات أهمية له عن اسماء القط في اللهجة المغربية...) واستحث تلامذته الى تدوين ملاحظاتهم في مختلف الاقطار العربية التي يزورونها.

بعد ان عاد فيشر من المغرب عينته الحكومة أستاذاً لكرسى اللغات الشرقية في جامعة لايبزيغ سنة ١٩٠٠ ولم يتخل عن هذا المنصب العلمى الى ان توفى الى رحمة الله سنة ١٩٤٩، وبفضله اصبحت مدينة لايبزيغ مرة أخرى مركزاً لدراسة العربية في ألمانيا على نحو ما كانت عليه في عهد الأستاذ فلايشر؛ وكان فيشر حاضراً لمعاونة زملائه وتلامذته اذا طلبوا اليه مدداً في مسائل الصرف والنحو واللغة فاستفادوا منه، لأنه كان يعتبر النحو العربى قلب العلوم الاستشرافية، ولذلك نشر كثيراً من الملاحظات القيمة والمقالات الغنية التفرعات في هذا المضمار، ومن ذلك ما ألفه حول مسألة النطق الصحيح باسم الشاعر امرؤ القيس، او عن مختلف صيغ القسم كما انه عالج مشاكل الترجمة في إجابته على مثل هذه الأسئلة: كيف نحصل على ترجمة صحيحة لبيت من ابيات الشاعر فلان بن فلان، او: ماهو المعنى الحقيقى المقصود في سورة تبت، وهو قد أظهر في هذه المقالات على

زملائه اذا اخطأوا، وقال فيه الأستاذ يوهان فوك J. Fück في مقالة تذكارية أجاد فيها وصفه:

«لم يدع أبى حال أنه معصوم عن الخطأ بل كان بالاحرى يعلم تلامذته أن عليهم قبل البدء بالبحوث ادراك جهلهم الكلى، ثم كان يرشدتهم الى الطريق محاولاً أن يبين لهم ان أساس كل بحث في جميع فروع العلوم الاستشرافية لا يكون الا بمعرفة المسائل المطلوبة معرفة كاملة من جهة الصرف والنحو وبمساعدة القاموس والمصطلحات اللغوية».

بعد ان أتم فيشر درسه في مدينة هاله عين مدرسا للغة العربية في معهد اللغات الشرقية الجديد في برلين سنة ١٨٩٦، وجلبت اهتمامه هناك اللهجة المغربية التي درسها أولاً في برلين ثم في المغرب نفسه، ونشر فيما بعد مجموعة من الاشعار المغربية التي حصل عليها اثناء إقامته في المغرب في كتاب عنوانه Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers (اناشيد مغن مغربى، لايبزيغ ١٩١٨) ذلك أنه كان على اقتناع كامل بأن درس اللهجات العربية العصرية من اهم الواجبات على كل من قصد تعلم العربية الفصحى وأراد ادراك خصائصها والتعمق في تاريخ تطورها منذ قديم الزمان الى ايامنا هذه. ولذلك كرس جانباً كبيراً من ابجائه

Aus der religiösen Reformbewegung in der Türkei
(عن حركة الإصلاح الديني في تركيا).

ترجم فيه رسالة للوزير الاعظم سعيد حليم باشا (١٨٦٣) الى (١٩٢١) الذي كان قد نشرها هذا المؤلف عام ١٩١٨ عند انهيار الدولة العثمانية، وتفصح هذه الرسالة المعنونة «اسلاما لاشتمق» عن امكانيات تجديد الافكار الاسلامية واصلاح حياة المسلمين الروحانية، كما ترجم فيشر في الكتاب ذاته بعض الاشعار لضياء كوك الب، عالم الاجتماعيات وواعظ النهضة التركية، وكذلك بعض الاشعار الاخرى لعبد الحق حامد الذي اعتبره اهم شاعر تركي معاصر. وقال العلامة فيشر في مقدمته لهذا الكتاب انه يتفق ورأى المستشرق الهولندي المشهور «سنوك هوركرنيه» الذي اعتبر مسألة الاسلام من المسائل المهمة في عصرنا هذا وانها جديرة باهتمام العلماء وداعية لاجتهادهم. وأضاف فيشر الى هذه الكلمات انه من الواجب - في رأيه - على كل مؤرخ ومستشرق ان يهتم بالحالة الراهنة في العالم الاسلامي وان المهمة السامية التي يجب على المستشرقين الاضطلاع بها، هي تعريف الجمهور بالتيارات الأدبية الجديدة في أصبح صورة ممكنة، اي في ترجمتها العلمية. لذلك قام فيشر بترجمة الاعمال التي تنطوي تحت هذه التيارات الأدبية الدينية التي انبعثت في تركيا. ومن العجيب ان كتابه هذا قد صار منبع الالهام لواحد من كبار المجددين في عالم الاسلام الا وهو محمد اقبال الباكستاني الذي يتبادل الرسائل مع الاستاذ فيشر حتى أنه أوصى صديقا تركيا له (وهو المؤرخ خليل خالد، احد اساتذة معهد اللاهوت القديم في جامعة استانبول) ان يتصل بهذا المستشرق الاوروبي الجليل. وقد ترجم محمد اقبال نفسه الكثير من الافكار التي اوردها فيشر في تراجمه المذكورة واقتبسها في كتابه «تجديد الفكر الديني في الاسلام» دون ذكر اسم المستشرق الالماني أو عنوان كتابه. وما أعظم تأثير مؤلف فيشر - آنف الذكر - على تعليقات محمد اقبال في كل ما كتبه حول طرق التجديد الديني والاصلاح الروحاني في تركيا بعد الحرب العالمية الاولى! والحق يقال ان اوجوست فيشر قد لعب بواسطة هذا الكتيب دورا لا يستهان به في تجديد الفكر الديني في الهند والباكستان!

اما نحن فبروفنا في كتاب فيشر هذا - جانبا من تراجمه العلمية - ألا وهو أنسه بالمصادر الصوفية وتاريخ التصوف. ولم يزل الأستاذ يشغل بالآداب التركية حتى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما نشر في مجلة جمعية المستشرقين الالمان ترجمة للاشعار الاربعة الحسنی لعبد الحق حامد الشاعر

هذا الموضوع، ذلك أن ملاحظاته وحواشيه مشتتة في مختلف المراجع والمصنفات... كما نأسف أسفا أشد من ذلك إذ لم يأذن له القضاء باتمام قاموسه الكبير الذي انكب على تجميع شواهد أكثر من اربعين سنة، إذ كان قد اعلن مشروعه هذا في عام ١٩٠٧ هادفا الى اصدار معجم موسوعي يستمد عناصره من المتون العربية الكلاسيكية الممتدة حتى القرن الثالث للهجرة وبحيث لا يستند الى الكلمات المسرودة في القواميس العربية القديمة والتي يضمها قاموس «لن» Lane وغيره. وقد بقي هذا المعجم الشامل نصب عيني الأستاذ فيشر حتى آخر لحظات حياته، وكانت قد دعت الحكومة المصرية الى القاهرة ليعمل هناك بضعة أشهر من كل سنة في الإعداد لقاموسه المذكور، وهكذا أخذ معه ما كان قد جمعه من الكلمات والتعابير وحفظها في مصر منذ سنة ١٩٣٦، ولما ودع القاهرة للمرة الأخيرة عام ١٩٣٩ ترك مجموعاته في عهدة «مجمع فؤاد الأول - سابقا - للغة العربية» الذي كان يتمتع بعضويته منذ سنوات، ولم يأتيه خبر من مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ولا بعدها حتى ظن أن مجموعاته كلها قد ضاعت في تلك الحقبة المبللة وقد كتب لنا «لأنه من الطبيعي ان أنألم غاية الألم لأن قاموسني قد راح ضحية الحرب...» ولكنه أخطأ في ظنه، وليته تمكن قبل وفاته من السفر الى مصر على النحو الذي تمناه! فلا زالت هناك بطاقاته الستة والثلاثون ألفا التي كانت محفوظة في المجمع المذكور في القاهرة... كما قام بمجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشر نموذج لمتن قاموس فيشر بعد وفاته مع مقدمة المؤلف المكتوبة باللغة العربية (في عام ١٩٥٠)، وكان عنوان هذا المصنف «معجم تاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري». وذكر فيشر في مقدمته التي دونها قبيل الحرب طريفته في جمع الشواهد من المتون فهو لم يستغن تماما عن القواميس الشهيرة المعروفة من قبل. وهو قد وجه شكره الى «القراء والنساحين» المصريين الذين عاونوه في مطالعة المتون الهامة واستنساخ الكلمات والتعابير. ولزید الأسى لم تمهله المنية لاتمام هذا المصنف العظيم أو استكمال مواده وجمعها في معجم يستفيد منه اهل العلم في الشرق والغرب..

والى جانب شهرة الاستاذ فيشر كمؤلف للقواعد اللغوية في مجال اللغة العربية وكناقد صارم في مضارم فقه اللغة لا يصح ان ننسى أعماله الهامة حول الآداب التركية العصرية. فقد كان مجيد التركية حيث نشر ترجمات لاشعار محمد امين وكذلك، في سنة ١٩٢٢، كتيباً يحمل عنوانه العبارة التالية:

وهو يوحى بالتعبير الأخير الى بيت لشاعرنا جوتيه انه من
يقاوم الرزايا القوى والبلايا يستجلب المعونة الالهية:

Allen Gewalten zum Trotz sich erhalten
Rufet die Arme der Götter herbei ...

ولما توفي خليفته في معهد لايبزيغ - البروفسور اريش
برونليش Bräunlich - في شهر آب ١٩٤٥ بينما كان أسيراً
في الحرب، قام شيخنا الجليل بالتدريس على الرغم من
تقدم سنه ... وكان قد حل مكان الأستاذ برونليش في زمان
الحرب؛ ثم منعه الحكومة عن التدريس (ووقعت على ذلك
المرسوم المدينة لايبزيغ في منطقة الاحتلال الروسى آنذاك)
ولكنه داوم على التدريس الخاص مع انه قد فاق الثمانين
من عمره، حيث كتب يقول في سنة ١٩٤٨: «لا يزال عندي
بضعة طلاب أقوم بتدريسهم رحمة بهم اذ لا يوجد هناك معلم
للعربية ...»

ومما يثير الحيرة ان اوجوست فيشر لم تأخذه كيلولة ولا تعب
رغم ما مر به من ظروف عصيبة، بل أنه ألف من المقالات
والأبحاث الكثير حيث نجد من بينها رسالة يعالج فيها صيغ
القسم في العربية، مثل «آله، ها الله ذا، لاه ابوك، تعمر،
عمرتك الله» وما الى ذلك.

وفي هذا العام - ١٩٤٨ - جاءت دعوة من جامعة
ماربورج وبدلتنا مساعينا كى نجلبه الى مناطق المانيا الغربية
ليتمكن من هنا من السفر الى الديار المصرية، وكان يرجو
ان يلتقى في معهد الاستشراق بجامعة ماربورج «بعض
المحاضرات ريثما تدعوني الهاوية (كذا في الاصل الالماني!)
بلطف، أكثر او اقل، للولوج اليها...» إلا أن امنيته لم
تتحقق، وهكذا رحل الى السماء في ١٤ شباط ١٩٤٩.
وكان ذلك اليوم الذى صعدت فيه روحه الى بارئها يوافق
يوم ميلاده الذى اتم فيه الاربعة والثمانين من عمره.

نذكره - وستذكره الاجيال القادمة - كلما قرأنا وقرأت كتابه
الدراسى الفريد: Arabische Chrestomathie، وكلما
استفدنا في استيضاح المتن العربية العسيرة من ملاحظاته
وتراجمه، عملاً بقول الشاعر:

ما الفخر الا لأهل العلم انهم
على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل أمرئ ما كان بحسنه
والجاهلون لأهل العلم اعداء
ففر بعلم تعش حيا به أبداً
الناس موتى وأهل العلم أحياء

التركي المتوفى سنة ١٩٣٧. وفي الفترة نفسها قام فضلاً
عن ذلك باصدار ترجمة لمسرحية ألفها هذا الشاعر تحت
عنوان «روجلر» (اي: الاشباح)

ويجدر بالذكر ان الاستاذ فيشر على رغم شيخوخته في
ذلك الوقت وما اصابه من بلايا اثناء الحرب قد داوم على
اشتغاله باصعب المتن العربية، اذ نشر عام ١٩٤٢ رسالة
حول «كتاب الفصول والغايات» لأبى العلاء المعرى، ومن
المعلوم ان هذا المؤلف نادر جداً لصعوبة أسلوبه ولأن بعض
النقاد قد اعتبروه «معارضة للقرآن الكريم». وقد أثبت
فيشر خطأ هؤلاء النقاد من كلمات أبى العلاء نفسه عندما
تكلم في «رسالة الغفران» عن ابن الراوندى وكتابه «الدماغ»
قائلاً:

«واجمع ملحد ومهتد - وناكب عن الحجة ومقتد - ان
هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه كتاب بهر
بالاعجاز ولقى عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال - ولا
اشبه غريب الامثال، ماهو من القصيد الموزون - ولا
الرجز من سهل وحزون - ولا شاكل خطابة العرب - ولا
سجع للهنة ذوى الأرب، - وجاء كالشمس اللائحة -
نوراً للمسرة والباحثة ...»

وقد بن فيشر ان رأى المستشرقين الاوروبيين في معارضة
أبى العلاء المعرى للقرآن لا أساس له من الصحة وبرهن
كذلك على انه لم يراحدهم الكتاب نفسه وانما اقتبسوا ما
وجدوه في آثار العرب الذين لم يستحسنوا افكار المعرى،
ومنهم ابن الجوزى وياقوت الرومى والذهبي، مع ان اكثر
هؤلاء المؤلفين لم يشاهدوا مخطوطة لهذا الكتاب المختلف عليه.
وقد فسر الأستاذ فيشر الجزء المنشور في مصر سنة ١٩٣٨
وحقق أسلوبه وتحقق من قوافيه ودقق مناسبة الغايات
والأقسام المسجعة، وعلى كل من اراد التعمق في افكار
أبى العلاء وفن نظمه ان يطلع على كتاب فيشر هذا بكل
دقة كى يتعلم منه طرز البحث العلمى الأصيل.

وفي أواخر الحرب وبعدها اصاب فيشر من المصائب ما
اصابه لما ضاع قسم كبير من كتبه وخربت كذلك مكتبة
الجامعة في مدينة لايبزيغ وانهدم نصف بيته بالقنابل، ومع
ذلك لم يستسلم لليأس بل لبث يكتب ويقرأ فيما تبقى له من
الكتب حتى في تلك الأيام المفجعة وقد كتب يقول في أول
رسالة بعث بها اليها بعد الحرب:

«لم نصب في العام الماضى الا بالكارثة تلو الاخرى ...
ولكن لافائدة من اطالة الكلام عن ذلك بل من المهم الآن
ان نحافظ على بقائنا بمقاومة جميع القوى»

تاريخ الصيدلة العربية عند المستشرقين الألمان

الحمد لله
الذي خلق لكل داء دواء
ولكل مرض شفاء

بقلم : جيزلا كيرشر

ما سموه دوائيا، وبينها وبين السموم ما سموه دواء سميا، واعتمدها الأطباء بعد اصلاح قواها والاحتياال لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها.

ويشير المؤلف إلى مسئولية الطبيب عندما يعد الدواء، ولذا تحتوى مؤلفات مشاهير الأطباء على مقالات طويلة في هذا الباب، ومنها «فردوس الحكمة» لعلى ربان الطبرى (المتوفى حوالى عام ٢٤٦هـ/٨٦٠م)، و«الحاوى فى الطب» للرازى (المتوفى عام ٣١٣هـ/٩٢٥م)، و«القانون فى الطب» لابن سينا (المتوفى ٤٢٨هـ/١٠٣٦م)، و«كتاب التصريف» للزهراوى (المتوفى ٤٠١هـ/١٠١٠م) و«كتاب العمدة فى صناعة الجراحة» لابن القف (المتوفى ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)؛ وقد بحث الأطباء فى الكتب المذكورة وأمثالها عن أفضل أنواع العقار بحسب درجة تأثيره، ثم عن الأمراض التى يعالجها مع إثبات كية الدواء لكل من هذه الأمراض. ونستطيع أن نتبين اهمية إلمام الطبيب بخصائص العقار من كلمات أحمد الغافقى (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م) فى كتابه «الجامع فى الطب فى الأدوية المفردة» حيث يقول: «وإن كان أطباؤنا يرون أن هذا إنما يلزم الصيدلانى دون الطبيب لكان ظنهم صادقا لولا أنهم يتولون بأنفسهم عمل الأدوية المركبة وما أقبح بأحدهم أن يطلب أدوية مفردة فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هى التى ارادها أم غيرها فيركبها ويسقيها عليه مقلداً فيها الدجالين ومتعاطى الحشائش، قوم لا يقرئون الكتب ولا يعرفون من الأدوية إلا أقلها».

حتى إذا ما تعذر العلاج بواسطة الأدوية المفردة راح الطبيب يستعمل آنذاك الأدوية المركبة التى كانت تسمى «الأقرباذين» لأنه من المظنون أن قوى الأدوية المفردة المستعملة فيها ستبلغ حدا بعيدا من التأثير باكمال بعضها البعض. وقد بدأ الأطباء فى قديم الزمان بجمع نشرات خاصة بتحضير الأقرباذين وإعدادها، ونعد من هذا النوع

كان مسلمو القرون الوسطى يدعون العقاقير «عجائب المخلوقات»، ويريدون بذلك أن الله تعالى خالق السموات والأرض قد خلق أيضا هذه الأشياء كى تعود على الانسان بالنفع والخير.

وكانت «عجائب المخلوقات» هبة السماء إلى الطبيب الذى يقضى عليه واجبه أن يعرف كيف تشفى الأمراض وكيف تعالج وتنتق.

وقد أخذ عرب العصور الوسطى فنون العقار عن «ديوسقوريدس» Dioskurides (المتوفى حوالى عام ٧٠م) وجالينوس Galen (المتوفى حوالى عام ٢٠٠م)، ولكنهم ما لبثوا أن زادوا عليها واستكملوها بفضل خبراتهم الطبية التى أتوا بها من تملكة ما بين النهرين والهند والشرق الأقصى وشمالى أفريقيا. وجدير بالملاحظة أن عبارة «الطب والصيدلة العربية» وإن أطلقت على آثار الحضارة الاسلامية فى هذا الميدان، فضلا عن أن ما ألف فيها من أسفار كان بلغة العرب، إلا أن مصنى تلك الكتب ومؤلفيها كانوا ينتمون إلى عديد من الشعوب التى تترامى من الهند والسند حتى الشرقين الأدنى والأوسط وشمالى أفريقيا.

صنف ابن البيطار (المتوفى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) فى موسوعته المسماة «الجامع فى الأدوية المفردة» عجائب المخلوقات وهى التى كانت، باعتبارها عقاقير نباتية ومعنوية وحيوانية، محط تصرف الطبيب العربى فى القرون الوسطى، إذ كان عليه أن يعرف مدى أثرها فى الجسم. ولكل عقار قوى وصفات تحضه، كما قال الاغريق. وقد أشار الباحثة الايرانى الفقيه المدعو البيرونى (توفى عام ٤٤٠هـ/١٠٥٠م) فى مقدمة «كتاب الصيدلة» إلى ما للعقار من مكانة خاصة بن الأطعمة والسموم، فقال: «وجميع ما يتناول بقصد أو بجهل فنقسم فى أول الأمر إلى أطعمة وسموم، والأدوية واقعة فى البين لأنها بالاضافة إلى الأغذية مفسدة وإلى السموم مصلحة لا يظهر فعلها إلا الطبيب الحاذق المشفق لها، ولهذا توسط بينها وبين الأغذية

وعلاج لدغة الرنات لا يوضع عليها صمغ كالمصنع
من زبيب وزنجفر ونجشتراب او من صمغ ريسان



عدي مدقوقا ومن زرا من يتجوز بدقوسه من خشب
وتنقى ان ينظر الجرح ما يداها يطبخ ذل يدعوا مستقون وفعل
من رقه صمغ اذا صا ويدخلون الحماما يا يا
نناغا وسقون هذه الادوية منها يرد يدعوا بالروميه
حاد وطمون وبالسراييه ركنوا ونسوت وزلاوت

عمل مضمة لمعالجة لدغة الرتيلاء. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دوت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

اما الصيدلى فكان محافظ على نوع «عجائب المخلوقات» وكيفيةها ويحضر الأدوية المركبة التي يوصى بها الطبيب، وكان له بذلك اليد الطولى في علاج المرضى وشفائهم. وهكذا ظل الحال حتى يومنا هذا. ومع ان المستحضرات الجاهزة التي تقوم بتركيبها معامل الأدوية الكبرى قضت على تحضير الاقربا بادين في الصيدليات، فانه مما لا شك فيه ان قول الصيدلى كوهين العطار في كتابه «منهاج الدكان» (عام ١٢٥٨/٥١٢٥٩ م) لم يزل ساريا، اذ يخاطب ابنه قائلا: «الصيدلة أشرف الصنائع بعد صناعة الطب وهي آلة لصناعة الطب».

ولا عجب انه عندما تطورت الدراسات العربية والإسلامية وتعمق المستشرقون الألمان في تاريخ ثقافة الإسلام تطور كذلك اهتمامهم بتاريخ الطب العربى وما يتعلق به من

من العقار مثلا المراهم والشراب والربوب والمعاجين والحبوب وغير ذلك.

وكان إعداد هذه الأدوية المركبة وتحضيرها من وظائف الصيادلة؛ كما قال البيروني:

«الصيدلانى (الصيدلى) وهو المحترف بجمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها له مبرزواهل الطب».

وبعد، فقد عرف العالم الإسلامى الصيدليات منذ القرن التاسع للميلاد، اى منذ عصر العباسيين، كما وجدت في المدن الكبيرة مستشفيات ألحق بها في أغلب الأحيان صيدليات، وكانت لهذه المؤسسات كتب خاصة بطريقة تحضير الاقربا بادين دعيت «بالدستور البيمارستانى» وما زالت العلاقة الوثيقة بين الطب والصيدلة قائمة عبر القرون.

الاشرب منه وتغسل البطن من السمات والصداع الرأس اذا خلط بخل ومن
 وزد وعصيه ومن كان له قيح او فمراقه فخلطه بعسل ومن وعثران
 وطلا به ابراد ولوزم العين والمعدة التي تخرج من خلط بطين وشراب
 ويعصيه وهو الخمر على فانيات كل المعج العز ولوجع الانام والشفاف



الذي يكون في الخلط بعسل وطلا به ع ع ع ع ع ع ع ع
 زراومعافويب
 هذا يكون من عصا الفحص من قبل الخوض ينبغي ان يخذ قبل الحز الشليل

إحصار أدوية لأمراض العيون. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دونت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

ويتر باخمان Peter Bachmann وهانز لاور Hans Lauer وهاينريش شيبيرجس Heinrich Schipperges وإلى أوتو شپيس Otto Spies وتلاميذه الذين انصرفوا للتفتيش عن آثار الطب عند العرب. ويجدر بنا أن نذكر من بين من ذكرنا من المستشرقين، اسمي عالمن ألمانيين اختصا بدراسة تاريخ الطب والصيدلة، وهما إرنست زيكنبرجر Ernst Sickenberger (المتوفى عام ١٨٩٥) وماكس مايرهوف Max Meyerhof (المتوفى عام ١٩٤٥)، إذ أقام كلاهما في الشرق مدة طويلة أتاحتهما الفرصة للانكباب على درس منابع العلوم الطبيعية عند العرب. جاءا الى مصر يطلبان العمل هناك، وكان الأول صيدليا والثاني طبيبا للعيون، وقد أصبح كلاهما مواطنين مصريين وكرما فوق ذلك بمنح كل منهما شرف عضوية المعهد

محالات، ونذكر من بين هؤلاء العلماء الألمان: اوجن ميتفوخ Eugen Mittwoch (المتوفى عام ١٩٣٢)، وإرنست ليبيرت Ernst Lippert (المتوفى عام ١٩١١)، ويوليوس روسكا Julius Ruska (المتوفى عام ١٩٤٩)، وأيلهارد فيديمان Eilhard Wiedemann (المتوفى عام ١٩٢٨)، وإرنست زايدل Ernst Seidel (المتوفى عام ١٩٢٢)، وكذلك العالم الدائب البحث هلموت ريتير Hellmut Ritter الذي كشف عن الكثير من المخطوطات الهامة الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة عند العرب والتي أخرجها من المكتبات التركية والأيرانية والعربية. وما زال البحث عن هذا الفرع المهم من فروع الدراسات الإسلامية يعضى ويتطور في أيامنا هذه، ويكفي أن نشير الى ألبرت ديتريش Albert Dietrich وكريستوف برجل Christoph Bürgel



إرنست زيكنبرجر

بسيطا لا يركن إلى الراحة ولا يهتم بمتاع الدنيا، فهو لم يعرف سوى العلم وواجهه تجاه عمله.»

ولد إرنست زيكنبرجر في كراوتهايم/بادن Krautheim/ Baden عام ١٨٣١، ودرس العلوم الطبيعية والصيدلة في جامعتي هايدلبرج وبرلين، ثم قدم إلى مصر عام ١٨٧٦، حيث أصبح مديرا للصيدلة الألمانية بالقاهرة؛ وتولى بعدها في عام ١٨٨٣ إدارة حديقة النباتات بالقاهرة، نظرا لغزارة معلوماته في هذا الميدان. وفي عام ١٨٨٩ عين إلى جانب عمله هذا أستاذا ومدرسا لعلم الصيدلة ثم الكيمياء بمدرسة الطب بالقاهرة École de Médecine. وعندما سئل عام ١٨٨٧ عما إذا كان يريد البقاء في مصر أم لا أجاب القنصل الألماني بقوله: «لأنني أفضل الحياة في مصر ولأنني أرحب بالجنسية المصرية على أية جنسية سواها.»

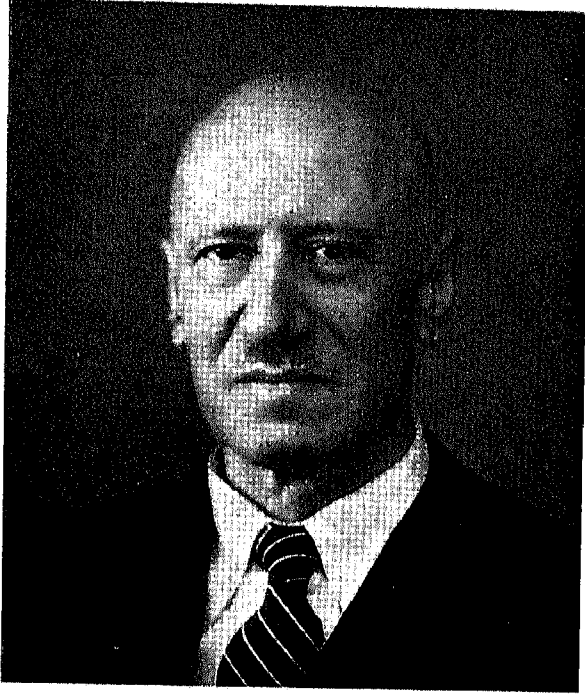
وقد امتدحه جورج شفاينفورت بكلماته التي قال فيها: «لم يهمل زيكنبرجر مهامه العلمية خلال الأعوام الخمسة عشر المليئة بالعمل الجاد المجهد بمدرسة الطب ولا لحظة واحدة، فانه لم يكن يعرف الإجازات ولا العطلات الصيفية الطويلة في أوروبا للاستجمام من الحرارة القوية في الصيف المصري الذي يجعل العمل الذهني مرهقا.»

وبعد، فقد قدم الأستاذ زيكنبرجر لمصر - وطنه الثاني - أبحاثا مفيدة وهامة في مجالات الكيمياء والنبات والحيولوجيا

المصري Institut d'Égypte الذي كان قد أسسه نابليون الأول؛ كما توفي كلاهما بالقاهرة.

وعندما فاضت روح الأول لم يكن الثاني الا طالبا للعلم، حديث العهد بالحياة بعد، ولم يعرف أحدهما الآخر، ومع ذلك ربطت بين حياتهما صداقة العالم الكبير جورج شفاينفورت Georg Schweinfurth (المتوفى عام ١٩٢٥)، ذلك الباحث الدائب عن جغرافية افريقيا، وكان «زيكنبرجر» قد عاونه فترة ثم اتصل بالتعاون العلمي بعد ذلك بين شفاينفورت ومايرهوف.

في ١٠ ديسمبر ١٨٩٥ شيع الصيدلي إرنست زيكنبرجر إلى مقره الأخير بالقاهرة. وقد ودعه حتى مقبرته عدد كبير من العلماء البارزين وممثلي الدولة المعروفين ومن بينهم نوبار (باشا) رئيس الوزراء في ذلك الحين، وكذلك جميع الطلبة الذين درسوا على زيكنبرجر. «إن المصريين الذين اندفعوا إلى تشييع جنازته احترمو فيه الأوروبي المثالي الذي بذل كل اهتمامه في خدمة وطنه المختار» - هكذا قال الباحث جورج شفاينفورت عند تأبينه لإرنست زيكنبرجر أمام أعضاء المعهد المصري؛ ثم استرسل قائلا: «يجب أن تشعروا بالفخر أيها السادة لأن واحدا منا قدم هذا المثل النبيل لحياة مليئة بالعمل؛ وكان أسلوب حياته



ماكس مايرهوف

الفضائل النادر وجودها من إخلاص تام في عمله وتواضع كامل وسيظل حيا بيننا كالمثل الأعلى لعالم بارز وأستاذ قدير.

«تغيب مصر عن النظر، ويستغرقني حزن وشوق عميق. عيشي يا أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان! إلى اللقاء»

بهذه الكلمات ختم «ماكس مايرهوف» يومياته عن رحلته الأولى إلى مصر عام ١٩٠٠/١٩٠١، ولم يكن يتوقع حينذاك أن هذا البلد سيصبح عما قريب وطنًا ثانيًا له حيث سيقضي فيه أكثر من ثلاثين عاما من حياته.

ولد مايرهوف في مدينة هلديسهايم Hildesheim في شمال ألمانيا عام ١٨٧٤، واستقر رأيه على دراسة الطب، ثم تخصص في طب العيون، وعند رحلته المذكورة إلى «بلاد الفراعنة» أتاحت له الفرصة لدراسة الأمراض الكثيرة للعيون، وهي التي كانت متفشية في ذلك الوقت في مصر. وقد عاد الدكتور مايرهوف عام ١٩٠٣ إلى «أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان» لكي يعمل «كحكيم للعيون» بالقاهرة، وسرعان ما انهال عليه سيل لا ينقطع من المرضى الذين أحبوا «الدكتور ماكس» وقدروه، وهو الذي لم يرد قط عن بابه فقيرا أو محتاجا إلى معونته، فقد كان يعالج الفقراء دون اتعاب.

وعلم المعادن؛ والجدير بالذكر أنه قدم كذلك خدمات جليلة في أبحاث الصيدلة القديمة عند العرب، ووفق في كتابه الموسوم بعنوان «النباتات المصرية» Les Plantes Egyptiennes. إذ قام فيه بتعريف النباتات التي ذكرت أسماؤها في كتاب ابن البيطار «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» فيما عدا قليل منها؛ وقد ابتداء قبيل موته بنشر ما سماه «المقتطف المختصر» لكتاب ابن البيطار الذي لا يعرف في الغرب إلا بترجمة ألمانية ركيكة، وترجمة فرنسية يصعب الحصول عليها؛ ذلك أن الأستاذ زيكنبرجر كان يعتقد عن حق أن مؤلفات ابن البيطار لم تنل في أوروبا ما تستحقه من التقدير. على الرغم من أن قيمة هذا الكتاب من الوجهة العلمية لا توازي الجهد الذي بذله المؤلف فإنه يحتوي على بعض الملاحظات الهامة التي نثرها زيكنبرجر الصيدلي في متن هذا البحث، ولعله جدير بنا أن نعجب بلجسارته وجهوده التي كرسها لإدلاء مثل هذا العمل إلى جانب وظائفه ومسئوليته الجمة.

ولنترك الكلمة مرة أخرى لجورج شفاينفورت الذي قال: «ولولم يكن لهذا العالم سوى هذا الكتاب لكفاه حتى يذكر اسمه بغاية التكريم والتبجيل في مصروف أوروبا».

وختم السيد وزير المعارف المصري تأييده للأستاذ زيكنبرجر بالكلمات التالية: «إن هذا العالم الباحث الممتاز توحدت فيه

الصفحة الرابعة التي قال الله المبرور في ذلك وقت شب
 بركة الأبرار في الدنيا والآخرة في ذلك وقت شب
 منة الله على عباده في ذلك وقت شب



يا من طوعا أو مكره في ذلك وقت شب
 الشيب ومن طوعا أو مكره في ذلك وقت شب
 تنقل مع الشيب من ذلك وقت شب

قطع النبات المسمى «أبليسقوين». صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريدس، دولت في بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهي محفوظة في Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

الشرق وكذلك للمستشرقين المهتمين بالطب العربي وتأريخه.

ونجد في مؤلفاته التي يعالج فيها طب العيون عند حنين ابن إسحق ويحيى بن ماسويه ومحمد بن قسوم بن أسلم الغافقي، مادة غنية تتناول العقاقير التي كان يستعملها الأطباء العرب في القرون الوسطى لعلاج المرضى. وأعد الدكتور مايرهوف ملحقاً قيمياً لكتاب الغافقي «كتاب المرشد في الكحل» ذكر فيه الأدوية المختلفة التي كانت تستعمل على زمان المؤلف لمعالجة أمراض العيون، ومنها الأكحال و«الشيقات» وغيرها.

وسرعان ما انتقل مايرهوف إلى دراسة علم العقار عند العرب. ولعله يحذر بالعلماء والباحثين أن يتأملوا أسلوبه في التفتيش

عاد الدكتور مايرهوف إلى مصر وطنه المختار، بعد أن قطع إقامته بها منذ ١٩١٤ حتى ١٩٢٢. وقد حصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٥، وعاش بالقاهرة حتى وافاه أجله بعد مرض تحمله بصبر وشجاعة في ٢٠ أبريل عام ١٩٤٥.

ولم يترك جانب معالجته اليومية لأمراض العيون وأبحاثه العلمية في هذه الأمراض الخاصة بمصر وكيفية معالجتها، أهتم الدكتور مايرهوف بدراسة تاريخ أمراض العيون، ووجد في مجال دراسته هذا مواداً غنية من كتب الأطباء العرب في أثناء القرون الوسطى، كما مكنته خبراته العلمية ودراساته اللغوية التي بذل فيها ما بذل من الجهد، من تقديم معلومات هامة للأطباء الذين يهتمون بتاريخ الطب في بلاد

هَذِهِ تُشْرِكُ مِنْ عَادِلٍ ذَاهِبَةٍ إِلَى الْأَرْضِ أَتَشْرِي بِالْخَمْرِ

[illegible]

فَمِنْ خَيْرِ الْأَوَّلِ لَكِنَّهُ رَطِبٌ فَيَعْقِدُ مِنَ الرِّيحِ وَاللَّاهُوتِ حَسْرَةً
الْأَوَّلِ لَكِنَّهُ رَطِبٌ وَهُوَ لَنْتَهُ أَضْأَفُ مِنْهُ مَا يَقْطُرُ مَا فَجَّفَ مِثْلَ الْحِجْرِ
وَذَلِكَ كَوْنُ قُبُورِهِ وَمَعَادِنِ الْخَاسِرِ وَمِنْهُ مَا خُجَّ فِي مَعَادِنِ الْحَرِّ
مِنْهَا مَا بَصِيرٌ جَامِدٌ مِثْلَ الْحِجْرِ وَيَكُونُ خُفًّا خَرْدَةً أَوْ خُفًّا سَابِيحَةً مِثْلَ هَذَا

العقائير المختلفة ايضاحاً علمياً واسعاً. وتعتبر المقدمة الشاملة التي ألفها الدكتور مايهوف لهذا الكتاب من أهم النصوص واعمقها في موضوع تطور علم الصيدلة عند العرب. زد على هذا عددا من الرسائل الصغيرة عن البنج والحشيش والششم التي تكمل أبحاثه الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة؛ أما مقالته العميقة حول «سوق العطارين بالقاهرة» (عام ١٩١٨) فقد أشاد بها جورج شفاينفورت — الذي كان متخصصاً في دراسة النباتات المصرية — كل إشادة.

بلغ عدد مؤلفات مايرهوف الثلاثمائة، ويتبدى في كل منها العلم الموسوعي الذي امتاز به هذا العلم، وإذ لا يمكننا ذكر عناونها فعلينا أن نشير الى بعض ماله قيمة خاصة

عن المراجع والمتون الهامة. ومنها أنه أشار لأول مرة إلى وصف الأدوية المفردة للعالم المشهور «الشريف الإدريسي» (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٦م)؛ وأشار كذلك إلى أهمية كتاب الصيدلة في الطب للبيريوني الذي يلقب «بأستاذ» حيث ترجم المقدمة المهمة التي اقتبسنا جزءاً منها على ص ٤٩. وقام بمساعدة جورج صبحي بنشر «كتاب الأدوية المفردة» المختصر لأحمد الغافقي، وفي ترجمته وإعداد الملاحق والشروح العديدة لهذا الكتاب، غير أنه لم يتمكن للأسف من إتمامها. أما مؤلفه الأهم في مجال علم العقار فهو نشر «كتاب شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون حيث يوضح كل واحد من أسماء

منها في تاريخ الطب، كأبحاثه التي تعالج الإرث اليوناني في الطب العربي، ثم تلك التي تبحث في مؤلفات جالينوس وترجمتها العربية، فضلاً عن دراسته لكتاب «فردوس الحكمة» لعلي ربان الطبري وكذلك تعرضه لابن النفيس.

كتب جورج سارتون George Sarton، الإخصائي الشهير في تاريخ الطب، قائلاً عن ماكس مايرهوف: «إن أحسن جزاء يمنح لذكراه يكمن في حقيقة بسيطة، هو أن تقرر أعماله في المستقبل على طلبة تاريخ الطب العربي، وهكذا ينال اسمه التخليد.»

وقد منحت كلية الآداب بجامعة بون الدكتور مايرهوف درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٢٨ لكونه «باحثاً كبيراً في الطب والعلوم الطبيعية عند العرب ومشجعاً دائماً للأعمال العلمية.»

وعندما توفي عام ١٩٤٥ حزن لوفاته الكثيرون، وهم جميع من عرفوه وبخاصة العلماء المصريون وزملائه الأجانب الذين كانت تربطه بأكثرهم علاقة صداقة وطيدة.

وأمام أعضاء المعهد المصري الذي كان ينتمي إليه الدكتور مايرهوف التي كلمة التأبين مناسبة وفاته الدكتور لودفيج كايمر Ludwig Keimer عالم الطبيعة والآثار المصرية، وكثير عدد مقالات النعي التي دونت بمناسبة وفاة مايرهوف؛ أما أعمقها وأشدّها تأثيراً فهو ما كتبه عنه الأستاذ يوزيف شاخت Joseph Schacht، صديقه وزميله، حيث قال: «ستحيا ذكراه لمدة طويلة بين طلبة العلم في العالم بأسره كعالم متبحر في الطب والعلوم الطبيعية عند العرب؛ ثم بين الأطباء كباحث ممتاز لأمراض العيون بمصر، ثم بين المرضى الشاكرين كطبيب ناجح يستحق التكريم والتبجيل، وبين أصدقائه الكثيرين من أنحاء العالم كشخصية طيبة

محبة للجميع ... وبينما كان ينفر من كل تفاؤل مريح راح يتدفق شعوره العميق بالمسؤولية الأخلاقية تجاه علاج مرضاه وفي تناول بحوثه العلمية الدقيقة. ومن بين المثل العليا التي كان يعمل ماكس مايرهوف على تحقيقها ويعيش من أجلها كان أن يبصر أهل الشرق بماضهم التليد، وأن يساعد على تشييد أسس مشتركة للتفاهم والتعاون المتبادلين بين الشرق والغرب والتغلب على التعصب والكراهية أينما كانت ...»

إرنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف — عالمان ألمانيان خدما العلم في الشرق. أحدهما طمست ذكراه الأيام: كان صيدلياً وأستاذاً لعلم الصيدلة والكيمياء في بلد ترجع تقاليده إلى جذور بعيدة العمق في هذا المجال .. في مصر، وقام بدوره في توضيح علم الأدوية والعقار عند العرب في القرون الوسطى.

أما الآخر فهو طبيب العيون الذي عرفته القاهرة واشتهر بين أهلها، كما اشتهرين العلماء عن طريق دراساته العديدة في علم العقار عند العرب، وهي التي أدّى بها خدمة كبرى لميدان البحث في هذا المجال حتى اليوم.

كانا عالمان كرسا حياتهما لخدمة العلم، وفتحاً باباً جديداً لإدراك العلوم العربية على مصرعيه؛ ولقد أحب كلاهما وطنه الثاني — مصر — وأخلص له، وفهم قومه ومشاكلهم فهماً عميقاً. لذلك فإن إرنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف يستحقان احترامنا وتقديرنا لما قدما من مساهمات علمية قيمة وهامة ولما اتصفا به من خلال إنسانية عالية، بل نادرة الوجود.

ترجمة: عزيزه حمدي

*

يُولْيُوسُ رُوسْكَا

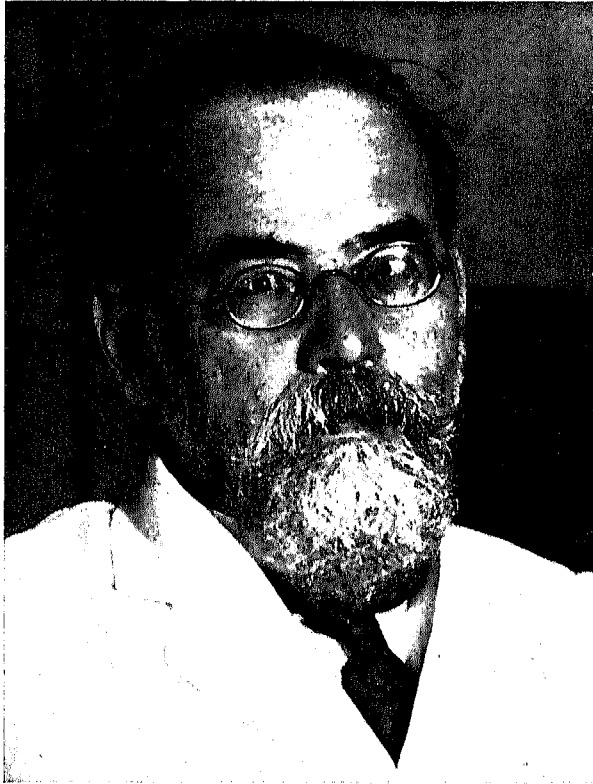
(١٨٦٧ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذ محمد يحيى الهاشمي

ولد يوليوس روسكا في ٩ شباط ١٨٦٧ في مدينة بول Bühl من مقاطعة بادن - بادن، فعدا عن الارث العلمي والفني فقد كان ينحدر من سلالة مقاومة للشدائد مجدة في العمل وكانت مقيمة في رايندورف - غرافنهاوزن - Rheindorf و كانت Grafenhausen من دائرة اثنهايم Amt Ettenheim وكانت والدته المرأة الرقيقة الاحساس محبة للأزهار وبمحبة نادرة عرفت توجيه اولادها.

بعد ان انهى يوليوس روسكا دراسته الابتدائية والثانوية زار الجامعة لدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبدون اية صعوبة وصل الى هدفه. ولم يكن مرتاحا نفسيا، لان التضارب بين العلم والايان استيقظ في نفسه، شأنه في ذلك شأن جميع احرار الضمير في العالم. ومنذ ان كان طالبا في المدرسة كان باحثا عن الله وكان دوما يفكر بذلك السؤال: لماذا لم تتجاوز رسالة الخلاص المسيحية دائرة الشعوب الجرمانية والرومانية والسلافية؟ وكطالب جامعي اهتم كثيراً بالبحث النقدي لتاريخ الاديان، وكان يقبل على التعلم بعطش لا يرتوى، وكان يريد عمل الانسجام بين عيشه وعلمه. وبحماس زائد كان يهتم بمعرفة الامم وتاريخ الحضارات وتاريخ تطور البشرية. ولقد قاده حب الكشف عن لغز العالم الى المسائل الدينية، وهكذا اخذ ينمو في نفسه حب التعرف على الاديان العالمية وكتبها المقدسة بلغاتها الاصلية، لان الترجمة مهما كانت محكمة فقد تفقدها شيئا من خصائصها. وهكذا عزم عزمًا اكيدا على الاطلاع على اللغات التي كتبت بها هذه الوثائق الدينية الاصلية، ولقد نفذ المخطط بهمة لا تعرف الكلل والملل، وان العالم ليدن لعزمه على ذلك بالقاء

ينحدر العلامة يوليوس روسكا من اسرة عريقة، لعل منشأها ايطاليا، تهتم بالعلم والتربية بصورة خاصة، فقد كان والده فرديناند معلماً متعدد الجوانب في مدينة برناو في الغابة السوداء، وفي مدينة بول Bühl من مقاطعة بادن، ومما يذكره الرسام هانس توما Hans Thoma بانه زار مدرسته للرسم ويملك حفيده البحاث في المجهر الالكترونى هيلموت روسكا صورة من الغابة السوداء من رسم هذا الرسام وذلك بتاريخ ١٨٦٠/٩/٥، وفي كنيسة «غرافنهاوزن» بالقرب من جبل كايزرشتول (كرسى الامبراطور) يوجد سجل عقد قران الجدة الاعلى نيقولاوس روسكا في عام ١٧٤٨، ومن المظنون ان هناك صلات بين نيقولاوس روسكا ورسام الاشخاص كارلو فرانسيسكو روسكا الذي عاش (١٦٩٦-١٧٦٩)، وان اسم روسكا يتردد بين سويسرة الجنوبية وايطاليا العليا. ولم يكن الجدة الاعلى الكبير هو الفنان الموهوب الوحيد، بل هناك اربعة عشر شخصا ممن ينتمون الى هذه الاسرة كانوا معمارين ونحاتين ورسامين والذين جاء اسمهم في قاموس الفنانين في سويسره. وقد قرأ كثيرون قصة حياة رئيس الواعظين نيقولاوس روسكا في قصص يناش Jürg Jenatsch العائلة لمؤلفه «كونراد فرديناند ماير» وقد ولد هذا الرجل الديني أعنى روسكا في عام ١٥٦٠ ومات شهيداً في عام ١٦١٨. وقد كتب راهب يحمل اسم «روبيرتو» قصة حياته الى درجة وصل بها الى حد الاساطير، وان نسخة منها كانت توجد في مكتبة الدولة في برلين. وكان علامتنا يفتخر بحمله نفس الاسم الذي كان يحمله رئيس اساقفة كنيسة كومو Como اعنى يوليوس روسكا.



الأستاذ يوليوس روسكا
إعارة: الأستاذ محمد يحيى الهاشمي.

In diesem Sinne, mit einem
herzlichen "Gruß auf", grüßt
für besten Ihr
Ruska

خاتمة رسالة من الأستاذ روسكا Ruska إلى الأستاذ محمد يحيى الهاشمي.

عن اصل وانتشار العلوم العربية حتى انتقلها الى
عالم الغرب.

لم يكن الطريق امام هذا العالم الفتي معبداً، فان المحافظ
ومستشار المدينة قررا بان روسكا لا يمكنه ان يكون
استاذاً رسمياً في المدارس الثانوية في هايدلبرغ الا اذا
استغنى عن مسلكه الجامعي، وبقلب جريح ونفس حزينة
خضع لهذا الامر، وودع الشرق، وكان آخر عمل قام به
هذا المجال ان ترجم «كتاب الاحجار» من «عجائب
في الخلوقات» لذكريا بن محمد القزويني وشرحه وذلك في
عام ١٨٩٦.

لكن، كيف يمكن ايقاف الميول الاصلية في الانسان؟
هنا الخلق: فيضاً محتماً، يحول في النفس تواقاً للتدفق...
وهل يقوى الينبوع على كبت الامواه المختزنة في احشائه،
ام هل تستطيع الشمس ان تحول دون انبثاق الضياء؟
وهكذا ايضا فان هذا الرأس المشتعل بحب البحث
لا يمكن اطفاء شعلته، فقد كان يكرس اوقاته خارجاً
عن عمله المحبر على ادائه في البحث في تاريخ العلوم،
ومع ذلك فقد كان يقوم في تفهيم ما اوكل اليه من تدريس
العلوم الطبيعية على اساس تربوي نادر، لان تاريخ العلم
يعطينا مقدرة تدريسية في تفهيم كيفية تطوره. وقد كان

انوار كشافه على تاريخ الكيمياء الذي لم يكن في بدء
حياته العلمية ضمن تفكيره. وحتى قبل ان يبدأ عمله
كمدرس للعلوم الطبيعية في مدينة هايدلبرغ درس اللغة
العربية والعبرية عند رودولف برونوف Rudolf Brünnow
وسمع معارفه اللغوية باللغات السريانية والآشورية والفارسية.
وعندما غادر رودولف برونوف مدينة هايدلبرغ مغادرة
نهائية بقي تدريس مثل هذه اللغات مدة من الزمن
في هذه المدينة فارغاً، فولى يوليوس روسكا وجهه شطر
البحاث الكبير في العهد القديم آدالبرت مركس Adalbert
Merx الذي علم اي طير نادر قد حط عنده. بيد أن
هذا الاستاذ اشار على تلميذه وصديقه الصغير تحويل
اتجاهه من دراسة علم الاديان الى تاريخ العلوم بتقديمه
اطروحة عن الرياضيات السريانية نظراً لمخطوطة في هذا
الموضوع موجودة في مدينة غوتينغن، وقد اصغى روسكا
لنصيحة وفي كانون الاول من عام ١٨٩٥ قدم الاطروحة
المذكورة بعنوان «المربعات من كتاب محاورات لسرفيوس
ابن شاكو "Quadrivium aus Servus bar Schaku's
Buch der Dialoge" عند الاستاذ بيتسولد Bezold وبهذه
الاطروحة سلك اتجاهها جديداً لاعماله العلمية من اجل
المستقبل بصورة اساسية. وكانت تخامره فكرة البحث

يعلم علم المستعدنات Mineralogie والجيولوجيا والرياضيات، وبعد سنين قلائل اهتم باللغات والفلسفة وفن التربية. ونظرا للدراسات العديدة والمتنوعة التي قدمها فن الصعب على من لم يكن يحمل نفس روح الشمول والهدف الفالوستي^(١) فهمه او تصنيفه ضمن اختصاص معين. ومع ان المعلم روسكا كان ناجحا في مهمته كمدرس للعلوم في المدارس الثانوية فلم يكن مرتاح الضمير، وبعد فراق العلوم القديمة مدة اثنتي عشرة سنة عاد اليها ثانية في دراسة ما يسمى كتاب الاحجار لارسطوطاليس، وكان يود متابعة دراسته في هذا الخصوص، ولكن توسع الاسرة ونمو الواجبات الملقاة على كاهله كانت المانعة من تفرغه.

من هذه الحقب ظهرت بعض الدراسات له اذكر منها «دليل المستعدنات» Leitfaden der Mineralogie الفه لطلاب التجهيز عام ١٩٢٠ يحوى جميع ما يلزم ان يعرفه الطالب الثانوى عن هذا العلم الجديد بتبسيط واضح ومع ذلك كان ملما بالموضوع جهد المستطاع، كما اطلعني على النماذج من المقوى التي قام بصنعها لطلابه لابرار الاشكال الهندسية للبورات الطبيعية امام الاعين مع ما رافق ذلك من عرض نماذج من الفلزات جاذبا للتلميذ الى محبة هذا العلم، عدا عن الرحلات المدرسية من اجل المشاهدات الجيولوجية، فضلا عن ذلك فهناك دراسات عن العلوم الطبيعية بالذات كالحيوانات الفقرية من وجهة التشريح المقارن وعلم الحياة، والمناسبات بين علم المستعدنات والجيولوجيا والكيمياء، وكما ان هناك دراسات اخرى مثل الكتاب الانكليزي من مجال الفلسفة، وبعض تقارير قدمت الى مؤتمرات الغويين، ومقالات تربوية مختلفة، ومع ذلك تتخلل هذه الفترة التي دامت من ١٩٠٢-١٩١٨ مقالات ودراسات عديدة عائدة لتاريخ العلوم العربية بصورة مدهشة، ولقد احصيت في الخطاب الذي القاه «ويندريش» تكريما لعلامتنا عند بلوغه السبعين وذلك في عام ١٩٣٧، وهي تبلغ حتى عام ١٩١٨ مائة وثلاثة دراسة^(٢).

لقد حدث حادث محزن لم يكن بالحسبان هز حياته هزاً مريعاً، ان عمه والد زوجته العلامة الكبير المستشار االبرت مركس المارالذكروقع في حفرة القبر ميتا اثناء تأبين صديق له على قبره. كانت هذه المأساة ضربة كبيرة من اجل العلم، لان هذا العلامة مركس كان يقوم باخراج السفر العظيم ل«الأنجيل الاربعة الاساسية»، ولا يمكن الثقة باحد لاجراج هذا السفر العظيم الا يوليوس روسكا، وان الدراسة الاخيرة التي انتهت من انجيل يوحنا هي باللغة السريانية ومفسرة بمخطوطة باليمبست Palimpsest وقد عثر عليها في دير سيناء، فكانت تنتظر من يتولى اخراجها ايضا الى الطبع بصورة صحيحة. من اجل ذلك منح اجازة للقيام بهذه المهمة الشاقة، بيد ان الاجازة لم تكن كافية فلما طالب بالتمديد ثانية رفض طلبه، ولكنه في هذه المرة لم يخضع للامر الواقع ولم يقطع عمله، فاستقال منه ومن التدريس بالثانوى وذلك عام ١٩١٠، واستغنى بذلك عن حقه في التقاعد وعن خدمة عشرين عاما. ولو كان روسكا من امة لا تقدر البحث العلمى لقضى على نشاطه واصبح نسيا منسيا. نعم لقد انسدم امامه طريق ضيق، ولكن انفتح امامه طريق واسع، فأخذ يعمل بما تنوق اليه نفسه، وانكب على اخراج السفر المذكور لعنه، وقدم دراسة عن «كتاب الاحجار لارسطوطاليس» كدكتوراه ممتازة^(٣)، وقام بمحاضرة نموذجية في الجامعة في عام ١٩١١ وذلك عن علم المستعدنات عند العرب. وعلى ضوء مقارنة المخطوطات العربية واللاتينية تبين لروسكا بأنه يلزم البحث عن اصل هذا الكتاب في مراكز الدراسات الطبية السريانية الايرانية، وكبرهان لا يقبل الجدل على ذلك وجد معالجة المستعدنات لها طابع ايراني، وكثيرا ما جاء ذكر ايران وخراسان والهند والصين ككاهن لبعض الاحجار السحرية، ففي بعض الاحيان حسب دراسة روسكا يظهر لنا مؤلف كتاب الاحجار المذكور طبييا قد زاد في ذكر الاحجار التي لها تأثير طبي، وفي الاحيان الاخرى يترأى لنا كأنه مؤمن بالاعاجيب، وجمع اخبار الاحجار السحرية وغير ذلك.

berger Oberrealschule mit Realgymnasium, 9.2.1867—12.2.1949.

ر. ويندريش: يوليوس روسكا وتاريخ الكيمياء

R. Winderich: Julius Ruska und die Geschichte der Alchemie, Festgabe zu seinem 70. Geburtstag am 9. Februar 1937. Dargeboten von der Deutschen Gesellschaft für Geschichte der Medizin, Naturwissenschaft und Technik, Berlin 1937.

(٢) هي ما تسمى «هابيليتاسيون» Habilitation والتي يحق لحاملها الترشح لاساتذية الجامعة.

(١) الهدف الفالوستي: نسبة لفالوست في اثر غوته الشهير.

(٢) انى مدين لهذا الخطاب الآتى الذكر، وذكرى مرور مائة عام على المدرسة الثانوية لهايدلبرغ الذى حرره ابن علامتنا هيلموت روسكا رئيس معهد المجهز الألكترونى في جامعة دوسلدورف، وما ارسله لى ارنست روسكا رئيس معهد المجهز الألكترونى في جمعية ماكس بلانك في برلين من المعلومات:

هيلموت روسكا، ذكرى الأستاذ روسكا

Helmut Ruska, Zur Erinnerung an Prof. Dr. phil. Dr. phil. h.c. Julius Ruska, Festschrift zur 100-Jahr-Feier der Heidel-

كان روسكا يطرح دوماً على نفسه السؤال الآتى: عن أى طريق اخذ العرب علومهم؟ وكيف انتشرت كتاباتهم وخاصة في الغرب المسيحي اللاتيني الذى كان فقيراً في العلم؟ ولم تكن النتائج التى وصل إليها مرضية، بيد انه بقى أميناً لنفسه، رغم ان في دروسه في الجامعة لم يعط الا اللغة العربية للمبتدئين ودراسة القرآن. وكان سلفه في تدريس العلوم الشرقية كارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker الذى اصبح فيما بعد وزيراً للمعارف، وهو الذى فهم روسكا في رسالته العلمية الجديدة واستدعاه الى برلين ليتولى ادارة معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية وذلك في عام ١٩٢٧ والذى توسع في عام ١٩٣٠ الى معهد البحث عن تاريخ الطب والعلوم الطبيعية تحت ادارة العلامة الكبير باول دييغن Paul Diepgen رئيس الشرف للجمعية الألمانية لتاريخ الطب والعلوم الطبيعية والصناعة والتى لى الشرف ان اكون عضواً فيها وان اشترك في عدة مؤتمرات لها مقدماً باحاثاً تتعلق بتاريخ العلوم الطبيعية العربية.

اتصلت بهذا المعهد قبل توسعه وغالب الظن انه كان ذلك في عام ١٩٢٩. اما الدافع لهذا الاتصال فهو الحادث الآتى: كنت اقدم فحصاً في الكيمياء غير العضوية عند الاستاذ الكبير مانيش Mannich مدير معهد الصيدلة في جامعة برلين، وفي اثناء الفحص سألتني عن اماكن وجود الحديد في العالم، وذكرت له وجوده في المانيا وفي اوربا، ولما سألتني عن وجوده في البلاد العربية لم اعرف اعطاء جواب له، لاني لم اكن على علم في ذلك الوقت، فنصحني ان اهتم ايضاً ببلادى لأن العلم الذى اتعلمه في الغرب يلزم ان تعود فائدته على بلادى ايضاً ووطنى، فذهبت توأ الى مكتبة الدولة في برلين في شارع «تحت ظلال الزيزفون» "Unter den Linden" وراجعت القسم الشرقى منها والفهرس العام الكبير قسم الموضوعات، فعثرت على بعض المصادر، ولما راجعتها وجدت ان قسماً كبيراً منها من جملة ما اتخذته من المصادر، الكتب العربية القديمة مثل والترشميدت، صاحب دراسة مكامن المستعدانات في العربية Walther Schmidt, Minerallagerstätten Arabiens والذى اتخذ كتاب صفة جزيرة العرب للحاجى مصدراً. فقلت في نفسى اذا كان الالمان يدرسون هذه الكتب القديمة مع صعوبة اللغة العربية من اجلهم، فما احرانا نحن معشر العرب ان نقوم بمثل هذه الدراسة وهى مكتوبة بلغتنا وليس من الصعب علينا فهمها اليوم رغم تقادم السنين، فاتصلت بمعهد البحث بتاريخ العلوم

الطبيعية وتعرفت على الباحثة الكبير في هذا الموضوع، ورئيس المعهد يوليوس روسكا، فقدم لى عدة كتب من دراسته ودراسة غيره، وكان من جملتها دراسته القيمة عن كتاب الاحجار لارسطوطاليس، فجذبتنى هذه الدراسة، وفيما اذكر ايضاً، رغم مرور اكثر من اربعين سنة، بانى اثناء مرورى في حديقة «تيرغارتن» بعد ان قطعت شارع تحت ظلال الزيزفون اخذت اقرأ المقدمة فاستهوتنى عبارات المؤلف الحكيمة فيها فاخذت متابعتها رغم ان الوقت أصبح مساء والنور ضئيلاً، ورغم تقادم العهد على مطالعتها فلا تزال ترن في اذنى كأها البارحة، وها أنا اقوم بترجمتها الى العربية:

«ليست الاشعار البدوية ولا الأدب الذى نشأ بعد ظهور الاسلام هو الذى جعل اسم العرب لامعاً في الغرب. اذا اردنا ان نفكر بتأثير الحضارة الاسلامية في الغرب المسيحي، فيجب علينا ان نفكر في الرياضيات العربية والفلك والكيمياء والطب، تلك الفروع التى تعلم منها الغرب بجد ونشاط قروناً عديدة قبل اكتشاف العلوم اليونانية، ولا تزال كثير من التعابير العربية المتداولة تنبؤنا عن ازدهار العلوم تحت راية الاسلام، وتعلق الغرب المسيحي من الشرق الاسلامى؟ فهزئتني هذه الكلمات فاقبلت على دراسة العلوم العربية القديمة بارشاد العلماء الالمان، وقد طلب منى الاستاذ روسكا ان اترجم كتاب احمد بن يوسف التيفاشى القيم من القرن السابع الهجرى والرابع عشر الميلادى في القاهرة واصله من مدينة قفصة من اعمال تونس والذى هو بعنوان «ازهار الافكار في جواهر الاحجار»، والذى كان يوجد منه عدة مخطوطات في غوتا وبرلين والقاهرة. وكان ذلك بعد فترة تأسيس المعهد الكبير في برلين وذلك في عام ١٩٣٢ والذى اصبح يضم معهد تاريخ الطب ايضاً، ومكثت فيه حتى اواخر عام ١٩٣٣، وقمت في ترجمة كتاب التيفاشى المذكور ولا تزال الترجمة محفوظة عندي لم اجد الفرصة اللازمة في تنقيحها ووضع الشروح اللازمة ونشرها، كما قمت بعمل دراسات مطولة عن المستعدانات العربية نشرت منها بعض الفصول. ولكن بعد ذلك ساقنتى الاقدار الى جامعة بون، لان جامعة برلين لم توافق على المزج بين العلوم الطبيعية العصرية والعلوم القديمة رغم ما بذله استاذنا رئيس قسم تاريخ العلوم الطبيعية من جهود، ولعل موت المستشرق المار الذكر بيكر كان السبب في ذلك، فوافقت على هذا المزج جامعة بون، فحولت وجهى اليها، وهناك قدمت اطروحتى عن «منايع كتاب الاحجار للبيريونى»،

مع مواد الفحص علم المستعديتات والعلوم الاسلامية والفلسفة، وهكذا لم اقطع صلاتي بالعلوم العصرية ابدا.

عدت ثانية الى برلين وذلك في آخر عام ١٩٣٥ واتصلت بمعهد تاريخ العلوم الطبيعية ثانية وعندما قدمت للاستاذ روسكا اطروحتي والتي فيها تعليق على كتابه الا وهو كتاب الاحجار لارسطوطاليس هنا في ورحب بدراستي، وفي حقته ينطبق وما تواتر عن الامام الشافعي قوله المأثور: «اذا كنت في مجلس لا أبالي ان انطق الله الحق على لساني اولسان خصمي». اخذت بعد ذلك بدراسة مؤلفات روسكا وخاصة المتعلقة بتاريخ الكيمياء. ولقد قام هذا العلامة بكشف جديد في هذا المضمار، ففي ربيع ١٩٣١ عندما كان مقيا في غوتينغن عثر على مخطوطة سر الاسرار للرازي، ولكن قسما من هذه المخطوطة وترجمتها الى اللغة الالمانية لم تظهر الى النور الا في عام ١٩٣٥ العام الذي عدت فيه الى برلين، ولعل هذا الكتاب الذي اخرجه روسكا هو من اهم الاعمال التي قام بها لكشف النقاب عن تاريخ هذا العلم، لان هذا الكتاب هو كتاب تجارب محضة بعيد عن الطلاسم والخيالات والالغاز، ولم اتوقف لدراسته نظراً لقصر المدة التي بقيتها بعد ذلك في المانيا واشغالي في امور غير تاريخ الكيمياء وسفري ايضا الى الوطن وزيارتي مناطق اسكندنافيا، ولكنني قمت بشئ من هذه الدراسة عندما القيت في معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية التابع لجامعة مونيخ في المتحف الالمانى سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الكيمياء العربية في صيف عام ١٩٦٧، بعد ان فرغت من زيارتي للمعاهد العلمية الالمانية بدعوة من التبادل الاكاديمي الالمانى في باد غوديسبرغ. وكان جل اهتمام المعهد بالمواد التي كان يعرفها الاوائل من العرب والعمليات التي قاموا بها. اما الطلاسم والسحر التي وردت عند المؤلفين القدامى فقد كان اهتمام المعهد بها قليلا، لان هذا المعهد التابع للمتحف الالمانى المذكور يهتم بتطور العلوم من الوجهة الواقعية، اما الامور الاخرى فهي خارجة عن نطاق اختصاصه. وقد استعنت بالقاء هذه المحاضرات على دراساتي في المخطوطات القديمة ودراسات روسكا وكذلك دراسة ايلهارد ويدهمان عن الكيمياء عند العرب: Eilhard Wiedemann, Zur Chemie bei den Arabern, Beitr. z. Geschichte der Naturwissenschaften XXIV., Erlangen 1911.

وما يخص تاريخ الكيمياء فقد اخرج روسكا كتابين: الاول عن مشكلة خالد بن زيد بن معاوية واشغاله في الكيمياء وخاصة الكتاب المنسوب اليه كتاب القراطيس،

والثاني عن جعفر الصادق الامام الشيعي السادس، ففي الكتاب الاول يقول روسكا بان الانسان لا يقدر ان ينشئ الصلة ولا ان يثبتها والمصادر العربية هي اوثق من المصادر اليونانية، ومما يذكره رواية عن خالد، الشعر المأثور:

هو الحجر المصاب بكل ارض
وفي الاسواق تلقاه حقيراً
يضمن به الجواد على اخيه
اذا اضحى به يوماً خيراً

اما الكتاب الثاني فينفي روسكا علاقة جعفر الصادق بالكيمياء ويعد هذا الكتاب متحلاً ورغم كل شئ يقوم على دراسته بكل دقة وامانة ونزاهة ضمير، وتبقى جميع هذه الآثار كوثيقة هامة في تبيان العمل الجدي والدراسة المتقنة لهذا المحقق التي نحن بأمرس الحاجة اليها. ومما يؤسف له حقا ان مخطوطات جابر لم تخرج الى النور على الطريقة التي قام بها علامتنا المذكور مع الترجمة والشرح لتفتح باب البحث على مصراعيه في هذا الخصوص^(٤) لان الدلائل تشير على وجود كيمياء عربية في القرن الثاني الهجري، والثامن الميلادي رغم وجود زيادات متأخرة.^(٥)

ان الصعوبة هنا في معرفة اثر جعفر الصادق في الكيمياء، لدى دراساتي الاماكن التي تنوه بجعفر في الكتب المنسوبة الى جابريين ان هذه النصوص ليست في العمليات الكيميائية بل بالارشادات الدينية، ولدى فحص المذهب الجعفري حسب الوثائق المتواترة عنه، نجد التوافق فيما يذكره جابر عن امامه في الارشادات الدينية فذهب جعفر^(٦).

(٤) ان ما قام به بول كراوس في اخراج مخطوطات جابر لا تتجاوز بعض منتخبات كيفية وتحتاج الى دراسات جدية، من اجل ذلك لا يمكن اعطاء الحكم النهائي الا بعد اخراج جميع المخطوطات المنسوبة لجابر على النمط الذي اخرج به روسكا مخطوطاته. اما الاحكام المبنية على غير ذلك فلا يمكن ان تكون لها قيمة الا بعد معرفة النصوص معرفة تامة.

(٥) «راجع كتابي الامام الصادق ملهم الكيمياء» ودراساتي المنوه عنها سابقا، وقد روى روسكا عن ابن خلدون:

«حدث هذا العلم في الملة... وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على ايديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات وامزاجهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبهم، وزعموا ان الكمال الاسائي مظاهر ارواح الافلاك والكواكب وان طبائع الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان من لدن الابداع الاول تنتقل في اطواره وتغرب عن اسرارها، فحدث لذلك علم اسرار الحروف وهي من تفاريع علم السيمياء».

(٦) اني لم اقل عن علاقة اكيدة بين جعفر الصادق وجابر بن حيان، بل ذكرت انها ممكنة وذلك في الارشادات الدينية، انظر كتابي الامام الصادق ملهم الكيمياء وبده الكيمياء العربية، المصادر المتقدمة، وهكذا وقع في هذا

الارضى ليس الا صورة عالم السماء، وهنا نكون فى المراكز الطبية السريانية الفارسية وفى المدن الكبيرة فى الشمال والشرق من المملكة الساسانية وفى الطرقات المؤدية الى شعوب آسيا المركزية. ومن هناك كانت تنصب منذ القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى تيارات من الفلكيين والمؤمنين بالاساطير الفلكية (المنجمين) والاطباء والكيميائيين فقد كانت هذه المراكز المحارقاة الفكرية للحضارة الاسلامية.

ان دراسة تاريخ النشادر افضى بعلامتنا بصورة اضطرارية الى دراسة جابر بن حيان ذلك الغز فى تاريخ الفكر الاسلامى، فى البدء اقتصر روسكا على مطالعة ما اخرجته برتولت Bertholet من كتب السبعين المشوهة. وفى مجرى عمله استلم بناء على رجائه. من البحاثة فى تاريخ الطب الاسلامى ماكس مايرهوف فى القاهرة (٨) صور مخطوطات جابر التى القت انواراً كشافة على هذا الموضوع، وقد كانت هذه المخطوطات مشحونة بجانب المعالجات الكيميائية والصناعية بالا افكار الفلسفية، وكانت الفكرة الهامة عند جابر مشكلة العلية ويراهما فى فهم النظام وان الاختلافات الكيفية فى الكون ترجع الى الكمية (٩).

لمعرفة دور الكيمياء فى القرون الوسطى الاوربية افضى به البحث عن كتاب ما يسمى «صراع الحكماء» Turba Philosophorum والذي كان معروفاً فى عالم الغرب فى القرن الثانى عشر. ولكن لم يقطن احد بقيمته، ولكن روسكا برهن انه ترجمة لاصل عربى، وان الاسامى التى وردت فيه والتى كانت غير مفهومة فى النقل تشير الى الاعتراف بالاسلام وذكر السورة ١١٢ من القرآن الكريم «قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً احد» (١٠).

لقد وجد فى هذا الكتاب اسامى يونانية محرفة، وكانت بعد معرفة التشويش الذى حصل فى النقل اسامى فلاسفة اليونان امثال انكسمندرس وكسينوفان واميدوقليس وغيرهم، كما وجد بعض اسامى مستعدنات مثل غادنيا (غادمية).

(٨) عن تاريخ حياة هذا البحاثة فى تاريخ الطب العربى واللى عاش فى القاهرة كطبيب للعيون، وتوفى فيها عام ١٩٤٥، راجع مقال جيزلا كيرشر، «الامان وتاريخ الصيدلة العربية»، فكر وفن ١٣، ص ٥٤/٥٣. (٩) J. Ruska, Turba Philosophorum, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. und der Medizin, Bd. I, Berlin 1931.

(١٠) وقد وجد تلميذ روسكا پاول كراوس هنا افكاراً اسماعيلية، وقد قمنا فى الرد عليه فى كتابنا، الامام الصادق ملهم الكيمياء، المصدر المتقدم، اما بدء الكيمياء فى الحضارة العربية فيلزم ان تكون قبل القرن التاسع الميلادى، انظر المصادر السابقة.

ان فى اخراج كتاب الكيميائيين العرب رقم ٢ Arabische Alchemisten II, Heidelberg 1924 اى الكتاب المنسوب لجعفر الصادق سد به روسكا فراغاً كبيراً، رغم انه نبنى تماماً علاقة الامام بالكيمياء. ويجد روسكا الصعوبة فى فهم الكيمياء القديمة لحفاها بالرموز، ولتسهيل الموضوع اخرج بالتعاون مع ايلهارد ويدهمان J. Ruska-Eilhard «الاسامى المستترة الكيميائية» "Alchemistische Decknamen", Wiedemann, Sitzungsberichte der phys.-med. Sozietät Erlangen 1924, 56, ومما وجده انه يوجد للاسم الواحد عدة اسماء مستترة كالنشادر مثلاً الذى يسمى العقاب والطير الخراسانى والملح الطائر وبصاق الاسد وغير ذلك، وكذلك الامر فى الزئبق وغيره.

اثناء بحث روسكا بتاريخ النشادر وجد النص الاصلى لكتاب اللوح الزبرجدى Tabula Smaragdina والذي كان معروفاً فى ترجمته اللاتينية، ويعتبر هذا الكتاب كتاباً مقدساً من اجل الكيميائيين القدامى، وان سحره لا يمكن ان يستغنى عنه اى طالب لصناعة الكيمياء. وان آخر كتاب له اثر فى الاغلاق الهرمسية، ولكن هل هذا الكتاب من اصل عربى؟ وهل انتقل بعد ذلك الى اليونانية ووصل عالم الغرب عن طريق اللاتينية؟ وللد على هذا السؤال جال روسكا مسافة قرنين من الزمن فى تاريخ الكيمياء ووجد ان هذا اللوح الزبرجدى فى صيغته الاصلية هو ثمرة نهاية مخطوطة تبحث فى الكون، وقد جاء ذكره ايضا فى اسفار جابر، وينسب تفسير اسرار الخليقة وعلل الاشياء الى بلينيوس الطوانى Apollonios von Tyana (٧) ولم يعرف ان هذا العالم الفيثاغورى اشتغل بالكيمياء. اما فكرة تاثير العلويات على السفليات والكواكب فيلزم ان تكون ضمن الحضارة المصرية اليونانية، وبذلك نصل الى الفكرة القديمة بأن العالم

الخطأ «مارتين بلسنر» فى مجلة المستشرقين الالمانية انظر:

Martin Plessner, Gābir ibn Ḥayyān u. die Zeit der Entstehung der arab. Gābir-Schriften, ZDMG, Bd. 115, Heft 1, 1965.

(٧) ابولونيوس الطوانى: عاش هذا المفكر اليونانى فى عام (١٠٠ ب. م.). وقد جاء ذكره عند علماء الاحجار فى ذكر علل الاحجار، راجع مقال فى مجلة الحوليات الاثرية السورية، ج ١٥، ١٩٦٥.

M. Y. Haschmi, Die griechischen Quellen des Steinbuches von al-Beruni, Les Annales Archéologiques de Syrie, Damas 1965, Vol. XV, Tom II, p. Vgl. W. Windelband, Lehrbuch der Geschichte der Philosophie, Tübingen 1935, p. 179, J. Ruska, Tabula Smaragdina, Heidelberg 1926, p. 164.

(الأمم)، بوريتيس (حجر القداح)، والسندروس (كهرت الزرنينج) وغير ذلك. ولم يكن التفسير عن طريق الكيمياء اليونانية بل العربية، ويشير ايضا الى رموز عديدة في هذه المخطوطة وارشادات عملية عديدة. وكل هذه الدراسات هي في الحقيقة مقدمة لدراسة الرازي.

ان العمل العظيم الذي قام به روسكا في تاريخ الكيمياء العربية هو اظهار كتاب سر الاسرار للرازي الموجود بصورة مخطوطة في مكتبة غوتينغن الى ضوء النهار وترجمته الى اللغة الالمانية مع التفاسير والشروح، وبذلك يلقى انوارا كشافا على هذا الموضوع بصورة واضحة جلية. وقد كان قد انتهى روسكا من هذا السفر الكبير بصورة مخطوطة قبل سنوات من بلوغه سن السبعين وذلك في عام ١٩٣٧. ولقد تعاون كل من دار نشر يوليوس شبرنغر Julius Springer في برلين ومعهد دراسات تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في نفس المدينة لاجراء هذا السفر الرئيسي للرازي مترجماً الى اللغة الالمانية، وقد سبق ذلك مقال نشره في مجلة الاسلام الالمانية (عدد ٢٢-١٩٣٥ ص ٢٨١-٣٧١) بعنوان «الكيمياء عند الرازي»، وكذلك اخراج فصول ثلاثة من كتاب الرازي المذكور، وكتاب الشبوب (جمع شب) والاملاح والسفر الاساسي للكيمياء (١٠). وتكريماً لعلامتنا اخرجت دار النشر المذكورة الترجمة الالمانية الكاملة مع الشروح والتفاسير لهذا الاثر عند بلوغ روسكا السبعين وذلك في عام ١٩٣٧ (١١).

ويذكر روسكا نفسه في مقدمة كتاب الرازي الاخير ما يلي: «ويظهر ان جميع مصادر الكيمياء من مواد وآلات ومنهج واعمال والمصادر اللاتينية لجير Geber (١٢) يمكن ارجاعها الى مصادر كتاب الرازي (سر الاسرار)».

نعم ان بعض النتائج العلمية التي اتي بها روسكا قد تبدلت اليوم، وتبين ان الكيمياء العربية هي من تاريخ اقدم

(١٠) للكيمياء اللاتينية المتأخرة. Das Buch der Alaune und Salze. Ein Grundwerk der spätleinischen Alchemie, Berlin 1935, Verlag Chemie.

(١١) Al-Razi's Buch Geheimnis der Geheimnisse, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. u. d. Medizin, Bd. VI, 1937, Berlin, XII.

(١٢) تختلف نصوص الكيمياء في مخطوطات جابر بن حيان العربية عن ما تواتر عن جابر «جبر» من المخطوطات اللاتينية في الكيمياء، ويرجع روسكا هذه النصوص الاخيرة للرازي. بيد ان هوليارد يشير بان مصادر جابر اللاتينية هي ليست من كتب جابر بل ما دونه الجلدكي عن جابر، راجع مقال هوليارد عن الكيمياء في القرون الوسطى الاسلامية، اطروحة التليمي المقدمة لجامعة لندن ١٩٥٤.

E. J. Holmyard, Alchemy in medieval Islam, Endeavour, Vol. XV, 55, July 1955. M. Taslimi (Jildaki) Thesis aproved for the Ph. D. degree University of London 1954.

مما كان يظن، حتى انه من المحتمل ان تكون شخصية جابر شخصية حقيقية عاشت في ذلك الزمن المتواتر الى القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، نظرا للمخطوطات العديدة المكتشفة حديثاً (١٢). حتى ان انتحال كتاب ارسطوطاليس قد عرفه محمد بن احمد البيروني من القرن العاشر والحادي عشر الميلادي، اذ يقول في كتابه الجواهر في معرفة الجواهر (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ) ص ٤١: «وفي كتاب الاحجار المنسوب الى ارسطوطاليس (فما اظنه الا منحولا عليه) انه ربما اتفق في الياقوت نكتة فاضلة الحمرة على سائرهما فاذا نفخ عليه في النار انبسطت النكتة فيه فزادته حسنا وان كانت سوداء ذهبت بعض سوادها». وهذا النص مع بعض الاختلافات موجود ايضا في كتاب الاحجار لارسطوطاليس الذي نشره وترجمه روسكا (ص ٩٩، ١٣٥) (١٤). وهناك في الحقيقة بعض المناسبات بينما تواتر عن ارسطوطاليس الفيلسوف المعروف وكتاب الاحجار المنتحل له. ان النتائج متبدلة دوماً، ولكن البحث العلمي التزيه باق الى الأبد، ويقم هذا لروسكا وامثاله نصبا تذكاريّاً خالداً لا يقضى عليه تعاقب الايام ومر الاعوام، وينطبق هنا وما تواتر عن الشاعر الالمانى ليسنغ، Lessing:

«لا ينحصر فضل الانسان في امتلاكه للحقيقة... وانما فضله في الجهد الذي يبذله مخلصاً في السعي اليها، ولا تنمو ملكات الانسان بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، وكماله المتزايد ينحصر في هذا وحده، بل ان امتلاك الانسان للشيء يميل به الى الركود والكسل والغرور. ولو ان الله وضع الحقائق كلها في يمينه ووضع في شماله شوقنا المستمر اليها وان اخطأناها دائماً ثم خيرنى لسارت الى اختيار ما في شماله، وقلت - يا ابانا؟ رحمتك، ان الحق الخالص لك وحدك.» وهذا يوافق دعاء المسلمين في صلواتهم من سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم»، ويؤثر عن محمد اقبال في هذا الصدد قوله: «انى اضحي باليقين المطلق في سبيل الشك لأنى شهيد البحث». بقيت علينا ناحية واحدة لابد لنا في ختام ذكرى هذه الشخصية الفذة من التنويه بها الا وهى تربية اولاده، فيقول عنه ابنه هيلموت ما يلي (١٥).

(١٢) Fuad Sezgin (Frankfurt/M), Das Problem des Ġābir ibn Ḥayyān im Lichte neu gefundener Handschriften, ZDMG, 114, 1954, S. 255-68.

(١٤) راجع مقال عن المصادر اليونانية للبيروني، المصدر المتقدم (مجلة الحوليات الأثرية السورية).

(١٥) ذكرى روسكا، المصدر المتقدم. (هيلموت روسكا)

«لقد كان ابونا الكثير الانشغال، من اجلنا نحن الاولاد غرقاً في غرفة دراسته، ورغم ذلك فقد كنا نقوم بصحته بالنزهة في ايام الآحاد وفي العطلات بصورة كافية، وكذلك كنا نجرى بعض المباحثات في الجيولوجيا وعلم المستعدنات والنبات، وكان التاريخ وما قبل التاريخ من المواضيع المحببة لنا. اما قيام والدنا في مراقبة بعض الواجبات المدرسية فلم تكن محببة لدينا. وكانت تثار في بعض الاحيان بيني وبين اخي مناقشات حادة، ولكن وجودنا حول طاولة الدراسة للوالد كانت تسكن من حدة هذا التوتر وتهدي الزوبعة الفكرية. وفي مقال نشره والدنا عن العيد المئوي لتأسيس المدرسة (في هايدلبرغ) ذكر انه استعمل المجهر المبعد في احدى خزائن المدرسة. ولم تتح لي الفرصة بالقيام بالتجارب المكروسكوبية مع والدي، ولكن الاستاذ لايبير Leibner دربنا على تمارين فحص الانسجة والخلايا لاداء الفحص التمهيدى للطب. وعندما اظهرت لوالدي رغبتي للحصول على مجهر حقق لي هذه الرغبة على الفور. وبعد عشر سنوات من ذلك كنت اتمرن على المجهر الالكتروني لاختي ارنست Ernst ولصهرنا بودوفون بوريس Bodo von Borries في مختبرات سيمنس هالسكه (الشركة المساهمة) Siemens-Halske AG. للفحص الحياتي.» ثم يتابع قوله: «هناك شكايات عديدة من اجل اصلاح المدارس، وكان والدي من اولئك المصلحين، وكان يتطلب ثقافة في العلوم الطبيعية في المدارس بصورة كافية، رغم انه كان من المنتمين الى الثقافة الانسانية (للأوائل)، والتاريخ، وعلم اللغات (بجانب العلوم الطبيعية)، وكان على يقين بأن المواهب النادرة في جميع الفروع لابد من ان تتقدمها ثقافات في العلوم الطبيعية المحضة. لقد تعلمنا في البيت احترام المدرسة وجهود المعلم، ولقد تربينا على ان نكون بنشاط دائم للقيام باعمال فريدة داخل المدرسة وخارجها، وكان والدي يعطى الحرية لنا في اختيار الاختصاص الذي كنا نصبو اليه، وان لم تكن هناك وظيفة براتب تداعب خواطرنا. تربينا ايضا على لزوم التعاون بين البيت والمدرسة، ونعترف بدفع مواهبنا الى الامام بدءاً من المدرسة حتى الى المواقف

الحاسمة في تقدم الحياة، وان تنفيذ مثل هذه الامور بحكمة وروية هي من الواجبات الاولى للمجتمعات الانسانية». ان فكرة الدقة هذه اورثها يوليوس روسكا لابنيه كل من ارنست واخيه الاصغر هيلموت، فاصبح الاول اليوم مدير معهد المجهر الالكتروني في جمعية ماكس بلانك^(٢٠) في برلين والثاني مدير معهد الفيزياء الحياتية والمجهر الالكتروني في جامعة دوسلدورف. وليست هذه المرة الاولى التي توقظ العلوم الفكرية البحتة العلوم الايجابية الحديثة، فلقد تقدمتها ايضا جهود سابقة، فاذا كانت جهود روسكا مزيجاً من العلوم الايجابية والفكرية، فهناك ممن كانوا من العلوم الفكرية المحضة وكانوا مع ذلك السبب في تقدم العلوم الواقعية، فان الباعث على تشكيل جمعية الامبراطور ويلهلم والتي اصبحت فيما بعد جمعية ماكس بلانك هو ويلهلم فون هومبولدت الديبلوماسي والعالم اللغوي والمربي الكبير، وان اول رئيس لهذه الجمعية كان العالم اللاهوتي ادولف فون هارناك Adolf von Harnack ومع ذلك فقد كانت هذه الجمعية الباعثة على تقدم العلوم الايجابية بصورة مثالية.

يجدر بنا ان نختتم ذكرنا لعلامتنا يوليوس روسكا بكلمة للجاحظ، ذكرتها ايضا في ختام محاضرتي عن علم الحياة عند الجاحظ في مؤتمر تاريخ الطب الدولي العشرين الذي انعقد في برلين،^(١٦) تعبيراً عن التقدم المستمر الى الامام: «ينبغي ان يكون سيلنا لمن بعدنا كسيل من كان قبلنا فينا، على اننا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا».

هكذا اغمض هذا العالم التحرير والمدقق القدير عينيه في الثاني عشر من شباط عام ١٩٤٩ الى الراحة الأبدية. ويصادف الآن مرور احدى وعشرين عاماً على وفاته، ولكنه سيبقى خالداً الى الاجيال القادمة طالما هناك دراسات جدية في تاريخ العلوم العربية.

(١٦) عام ١٩٦٦.

Biologie bei al-Dschahiz, einem arabischen Naturphilosophen aus dem IX. Jahrhundert.

ولقد نشرت هذه المحاضرة ايضا باللغة العربية فقط. المجلس الأعلى للعلوم في اسبوع العلم التاسع (مهرجان الجاحظ) دمشق ١٩٦٨.

كَازِلْ بَرُوكْلَمَنْ

(١٨٦٨ - ١٩٥٦)

بقلم : الأستاذ يوهان فولك

الذى كان قد ألف كتاب قواعد لتاريخ لهجة مكلنبورغ أثار حماس بروكلمان الشديد لدراسة الألمانية السفلى، بحيث ظل طيلة حياته يتابع باهتمام شديد مراحل التقدم في هذا الحقل. ومع هذا الحب الشديد للوطن كان يتمتع بحب غريب للاقطار البعيدة كانت تغذيه قصص الرحلات الاستكشافية في اجزاء العالم المجهولة بحيث نشأت في نفس الصبي رغبة ملحة في أن يحوب العالم سواء كطبيب بحرى أو مترجم أو مبشر. وكان هذا هو الدافع الذى حدا به إلى الاستماع إلى درس العبرية الذى كان يعطيه نيرغر؛ وقد ذكر بافتخار أنه استطاع في امتحان الشهادة الثانوية النهائى أن يترجم مقطعاً غير مشكل من سفر عاموس (العهد القديم) دون أى إعداد سابق. وتعرف في المدرسة أيضاً إلى لغة الكتاب المقدس الآرامية وإلى السريانية كذلك. وحين التحق بجامعة روستوك بعد عيد الفصح عام ١٨٨٦ قرر أن يدرس اللغات الكلاسيكية والتاريخ إلى جانب الاستشراق. وكان مدخله إلى العربية والاثيوبية والقواعد المقارنة للغات السامية على يدى المستشرق فريدريش فيلهلم مارتن فيليبي، F. W. M. Philippi. وبدافع من فيليبي ذهب بعد عيد الفصح من عام ١٨٨٧ إلى بريسلاو للدراسة على فرانز پريتوريوس Franz Praetorius الذى كان عالماً ممتازاً بلغات الحبشة. ودرسه زيجموند فريكل S. Fraenkel لغة التلمود. وراح يدرس اللغة التركية التى كان تدريسها لا يزال نادراً في ألمانيا، راح يدرسها لوحده.

وحسب نصيحة فيليبي وپريتوريوس مضى بروكلمان في عام ١٨٨٨ إلى ستراسبورغ للدراسة على يدى تيودور نولدكه. وإلى جانب ذلك راح يدرس السنسكريتية والأرمينية لدى عالم اللغات الإندو - جرمانية هاينريش هوبشمان Heinrich Hübschmann. وجاذبه كذلك دراسة الحضارة المصرية القديمة فراح يحضر محاضرات دوميشن Dümichen، الذى كان عالم آثار بالدرجة الأولى

لم يكن من طبع بروكلمان أن يثر ضجة كبيرة حول نفسه وأعماله، فعندما احتفلت جامعة هاله عام ١٩٤٨ بعيد ميلاده الثمانين وذكرت في تهنيتها له جليل أعماله في خدمة الاستشراق، أجاب مذكراً الحاضرين أن مصير جميع الابحاث العلمية أن يتفوق عليها تقدم المعرفة العلمية وقال إن العادة هي أنه بعد مرور خمسين عاماً على وفاة الباحث يصبح كل ما كان صحيحاً ثابتاً من أبحاثه تراثاً عاماً للبحث العلمى، بينما تذهب أخطاؤه ضحية للنسيان. إن مثل هذا الرأى يبدو مفاجئاً حين ينطق به رجل أعادى عليه بالوافر الكثير من آيات التقدير والاعتبار - فقد كان عضو شرف في جمعية المستشرقين الألمانية والجمعية الاسيوية الملكية والجمعية الاسيوية والجمعية الشرقية الأمريكية والجمعية اللغوية الأمريكية، كما كان عضواً نظامياً في أكاديمية العلوم السكسونية، وعضواً مراسلاً لسلسلة من الاكاديميات والجمعيات العلمية، ومنح عام ١٩٥١ الجائزة الوطنية من المرتبة الأولى - ومع ذلك فإن رأيه ذلك كان مميزاً للموضوعية الصافية الخالية من أى وهم التى كان بروكلمان ينظر بها لأعماله الخاصة ولأعمال غيره أيضاً. ولذا فمن الضروري لكى نفهم قوة فاعليته أن ننتبه دوماً للعلاقة الداخلية التى كانت تربط عمله الفردى بكل مستوى من مستويات البحث العلمى، وخاصة أنه شهد ثلاثة أعمار بشرية تقريباً وأنه كان منذ الثمانينات شاهداً على الازدهار الكبير الذى مر به الاستشراق.

ولد بروكلمان في السابع عشر من سبتمبر من عام ١٨٦٨ لعائلة ميسورة معتبرة من طبقة التجار في مدينة روستوك. وقد أعزى ميوله العلمية لأمه، التى كانت امرأة خصبة الفكر عرفته بكنوز الأدب الألمانى. وظهرت موهبته للغات بسرعة في المدرسة الثانوية ولاقى تشجيعاً خاصاً من مدرس علم اللغة الألمانية ك. نيرغر K. Nerger. وأثار نيرغر،

Halle f. d. Liebknechtstr. 15-16. 5.

رسالتان من الاستاذ بروكمان الى صلاح الدين المنجد



Carl Brockelmann

المستشرق كارل بروكلمان

اشياء كثيرة لا تهم أغلب المحتاجين له ولا تفيدهم. وفي فترة قصيرة جداً لا تتجاوز الثلاثة أعوام استخرج بروكلمان مفردات «بيشتا» و «أفرا» و «أفريم» وراح يقرأ نصوصاً كثيرة غيرها ليتم عمله. وتكسب الشروح والتعليقات هذا المؤلف قيمة خاصة حيث أنها تستند جميعاً إلى جمع من عمل المؤلف الخاص. وظهرت ميوله اللغوية في بعض الإشارات الخاصة بتاريخ المفردات وتطورها. وفوق ذلك فقد أفرد فهرساً لاتينياً سريانياً. وساهم كل ذلك في تفصيل الكتاب من الناحية العلمية على قاموس J. Bruns, Dictionarium Syriaco-Latinum الذي صدر في الفترة نفسها في بيروت.

وقبل أن يطبع المعجم السرياني Lexicon Syriacum في شهر شباط من عام ١٨٩٥ طلب إدوارد زاخاو Eduard Sachau من بروكلمان أن يساهم في العمل على مؤلف ابن سعد الضخم وأن يسافر إلى لندن واستانبول لدراسة المخطوطات المتعلقة بذلك. وهكذا سافر في شهر اغسطس عام ١٨٩٥ إلى لندن وانتقل من هناك في شهر سبتمبر إلى باريس ومرسيليه وأثينا وأزمير ومن ثم إلى

بحيث أهمل علم اللغة. وقد أسف بروكلمان كثيراً لعدم عثوره على استاذ قدير في هذا الحقل، إذ أن العلاقات القائمة بين اللغات السامية ولغات شرق وشمال أفريقيا ظلت تشغله طيلة حياته. واشترك كذلك بتمارين قراءة النقوش التي كان يديرها مدير مكتبة جامعة ستراسبورغ فيما بعد، يوليوس أويتينغ Julius Euting، الذي كان أحسن عارف بتاريخ الكتابة السامية وخبيراً ممتازاً بالنقوش.

وفي شتاء عام ١٨٨٩ وضع نولده مسابقة كان الواجب فيها دراسة العلاقة بين «الكامل» لابن الاثير و«أخبار الرسل والملوك» للطبري. واستطاع بروكلمان أن يحل هذه المسألة ونال في التاسع من ابريل عام ١٨٩٠ درجة الدكتوراة في الفلسفة. وبعد ذلك بقليل فاز في امتحان الدولة — وكان قد حضر في ستراسبورغ كذلك محاضرات عالمي اللغات الكلاسيكية ليو Leo وكايل Kaibel، وعالم الآثار A. Michaelis، والمؤرخين ك. ي. نويمان K. J. Neumann وپاول شيفر-بويشورست Paul Scheffer-Boichorst وباومغارتن Baumgarten وكذلك الفيلسوف فندلباند Windelband، وبدأ يعمل منذ اول اكتوبر في المدرسة الثانوية الانجيلية في ستراسبورغ كمساعد مدرس. والى جانب ذلك واصل دراساته العربية ونشر عام ١٨٩١ بدافع من نولده الترجمة الألمانية للجزء الاول من ديوان لبيد التي أتمها انطون هوبر Anton Huber قبل وفاته المبكرة، ثم أصدر الجزء الثاني من الديوان بالمتن والترجمة استناداً إلى العمل التحضيري الذي كان قد أعده هوبر وهانز توربيكه H. Thorbecke.

ولم يدم عمله في المدرسة الانجيلية طويلاً؛ وبما أنه لم يكن يرغب في العمل في مدرسة خارج ستراسبورغ، فقد قرر العمل في التدريس الجامعي، فذهب في نهاية عام ١٨٩٢ إلى بريسلاو وحصل على درجة الكفاءة للتدريس الجامعي في ١٨٩٣/١/٢٨ بدراسة تاريخية أدبية عن مؤلف ابن الجوزي التاريخي.

وفي هذه الأثناء كان بروكلمان قد جمع بنشاط كبير مادة لأول مؤلف كبير له وهو المعجم السرياني Lexicon Syriacum. وكان تأليف قاموس للسريانية آنذاك مهمة مطلوبة: فقد كان المعجم السرياني لكاستيلوس Castellus المطبوع عام ١٧٨٨ قد نفذ منذ زمن طويل وأصبح قديماً، كما أن معجم المفردات السريانية Thesaurus Syriacus الذي كان في سبيله إلى الطباعة منذ عام ١٨٦٨ لمؤلفه ر. بين سميث R. Payne Smith، كان يحتوي

استانبول حيث امضى الشتاء هناك. ولم يقيم بتنفيذ ما كلف به فحسب، وإنما نقل نسخة من عيون الاخبار لابن قتبية وأخذها معه. وفي نهاية شباط (فبراير) عام ١٨٩٦ عاد بطريق البر إلى بريسلاو.

واهتمت أكاديمية برلين بطباعة مؤلف ابن سعد، وظهر المجلد الثامن الذي اشتغل عليه بروكلمان عام ١٩٠٤. أما أمر إصدار نسخة عيون الاخبار فقد كان عليه أن يتعهد به بنفسه ووجد في شخص E. Felber في فايمار ناشراً كان مستعداً للقيام بتكاليف النشر إذا ما ترك له بروكلمان في الوقت نفسه أمر كتاب آخر كان تصريفه يعد بأكثر من مثل هذا المثل العربي الذي لن يهزم إلا عدداً قليلاً من المكتبات والاختصاصيين. وكان هذا هو الدافع الخارجي لتأليف ذلك الكتاب الذي اعتمدت عليه شهرة بروكلمان العالمية وهو تاريخ الأدب العربي *Geschichte der arabischen Literatur (GAL)*. وكان قد رسم الخطة لتأليف ذلك العمل منذ زمن طويل. وكان يعلم أنه كان من المستحيل إزاء المستوى الذي بلغه البحث العلمي آنذاك أن يتمكن المرء من عرض مجرى التطور الداخلي للأدب العربي والمؤلفات العربية؛ ومع ذلك فقد كان عدد النصوص المطبوعة بمقارنتها بمجموع المؤلفات العربية عموماً ضئيل لا يذكر، والأقل من ذلك هو عدد تلك المؤلفات التي جرى تحقيقها ودراستها فعلاً. وإلى جانب ذلك ظهر بغضه لجميع المؤلفات المتعلقة بتاريخ الأفكار التي تفتقر إلى الأساس اللغوي الثابت. وهكذا فقد قرر كشرط لا غنى عنه لجميع الأبحاث والدراسات المقبلة للأدب العربي والمؤلفات العربية أن يقدم عرضاً كاملاً لجميع المؤلفات الإسلامية باللغة العربية المتوفرة حتى الآن مع استبعاد المؤلفات الصادرة باسماء مغفلة والتي لا تحمل تاريخاً لتأليفها، مع اثبات جميع المخطوطات والمطبوعات وتبيان أماكنها واعطاء نبذات مختصرة عن سير مؤلفيها. وفي عام ١٨٩٧ صدر النصف الأول من المجلد الأول، وفي عام ١٨٩٨ تلاه النصف الثاني، وفي ١٩٠٢ صدر المجلد الثاني وتم المؤلف بذلك.

إن ما مكن بروكلمان من القيام بهذا المشروع الهائل وتنفيذه حسب خطة مدروسة وفي حدود ما يمكن تحقيقه عملياً هو ذاكرته الممتازة التي كانت تحفظ بأمانة كل ما كان يقرأ - وكان يقرأ كثيراً وبسرعة -، ويضاف إلى ذلك قدرته على التنظيم والتنسيق التي كانت تحيل التفاصيل الكثيرة المتجمعة إلى كل معقول، وأخيراً فإن

الفضل في ذلك يعود كذلك إلى براعته وموهبته في التعبير عن افكاره بعبارات سلسة دون عناء وفي سهولة بحيث كانت المسودة التي يخطها تصلح في الغالب للطبع مباشرة. وبذلك كان يعتمد أثناء تأليفه ذلك العمل الجبار على ذاكرته إلى حد بعيد، وما كان يوسعه أن يعمل بسرعة لو أراد أن يتحقق ويفحص كل دقيقة وكل تفصيل على حدة، بغض النظر عن أن كثيراً من المصادر التي كان يستقي معلوماته منها لم تكن متوفرة دوماً بين يديه. ومن الطبيعي أنه لم يكن بالوسع تجنب الاخطاء والسهو في مثل طريقة العمل هذه على كتاب يزخر بالأسماء والسنوات والأرقام، بحيث أن بروكلمان نفسه أدرك ذلك وكان ممتناً لكل تصحيح. ولكن أهمية عمله الحقيقية لم تتأثر بهذه النواقص مهما بلغ مدى تشويشها على القارئ، إذ أن تقديم عرض لحقل كان يشبه حتى ذلك الحين أدغالا كثيفة لا يمكن اختراقها لم يكن يتوقف على التفاصيل الصغيرة، وقد أحسن بروكلمان باهماله أولئك النقاد الذين أرادوا أن يقيسوا هذا العمل الجبار بنفس المقياس الدقيق الذي تقاس به مقالة علمية. ومن الطبيعي أن نصف المجلد الأول الذي تناول الفترات المعروفة جيداً من الأدب والتأليف العربي كان أبعد من أن يكون ملائماً لتوضيح فكرة هذا الكتاب، بحيث أن النقاد الحسنى النوايا لم يستطيعوا أن يولوه التقدير الصحيح. ولكن عندما صدر تاريخ الأدب العربي (GAL) بكامله أصبح فوراً أداة لا يستغنى عنها لكل مستشرق مهتم بالعربية.

وفي ربيع عام ١٩٠٠ استحضر زاخاو Sachau بروكلمان كمدرس للعربية في معهد اللغات الشرقية في برلين. وكان عليه أن يدرس هنا اللهجة المغربية بدلا من آغوست فيشر August Fischer الذي استدعى إلى لايبزغ، واستطاع بروكلمان القيام بدراسات عملية في اللهجة المغربية مع المحاضر الظاللي من الرباط. وفي صيف العام نفسه أصبح استاذاً خارج الملاك في إيرلانجن على إثر وفاة لودفيج آبل Ludwig Abel، وقدم له على إثر ذلك أيضاً منصب استاذ خارج الملاك في بريسلاو على إثر انتقال ه. تزيمر H. Zimmer إلى لايبزغ، فأختار بريسلاو.

وكان بروكلمان يدرك دوماً واجب تيسير نتائج العلوم والابحاث للقراء غير الاختصاصيين بلغة مفهومة وسهلة. وهكذا فقد قدم في المجلد الأول من مؤلفه الجامع: «آداب الشرق ١٩٠١» Die Literaturen des Ostens، «تاريخ الادب العربي» *Geschichte der arabischen Literatur* وذلك بصيغة مختصرة، وقد اعيد طبعها للمرة الثانية

هذا الأمل لم يتحقق، إلا أنه كان يسجل دون كلل جميع ملاحظاته وتصحيحاته في نسخته اليدوية، تلك التصحيحات والملاحظات التي بدت له ضرورية لإصدار طبعة جديدة منقحة؛ وتشير مقالاته حول المسائل المتنازع عليها في اللغات السامية واشتقاقاته المصرية السامية وتقريراته للكتب أنه كان مطلعاً على التقدم في علم اللغات وأنه كان يسعى إلى السير خطوة خطوة مع هذا التطور والتقدم. ولذا فقد كان يتمتع في دوائر علماء اللغة أيضاً باعتبار كبير؛ وقد دعى للاشتراك في المؤتمر الخاص بالتسجيل الصوتي والكتابة الصوتية الذي عقد في ابريل عام ١٩٢٥ في كوبنهاغن، كما أنه مثل ألمانيا عدة اعوام في لجنة اللغويين الدولية الدائمة (CIPL).

وإلى جانب الموجز، فقد ألف بروكلمان في موجز قواعد اللغات السامية المقارنة في *Porta linguarum orientalium* (Bd. 21) عام ١٩٠٨ كتاباً تعليمياً عالج فيه علم الأصوات وقواعد الصرف واقتطف الشواهد والأمثلة فيه من اللغات الآرية. وفي عام ١٩٠٦ كان قد عرض أهم الحقائق المتعلقة باللغات السامية في كتيب صغير من دار Götschen بصورة واضحة ومفهومة تحت عنوان «علم اللغات السامية» *Semitische Sprachwissenschaft*. وقام ويليام مارسيس *William Marçais* ومارسيل كوهين *Marcel Cohen* عام ١٩١٠ بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وإعداده ليتلاءم وحاجات الدارسين الفرنسيين الخاصة، كما أن النسخة الألمانية أعيد طبعها مرة ثانية عام ١٩١٦. وفي العشر سنوات الأخيرة من عمره قام بروكلمان بتحضير طبعة جديدة تتلاءم ومستوى البحث العلمى الحاضر، وأراد أن يراعى اللغة الأوغارية بالدرجة الأولى؛ إلا أن مشروعه هذا لم يتحقق.

ولتفهم المسائل التاريخية اللغوية فقد اعتبر بروكلمان اللغة السريانية ذات ملاءمة خاصة بين اللغات السامية الكلاسيكية. ولذا فقد عالج في قواعد اللغة السريانية الذى صدر في بادئ الأمر عام ١٨٩٩، عالج قواعد الأصوات بتفصيل خاص ثم كان يعود إليها دوماً أثناء علاجه لقواعد الصرف لإيضاح خصائص التراكيب الصرفية على ضوء التطور التاريخي اللغوي. ومن الطبيعي أن عدداً كبيراً من القراء الذين كانوا يتعلمون السريانية لأهمية أدها بالنسبة لتاريخ الكنيسة فقط كانوا على استعداد للاستغناء عن التفسيرات اللغوية العلمية، إلا أن بروكلمان رفض كلياً فكرة تأليف كتاب للقواعد من وجهات نظر عملية تطبيقية خالصة. ومن الجهة الأخرى فقد كان

يحسب منذ البداية حساباً خاصاً لرغبات الدارسين اللاهوتيين بحيث جمع في منتخبات القراءة التي تمثل النواة الحقيقية لكتابه والتي اختيرت من الأدب الكلاسيكي فقط لأسباب تاريخية لغوية، لقد جمع نصوصاً تبين تطور الكنيسة السريانية من البداية حتى الانشقاق. وهكذا انتشر الكتاب بسرعة ومرت حتى عام ١٩٥١ بخمس طبعات ونقل معارف طريقة البحث التاريخية اللغوية حتى إلى الدوائر البعيدة عن علوم اللغة.

واتيحت له فرصة استخدام الطريقة نفسها بالنسبة للغة العربية عندما كلفته هيئة *Porta linguarum orientalium* إعادة تنقيح كتاب ألبرت سوسين *Albert Socin* في قواعد اللغة العربية (ابتداء من الطبعة الخامسة عام ١٩٠٤). ومنذ الطبعة السادسة قدم قسماً خاصاً حول قواعد الاصوات كان يعود إليه دوماً في القسم الخاص بقواعد الصرف. وأزال القطع التي وضعت لترجمتها إلى الألمانية لاعتقاده بأن مثل هذه القطع تلائم قواعد للمحادثة ولكنها لا تتناسب وعرضاً للغة الآرية الكلاسيكية. ولهذا السبب نفسه فقد قاوم فكرة تقسيم المادة إلى دروس صغيرة حسب وجهات نظر عملية تطبيقية. وكسب الكتاب بين يديه شيئاً فشيئاً طابع القواعد العلمية. وابتداء من الطبعة الحادية عشرة (١٩٤١) أخذ الكتاب يحمل اسمه. وبثلاث عشرة طبعة بلغ الكتاب شهرة وانتشاراً لم يحققهما أى كتاب آخر من هيئة *Porta linguarum orientalium* ومع أن بروكلمان لم يكتب قواعد صوتية وصرفية للغة العبرية إلا أنه عقد عشرات المرات حلقات دراسية للتمرّن على القواعد العلمية للغة العبرية لتعريف طلاب اللاهوت بالدرجة الأولى على طرق بحث اللغات السامية المقارنة التي لم يتوقف عن نشرها قط والتي كان يحزن لإهمالها في الجامعات الألمانية.

وفي صيف عام ١٩٠٩ توفي زيجموند فرينكل *Siegmund Fraenkel* في بريسلاو. وعاد سلفه پريتوريوس *Practorius*، الذى كان قد استدعى إلى هاله عام ١٨٩٣، عاد الآن إلى جامعة بريسلاو. وبذلك أصبح المقعد الجامعى في هاله خالياً وقدم لبروكلمان الذى قبله بسرور وخاصة أن مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية ستقدم له امكانيات دراسية أفضل وأوسع. وفوق ذلك فقد كان قد تزوج عام ١٩٠٩ ولم تكن زوجته قادرة على تحمل مناخ كونغسبرغ. وفي هاله أنهى موجزه، الذى ظهر قسمه الثانى الذى يتناول علم الإعراب وتركيب الكلام ما بين ١٩١١ و١٩١٣. وفوق ذلك راح يحضر

الطبعة الثانية من معجمه السرياني. إلا أن الحرب العالمية الأولى أعاقَت العمل كثيراً؛ وظلت طبعات النصوص الصادرة في الخارج بعيدة عن متناول يده وبدأت تجد طريقها بعد الحرب تدريجياً إلى المكتبات الألمانية. ورغم أن طباعة المعجم بدأت فعلاً عام ١٩١٨ وأمكن تقديم القسم الأول عام ١٩٢٣، إلا أن المعجم لم ينته بكامله إلا عام ١٩٢٨. وبمقارنة هذه الطبعة الثانية بالطبعة الأولى فإنها تبدو عملاً جديداً تماماً بضعف الحجم وبشروح وتعليقات جديدة وكثيرة. وقد وسعت الشواهد المتعلقة بالاشتقاقات التاريخية بحيث يمكن اعتبار المعجم خطوة عملية تمهيدية لقاموس مقارن للغات السامية يمكن أن يصدر في المستقبل.

لقد كانت الظروف أكثر ملاءمة لدراسات بروكلمان في حقل اللغة التركية منها في حقل الدراسات السريانية، وخاصة أنه طبع أثناء الحرب العالمية الأولى في استانبول أهم عمل عربي - تركي في حقل علم اللغة وهو كتاب: ديوان لغات الترك الذي ألفه محمود بن الحسين الكاشغري بين ١٠٧١ و ١٠٧٣ ميلادي. ويحتوي سجل لغات الترك هذا عدداً زائحاً من الأخبار والروايات عن لهجات الشعوب التركية لأواسط آسيا في العصر الوسيط. ولكن الكتابة العربية غير الملائمة مطلقاً لتسجيل الأصوات التركية وتعايير النحويين العرب التي استخدمها الكاشغري للغة التركية ذات الطابع المختلف تماماً عن العربية، كانا عائقين شديدين أمام أية محاولة للاستفادة من هذا الكنز الثمين لدراسة تاريخ اللغة التركية. ولذا فقد شرح بروكلمان لفائدة وخير علماء التركية الذين لا يلمون المأماً حسناً بالعربية، شرح أول الأمر عرض الكاشغري لتراكيب الأفعال التركية (في المجلد الثامن عشر من مجلة Kéleti Szemle لعام ١٩١٩)، ثم حقق ما يحتوي عليه الديوان من بقايا الشعر الشعبي التركستاني القديم وكذلك الحكم الشعبية التركستانية القديمة وكرس لذلك عدداً من الدراسات الأخرى ولكنه بذل مجهوداً خاصاً في كتابة جميع الكلمات التركية الواردة في «الديوان» بالحروف اللاتينية وترجمة شروح الكاشغري العربية إلى اللغة الألمانية، مضيفاً لكل كلمة عدداً من الشواهد والشروح التاريخية اللغوية والاشتقاقية. وهكذا نشأ بالتدريج كتابه المرتب حسب الحروف الأبجدية: «المفردات التركية الوسيطة حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري» *Mitteltürkischer Wortschatz nach Maḥmūd al-Kāšgarī's Dīwān lughāt at-Turk* ذلك الكتاب الذي طبع عام ١٩٢٨ بمساعدة الأكاديمية

المجرية للعلوم كمجلد أول من المكتبة الشرقية المجرية *Bibliotheca Orientalis Hungarica*، وكواصله لهذه الأبحاث رسم بروكلمان خطة لكتابة تاريخ اللغات التركية المكتوبة. ونفذ من هذه الخطة كتابه: «قواعد اللغة التركية الشرقية للغات الأدبية الإسلامية لأواسط آسيا» من عام ١٩٥١ حتى ١٩٥٤.

Osttürkische Grammatik der islamischen Literatursprachen Mittelasiens وعالج في هذا الكتاب تاريخ الأصوات وعلم تكوين وتصريف العبارات التي استخدمتها قبائل واسط آسيا التركية في الأدب منذ دخولها الإسلام في القرن العاشر وحتى فقد استقلالها السياسي. إن الفترة الأولى لنشاط وفعالية بروكلمان في جامعة هاله تمتد من ١٩١٠ حتى ١٩٢٢. وقد احتل ذروة الحياة في تلك الأعوام. وقد حقق لنفسه بانجازاته الفردية الخاصة اسماً لامعاً في الدراسات السريانية والعربية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية - وهي حقول كانت مع تقدم التخصص العلمي آخذة بدورها في الاستقلال كل بمفرده كعلم خاص ذي نظام قائم بذاته. وبفضل ثقة زملائه الذين انتخبوه رئيساً للجامعة في يوليو عام ١٩١٨، وقعت على عاتقه مهمة ذات مسئولية كبيرة وهي قيادة مصير الجامعة في فترة انتقالية عسيرة. وفي مايو عام ١٩١٩ حيا أعضاء الجامعة العائدين في ميادين القتال بخطاب طبع بعنوان «إعادة البناء».

وفي هذه الاثناء كان مقعد التدريس الجامعي الذي كان يحتله ادوارد زاخولا يزال خالياً منذ انتهاء خدمات الأخير، كما تصادف أن أصبح مقعد التدريس في القسم الشرقي بجامعة بون خالياً عام ١٩٢١ كذلك. وعرض المقعدان على بروكلمان، الذي قرر قبول منصب برلين لأنه كان يرجو أن يجد فيها ظروف عمل أفضل منها في أية جامعة ألمانية أخرى وأن يجد المراجع الأجنبية التي لا يستغنى عنها لأبحاثه ودراساته المقبلة. إلا أن الآمال التي نشأت في نفسه أثناء المفاوضات حول قبول مقعد برلين لم تتحقق. فلم يستطع الانتقال إلى برلين واضطر أثناء فترة هبوط النقد الألماني إلى السفر إليها كل اسبوع لبضعة أيام وذلك طيلة فصلين دراسيين. وكان أكثر ما خيب ظنه أن غرف المعهد التي وعد بالحصول عليها قدمت لفرع دراسي آخر. ولكي يتجنب مواقف شاذة أخرى كهذه فقد تخلى بعد عام واحد عن منصب الاستاذية في برلين وعاد كخلف لاساتذه بريتوريوس في جامعة بريسلاو، حيث أمضى على حد تعبيره «سنوات جميلة

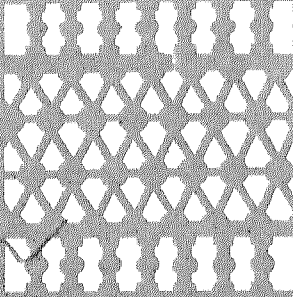
الاستبداد المحلى بحيث كان يتمتع باعتبار كبير فى العلم الاسلامى بسبب موقفه هذا. وكان على اتصال دائم بالمراسلة مع عدد كبير من شعراء وكتاب وعلماء الشرق، وقد سرقبل وفاته حين علم بأن القسم الثقافى للجامعة الدول العربية قرر نشر الترجمة العربية لتاريخ الأدب العربى وملحقاته.

وللتعرف على الخلفية السياسية الثقافية للأدب العربى الحديث فان بروكلمان لم يهتم بدراسة الاسلام فى الوقت الحاضر بتعمق فحسب، بل وراح يدرس تاريخه بنفس التعمق أيضاً. ويعود اهتمامه بالأبحاث الاسلامية إلى سنوات دراسته فى ستراسبورغ. فن عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩١٤ كان يكتب عن أحدث المؤلفات فى التاريخ الاسلامى فى التقارير السنوية لعلوم التاريخ وفى عام ١٩١٠ قدم فى المجلد الثالث لتاريخ العالم الذى أصدره يوليوس فون بفلوك-هارتونغ Julius von Pflugk-Hartung عرضاً لتاريخ الإسلام منذ بدايته حتى العصر الحاضر (من الصفحة ١٣١ حتى ٣١٩). والآن وبعد مضى ربع قرن على ذلك عاد إلى هذا العمل القديم من جديد واعاد تنقيحه وأضاف له فصلاً عن «النظام الجديد للدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الثانية» صور فيه الأحداث حتى بداية عام ١٩٣٩. وبذلك نشأ كتاب تاريخ الشعوب والدول الاسلامية Geschichte der islamischen Völker und Staaten وظهر عام ١٩٣٩ كجزء من المجموعة التى أصدرتها دار نشر ر. أولدنبرغ عن تاريخ الدول. ونظراً لاتساع إطار التاريخ الإسلامى الهائل الذى امتد عبر ثلاثة عشر قرناً وانتشر فوق ثلاث قارات فقد كان العمل ينطوى على جراحة كبيرة وخاصة أن المصادر لم تكن معروفة بعد بالنسبة لحقول كثيرة فيه، فضلاً عن معالجتها واستخدامها بطريقة نقدية علمية. وكان سد هذه الثغرات يفوق طاقات مؤلف بمفرده. ومن الجهة الأخرى فقد استطاع جمهور القراء غير المختصين والمهتمين بالسياسة العالمية أن يتوقع بحق الحصول من رجل اختصاصى على نظرة عامة تتمشى ومستوى البحث العلمى الحاضر عن التاريخ الاسلامى. وكما هو الحال مع بروكلمان دوماً، فقد استغنى هنا أيضاً عن جميع الحقوق فى الاولوية وتمسك فى المسائل المتنازع عليها مستغنياً عن أى بحث للموضوع بأولئك الثقة الذين اعتبرهم الأفضل فى رأيه. وأبرز من بينهم ي. فلهاوزن J. Wellhausen ول. كيتانى L. Caetani بالنسبة لتاريخ العرب وف. بارتولد W. Barthold وف. مينورسكى V. Minorsky لتاريخ آسيا الوسطى

من الناحية الإنسانية»، إلا أنه ظل يعانى من الافتقار إلى المراجع الاختصاصية، ذلك الافتقار الذى اشتكى منه فى مقدمة تاريخ الادب العربى (GAI). وفى صيف عام ١٩٣٢ انتخب رئيساً للجامعة. وفى فترة رئاسته حدثت مظاهرات الطلاب النازيين ضد الاستاذ الحديث التشكليف «كون» مما ادى إلى اغلاق الجامعة لمدة ثلاثة أيام. وبما أن بروكلمان سعى جاهداً إلى حماية الحرية التعليمية الجامعة، فقد راحت الصحافة النازية تهاجمه بشدة بحيث اضطر أخيراً إلى التخلي عن رئاسة الجامعة فى شهر مارس عندما تسلم النازيون زمام الحكم.

وفى خريف عام ١٩٣٥ احيل بروكلمان على التقاعد وانتقل فى ربيع عام ١٩٣٧ إلى هاله ثانية، لأنه أراد أن يستخدم مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية لأبحاثه وخاصة لمواصلة العمل على تاريخ الأدب العربى. وكان، كمعادته، قد جمع فى نسخته اليدوية جميع التصحيحات والتصويبات والتبتمات المتعلقة بتاريخ الأدب العربى، التى توصل إليها منذ عام ١٨٩٧. وكان الاحب إلى نفسه والافضل إلى الدارسين لو أنه تمكن من إصدار طبعة ثانية من العمل الضخم؛ ولو تم له ذلك لما تمكن من تصحيح بعض الاخطاء والسهو فحسب، بل وكذلك من مراجعة بعض احكامه على المؤلفين العرب، ومن تحسين خطة وتنظيم الكتاب بكامله أيضاً، ولو تم ذلك لنشأ كتاب جديد تماماً. ولكن بما أن مطالب ورثة الناشر فيلبر جعلت إصدار طبعة ثانية أمراً مستحيلاً، فقد نشر بروكلمان المادة المجموعة الاضافية فى مجلدين ملحقين ضخمين صدرتا عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨ عن دار بريل فى لايدن. وفى الاربعين عاماً التى مضت منذ صدور الكتاب الأصلى كان الادب العربى الحديث قد تطور بشكل هائل، وكان بروكلمان قد اهتم اهتماماً كبيراً به أيضاً. وهكذا فقد استطاع عام ١٩٤٢ إصدار ملحق ثالث عالج فيه تاريخ الأدب العربى الحديث من عام ١٨٨٢، وهو عام الاحتلال البريطانى لمصر، حتى الوقت الحاضر. وكما فعل فى المؤلف الأصلى والمحققين فقد احتفظ فى الملحق الثالث أيضاً بعرض لسير المؤلفين؛ ولكن بينها اكتفى هناك بتعداد المؤلفات، قدم هنا معلومات تفصيلية عن محتويات المؤلفات المختلفة، وأشار إلى المثل العليا الأدبية وسجل ملاحظات تتعلق باللغة والاسلوب ولم يتحفظ فى احكامه على الأعمال الجارية بحثها. ولم يخف شيئاً من تعاطفه مع الاتجاهات السياسية لشعوب الشرق الأدنى ضد الاستعمار الأوروبى وضد

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية



كارل بروكلمان

تاريخ الأدب العربي

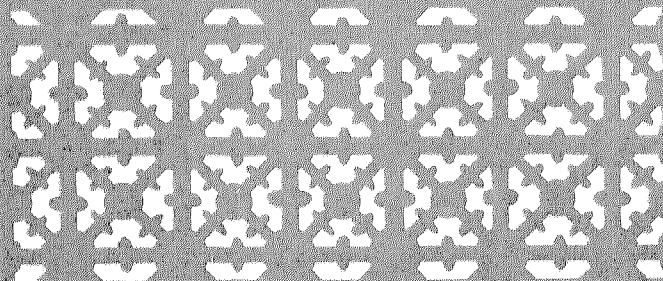
نقله إلى العربية

الدكتور عبدالحليم النجار

المجلد الأول



دار المعارف بمصر



وب. فينتك P. Wittek لتاريخ الدولة العثمانية. وبأصالة وحذق مألوفين استطاع أن يمد أقدام القارئ خضماً كبيراً من الحقائق التاريخية منسقة بشكل قابل للاستيعاب، كما راعى في ذلك الحضارة والحياة الفكرية، وتخلّى عن كل التفاصيل التي لا داعي لها وأفسح مجالاً كافياً للتطورات التي حدثت منذ عام ١٨٠٠. وجاء الكتاب ليلبي حاجة ملحة واعد طبعه ثانية عام ١٩٤٣. وهناك ترجمة الإنجليزية تمت خلال الحرب العالمية الثانية دون علم بروكلمان وظهرت عام ١٩٤٧ (واضيف إليها عرض للاحداث التي جرت من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٧، اتخذ مؤلفها م. بيرلمان M. Perlmann فيها موقفاً من القضية الفلسطينية مغايراً لموقف بروكلمان). واعد طبع هذه الترجمة الانجليزية (دون مراجعة بيرلمان) عام ١٩٤٩ في لندن. ثم ظهرت فيما بعد ترجمات فرنسية وعربية وتركية وبولونية.

وكأستاذ متقاعد في بريسلاو اضطر بروكلمان عام ١٩٤٥ إلى القيام بمنصب أمين مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية بصورة مؤقتة؛ واهتم منذ ذلك الحين بتصنيف وترتيب الكتب المكذبة. وفي صيف عام ١٩٤٧ أصبح استاذاً فخرياً وحصل في العام نفسه على مقعد الاستاذية في اللغات التركية حسب رغبته. وراح يدل طلابه على مبادئ اللغة التركية الحديثة ويقراً معهم فصولاً تاريخية عثمانية قديمة، ويفسر لهم الوثائق التركية ويحاضرهم في تاريخ الدولة العثمانية. وإلى جانب ذلك فقد كان يلقي محاضرات في التعريف بالسريانية والاكديّة والاثيوبية والقبطية وكان يفسر المصادر السريانية المتعلقة بتاريخ الاسلام، والنصوص العبرية الآرامية، والنقوش السامية الشمالية، ومختارات من رسائل العمارنة، والنصوص الميثولوجية والتاريخية الأكديّة. وكان يعقد كذلك حلقات دراسية كثيرة للتمرّن على قواعد اللغات السامية المقارنة.

وكما يظهر هذا العرض فقد أخذ بروكلمان أثناء نشاطه التعليمي --- وكان قد ألقى وعقد ما يقارب الخمسمائة محاضرة وحلقة تعليمية --- أخذ بنظر الاعتبار رغبات مستمعيه حتى وإن كان الامر يتعلق بحقول قلما عالجها في مؤلفاته أو لم يعالجها قط. وهكذا فقد كان يقيم حلقات دراسية كثيرة لتعليم الاكديّة والفارسية الحديثة، وحياناً الفارسية الوسطى والأرمنية. وكان في المحاضرات يجيب بكل طيب خاطر على جميع الأسئلة التي كان طلابه يوجهونها له ولم يكن يتقدم في المحاضرة إلا بعد التأكد من زوال أي غموض أو صعوبة. أما خارج

محاضراته فقد كان منغمساً في أبحاثه وأعماله العلمية، بحيث قلما تجرأ طلابه على توجيه أي سؤال له. وإذا ما حدث وسأله أحد رغم ذلك، فإن بروكلمان كان يلقي عليه الجواب فوراً بكل ما يتعلق بالموضوع من تفاصيل وبكل دقة بحيث يمكن أن يرسل جوابه للطبع فوراً. أما السبب في عدم تكوينه مدرسة خاصة به فيمكن في طبيعة شخصيته كباحث، تلك الشخصية التي جمعت بانسجام فريد من نوعه ذاكرة ممتازة، وقدرة خارقة على التنظيم والتنسيق، وموهبة للفهم السريع، وقدرة على حسن تقدير ابعاد عمل أو بحث معين، بالإضافة إلى ارادة حديدية وطاقة خارقة على العمل والانتاج. وقد عرف مقدراته خير معرفة وكان يستخدمها خير استخدام. وكان عمله اليومي منظماً بكل دقة وصرامة، ولكنه كان يترك لنفسه أيضاً ساعات للراحة والاسترخاء. وفي اعوام حياته الأولى كان يسافر كثيراً في الاجازات وكان يحب البحار ويستمتع بالتجوال.

وفي صيف عام ١٩٥٣ احيل بروكلمان للمرة الثانية على التقاعد، ولكنه واصل نشاطه التعليمي. وفي ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٤ أصيب بركام لم يستطع أن يتخلص من مضاعفاته فيما بعد. وراح يواصل العمل محاطاً برعاية زوجته الثانية، متابعاً أبحاثه بالقدر الذي كانت تسمح به حالته الصحية. وبمساعدة أحد مستمعيه الآخرين، الدكتور كوزراد فون رابناو Dr. K. von Rabenau استطاع أن يتم كتاب قواعد الصرف العبري Hebräische Syntax الذي ظهر بعد وفاته. وفي السادس من مايو عام ١٩٥٦ فاضت روحه عائدة إلى خالقها بسلام.

وقد أهدي قواعد الصرف العبري لقسم اللاهوت في جامعة هاله شكراً على منحه لقب الدكتوراه الفخرية في اللاهوت أثناء يوبيل الجامعة لعام ١٩٥٢. وهي العمل الوحيد الذي يحمل إهداء باستثناء اطروحة الدكتوراة التي أهداها إلى والديه.

وفي عصر أصبحت فيه الدراسات الاسلامية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية وعلوم الشرق المسيحي علوماً مستقلة ذات اهداف وطرق بحث قائمة بذاتها مع موجة التخصص العلمي المستمرة التي لا تعرف التوقف، في هذا العصر الذي أصبح فيه كل من هذه الفروع حقلاً واسعاً يكفي للملء حياة عالم بكاملها، استطاع بروكلمان أن يمثل في شخصه وفي انتاجه وعلى أتم وجه وحدة علم الاستشراق. وقد عنت وفاته نهاية عصر بكامله.

ترجمة: محمد علي حشيشو

هانز هاينريش شيدر

(١٨٩٦ - ١٩٥٧)

بقلم: الأستاذ أوميليان پريستاك

الواحد. وكما قال صديقه كارل ي. بوركهاردت (١) Carl J. Burckhardt عنه بحق: «لقد كان من القلائل الذين تمكنوا من شد قوس أوديسيوس: فعلى أسمى صعيد للخبرة اللغوية والتاريخية تجرأ على اتخاذ أسلوب البحث التركيبي ونجح في ذلك. وفي أى عهد كان نجاحه؟ في عهد كان الباحث والمفكر في حقل العلوم الانسانية لا ينجو فيه من ضغط السلطة الغاصبة إلا بالفرار أو التخفى - عهد أحيل التراث الذي أوكل إليه، وهو تراث جهد انساني عبر آلاف السنين، إلى مهزلة باستخدام الكذب الدائم المنظم.» (٢)

ولم تتوفر شروط هذه المرأة في أحد كما توفرت لدى شيدر. فقد ظلت ذاكرته حتى وفاته فريدة من نوعها. كما منحتة الطبيعة بالتساوي موهبة لغوية ومواهب موسيقية شعرية: فقد كان خطيباً بليغاً شديد الاستيعاب للظواهر الموسيقية والأدبية، كما كان يتصف بقلق فكري يكاد يبلغ درجة إتلاف النفس. وكان من حسن طالع أنه نشأ في منزل أبوى على مستوى رفيع من الثقافة في كوتنكن (١٨٩٦-١٨٩٩) وفي كيل (١٨٩٩-١٩١٨). وكان أبوه د. ايريش شيدر D. Erich Schaefer (١٨٦١-١٩٣٦) استاذاً لعلم اللاهوت (المذهب البروتستنتي) - فلا عجب أن يهتم الصبي المتفتح منذ السادسة من عمره - مبتدئاً بأسئلة طفولية - بالبحث في الكتاب المقدس وأن يتمكن وهو لا يزال في سن الدراسة الثانوية من تهذيب وتدريب إحساسه الفريد بالظواهر الدينية. غير أن أسلوبه في الملاحظة التاريخية نشأ على خلاف

في صباح الثالث عشر من مارس ١٩٥٧ توفي في غوتنغن بعد عذاب جسدي ونفسي طويل مبرح الاستاذ النظامي للغات الشرقية وتاريخ الأديان هانز هاينريش شيدر Hans Heinrich Schaeder. وبفقدته فقد الاستشراق الألماني، الذي لا يفتقر إلى الشخصيات العظيمة، واحداً من أطرف ممثليه، لا بل مستشرقاً فريداً من نوعه. وعندما ينوى المرء كتابة سيرة مستشرق عظيم، يتجه عادة، بعد الافتتاح بتسجيل المعلومات الشخصية اللازمة، إلى تصوير تاريخ الحقل العلمي الذي يمثلته ومساهمته العلمية فيه بمعزل عن شخصه. أما بالنسبة لشيدر فقد كان اعتناقه للظواهر الفكرية يتسم، حتى مع أشد الالتزام بالروح العلمية، بطابع شخصي، فقد كان دوماً ينتقل في الحدود بين العلم والفن والفلسفة والدين، تماماً كما كان اختيار موضوعاته العلمية يتحدد عادة بحياته المتأثرة بالإنسانية القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي عصر الاختصاص المطرد في العلوم الإنسانية التي ظلت - خلافاً للعلوم الطبيعية - تتابع أهدافها الذاتية السرية وحدها بسبب عزلتها عن الحياة اليومية، لم يرد ولم يستطع أن يكون مجرد عالم مختص. وظل طيلة حياته على اهتمام دائم بجميع الظواهر الفكرية لعصره كما كان يبذل الجهد لانتظامها في فلسفته العامة عن العالم، تلك الفلسفة التي ظلت في توتر دائم بين التقويم الإنساني والمسيحي. وفوق هذا فقد كان يسعى إلى مواجهة هذه الظواهر الفكرية بالواقع في نشاط فكري نابض بالحياة - ونذكر هنا محاضراته التي لا تحصى والتي كانت تبلغ عدة محاضرات في الاسبوع

لاهوت أبيه (آرنولد توينبي : Arnold J. Toynbee: Chal- lence and Response). واعتاد شيدر أن يشير دوماً بكبرياء إلى «جعبته المدرسية» العامة. فقد استوعب اللغات والآداب الكلاسيكية في الجمنازيوم الانساني في كيل بالإضافة إلى اللغات الحديثة (الانكليزية والفرنسية والاطالية) وكذلك العبرية. وحين بلغ السابعة عشرة كان قد قرأ الكوميديا الإلهية لدانتى بكاملها بلغتها الأصلية. وإلى جانب ذلك فقد تلقى دروساً نظرية في الموسيقى (التوافق والتأليف)؛ وكان عازف بيانو فوق المستوى المتوسط. وظلت الموسيقى مع جهده الفكري وقلقه الدائم ترويحاً لا غنى عنه طيلة حياته.

إلا أن الشيء الحاسم بالنسبة لتطوره وكذلك بالنسبة لحياته كلها ونتاجه الفكري فقد ظل التقاؤه بالمنطق اليوناني والعقل اليوناني وتراث الرومان الانساني. واختار الشاب الذي بلغ الثامنة عشرة عندما بدأ دراسته في جامعة كيل في فصل الصيف عام ١٩١٤ الاستاذين: الإنسانى فيرنر ييكر (٢) Werner Jaeger ومؤرخ العصر الوسيط فريتز كيرن (١) (١٨٨٤ - ١٩٥٠) Fritz Kern. وكان الأخير يعمل آنذاك على تقويم التقارير والروايات العربية حول تاريخ ألمانيا، وكان يأسف كثيراً لعدم استطاعته دراسة المصادر والحكم عليها بنفسه مستقلاً. ونصح تلميذه الموهوب شيدر بدراسة العربية واعطاه بذلك الدافع الأول للمضى في طريقه إلى دراسة اللغات الشرقية. وما كاد الفصل الدراسي الأول بالنسبة لشيدر ينتهى، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى، فتقدم متطوعاً، وكيف كان له أن يفعل غير هذا؟ ولأسباب صحية أحيل على الخدمة الصحية التي قضها أولاً في المحاجر الصحية في فرنسا (نويون، لا كايل)، وفيما بعد (خريف ١٩١٥ حتى نهاية ١٩١٦) في ليتوانيا (كوفنو، فيلنا) وأخيراً في زينبوركن وكوكسهاغن (١٩١٨). وكانت سنوات الخدمة الحربية هذه بالنسبة له «جامعات» للخبرة والمراس على حد تعبير مكسيم غوركي. إذ بعد أن عاد في نهاية ١٩١٨ إلى الوطن (كان أبوه قد بدأ يعمل في بريسلو منذ ١٩١٨) كان قد أصبح رجلاً وباحثاً ناضجاً. وخلال الفصلين الدراسيين المحددين عند تغيير الجامعة لم يمه اطروحة الدكتوراه فحسب، وإنما تمكن من اجتياز امتحان الدكتوراة أيضاً.

لقد جعله اتصاله اليومي بالموت متفتحاً لجميع قضايا الوجود البشرى. ولكن هذا كان يعنى بلوغه مرحلة النضوج. وكان الموظف الصحى الشاب يصطحب معه

دوماً الكتاب المقدس والمؤلفات اليونانية وكتب دانتى وجوته وكانط وكتب النحول لعدة لغات شرقية وخاصة السامية منها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يتابع - بقدر ما كان يسمح به ظرفه - قراءة منشورات الاوساط الأدبية والفكرية في تلك الآونة. وقد حمل لقاءان من ذلك العهد أهمية خاصة بالنسبة لمؤرخ الأديان والمستشرق الناشئ شيدر. وكان اللقاء الأول مشاهدته للشرق اليهودى في كوفنو وفيلنا (١٩١٥ - ١٩١٦) وقد ظل هذا لقاءه الوحيد مع الشرق الحى. وبمساعدة حاخام كوفنو استطاع اتمام دراسته الخاصة بالكتاب المقدس وذلك بمشاهدة جميع مظاهر الحياة الدينية عن كثب. أما اللقاء الثانى فقد كان ذا طابع أدبى. ونعنى به المقالات التى ظهرت في «آرشيف العلوم الاجتماعية» منذ ١٩١٥ حول «الاخلاق الاقتصادية للأديان العالمية» لماكس فيبر (٥) Max Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) الذى سنتحدث عن تأثيره على شيدر فيما بعد.

وكان عالم اللغة الآشورية برونومايسنر (٦) Bruno Meissner (١٨٦٨ - ١٩٤٧) صاحب كرسي تدريس اللغات السامية في بريسلو آنذاك يود مساعدة العائد من الحرب شيدر عام ١٩١٩ على كتابة أطروحة غير معقدة بحيث يمكن اتمامها بسرعة. ولذا فقد اقترح عليه أن يعمل على دراسة مادة الحسن البصرى، ممثل الروع الاسلامى الهام في القرن الهجرى الأول في الجزء الأول من المجلد السابع من طبقات ابن سعد الذى أصدره آنذاك. ولكن شيدر أدرك بسرعة أن «المادة التى يقدمها ابن سعد وغيره من مؤلفي علم الرجال لا تكفى في حال من الاحوال لهذا البحث، لا بل انها على العكس من ذلك ملائمة لإحاطة الموضوع الحقيقى بالغموض». كما أن السيرة وحدها لا تضيف شيئاً جديداً. فالسبيل إلى فهم الطابع الدينى الحقيقى للحسن البصرى هو في ضرورة العودة إلى «مؤرخى الدين الاسلامى وخاصة مؤلفي سير القديسين والصوفيين» (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ١). وهكذا فقد مال الثقل في بحث هذه الاطروحة إلى جانب التاريخ الدينى. وكشرط أساسى لذلك كان لا بد من دراسة التيارات الفكرية في العراق، موطن الحسن. وأدى هذا الأمر بشيدر إلى مواجهة المسائل الجذرية في الأبحاث والدراسات الإسلامية ومنها إلى المسائل الجذرية لعلم الأديان بوجه عام. فالعراق - بلاد بابل القديمة، هى الوطن الحقيقى لعلم الديانة الاسلامية، وللتصوف الإسلامى، كما أنها موطن العقائد الغنوصية المختلفة، وخاصة المانوية، أى تلك



صحيفة بخط الأستاذ شيدر.

إن موقف ألمانيا الفكرى بعد الحرب العالمية الأولى كان مبليلاً ولكنه يتسم بالنشاط. وقد شعر شيدر بدافع ذاتى للاشتراك فيه. فبعد نواله درجة الدكتوراة جاء في بداية ١٩٢٠ إلى برلين واشترك في تحرير "Grenzboten" وراح يحتك بدائرة الشبيبة المسيحية المحافظة لنادى يونيو وللحلبة وكانت تتألف من محاربين سابقين أمثال شيدر نفسه. إن نظرة سريعة في قائمة المواضيع التى عالجها الكاتب الشاب في ١٩٢٠ - ١٩٢١ تعطى فكرة كافية. فهى تبدأ بتقويم أدبى لأوتوبراون^(٨) Otto Braun بمناسبة طبع مذكراته وأشعاره ورسائله، ثم تتلو ذلك أربع مقالات عن الموسيقى (حول النزاع بين Busoni^(٩) و Pfitzner^(١٠))، وحول الجذور القومية للموسيقى الألمانية في العصر الحاضر، وحول الموسيقى في الحياة العصرية، وحول موسيقى ماكس ريجر^(١١) Max Reger، ثم أعمال أدبية من جديد (شعر وجداني جديد، والطبعة الجديدة

الروح المحركة التى أدت بصورة حاسمة إلى نشوء علم الكلام عند المسلمين (وعلم اللاهوت المسيحى قبل ذلك). ولم يكن العراق جزءاً من المملكة الساسانية فحسب، وإنما محورها الأساسى. فهنا كانت تقع العاصمة كتيشفون، على مقربة شديدة من بابل القديمة، ومن بغداد فيما بعد. وتبرهن الدراسات الطوبوغرافية والتاريخية التى قام بها شيدر تقصيماً وراء أصل الحسن أنه كان منذ ذلك الحين يهتم اهتماماً جدياً بدراسة اللغة والحضارة الإيرانية. وقد فعل ذلك معتمداً على نفسه بطبيعة الحال ولكنه بلغ من الدراسة الذاتية مستوى جعله يفوز بعد ذلك ببضعة أعوام بكرسى الاستاذية لعلم اللغات الإيرانية والأرمنية - وهو الوحيد في ألمانيا. ولم تنشر أطروحة شيدر فوراً، بل أعاد مراجعتها وتنقيحها مرتين، وكانت المرة الثانية عام ١٩٢٢، إذ تمكن في هذه الأثناء من الاطلاع على مؤلف لوى ماسينيون^(٧) Louis Massignon الرائع عن أبرز ممثلى التصوف الإسلامى، الحلّاج. ولم ينشر من الأطروحة المنقحة إلا القسم الأول (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ص ١ - ٧٥). أما الفصلان الهامان اللذان تناولتا أهمية الحسن في التاريخ الأدبى والفكرى فقد ظلا بدون نشر، وهو أمر يؤسف له. وكرس شيدر لعمل الحلّاج بحثاً واسعاً في مجلة Der Islam (المجلد ١٥، ١٩٢٥، ص ١١٧ - ١٣٥) ندرك منه مدى تأثيره بأسلوب بحث ماسينيون وروحه. وكما سنبين الذى أولى دوراً مركزياً لدراسة تكوين الاصطلاحات الدينية وأشكالها اللغوية فقد فعل شيدر ذلك فيما بعد في دراساته وأعماله المتعلقة بالمناوية. غير أن توحيده للمفكر المتمرس في الفلسفة اليونانية والأوروبية والباحث اللغوى والموضوعى في شخص واحد ممكنه من المعارضة الواضحة لموقف «يعتقد بالانقصار إزاء التراث الفكرى الشرقى على مجرد الاعادة والتوليد والوصف بقدر الامكان» بدلا من الرد عليه فكراً (مجلة Der Islam، المجلد ١٥، ١٩٢٥، ١٣٥). لقد أصبح الحوار الفكرى مع الشرق وليس هضمه، بسبب التصورات الرومانتيكية، الدافع البارز لموقف شيدر إزاء الشرق. ولم يكن يتمتع بعلاقات تذكر مع «شرقيين» معاصرين ولم يكن راغباً في عقد هذه الصلات؛ كما أنه لم يذهب إلى «الشرق» الحقيقى قط. وكان يعتبر الدراسات الشرقية الطريق الذى يستطيع الغرب عليه أن يدرك ذاته بتحديداتها من الشرق مع اقتباس ملا يلائمه من تراثه الفكرى في الوقت نفسه. وقد وجد شيدر موقفاً مشابهاً كذلك في «الديوان الغربى الشرقى» لجوته. ولكننا سنعود إلى ذلك فيما بعد.

لأعمال رودلف بورشاردت^(١٢) R. Borchardt ومقدمة لعمل ج. ياكوب^(١٣) G. Jacob: قصائد مترجمة لحافظ وعسكري). وفوق ذلك فقد عالج شيدر تيارين اعتبرهما مفتتين على حد اقتناعه: إذ كتب مقالين حول رودلف شتاينر^(١٤) Rudolf Steiner ومقالين آخرين حول رسول الانحطاط أوزفالد شبنجلر^(١٥) Oswald Spengler ولم يفته أن يكتب كلمة تقدير عن «مثله الأعلى» ماكس فيبر؛ ففي عام ١٩١٩ بالذات كان قد صدر للأخير مؤلفان أثارا اهتمامه الشخصي أيضاً. وكتب شيدر حول هذين المؤلفين عام ١٩٤٩، بعد الكارثة الوطنية الثانية التي كان عليها أن يشهدا: «إن من كان يذهب آنذاك إلى الجامعة ليتعلم شيئاً حقاً وليشهد في التعلم الحق حرية الفكر، فانه لن ينسى قط كيف مسه في أولى سنوات ما بعد الحرب، وفي وسط الضججة التي بدأت حول نبوءة الانحطاط التي أرسلها شبنجلر، صوت قوى هادئ مرتين، صوت مسه في الأعماق. وكان هذا الصوت يؤكد له صحة الدرب المطروق، وينير الطريق أمام تساؤلاته الغامضة ويكسبها نظاماً وجلاء، ويعطيه شجاعة وثقة لخوض الحياة الفكرية. لقد انطلق ذلك الصوت من كراسين، طبعاً على ورق رديء كما كان يقتضيه الظرف، وضمنا في غلاف بائس أصفر. وكان المرء يقرأ الكراسين، ثم يعيد قراءتهما مرة بعد أخرى، ويناولهما للأصدقاء وقد تجعدت صحائفهما وامتلاأت بالخطوط تحت السطور؛ أو كان يجمع القروش — وكان المرء عام ١٩١٩ لا يزال يحسب بالقروش — ليشتريهما بها ويقدمهما هدية للأصدقاء. وكان عنوان الكراس الأول «العلم كهنة» والثاني «السياسة كهنة». وكان يجمع بين الاثنين خليط من الموضوعية والحماس يسلبان اللب ويفحمان من الحملة الأولى^(١٦). وكان هذان الكتبيان الدافع الظاهري لقرار شيدر في استبدال العلم بالسياسة وفي الإسراع إلى ميونيخ للتمثل بين يدي المعلم الكبير. إلا أن هذه الخطة فشلت بسبب وفاة فيبر المفاجئة. فقد ظل شيدر في برلين وراح يشترك بالاضافة إلى عمله التحريري في الدورات العلمية التي كان يعقدها اللاهوتي والفيلسوف البروتستنتي الكبير إيرنست ترولتش^(١٧) Ernst Troeltsch الذي أصبح يرعى تراثه الفكري بكثير من التقدير فيما بعد أيضاً.

وفي تلك الفترة كان قد التقى كذلك بعالمين وشخصيتين كان لهما أثر خارق في تكوينه الفكري: وكان الأول مؤسس حقل الدراسات الإسلامية في ألمانيا، وزير الثقافة

ك. ه. بيكر^(١٨) C. H. Becker، والثاني المؤرخ والعالم بالدراسات الإيرانية ي. ماركفارت^(١٩) J. Markwart. ومن الطبيعي أيضاً أن يكرس شيدر أول بحثين كبيرين ألفهما لهذين العالمين: «النظرية الإسلامية في الإنسان الكامل» — مهداة إلى ي. ماركفارت (١٩٢٥) و«دراسات في التوفيقية في العصر القديم — دراسات إيرانية» — مهداة إلى ك. ه. بيكر (١٩٢٦). أما ما سحره في ك. ه. بيكر فقد أعرب عنه شيدر عام ١٩٤٦ كما يلي: «يعود تأثيره المباشر على زملائه في الاختصاص إلى دراساته التاريخية الدينية وما كان يتوصل إليه من نتائج في ذلك. وكان منطقته الأساسي هو الحقيقة القائلة بأن للعصر الوسيط الغربي والشرقي مصدرى تراث مشتركين وهما الهيليني والمسيحي، ففي الأول تلقى الجرمان هذا التراث مستغنين عن استقلالهم الفكري، وفي الثاني تلقاه العرب مع تعديله بالعقيدة الإسلامية التي جاءوا واحتفظوا بها عند دخولهم عالم الحضارة القديمة^(٢٠)». وكتب شيدر عن ماركفارت الذي جاء كذلك من العهد القديم إلى الدراسات الإيرانية، كتب عام ١٩٣٠: «وأثناء شرح الشاهنامه مثلاً التي لم يكن يتعرض كثيراً لمضمونها الشعري، كان يخوض أبحاثاً تستغرق عدة ساعات كان يعلق فيها، دون الحاجة إلى ما يدعم الذاكرة، على خطأ في المتن، أو ملاحظة ميتولوجية، أو نقطة طبوغرافية، فتصبح أبحاثه هذه مصدر علم وافر لا يقدر بثمن^(٢١)». ويمكن اعتبار شيدر ورثياً للآخرين. وهكذا فقد أشرف على نشر مؤلف بيكر «دراسات إسلامية» (١٩٢٤)؛ كما أن بيكر أهدى شيدر الذي كان قد بلغ الخامسة والثلاثين إحدى كتاباته الأخيرة التي كانت تعالج أيضاً «تراث الأولين في الشرق والغرب» (١٩٣١). وفي السنة نفسها خلف شيدر ماركفارت في احتلال مقعد تدريس اللغات الإيرانية في برلين.

وفي محاضراته ودراساته الواسعة العديدة كان شيدر يتعرض دوماً إلى التراث اليوناني في الشرق. وفي دراسة خاصة كرسها لاستاذة السابق في كيل ف. ييجر بين بصورة تبحث على الاهتمام الاختلاف في استمرار تأثير التراث اليوناني في الغرب (الرومان) وفي الشرق (١٩٢٨) (٢٢). فهنا (أي في الغرب) تشهد القدرة على المرور ببحث فكري جديد ناجم عن الاحتكاك (أي الرغبة التي لا حد لها في التعلم) بالفكر اليوناني، بينما هناك (أي في الشرق) لا نلمس بعثاً للقديم ناجماً عن التفاعل معه، وإنما حفظاً وتحليداً له. «بينما ندرك لدى الرومان إرادة منفتحة للتعلم،

وانفتاحاً حقيقياً، لا بل خضوعاً صادقاً للعاطفة للفكر اليوناني، فإننا نجد لدى الشرقيين أنه رغم تشبعهم الذي لا يقل عمقاً بالتراث الفكري اليوناني الموروث، إلا أنهم لا يملكون تلك النزعة الفكرية الخاصة بالرومان إلا في حالات فردية استثنائية. ويعتبر الرومان مثلاً أعلى لبقية الأمم الغربية حيث أنهم الأمة الأولى التي حققت فكرة الانسانية. (٢٢) «أما ما تعلمه الشرقيون من الاغريق فقد استخدموه لأغراض عملية، وليس لتجديد ثروتهم الثقافية وإحداث تغيير في كيانهم الثقافي والعلمي». (٢٤) إذن فلا وجود لفكرة الانسانية القائمة على بعث التراث القديم في الشرق! وكنتم لا هودة فيها لهذا التسلسل الفكري ظهرت دراسة شيدر الرائعة «الفرد في الإسلام» (١٩٢٩). (٢٥) وجاء فيها: «إن أعلى قيمة يستطيع الوعي الانساني تكوينها، وهي الحرية، لم تكن تعنى ولن تعنى بالنسبة للشرق إلا حرية النفس المنطوية على ذاتها السامية في حد ذاتها وحيدة فوق خوف الحياة الأرضية وآلامها». (٢٦)

وكانت لدى شيدر أيضاً أمور كثيرة مشتركة بينه وبين ماركفارت فهناك أولاً نفس المنطق: إذ انتقل كلاهما من حقل العهد القديم واليونانية القديمة إلى حقل الدراسات الإيرانية، كما فعل أيضاً تيودور نولدكه (٢٧) Th. Nöldeke وب. دي لاغارد (٢٨) P. de Lagarde اللذان كان لهما أثر كبير في تحويل شيدر إلى عالم بالدراسات الإيرانية - وهو الطريق الوحيد الذي يمكن طرقة ليمكن الباحث من التغلب على مشاكل حقل الدراسات الإيرانية. كما أن حب ماركفارت لمعالجة الوجوه اللغوية والتاريخية والدينية والاثنوغرافية لمسألة ما، بحيث يضع قدماً في إيران والآخرى في آسيا الوسطى أو الصين، صفة تمتاز بها دراسات شيدر الاختصاصية. وأود هنا أن أشير فقط إلى عمله «إيرانیکا» Iranica. وماركفارت فان شيدر أيضاً لم يكن يميل إلى نشر النصوص الطويلة المستقلة. (٢٩) وكان اهتمامهما الحقيقي عمل دراسات نقدية للنصوص المنشورة أو نشر مواضع معينة من النصوص تتعلق بالمسائل التي كانا يعالجانها.

لقد كان طريق شيدر من الحسن البصري (طروحة الدكتوراة، ١٩١٩) إلى حافظ (بحث اجازة التدريس الجامعي، ١٩٢٢) على خط ميله الخاص إلى الظواهر الفكرية على الحد الفاصل بين الدين وعلم الجمال (الشعر). وكان دانتى هو البداية كما سبق وذكرنا. أما المراحل الأخرى فهي: ر. بورشارت (٣٠) R. Borchardt (وهو مترجم دانتى أيضاً)، وهوغو فون هوفمانثال (٣١) H. v. Hofmannsthal

ور. أ. شرودر (٣٢) R. A. Schröder وحافظ وغوته وأخيراً (وابتداء من ١٩٤٦) ت. س. ايليوت (٣٣) T. S. Eliot وظل بحث اجازة التدريس الجامعي «دراسات حول حافظ» محفوظاً غير منشور (ويذكر شيدر فيه ج. ياكوب (٣٤) G. Jacob وهيلموت ريتير (٣٥) H. Ritter، كأستاذيه الأدبيين) (٣٦). ومما يضاعف الشعور بالأسف لعدم نشر هذه الدراسة أن شيدر يبدو فيها عارفاً بجميع الشعر الفارسي الكلاسيكي وقادراً على التمييز بين العناصر الاسلوبية والفردية لدى الشاعر الفارسي. إن البؤس الذي يجب أن ينجم عن معالجة منعزلة لشاعر فارسي يتضح في النقد الذي نشره شيدر حول دراسة ه. ماسيه (٣٧) H. Massé عن الشاعر سعدي في مجلة «الاسلام» Der Islam، مجلد ١٤، ١٩٢٤، ١٨٥ - ١٩٠.

وبالحصول على إجازة التدريس الجامعي عام ١٩٢٢ بدأ شيدر الذي بلغ السادسة والعشرين الآن مدرجه المهني اللامع في الجامعة كباحث وأستاذ. ويمكن تقسيم نشاطه العلمي إلى ثلاث مراحل: مرحلة برسلاو - كونغزبيرغ (١٩٢٢ - ١٩٢٦ - ١٩٣٠)، مرحلة برلين (١٩٣١ - ١٩٤٤) ومرحلة غوتنغن (١٩٤٦ - ١٩٥٧). وكانت الأولى أهم المراحل وأكثرها إنتاجاً. كان في برسلاو قد اكتسب معرفة مدهشة في ميادين اللغات السامية والدراسات الإيرانية وعلم اللغات المقارن والدراسات التركية وتاريخ الأديان، وعلم الأديان والفلسفة بالدراسة الذاتية، معزراً معرفته بالاتصال بذوى الاختصاص كل في حقله (وقد تحولت هذه الاتصالات بعد ذلك إلى صداقات). وبالإضافة إلى المذكورين فقد كان يستشير الباحثين التاليين: ج. بيرغشتريسر (٣٨) G. Bergsträsser (اللغات السامية)، ر. كيتل (٣٩) R. Kittel (الدراسات اليهودية)، أ. هيلبرانت (٤٠) A. Hillebrandt (حقل أبحاث الفيدا)، ف. تومسون (٤١) V. Thomsen (علم اللغات المقارن)، والدراسات التركية)، ه. فينكلر (٤٢) H. Winkler (علم اللغات المقارن)، ف. بانغ (٤٣) W. Bang (الدراسات التركية والمانوية)، ي. سنتنزل (٤٤) J. Stenzel (الفلسفة القديمة)، ر. رايتزنشتاين (٤٥) R. Reitzenstein (التوفيقية الدينية القديمة)، وه. س. نيرغ (٤٦) H. S. Nyberg (الغنوصية الإسلامية، الدراسات الإيرانية). وتدل مقالاته النقدية المفصلة في مجلة «الاسلام» Der Islam (المجلدات: ١٣-١٥) وكذلك في «الحوليات السنوية المجريّة» "Ungarische Jahrbücher" (المجلد الخامس) على أنه كان قادراً لا على الكتابة كباحث اختصاصي فحسب،

Urform und Fortbildungen des manichäischen Systems“ وذلك عام ١٩٢٧، وقد جعلته الموقظ الحقيقي لفكر ماني. وقد حكم رفيق شيدر القديم في البحث نيرغ عام ١٩٣٥ على هذا الكتاب بالكلمات التالية: «إن شرف الأولوية في إحلال النظام في هذه الفوضى (أى في النظريات السائدة حتى ذلك الحين حول طبيعة المانوية الحقيقية - المؤلف) يعود إلى المستشرق الألماني الشاب ه. ه. شيدر فبه فازت أبحاث المانوية بقوة من الدرجة الأولى تمتاز بشروط غير عادية للقيام بأعبائها الهائلة. وقد بدأ مدرجه العلمى بصفته مؤرخاً دينياً كتلميذ لرايتزنشتاين ... ثم ما لبث أن انفصل عنه فيما بعد ليشق طريقه الخاص بنفسه. وفي عام ١٩٢٧ أصدر في لايبزغ بحثاً عرض فيه رأيه في مسألة المانوية (الشكل الأصلي.. الخ) وهو ليس بحثاً واسعاً -- ٩٢ صفحة -- ولكنه بدون شك أهم بحث برنامجي ألف حتى الآن حول مسألة المانوية. فبالانطلاق من الكساندر الليكوبوليسى^(٥٢) Alexander von Lykopolis الذى يعرض الافكار الأساسية لنظام ماني دون أى غلاف اسطوري، يسعى إلى تحديد العلاقة بين المحتوى النظرى للمانوية والحواشى الاسطورية المحيرة التى تظهر في كل مكان ولا تخلو منها كذلك نصوص مخطوطات تورفان سواء في عرض النظرية أم في التراتيل. ثم يستنتج أن ماني أقام دينه على نظام فلسفى عقلانى واضح، يهدف إلى إعطاء تفسير للعالم والحياة وإلى منح البشر المعرفة، γνῶσις، التى كانوا بحاجة إلّتها للخلاص. وأمكن التعبير عن هذا النظام بكلمات عقلانية واضحة، فقد كان بلاغة عقلية، λόγος بالمعنى الفلسفى الاغريقى. ولا يصلح هذه التعاليم إلى البشر، استخدم ماني اصطلاحات اسطورية ميثولوجية. وبالرجوع إلى تصورات البشر المألوفة استخدم الصور الميثولوجية المتداولة في الاوساط التى كان يخاطبها كعناصر اسلوية تعبيرية. وهكذا فالى جانب كلامه العقلانى الفلسفى λόγος قدم الاسلوب الميثولوجى μῦθος كما فعل أفلاطون قبله. وكانت هذه الفكرية عبقرية بحيث جعلت الميثولوجيا المانوية مفهومة من حيث المبدأ مرة واحدة.»^(٥٨)

ويربط بين المؤلفين «عزرا»^(٥٩) و«مساهمات ايرانية»^(٦٠) (١٩٣٠) نفس الموضوع الرئيسى: ايران والكتاب المقدس، وكذلك شخصية الانسان الرئيسى الذى يدور حوله البحث. ففي تحليل فلهوى لكلمة Sōpēr «الكاتب» يتم البرهان على أن عزرا، المجدد الفكرى للجالية اليهودية بعد النبي البابل، استخدم هذا اللقب كدلالة رسمية على طيفته

وانما فوق ذلك على تطوير البحث في المسائل التى تعرضت لها الكتب التى كان يقرؤها. وفي تلك الفترة أيضاً نشأت دراساته الطليعية الخاصة حول المانوية: «مساهمات ايرانية» و«عزرا الكاتب».

كان حسن البصرى وحافظ منطلق شيدر لدراسة التصوف الاسلامى^(٦١) والغنوصية الاسلامية (مبتدئاً بحركة الباطنية)^(٦٨) وإذ تعرف على الحقل ودخله من الدراسات الرائعة التى ألفها ل. ماسينيون^(٦٩) L. Massignon وتور أندرى^(٥٠) T. Andrae ور. أ. نيكولسون^(٥١) R. A. Nicholson وه. س. نيرغ، وضع نصب عينيه مهمة متابعة تطور «فكرة شرقية قديمة مقبسة من الحضارة الهيلينية حتى تشكيلها التأمل الكلاسيكى في الغنوصية الإسلامية»: أما هذه الفكرة فهى فكرة الانسان الكامل (النظرية الاسلامية للانسان الكامل، أصلها وتشكيلها الشعرى: Die islamische Lehre vom Vollkommenen Menschen, ihre Herkunft und ihre dichterische Gestaltung“ جمعية المستشرقين الألمانية، ZDMG, Bd. 79, 1925, 192-268). ومن هنا وجد طريقه إلى المانوية. ومنذ اكتشاف العبرى ف. ف. ك. مولر^(٥٢) F. W. K. Müller بين مخطوطات أحضرها معه عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ من تورفان في شمالى سينكيانغ مؤلفات مانوية أصلية بثلاث لهجات ايرانية وبالتركية حصلت الأبحاث المانوية على دوافع جديدة. ويجدر بالدرجة الأولى هنا أن نذكر أعمال اللغوى الكلاسيكى في كوتنغن ر. رايتزنشتاين الذى اشترك مع مؤسس معهد الدراسات الايرانية في كوتنغن ف. ك. أندرياز^(٥٣) F. C. Andreas في دراسة المكتشفات الجديدة وتقييمها وشرحها. وقد أثرت نظريته في سر الخلاص الايرانى^(٥٤)، الذى يرى أنها الأساس الذى تقوم عليه الزرادشتية والمانوية وطقوس العبادات الهيلينية، قلنا إنها أثرت كثيراً على شيدر. وقام بينهما سيل من الرسائل أدى بعد حين سريع إلى تعاون وثيق. وبالاشتراك مع رايتزنشتاين أصدر شيدر الآن عملاً ذا أهمية هائلة عولجت فيه لأول مرة نظرية الانسان الأول (وقد عالج شيدر النظريات الايرانية)^(٥٥) وكان ذلك عام ١٩٢٦. غير أن طريقيهما انفصلا بعد حين. فبعد أن انشغل شيدر بدراسة للمصادر المانوية لم يعد قادراً على موافقة رايتزنشتاين على موضوعه الكلى الخاص «بسر الخلاص». وقرر أن يجمع نتائجه الخاصة وينشرها. وبذلك نشأت دراسته المهداة إلى ي. شتينزل J. Stenzel «الشكل الأصلي والتطورات التالية للنظام المانوى»^(٥٦)

Yea, East is East and West is West
 And never the twain shall meet,
 Till Earth and Sky stand presently
 At God's great judgment seat.
 And there is neither East nor West,
 Border nor breed nor birth,
 When two strong men come face to face,
 Though they come from the ends of the earth.

In herzlichem Dankbarkeit für gütige gewährte
 Gutsfreundschaft und Fürsorge
 Marburg 4.15. Mai 1949 Hans Heinrich Shider

هانس هاينريش شيدر.
 نشكر أرملة الأستاذ المرحوم، الدكتورة جريته شيدر، التي وضعت هذا
 التصوير تحت تصرفنا.

«مشكلة ايران والكتاب المقدس» حتى وفاة شيدر القضية
 الرئيسية التي تشغل باله. وقد صمم سلسلة من الدراسات
 الخاصة الاخرى حول هذه المسألة. إلا أنه لم يتمكن
 لسوء الحظ من نقل الافكار الجاهزة في فكره إلى الورق.
 ومع ذلك فان المؤلفين غزيران جداً من الناحية اللغوية
 البحتة أيضاً. فقد أدرك شيدر لأول مرة كنة «الآرامية»
 الامبراطورية» (كان ماركفارت هو الذي وضع هذه
 التسمية). والمقصود هنا هو لغة ادارية موحدة كانت
 تستخدم في جميع دواوين الدولة الأخمينية وتخلو من أى
 اختلاف في اللهجة ولم تكن لغة للمخاطبة وإنما للتدوين
 وتألف من رموز صورية يستطيع كل قوم قراءتها بلغته
 الخاصة. وفي جدال طويل مع ف. ك. اندرياز أظهر
 شيدر أن الكلمات والأسماء الايرانية في «الآرامية الامبراطورية»
 لم تكن متقدمة كثيراً في طريق تطورها إلى اللغة الفارسية

ومنصبه الادارى في المملكة الأخمينية. إلا أن الحالية
 اليهودية اتخذت هذا اللقب بمعنى «الكاتب العالم». وبذلك
 يصبح هنا لقب «الكاتب» رمزاً لمكانة عزرا الفريدة
 الخاصة بين الحكومة الايرانية والمجتمع اليهودي. إن ما فتن
 شيدر في دراساته للكتاب المقدس هو انجاز اليهود الفريد
 من نوعه في حقل الدين، ذلك الانجاز الذي يعتبره
 مضاهياً لانجاز الإغريق في الميدان الفكرى (ولانجاز
 الألمان في حقل الموسيقى). إن العاملين («عزرا» و«مساهمات
 ايرانية») لا يعتبران رمزاً لطريقة بحث شيدر فحسب،
 وإنما كذلك لطبيعته الفكرية: فهنا يؤدى الجوالاهوق
 الذى نشأ فيه شيدر في منزل والديه إلى ايقاظ الأهتمام
 بعلم الدين الذى يمثل بدوره وفي الوقت نفسه ربطاً بين
 الدراسات السامية والدراسات الايرانية ويطرح بذلك
 وجهات نظر جديدة في التاريخ العالمى! لقد ظلت

الوسطى (المساهمات الايرانية، ٢٥٥-٢٧٣). ويربط بحثه حول تاريخ تطور الاصطلاح العربي «زنديق» مؤلفه «المساهمات الايرانية» (٢٧٤-٢٩١) بمؤلفاته المانوية. والأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأديان هو رأى شيدر النقدي حول مسألة التاريخ الأصلي للتعيميد المسيحي. فقد استطاع أن يثبت بطلان موضوعة رايتزنشتاين القائمة، وهى اشتقاق تعيميد يوحنا وتعيميد المسيحية الأصلية فى تنوعه من التعيميد الماندوى: إذ أن التعيميد المسيحي جاء من التعيميد اليهودى لمعتنى الدين الجدد. (٦١)

لقد أفرد شيدر «لقوة الشاعر التنظيمية» مكانة خاصة. فهو يرى أن الشاعر يستطيع ويجب أن «يعطينا ما لا يستطيع أن يعطينا إياه العلم التجريبي فى البحث والنقاش والإفصاح ولا الفلسفة فى المعادلات التجريدية التى تستخدمها فى لغتها المدرسية: ألا وهى الرموز التى لا ينضب معينها والتى تشبع روحنا وتهديء من قلق خاطرنا، الرموز التى تشير إلى علاقات كل شئ بكل شئ. إن وحدة الحياة، والعلاقات الأزلية والبسيطة بين الله والعالم، وبين العالم وال«أنا»، بين الاجتماع والانفراد، إن هذه الأمور هى التى تشغل بال الشاعر والتى - بتشكيلها والتعبير عنها - يربطنا بالمطلق». (٦٢) وهكذا فقد افتتن شيدر لأمد طويل بالحوار الدائر لدى ر. ا. شرودر بين الإنسانى والمسيحي، بين الإنسان المتعشق للجمال والمتدين. وقد أهدى له - بالاضافة إلى بضع دراسات - عام ١٩٣٨ كتابه «تجربة غوته للشرق» وعام ١٩٤٨ الكتاب الذى ألفه مع زوجته «طريق إلى ت. س. إيليويت»؛ وكما سبق وقلنا فإن ر. ا. شرودر مترجم أعمال إيليويت أيضاً.

وفى فترة بريسلاو-كونغزبيرغ كان شيدر شديد التعلق بهوغوفون هوفمانزتال. وقد كرس له دراستين وكتاباً ضخماً كان قد أعلن عنه عام ١٩٣٣، غير أنه لم يسمح بنشره، وقد وصف فيه طريق هوفمانزتال من جوجالى خالص إلى احتلال العالم الفكرى الغربى، إلى الارتباط الشخصى بقيمه الأخلاقية والدينية. ويكتب شيدر فى رثائه لهوفمانزتال عام ١٩٢٩: «لقد كان شاعراً يحيل القدرة اللانهائية على التجربة والألم فى طبيعته وفى جيله منذ بداية الظهور إلى فكرة خالصة ويشكلها فى كلمات خالصة، شاعراً انفتح أمامه - بفضل وعيه الطبيعى لثبات النظام الأخلاقى - الطريق إلى عالم من الأشكال يحتوى جميع المناحي الانسانية على اختلاف ألوانها، وهو طريق اجتازه بطاقة تهذيب ذاتى للنفس تعتبر فريدة فى عصرنا». (٦٣) وأصبح هوفمانزتال شاعر قدره أيضاً. لقد استيقظ الاهتمام بأعمال

هوفمانزتال منذ عام ١٩٢٧ عندما اشترك شيدر بدراسة هذه الأعمال مع الباحثة الشابة المختصة بالشاعر غريته فاراينتس (٦٤) Dr. Grete Waranitsch (المولودة عام ١٩٠٣) التى أصبحت منذ ذلك الحين حرمه الوفية المضحية ورفيقة عمره وشريكته فى البحث فى حقل الأدب.

لقد بدأت الفترة البرلينية بداية تعد بالآمال والوعود الزاخرة. فقد استطاع شيدر الآن أن يوجد مع كثير من أصدقائه (ك. ه. بيكر وف. بانغ وغيرهما) فى مكان واحد. كما أن زملاء القسم فى تلك الجامعة البارزة استقبلوه بحفاوة وود كبيرين. وأصبح «جاره» المباشر بعد حين استاذ الفاحص السابق فى بريسلاو وسلفه فى كونغزبيرغ ريشارد هارتمان (٦٥) Richard Hartmann وسرعان ما أصبح شيدر عضو الندوة الشهيرة «Kränzchen». ويدل فهرس اسماء ومواضيع أعضاء هذه الندوة (ويظهر اسم شيدر كثيراً فيه) الذى طبع عام ١٩٣٩ على مدى نشاط وأهمية هذه المؤسسة الخاصة التى أنشأها الاساتذة البرلينيون بالنسبة للتطور العلمى. وأصبح شيدر ناشر عدد كبير من المتسلسلات النثرية التى يجب أن نخص بالذكر منها «الأبحاث الايرانية Iranische Forschungen» و«امبراطورية المغول العالمية Das Mongolische Weltreich». ومن مؤلفاته الخاصة فى تلك الفترة نذكر: تحقيقه ودراسته لنقوش آريارامنس الفارسية القديمة (٦٧)، ودراسته الخاصة بسلف مانى: باردسانس الرهاوى، وأربع دراسات من حقل الأديان الشرقية (زرادشت - المانوية - محمد فى OLZ ١٩٣٢، ص ١١٧٧-١١٨٥؛ و DLZ ١٩٣٢، ص ٢١١٣-٢١٢٧) وأخيراً الدراسة «ايرانىكا» Iranica (٦٩) ويذكر شكلها الخارجى بمؤلفه «دراسات ايرانية»: فهى تحتوى على مسألتين منفصلتين من حيث الزمان والمكان (وهما اللقب الأخيمنى «عين الملك»، ص ٣-١٩، والاسم الصينى 'Rom' Fu-lin من عهد T'ang، ص ٢٤-٦٨) (٧٠) وبحثان آخران أيضاً؛ وتتصل جميع هذه الموضوعات بالمانوية. وبفضل مقدرته الخاصة فى إيجاد الصلات والروابط، أدرك شيدر كلمة frwm فروم (Fröm) فى البارسية والصوغدية وهى الكلمة التى سبق لب. بيليوت (٧١) P. Pelliot أن طالب بأنها الشكل الايرانى الشمال الشرقى لكلمة 'Rom' Hrōm فى الايرانية الوسطى وهى الكلمة التى يقوم عليها اسم Fu-lin الصينى. والمهم أيضاً البحثان الآخران حيث يبحث فى الأول (بالننى) مسألة التعيميد المانوى المزعوم (ص ١٩-٢٤)، وفى الثانى يتناول بالبحث مذهب الديناوارية التابع للمانوية

الشرقية. واستطاع أن يهرن بالحجة القاطعة أن مؤسس هذا المذهب هو سداد أورمزد حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. لقد ختم شيدر محاضرة افتتاح مدرجه التدريسي في جامعة لاينز بعنوان «فكرة تاريخ الأديان الشرقية» (١٩٣٠/٥/٣١) لم تنشر؛ وكان شيدر قد جاء إلى لاينز خلفاً لـ ١. فيشر (٧٢) A. Fischer) بالكلمات التالية: «إن الحوار بين المسيحي والإنساني هو الموقف الذى تواجهه حياتنا الفكرية». ولم تكن هذه الجملة مجرد كلمات «أكاديمية» فحسب، وإنما كانت اعترافاً ذاتياً عما يؤمن به بنفسه. وعندما نطق بهذه الكلمات كان الاتجاه المسيحي الذى بدأ فى برسلو قد ولى. وكان الجانب الإنسانى هو الفائز فى الصراع. وكانت فكرة الثقافة الإنسانية قد طرحت على شيدر بواسطة غوته، الذى كان قد تمكن من اختيار سعة افق التنبؤ من قبل أثناء عمله على أطروحة اجازة التدريس الجامعى حول حافظ وشعره: ونعنى بذلك حكم غوته على شعر حافظ. لقد رافق الكتاب المقدس غوته — كما رافق شيدر — طيلة حياته؛ وكان — كشيدر أيضاً — يعرفه بجميع تفاصيله. ورغم أنه كان يعتبره وحى منزل من الله، ولكنه لم يكن بالنسبة مصدر الوحى الوحيد، تماماً كما كان شيدر يرى ذلك أيضاً فى تلك الفترة. وبذلك أصبح غوته بالنسبة لشيدر الضمانة الكبرى لديانة الفكر تلك، التى اعتقد أنها توحد فى ذاتها بين العلم والايان.

ثم جاءت فترة ١٩٣٣ — ١٩٣٤. وبقي شيدر فى برلين وتولى مؤقتاً مهمة إدارة معهد الدراسات الشرقية (١٩٣٣ — ١٩٣٥). إنه لا يستطيع الحياة دون أن يتوفر لديه حقل واسع من النشاط والفاعلية، حتى وإن اضطر فى سبيل ذلك إلى دفع ثمن من التكيف للوسط الجديد وخداع النفس والتخلى عن امتلاك خط واضح. وأخذت الصراعات الداخلية تشوش عليه وقدرته على التركيز. ورغم أنه نشأت مساهمات هامة فى حقل تاريخ اللغة والكتابة الإيرانية (٧٢)، وفى حقل النقوش الإيرانية (٧٤)، ودراسات تاريخية — طبوغرافية مليئة بالآراء المحفزة (٧٥)، وتقييم لتعاليم زرادشت (٧٦)، ودراسة حول الزرقانية (٧٧)، ودراسات عن المانوية (٧٨) وعن المسيحية (٧٩)، وأبحاث عديدة، منها ما يعالج أيضاً مشاكل العالم الشرقى (٨٠) منها ما يتناول أبحاث الاستشراق الألمانية (٨١) — إلا أنه لم يكتب لأى من هذه الموضوعات المطروقة أن ينمو ويترعرع. وهو فى جميع الصعوبات التى يواجهها يجد العزاء لدى غوته. فقد جذبها بسحر الشرق — ثم الشعور

بالغربة وعملية الاندماج فالابتعاد التاريخى ومحاولة انقاذ الذات باتخاذ «السلوك الانتاجى» فى زمن عاصف — هنا اكتشف شيدر عند غوته عدة مشكلات كمشكلاته نفسها. ومن أكثر المسائل أهمية بالنسبة لشيدر فى ذلك العهد مفهوم غوته حول تاريخ العالم (٨٢) — وهى المسألة التى كان عليها أن تصبح العمل «المنتج» الذى سيشغل شيدر منذ الآن. وإذا كان فى الماضى قد رأى التاريخ بالدرجة الأولى كتاريخ للأفكار والأديان، فقد أصبح التاريخ السياسى يحتل المرتبة الأولى الآن — وبعد أن شهد السلطة السياسية. وكعلمين يهتدى بهم فى هذا الاتجاه اختار ادوارد غيبون (٧٣) Edward Gibbon وليوبولد رانكه (٨٤) Leopold Ranke، وياكوب بوركههارت (٨٥) Jacob Burckhardt ويوليوس فلهاوزن (٨٦) J. Wellhausen وقلهم (فاسيلى فلاديميروفتش) بارتولد (٨٧) Wilhelm (Vasilij Barthold) Vladimirovič. وكان الموضوعان الرئيسيان: «الامبراطورية الفارسية الكبرى» و«محمد» (دخول العرب فى التاريخ العالمى). ولكن الموضوعين لم يتخطيا حدود الدراسات الأولية الصغيرة (٨٨). ومع ذلك فانهما يستحقان القراءة حتى فى هذه الصيغة. وأود هنا أن أشير فقط إلى التفسير الذكى لعبارة «فى العام نفسه» فى نقش دارا. غير أن العمل على غوته و«ديوانه» جاء بثأره أيضاً. فقد نشأ من ذلك أعظم مؤلف له فى هذه الفترة: «تجربة غوته للشرق» (٨٩) "Goethes Erlebnis des Ostens"؛ وفى أعوام حياته الأخيرة رسم أن يصدر طبعة ثانية يوسع فيها الفصلين: «غوته والكتاب المقدس» و«النظرة الحياتية والشكل الوجدانى عند حافظ».

ثم جاءت فترة غوتنغن وهى فترة الهبوط (١٩٤٦ — ١٩٥٧). فقد ذكرته الأعوام التى اعقبت الحرب العالمية الثانية كثيراً وبصورة حية جداً بتجاربه كطالب يبحث عن الحقيقة بعد انهيار الدولة والعقيدة السائدة بعد الحرب العالمية الأولى. وهكذا فقد رأى من واجبه أن يسعف هذا الشباب بالعون فى المحاضرات العامة ذات الصيغة الإنسانية من حقل التاريخ الفكرى والتاريخ السياسى الأوروبى والأوروبى الآسيوى. وقد سعى بوجه خاص إلى تمهيد الطريق أمام الجيل الجديد من مواطنيه للتعرف على ت. س. إيليت وعلى المؤرخ الجامع ا. ج. توينبى A. J. Toynbee وكثيراً ما كان مزاجه يدفعه إلى التفوه بأقوال لا مبالاة فيها، كانت تفهم خطأ أحياناً، وتثير له المتاعب الكبيرة من جهات مختلفة، وكان من نتيجتها أيضاً أنه منع عن القاء الخطب مدة عام تقريباً. وقد سبب له هذا

وغيره من التجارب المأساوية شعوراً بالأسى والكدر، وأضيف إليه المرض والآلام العضوية التي لم يعد قادراً على الخلاص منها. وبذل محاولات يعثرها التشنج لتحقيق جزء من مشاريعه على الأقل. إلا أنه لم يتمكن من تأليف بحث جديد عن أناشيد الـ Gathas الزردشتية على الورق، ولا من تحقيق مشروعه الكبير في تأليف دراسة تاريخية حول دخول العرب في التاريخ العالمي؛ ولم يعرف إلا فصل منه على شكل محاضرة، وهو الذي عالج فيه القبائل الآوارية الآسيوية Avaren. ولم تتحقق كذلك محاولاته لوضع كتاب في قواعد الفارسية الوسطى ودراسة حول التصوف الإسلامي، كما لم يتمكن من تأليف بحث شامل جديد عن المانوية استناداً إلى المصادر الجديدة^(٩٠).

كانت آخر تجربة شعرية لشيدر هي أعمال ت. س. ايليوت التي تعرف عليها منذ عام ١٩٤٦. وأصبح ايليوت بالنسبة له ما كانه هوفنزال في فترة بريسلو-كونغزبيرغ وما كانه غوته في الفترة البرلينية. وبذلك نشأت دراساته العديدة حول ايليوت وكذلك الكتاب الذي اشترك مع زوجته في تأليفه «طريق إلى ت. س. ايليوت Ein Weg zu T. S. Eliot» (هاملن، ١٩٤٨، ١٦٠ صفحة). أما الشيء الذي فتن شيدر في ايليوت فهو التغلب بقوة الشعر على عصره وأهواله في «الرباعيات الأربع». فكما فعل بيتوفن في رباعياته الأخيرة: السموفوق صعيد الموسيقى بوسائل الموسيقى نفسها، أراد ايليوت أن ينير بوسائل الشعر عالماً سامياً أعلى من مستوى الشعر نفسه، لا يمكن ادراكه إلا بالآيمان. وهنا يظهر التحول الديني لأول مرة، ذلك التحول الذي يتم في شيدر نفسه في أعوامه الأخيرة. ويتحقق ختام ذلك بانتقاله إلى المذهب الكاثوليكي عام ١٩٥٥.

كتب شيدر في رثائه لماركفارت عام ١٩٣٠: «لم يكن معلماً في المعنى المألوف للكلمة. ومن حضر محاضراته ودروسه كمتدئ أصيب بالدوار ولكن كلما حاول المرء أن يتعلم عنده، كلما ازداد فهمه له.»^(٩١) غير أن هذه الكلمات تنطبق تماماً عليه نفسه. إذ أن كاتب هذه السطور يستطيع أن يشهد أنه في درس واحد لمدة ساعتين في مادة الفارسية الوسطى حدث «عرضاً وبالمناسبة» تناول مسائل أخرى أيضاً كمشاكل الأدب الفرنسي الحديث، وتاريخ الصين القديم، والتاريخ الروسي، وتصنيف اللغات الأفريقية وغير ذلك، تبعها نقاش لآراء شبنجلوف. ك. أندرياز ودوستوفسكي وغيرهم أيضاً. ولم يكن لشيدر تلامذة أتباع. ومن استطاع أن «يصمد» لديه، كان

لا بد أن يكون قد جاءه وهو باحث ثام الاعداد. ورغم أنه يوجد عدة علماء يشعرون بالانجذاب إليه، ويقدرونه كأستاذهم — إلا أنه لا توجد له مدرسة مستقلة به. فقد كان أكثر عالمية وأوسع شمولاً من أن يعطى مدرسة ما اتجاهها معيناً. وكان شديد التركيز على نفسه شديد الاندفاع. وكان يعيش دوماً بين الحدود المتطرفة. وقد اشتهرت الألقاب الوصفية «Epitheta» التي كان يبدعها من وحى اللحظة ويسجلها كتابة فوراً، وكان يصف فيها أفكار شركائه في البحث، وتلامذته أيضاً. وكان ببحثه الدائم عن «المواهب الجديدة» الناجم عن حسه الفطري يؤدي إلى إحساس «ذوى مواهب الأمس الجديدة» بالكبت والإهمال لآزاء «مواهب اليوم» و«الغد»، رغم أن استعداده الودي للعون وحبه للضيافة لم يكن لهما حد. غير أن كل لقاء معه، سواء أكان ذلك في الدرس، أم في منزله، كان دوماً تجربة لا تنسى، واثراً للمعرفة وتصحيحاً للرؤية وحافزاً لاكتشاف أفكار جديدة^(٩٢).

إن قائمة من المؤلفات المهداة إليه وأسماء مؤلفيها الذين يمثلون حقولاً مختلفة عديدة لتعتبر أفضل دليل على تأثيره على البيئة المحيطة به:

1926: Joachim Wach, Die Typenlehre Trendelenburgs und ihr Einfluß auf Dilthey. Tübingen.

Eberhard Zwirner, Zum Begriff der Geschichte. Eine Untersuchung über die Beziehungen der theoretischen zur praktischen Philosophie, Leipzig.

1928: Martin Plessner, Der Oikonomikos. Heidelberg.

1931: C. H. Becker, Das Erbe der Antike im Orient und Okzident, Leipzig.

Julius Stenzel, Metaphysik des Altertums. München und Berlin.

Wilhelm Eilers, Gesellschaftsformen im alt-babylonischen Recht, Leipzig.

Günther Raphael, Quartett Nr. 3 in A-dur für 2 Violinen, Viola und Violoncell. Op. 28, Leipzig.

H. S. Nyberg, Hilfsbuch des Pehlevi, II. Glossar, Upsala.

1934: P. Kraus, Beiträge zur islamischen Ketzer-geschichte. Das Kitāb az-zumurrūq des Ibn ar-Rāwandī, Rom (Rivista, Bd. 14, 93-379).

Hans Jakob Polotsky, Abriß des manichäischen Systems. Stuttgart. (Pauly-Wissowa, Real-Encycl., Suppl., VI, 241-72)

1943: Bertold Spuler, Die Goldene Horde, Leipzig.

وبعد وفاته:

لقد كان شيدر يتمتع بطلاقة في أغلب اللغات الأدبية الأوروبية والأسبوية (بما في ذلك الروسية والصينية). إلا أنه كان كذلك بليغاً في الألمانية - وهو شئ نادر في تاريخ أدب الاستشراق! وكان حماسه للروائع العلمية التي كان يبدعها زملاؤه في الاختصاص من الاجانب يبلغ حداً بحيث لم يكن يعتبر الأمر مضيقاً للوقت في أن يترجم دراسات موسعة بكاملها إلى الألمانية ليتيح بذلك الفرصة أمام الاوساط المثقفة الألمانية للاطلاع على هذه الكنوز^(٩٢).

لقد كتب صحافي سويسري عام ١٩٢٨ بمناسبة محاضرة

ألقاها شيدر في زوريخ ما يلي: «إن الجمهور العام لا يعرف حتى الآن إلا جزءاً يسيراً من علمه ومعارفه ... إلا أن قسماً كبيراً منها يكمن كوعود ضخمة أو مشاريع لم يكتمل أكثر من نصفها، وكل ذلك أجزاء من برنامج هائل لا يمكن لإنسان واحد أن يحققه إلا إذا اقتصد في قواه بعناية. وهنا يكمن الخطر؛ إذ أن قوة هائلة مدمرة للذات تنبض في جوانح شيدر؛ وهي تبرق في كل لحظة في نقده، إلا أنها، كما أكد لي وكما اعتقد، أكثر ما تكون تأثيراً في محاضراته وإلقاءاته الشفوية»^(٩٣).

ومما يؤسف له أن الأمر حدث كما تنبأت به هذه الكلمات العرافة. مما يؤسف له؟ كلا، إذ لم يكن بالوسع أن يكون الأمر غير ما كان عليه! ونحن، الذين كان من حظنا أن نشهد شيدر، مدينون لهذا التنبؤ في أن تصبح هذه الأجزاء الرائعة تراثنا المشترك.

ترجمة: محمد علي حشيشو

تعليقات

بالتصوف الاسلامي. وقد حاول ماسينيون كسحي متمسك بالكاثوليكية أن يوجد للاسلام مكاناً خاصاً في التاريخ الديني المسيحي. ألف دراسة عن الخلاص وكتبها أخرى عن التصوف الاسلامي.

(٨) أوتو براون: شاعر وأديب ولد عام ١٨٩٧ وتوفي عام ١٩١٨ ضحية الحرب العالمية الأولى وهو في الحادية والعشرين. أمه ليلي (Lily Braun) أديبة وكاتبة مذكرات وزعيمة في الحركة النسائية الاشتراكية.

(٩) بوزوني: موسيقار وعازف بيانو ولد عام ١٨٦٦ في إيطاليا وتوفي عام ١٩٢٤ في برلين. اشتهر أثناء جولاته الموسيقية في أوروبا وأمريكا وأقام في برلين منذ عام ١٨٩٤ ثم في زيوريخ (١٩١٥-١٩١٩). منذ عام ١٩٢٠ أصبح استاذاً للتأليف الموسيقي في الأكاديمية الروسية للفنون في برلين. حاول في مؤلفاته الأخيرة مواصلة التقاليد الموسيقية الكلاسيكية بوسائل موسيقية تقدمية حديثة.

(١٠) هانز بقتزرن: موسيقار ألماني. ولد في موسكو عام ١٨٦٩ وتوفي في زالتزبورغ عام ١٩٤٩. يمثل فترة الرومانتيكية المتأخرة رغم أن تأليفه تمتاز بفرديّة شديدة وتنوع في التركيب النغمي. عمل في تدريس التأليف الموسيقى والقيادة الموسيقية في برلين وستراسبورغ وميونخ وفيينا.

(١١) ماكس ريختر: موسيقار ولد عام ١٨٧٣ وتوفي في لايبزغ عام ١٩١٦. عمل في تدريس الموسيقى في فيسبادن وميونخ ثم انتقل إلى لايبزغ. برز كمؤلف بيانو وارغن وأبدع في تأليفه الخاصة بموسيقى الارغن.

(١٢) رودلف بورشارت: شاعر ولد عام ١٨٧٧ وتوفي عام ١٩٤٥. درس اللاهوت واللغات القديمة وعلم الآثار؛ وكان صديقاً لـ هوفماتز (انظر تعليق ٣١). امتاز بقوة تعبير لغوي نادرة وكان خطيباً ألمانياً حريصاً على تراث الحضارة الغربية.

(١٣) جيورج ياكوب: مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام. ولد عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل واهتم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول مشرح العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب. (انظر فكر وفن ١١)

(١) كارل ياكوب بوركهاردت: مؤرخ وديبلوماسي وكاتب سويسري ولد في بازل عام ١٨٩١. انتدبه عصابة الأمم في دانزيغ من ١٩٣٧ حتى ١٩٣٩. أصبح رئيساً للصليب الأحمر الدولي من ١٩٤٤ حتى ١٩٤٨، ثم وزيراً مفوضاً في باريس من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩ له عدة مؤلفات ادبية وتاريخية.

(٢) من مقال نشره بوركهاردت حول هانز هانريش شيدر في الصحيفة السويسرية. Die Tat, Zürich, 25. 3. 1957.

(٣) فيرنر ييجر: عالم باللغات القديمة ولد في منطقة راينلاند عام ١٨٨٨ وتوفي عام ١٩٦١. عمل استاذاً في بازل وكييل وبرلين وشيكاغو وكامبريدج (ماساتشوستس). برز بوجه خاص بفضل دراساته في الفلسفة اليونانية وتاريخ الفكر اليوناني.

(٤) فريتز كيرن: مؤرخ ولد في شتوتغارت عام ١٨٨٤ وتوفي في ماينز عام ١٩٥٠. أصبح عام ١٩١٤ استاذاً في فرانكفورت على الماين ثم انتقل إلى بون عام ١٩٢٢. انطلق من تاريخ الدساتير الويسطية وحاول وضع تاريخ عالمي للفكر.

(٥) ماكس فيبر: عالم اجتماعي ألماني ولد في أيرفورت عام ١٨٦٤ وتوفي في ميونيخ عام ١٩٢٠. عمل استاذاً في برلين وفرايبورغ وهيدلبرغ وفيينا وميونخ. اشترك في تأسيس الحزب الديمقراطي الألماني وكان بفضل مؤلفاته المتفرقة أهم علماء الاجتماع في عصره وأقواهم نفوذاً. برز كذلك في تحليله للسلطة والسيادة وأسس ما يدعى بعلم الاجتماع الديني. أهم أعماله «الاقتصاد والمجتمع».

(٦) برونو مايسنر: عالم بالآشورية والآثار القديمة ولد عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٤٧. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً مساعداً في هاله واشترك في ١٩٠٠/١٨٩٩ في حضريات بعثة الآثار الألمانية في بابل. ثم انتقل لتدريس العربية في المعهد الشرقي في برلين وأصبح منذ عام ١٩٠٤ استاذاً في بريسلاو ومنذ ١٩٢١ في برلين.

(٧) لوى ماسينيون: مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٨٣ وتوفي في باريس عام ١٩٦٢. كان استاذاً في معهد كوليج دو فرانس ومن أشهر العارفين

رئيساً للانطباعية والرمزية الموسوية. وقد كان لتعاونه الوثيق مع الموسيقار ريشارد شتراوس أهمية كبيرة للمسرح الموسيقي الحديث. تنعكس من أعماله بوجه عام جهوده الكبيرة للحفاظ على تراث الفكر الأوروبي.

(٣٢) رودلف ألكساندر شرودر: شاعر ورسم ولد عام ١٨٧٨ في مدينة بريمن. كان صديقاً لطوفانزثال وبورشارت. تأثر بفكرة «الثورة المحافظة» التي اقتبسها من هوفانزثال وأصبح حريصاً على الحفاظ على تراث الفكر الغربي القائم على النظم المسيحية والكلاسيكية الأوروبية.

(٣٣) ت. س. إيليوت: شاعر وناقد انجليزي ولد عام ١٨٨٨ في سانت لويس بالولايات المتحدة. درس في هارفارد وباريس واكسفورد وألمانيا. أصبح عام ١٩٢٧ مواطناً بريطانياً وفاز عام ١٩٤٨ بجائزة نوبل للأدب. يعتبر أهم شعراء انجلترا المعاصرين وأقواهم أثراً. تأثر بالرمزية الفرنسية وشعر دانتي و«الشعراء الميتافيزيقيين» وألف أشعاراً معقدة البناء غنية بالرموز والتشابه والاماءات تظهر الأزمة الفكرية التي يجتازها العالم المعاصر (The Waste Land, 1922) ثم أعقب ذلك فيها بعد بشعر يكشف عن احتمالات الخلاص والتغلب على الزمن باللازمي (Ash Wednesday, 1930; Four Quartets, 1943) ويسعى إيليوت إلى تجديد الدراما الشعرية الانجليزية ويمارس، كشاعر، ومن صفحات مجلة «Criterion» التي يشرف عليها، تأثيراً كبيراً على الأدب الأوروبي. غير أنه محافظ في نقده الاجتماعي.

(٣٤) انظر الملاحظة ١٣.

(٣٥) هيلموت ريتز: مستشرق معروف عاش بين ١٨٩٢ و ١٩٧١. عمل استاذاً في هامبورغ بين ١٩١٩ و ١٩٢٦ وفي استانبول عام ١٩٣٥. كان ممثلاً لجمعية المستشرقين الألمانية في استانبول من ١٩٢٧ حتى ١٩٤٩. عضو المجمع اللغوي في دمشق وخبير كبير في الشعر الصوفي العربي والفارسي. انظر كلمة رثائه في مجلة فكر وفن ١٨.

(٣٦) بناء على بحث الكفاءة التدريسية الجامعية ألف فصل: Lebensansicht und lyrische Form bei Hafiz في كتاب شيدر: Goethes Erlebnis des Ostens الصادر في لايبزغ عام ١٩٣٨ (ص: ١٠٥ - ١٢٢ و ١٧٣ - ١٧٨). انظر أيضاً

„Die persische Vorlage von Goethes Seliger Schnsucht“ in: Festschrift E. Spranger, Berlin 1942, 93—102.

وكذلك „Läßt sich die ‚seelische Entwicklung des Dichters Hafis‘ ermitteln?“ in OLZ 1942, 201—10.

(٣٧) ماسيه: مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٨٦ وعمل استاذاً في كلية الآداب في الجزائر ثم مديراً للمعهد الوطني للغات الشرقية حتى عام ١٩٥٨. نشر عدة كتب تتعلق بالأدب الفارسي توفي عام ١٩٧١.

(٣٨) ج. بيرجستريسر: عالم باللغات السامية عاش بين ١٨٨٦ و ١٩٣٣. عمل استاذاً في استانبول عام ١٩١٥ ثم في كوفنزيبرغ وبريسلاو وهايدلبرج. يعتبر خبيراً بالشرع الاسلامي أيضاً.

(٣٩) رودلف كيتل: لاهوتي بروتستانتي عاش بين ١٨٥٣ و ١٩٢٩.

(٤٠) ألفريد هيلبرانت: عالم بالسكسكريتية عاش بين ١٨٥٣ و ١٩٢٨. اهتم بوجه خاص بأدب الفيدا.

(٤١) ف. تومسن: باحث لغوي دانمركي عاش بين ١٨٤٢ و ١٩٢٧ وعمل استاذاً في كوبنهاغن من ١٨٨٧ إلى ١٩١٣.

(٤٢) ه. فينكلر: مستشرق ألماني عاش من ١٨٦٣ حتى ١٩١٣.

(٤٣) يوهان فيلهلم بانغ-كاوب: عالم باللغات والآداب التركية والانجليزية عاش بين ١٨٦٩ و ١٩٣٤. درس في فرنسا وهولندا وانجلترا عمل عام ١٩١٤ استاذاً للغة الانجليزية وآدابها في لوفن وفي عام ١٩١٧ استاذاً لعلم اللغة التركية في فرانكفورت ثم انتقل بعد ذلك إلى برلين. كرس جل اهتمامه لدراسة اللغات الفارسية والمؤفولة وتاريخ لغات الترك وساهم في تطوير الدراسات المتعلقة بالمناوية.

(٤٤) ي. شتتزل: لم يتمكن من العثور على ترجمته.

(٤٥) ر. رايتشتاين: عالم باللغات القديمة ومؤرخ أديان عاش من ١٨٦١ إلى ١٩٣١. عمل استاذاً في روستوك وجيسن وستراسبورغ وفرايبورغ وجوتنجن.

(١٤) رودلف شتاينر: مؤسس علم الانثروپوسوفى القائم على دراسة الفكر والروح. ويرى هذا العلم إلى توحيد علم الروح الهنأى والافلاطونية والمسيحية والغنوصية والتصوف والمثالية الفلسفية والسحر في نظام موحد شامل. ولد شتاينر عام ١٨٦١ في كرواتيا وتوفي عام ١٩٢٥ بالقرب من بازل. اهتم كذلك بدراسة أعمال غوته ونيته.

(١٥) أوزفالد شينجلر: فيلسوف تأريخ (١٨٨٠ - ١٩٣٦) اشتهر بكتابه الرئيسي «انحطاط الغرب» الذي اعتمد فيه على آراء غوته ونيته فوضع فلسفة للتاريخ ونظرية تقييم للتطور التاريخي. ويتخلل شينجلر في نظريته إلى التاريخ عن الوضعية ويحاول ادراك التاريخ العالمي من خلال الفن والأدب، فيرى في ذلك حضارات ثمان، يعتبر كلا منها كائناً متكاملًا ذا روح خاصة به في طريق التطور ثم الزوال.

Sonntagsblatt der Basler Nachrichten, 43. Jhg., Nr. 27, (16. 7. 1949).

(١٧) إيرنست ترولتش: لاهوتي وعالم اجتماع وفيلسوف تأريخ (١٨٦٥ - ١٩٢٣). أصبح عام ١٨٩٢ استاذاً في بون ثم انتقل عام ١٨٩٤ إلى هايدلبرغ وعام ١٩١٥ إلى برلين. احتل منصب أمين الدولة في وزارة الثقافة البروسية عام ١٩٢٢.

(١٨) كارل هاينرش بيكر: مستشرق عاش بين ١٨٧٦ و ١٩٣٣. قام برحلات في افريقيا وتركيا وعمل استاذاً في هامبورغ وبون وبرلين منذ ١٩٣٠. أصبح عام ١٩٢١ وكذلك من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠ وزيراً للثقافة. له كتاب «دراسات اسلامية» في جزئين وكان يبدى اهتماماً خاصاً بقضايا الشرق والغرب في عصره.

(١٩) يوسف ماركفارت: مستشرق عاش من ١٨٦٤ إلى ١٩٣٠. كان استاذاً في برلين وكان اهتمامه موجهاً بشكل خاص إلى دراسة الجغرافية التاريخية لآسيا الوسطى وأرمينيا.

Sammlungen, Jhg. 1, 8, Göttingen, Mai 1946, 455. (٢٠)

Ungar. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119. (٢١)

Der Orient und das griechische Erbe, in „Antike“, Bd. 4, (٢٢) 226—65.

Neue Schweizer Rundschau, Nov. 1928, 807. (٢٣)

Antike, Bd. 4, 233. (٢٤)

Biologie der Person, Bd. 4, 1929, 913—55 (٢٥)

Die Leistung des Islam, in Z. f. راجع أيضاً: (٢٦)

Missionskunde u. Rel. wiss., Bd. 46, 12, 1931, 353—81.

Die Biol. d. Person, Bd. 4, 923. (٢٦)

(٢٧) تيودور نولدكه: مستشرق ألماني كبير ولد في هاربرورغ عام ١٨٣٦ وتوفي في كارلزروهيه عام ١٩٣٠. راجع المقالة التي نشرت عن حياته في مجلة فكر وفن، العدد ٩، ١٩٦٧ (السنة الخامسة)، ص: ٣٣—٤١.

(٢٨) پاول أنتون دى لاگارد: مستشرق وفيلسوف حضاري (١٨٢٧ - ١٨٩١). عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية في غوتنغن وما زال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحليله لنصوص العهد القديم. اشتهر أيضاً بمقالاته السياسية التي تتناول النقد الحضاري والمشعبة بالروح القومية الرومانتيكية.

(٢٩) باستثناء قيام شيدر بنشر كتابي عزرا ونحميا في:

R. Kittel, Biblia Hebraica, 2. Aufl. 1937 und 3. Aufl.

1945, 1284—1324.

(٣٠) راجع التعليق رقم (١٢).

(٣١) هوغو فون هوفانزثال: شاعر نمساوي عاش بين ١٨٧٤ و ١٩٢٩. قام برحلات إلى إيطاليا وفرنسا واليونان. درس الحقوق واللغات الرومانية وعاش في فيينا أو قريباً منها. كانت اشعاره ومسرحياته الأولى تتسم بقوة الشعور والايقاع الموسيقي وصنوفية الموت والعدم. أصيب بخيبة أمل شديدة في أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها فاخذ اهتمامه يدور حول قضايا الفكر والسلطة، الشعراء والزمن، والحفاظ على الفكر الغربي وخاصة الألماني. يعتبر هوفانزثال كشاعر وجداني ومؤلف مسرحي مثلاً

وكونجزيرج وهایدلبرج وأوغوتفن. اشتهر ببحوثه حول الاسلاميات وكتب مؤلفات حول التصوف والإسلام عموماً. انظر فكون ٦.

(٦٦) Kränzchen (1929—39), Berlin 1—100, 1939.

(٦٧) Über die Inschrift des Ariaramnes, SBAW 1931, 23, 635—45; SBAW 1935, 19, 494—96.

(٦٨) Z. f. Kirchengesch., 3. Folge, II, Bd. 51, 1—2, 1932, 21—74.

(٦٩) Iranica (Abh. d. Ges. d. Wiss. zu Göttingen, 3. Folge, Nr. 10), Berlin 1934.

(٧٠) ترجمت هذه الدراسة إلى الصينية.

(٧١) پ. بيليو: مستشرق فرنسي تخصص في لغات الشرق الأقصى وعاش من ١٨٧١ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩١١ استاذاً في الكوليج دوفرانس بباريس. احضر معه مخطوطات قيمة من رحلاته في آسيا الوسطى بين ١٩٠٦ و ١٩٠٨.

(٧٢) أ. فيشر: مستشرق ولد عام ١٨٦٥ في هاله وتوفي عام ١٩٤٩ في لايبزغ. درس في هاله وبرلين وماربورغ. عمل مدرسا للغة العربية منذ عام ١٨٩٦ في معهد اللغات الشرقية في برلين. ثم انتقل استاذاً إلى جامعة لايبزغ حيث خلف المستشرق المعروف فلايشر في كرسى علم اللغات الشرقية. وكان فيشر عارفاً ممتازاً باللغة العربية ابتداء من الشعر الجاهلي حتى اللهجات الحديثة وقد قام بأبحاث قيمة لدراسة هذه اللهجات. انظر فكون.

(٧٣) Beiträge zur iran. Sprachgeschichte, in Ung. Jahrb., Bd. 15, 1935, 560—88; Ein parthischer Titel im Soghdischen, BSOS Bd. 8, 1935, 737—49; Eine verkannte aramäische Präposition (baḡan), OLZ 1938, 593—99; Ein indogerman. Liedtypus in den Gathas, ZDMG, Bd. 94, 1940, 399—408; Altpersisch aruvastam 'Rüstigkeit', OLZ 1940, 289—93; Die Veröffentlichung der Kopenhagener iran. Handschriften, OLZ 1940, 145—50; Mittel- und neupers. bāš 'sei!', OLZ 1941, 193—201; Beiträge zur mittelpers. Schrift- u. Sprachgeschichte, ZDMG Bd. 96, 1942, 1—22; Ein iran. Lehnwort in den Inschriften von Mānikīāla, ZDMZ Bd. 97, 1943, 330—32.

(٧٤) Über einige altpers. Inschriften, SBAW 1935, 489—506; Die Jonier in der Bauinschrift des Dareios von Susa, Jahrbuch d. Deutschen Archäol. Inst. 1932: 1/2, 269—74; Die Gründungsurkunden des Sassanidenreiches und der zoroastr. Staatskirche, ZDMG, Bd. 95, 1941, 14—18.

(٧٥) Türkische Namen der Iranier, Die Welt d. Islams, (Festschrift F. Giese, 1941, 1—34; Zwei altiran. Ortsnamen, ZDMG, Bd. 96, 1942, 127—38.

(٧٦) War Daqiqi Zoroastrian?, in Festschrift G. Jakob, 1932, 288—303; Gott und Mensch in der Verkündung Zarathustras, in Corolla (Festschrift L. Curtius), 1937, 187—200; Zarathustras Botschaft von der rechten Ordnung, Corona, Jhg. 9, 1940, 6, 575—602.

(٧٧) Der iran. Zeitgott und sein Mythos, ZDMG, Bd. 95, 1941, 268—99.

(٧٨) Der Manichäismus und spätantike Religion, in Z. f. Missionskunde, Jhg. 50, 3, 1934, 65—85; Der Manichäismus nach neuen Funden und Forschungen, in Orient. Stimmen zum Erlösungsgedanken, 1936, 80—109.

(٧٩) Historische Theologie und Religionsgeschichte, Z. f. syst. Theologie, Bd. 9, 3 (Festschrift E. Schaefer), 1931, 567—79.

(٨٠) ه. س. نيرغ: مستشرق سويدي ولد عام ١٨٨٩ وعمل استاذاً في أوبسالا. له همة خاصة بكلام باللغات السامية والايروانية القديمة.

(٨١) Zur Deutung der islam. Mystik, in OLZ 1927, 834—48.

(٨٢) Die kleineren Schriften des Ibn al-'Arabī, in OLZ 1925, 794—99.

(٨٣) Zur Stifterlegende der Bektaschis, in OLZ 1928, 1038—58.

(٨٤) Neue Quellen zum Verständnis der bāḡinitischen Bewegung, ZDMG, Bd. 78, 1924, LXXXVI—VII.

(٨٥) انظر ملاحظة رقم (٧).

(٨٦) تور أندريه: لاهوتي ومؤرخ أديان سويدي عاش من ١٨٨٥ إلى ١٩٤٧. عمل استاذاً في ستوكهولم وأوبسالا وأصبح اسقفاً في لينكوبينج عام ١٩٣٦. يعتبر عالماً طليعياً في العلوم الايلامية وله عدة مؤلفات عن الرسول وأصل الاسلام والمسيحية.

(٨٧) ر. أ. فيكولسون: مستشرق انجليزى عاش من ١٨٦٨ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩٢٦ استاذاً في كامبردج. من أهم أعماله: التاريخ الادبي للرب، ودراسات في التصوف الاسلامي.

(٨٨) ف. ف. ك. مولر: مستشرق ألماني عاش من ١٨٦٣ إلى ١٩٣٠ واهتم بدراسة لغات الشرق الأقصى. قدم مساهمة كبيرة في فك رموز مخطوطات تورفان.

(٨٩) فريدرش كارل أندرياز: مستشرق مختص بالدراسات الايروانية. ولد عام ١٨٤٦ وتوفي في ١٩٣٠. ألف عدة أبحاث عن النقوش الفارسية الوسطى وعن اللهجات الايروانية الحديثة.

(٩٠) Das iranische Erlösungsmysterium, Bonn 1921; وخاصة: راجع أيضاً نقد شيدر في: DLZ 1922, 318—21.

(٩١) Studien zum antiken Synkretismus, Teil II, Leipzig 1926 (Studien der Bibliothek Warburg 7), 203—355.

(٩٢) Vorträge der Bibliothek Warburg 4, 65—157. انظر: Ein Lied von Mani, OLZ 1926, 104—07; Manichäer und Muslime, ZDMG Bd. 82, 1928, LXXXVI—LXXXI; Manichäismus, RGG, Bd. 3, 1929, 1959—73.

(٩٣) Ein Mani-Fund aus Ägypten: Schmidt-Polotsky Gnomon, Bd. 9, 1933, 337—62.

(٩٤) Die Stellung der mand. Überlieferung im orientalischen Synkretismus, Klio, Bd. 21, 1927, 441.

(٩٥) وكذلك: Zur Mandäerfrage, OLZ 1928, 163—71. لم نشر له على ترجمة.

(٩٦) Z. f. d. neutest. Wiss., Bd. 34, 1935, 85.

(٩٧) Esra der Schreiber, Tübingen 1930, VIII, 77.

(٩٨) Iranische Beiträge I, Halle, 1930, Schriften d. Königsb. Gel. Ges., 6. Jhg., H. 5, XI, 199—296.

(٩٩) Gnomon, Bd. 5, 1929, 353—70.

(١٠٠) Archiv f. Rel. wiss., Bd. 27, 3—4, 1929, 241—77.

(١٠١) Neue Schweizer Rundschau, 1929, H. 8, 573.

(١٠٢) In memoriam Hugo von Hofmanns- نفس المرجع. كذلك: thal, Antike, Bd. 5, 1929, 221—41.

(١٠٣) قدمت أولمة شيدر لمؤلف هذه المقالة مساعدات كثيرة كفتح خزان أرشيف زوجها ومراسلة أصدقائه القدامى للحصول على تفاصيل عن مراحل حياته.

(١٠٤) ريشارد هارتمان: مستشرق ولد عام ١٨٨١ وعمل استاذاً في لايبزغ

(٩٠) لم يستطيع أن يصدر إلا دراسات قصيرة أهمها:

Der Manichäismus und sein Weg nach Osten, in Glaube und Geschichte (Festschrift F. Gogarten), 1947, 236—54; Des eigenen Todes sterben, Nachrichten der Akad. d. Wiss. in Göttingen aus d. J. 1945—47, 24—36; Die Kantäer, in: Die Welt des Orients, Heft 4, 1949, 288—98.

Ung. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119. (٩١)

(٩٢) يجد المرء في كثير من المؤلفات اشارات بأن الدراسات والأبحاث المعنية تمت بإيجاء من شيدر أو بمساهمة منه أو تعليقاً يقول بأن المؤلف مدين بالحل المعنى إلى بيان شقوى أو تحريرى من شيدر حول المسألة المذكورة، كما فعل مثلاً ب. أ. فرانكه O. Franke في تاريخ الامبراطورية الصينية Geschichte d. chin. Reiches في المجلد الثالث، F. Altheim, Weltgeschichte Asiens im griech. Zeitalter, Bd. 1, Halle 1947, 53—54, Anm. 18.

ولييان مدى اهتمام زملاء شيدر في البحث بمراسلاتهم العلمية معه — وقد كان شيدر حريصاً على الرد على رسائله برعاية وعناية — ما قاله ه. س. نيبرغ Nyberg بهذا الخصوص: «إن الرسائل الطويلة التي كنت اتبادلها معه (شيدر) في هذه الاعوام، والتي لم تكن تبحث فيها Iranica وحدها فحسب، بل وكذلك كل ما يتعلق بالشرق والإله والإنسان على الاطلاق، كانت بالنسبة لي أغنى مصدر للعلم والحفر والسعادة الفكرية» (من كتاب Hilfsbuch des Pehlevi, Bd. 2, S. XIII).

(٩٣) أود هنا أن أذكر أهم الترجمات التي قام بها شيدر. فن اللغة الدانمركية ترجم ما يلي:

V. Thomsen, Alttürkische Inschriften aus der Mongolei, ZDMG Bd. 78, 1924, 121—75; S. Kierkegaard, Über den Begriff der Ironie, München 1929, 283 S.; F. Buhl, Das Leben Muhammeds, Leipzig 1930, 2. Aufl. Wiesbaden 1954, viii, 379 S.; V. Grønbech, Werke 1. Zeitwende; 2. Jesus der Menschensohn), Stuttgart 1942, 157 S.

ومن اللغة السويدية ترجم:

H. S. Nyberg, Die Religionen des alten Iran, Leipzig 1938, X, 506 S.; T. Andrae, Die letzten Dinge, Leipzig 1940, 2. Aufl. 1942, 240 S.

ومن الانجليزية:

A. D. Nock, Paulus, Zürich und Leipzig 1940, 203 S.; M. Rostovtzeff, Geschichte der Alten Welt, 2. Bde, Wiesbaden 1941—42, 500, 502 S.

ومن الإيطالية:

E. Rossi, Die Kulturarbeit Italiens im Nahen Osten, Der Nahe Osten, Jhg. 1, 8—9, 1940, 134—39.

ومن الروسية:

W. Barthold, Zur Geschichte der pers. Epos, ZDMG Bd. 98, 1944, 121—57.

E. H., Hans Heinrich Schaefer (Zu seiner Vorlesung am 4. Juni), in: Neue Zürcher Zeitung, Morgenausgabe 2. 6. 1928, Nr. 1007.

Geschichte der islam. Staaten, SA aus Propyläen- (٨٠ Weltgeschichte, 1933, Bd. 3, 211—48; Bd. 5, 511—52; Bd. 9, 237—98; Der Vordere Orient, in Handbuch der Kulturgeschichte, hrsgb. v. H. Kindermann, 1937, 161—250; Der Orient in der Zeitenwende, Corona, Jhg. 7, 3, 1936/37, 277—304; Imperium und Kalifat, Corona, Jhg. 7, 5, 1936/37, 540—63.

Deutsche Orientforschung, Der Nahe Osten, Bd. 1, (٨١ 8—9, 1940, 129—34; Orientforschung, Studien z. Auslandskunde, Bd. 1, 2, 1944, 75—84.

(٨٢) راجع هذا الخصوص شيدر في طبعة E. Beutler للديوان الغربي الشرقي: West-östl. Divan, 1943, 788—805 وكذلك: Goethes Entdeckung der Geschichte und der Orient, in Neue Zürcher Zeitung, 28.8.1949, Sonderausgabe, SA, S. 18—20.

(٨٣) إدوارد غييون: مؤرخ انجليزي عاش بين ١٧٣٧ و ١٧٩٤، واشتهر بمؤلفه تاريخ الخطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها. وقد كتبه بروح فولتير الناقدة. ويحتوى على معلومات واسعة عرضت بأسلوب خلاب وحكم ثاقب.

(٨٤) ليوبولد فون رانكه: مؤرخ ألماني عاش بين ١٧٩٥ و ١٨٨٦.

(٨٥) راجع التعليق ١.

(٨٦) يوليوس فيلهاوزن: مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتي، ولد في هاملن عام ١٨٤٤ وتوفي في غوتنغن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت في غرايفزفالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢ ثم في ماربورغ وغوتنغن. له مؤلفات وأبحاث ممتازة في اللاهوت والعهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات أصول آرامية. وكمالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الاسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام». انظر فكر وفن.

(٨٧) فلهلم بارتولد: مستشرق روسي متخصص في تاريخ الأتراك ولغتهم وكذلك في تاريخ آسيا الوسطى عموماً. عاش بين ١٨٦٩ و ١٩٣٠ وعمل استاذاً في لنینغراد منذ عام ١٩٠١.

(٨٨) Das persische Weltreich. Vorträge d. Friedrich-Wilhelms-Universität zu Breslau, 1940/41, 39 S.;

وقد تترجم نفس الكتاب إلى الفارسية على يد الدكتور منشى زاده، طهران، ١٩٥٥، ص ٥٢؛ Muhammed, in Arabische Führergestalten, 1944, 1—72.

وكان أول بحث الفه شيدر عن محمد قد ظهر عام ١٩٢٣ في: Kämpfer. Großes Menschentum aller Zeiten, Bd. 1, 115—38.

(٨٩) ظهر في لايبزغ عام ١٩٣٨. وما له صلة بهذا المجال أيضاً المقالات التالية: Der Osten im West-östlichen Divan, in GOETHE, Westöstl. Divan, hrsgb. v. Beutler, Wiesbaden, 1943, 2. Aufl. 1948, 787—839; Des Epimenides Erwachen, in Goethe-Kalender auf das Jahr 1941, 219—63;

ثم الخطاب الاحتفالي في كوتنغن: Goethe als Mitmensch, 1949, 15 S.

أنو ليتمات

(١٨٧٥ - ١٩٥٨)

بقلم : الأستاذ رُودي باريت

من نصيب اللغات الشرقية بوجه خاص. ولكن بما أن الاستشراق وحده لم يكن آنذاك أيضاً ليفتح المجال لمستقبل مضمون فقد اختار علم اللاهوت كفرع مهني. وفي ربيع عام ١٨٩٨ اجتاز في جامعة هاله امتحان التعليم الثانوي بمادتي اللاهوت والعبرية كفرعين رئيسيين، والألمانية واللاتينية والانجليزية كفروع ثانوية. ثم تقدم في صيف العام نفسه لأداء الامتحان النهائي الوحيد في الدراسات الشرقية وهو امتحان الدكتوراة في الفلسفة استناداً إلى أطروحة حول الفعل في اللغة التكرية. وفي شتاء ١٨٩٨/١٨٩٩ قضى ليمان فصلاً دراسياً إضافياً في جامعة ستراسبورغ لدى المستشرق الأصيل الألمعي والعالمي في الوقت نفسه تيودور نولدكه Theodor Noldeke^(٨)، جد زوجته فيما بعد.

وفي هاله تصادق مع الأمريكي الشاب W.K. Prentice^(٩)، وهو طالب كان يدرس اللغات الكلاسيكية. ومن هذه الصداقة نشأت علاقة متينة بجامعة برنستون. وحصل على فرصة ثمينة وهي الالتحاق بعضوية حملة استكشافية أثرية لهذه الجامعة نفسها من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٠ في أول رحلة أبحاث إلى سوريا وفلسطين. وفي عام ١٩٠١ استدعى ليحاضر في برنستون، وفي عام ١٩٠٤ أوفد من هناك للمرة الثانية في حملة استكشافية أمريكية إلى اثيوبيا، لكنه لم يمكث فيها حتى النهاية، إذ حصل من برلين أثناء طريقه في تلك الرحلة على أمر مشرف وهو أن يرأس حملة استكشافية ألمانية برعاية الامبراطور فيلهلم الثاني إلى أكسوم.

وبينا مكث ليمان في اثيوبيا كرئيس لحملة اكسوم الألمانية هذه حصل عام ١٩٠٦ على استدعاء من جامعة ستراسبورغ ليشغل كرسي الدراسات الشرقية كخلف لاستاذته الذي أحيل على التقاعد، تيودور نولدكه. ولبي هذا الاستدعاء بكل بهجة وانتهى بذلك شطراً من حياته ملياً بالرحلات الاستكشافية. ومن عام ١٩٠٦ حتى تقاعده

في عام ١٩٥٨ ذكرت الصحافة والاذاعة في كثير من التقدير رجلين شهيرين من أولدنبورغ مرات عديدة: وهما استاذ الفلسفة في جامعة بازل كارل ياسبرز Karl Jaspers^(١٠)، الذي بلغ آنذاك الخامسة والسبعين عندما منح جائزة السلام لهيأة تجارة الكتب الألمانية، واستاذ اللغات الشرقية في جامعة توبنجن إينوليمان عندما وافته المنية عن اثنين وثمانين عاماً في الرابع من مايو من ذلك العام. وقد غرس العالمان بشخصيتهما وأعمالهما قطعة من طبيعة ألمانيا السفلى في الجنوب الغربي من البقاع الناطقة بالألمانية وجعلها تشع على العالم كله من وطنهما الجديد. وكان كلاهما، رغم اختلاف وجهات نظرهما تماماً، يسعيان طيلة حياتهما إلى إدراك ماهو حقيقى واقع وإلى الاعتراف به في واقعه هذا.

ولد إينوليمان في السادس عشر من سبتمبر عام ١٨٧٥ لصاحب مطبعة في أولدنبورغ. أما أمه فقد انحدرت من اسرة ألمانية فريزية. وفي مدينة أولدنبورغ نفسها قضى مع اخوته واخواته التسعة فترة شبابه الأولى. وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والثانوية وألم بالعبرية ومبادئ الإيطالية والعربية والسريانية والفارسية وتعلم الألمانية السفلى على يد عم له كان يعيش في الريف، التحق في الأعوام ما بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ بجامعات برلين وكرايفزفالد وهاله. وكان من اساتذته العالم بالعهد القديم إميل كاوتش Emil^(١١) Kautzsch، والمؤرخ ادوارد ماير E. Meyer^(١٢)، واستاذ اللغات الألمانية أوتو برير Otto Bremer^(١٣)؛ وكان بينهم من المستشرقين استاذ اللغة الحبشية أوغست ديلمان August Dillmann^(١٤)، وفرانتز بريتوريوس Franz^(١٥) Praetorius، الخبير في حقل علم اللغة الحبشية وقراءة النقوش السامية والنحو والوزن الشعري العبري، وأخيراً جيورج ياكوب Georg Jacob^(١٦)، واحد من أكثر ممثلي الاستشراق تعدداً في الاهتمامات وخصوصية في الأفكار واستقلالا في الشخصية. وكان حب الطالب الشاب



Enno Littmann.

أينو ليتمان.
نشكر السيدة إلزا ليتمان بتوبنجن لإرسالها إلينا هذه الصورة.

في اللغات الأصلية أو بصيغ مترجمة. كما أن ترجمة ألف ليلة وليلة في مجلداتها الست وفي لغة دقيقة واسلوب فني رائع، يمكن كذلك أن تنسب إلى حقل اهتمامه وعمله هذا.

وإلى جانب كل ذلك فهناك عدد كبير من الحقول الجانبية التي أجرى ليتمان فيها بحوثاً علمية: كالعهدين القديم والحديث والاسلام واللغة التركية ولغة الغجر والألمانية السفلى وغير ذلك كثير. وإن فهرس المؤلفات الواسع الذي أعده انتون شال Anton Schall (١٢) والذي نشر عام ١٩٥٥ في المؤلف التذكارى «قرن من الاستشراق» بمناسبة العيد الثمانين للمستشرق الكبير ليشير إلى اتساع وعمق إنتاجه العلمى. فكثيراً ما تحتوى متنوعاته الصغيرة معارف وتفسيرات لغوية هامة. وقد أفاد كثيراً وبوجه خاص فيما كان ينقده من الكتب بأسلوب واضح متحفظ نقاد. وأخيراً،

عام ١٩٥١ ظل يعمل استاذاً نظامياً للدراسات الشرقية في الجامعات الألمانية. وحتى عام ١٩١٤ ظل يدرس في ستراسبورغ - مع فترتي انقطاع قضى الأولى منهما وهو يحاضر في جامعة القاهرة الحديثة آنذاك، والثانية في تركيا لحل رموز النقوش الليدية التي وجدت في ساردس - وعمل من ١٩١٤ حتى ١٩١٦ كمخلف لفلهاوزن J. (١٠) Wellhausen، في غوتنجن، ومن ١٩١٨ حتى ١٩٢١ كمخلف لبيكر C. H. Becker (١١) في بون، وابتداء من ١٩٢١ كمخلف لزايبولد Chr. Fr. Seybold (١٢) في توبنجن. ومن جامعة توبنجن كان يمضى عدة مرات خلال الحريين إلى القاهرة والاسكندرية لالقاء محاضرات علمية وللإشتراك في جلسات المجمع اللغوى في القاهرة. ولكن وطنه الثانى ظل تلك المدينة الجامعية السوابية. وقد رفض أثناء عمله عروض من جامعات برلين وهایدلبرغ وميونخ وبالتييمور و غوتنجن.

وكان اتجاهه الاختصاصى ضمن حقل الاستشراق الواسع نتيجة موهبة لغوية فردية هذبت منذ الصغر، وتأثير متواصل عميق الأثر من اساتذته المستشرقين ديلمان وبريتوريوس ونولدكه. وقد حدد هذا الاتجاه أكثر بعد إنهاء دراسته بفضل رحلاته الاستكشافية وما نجم عنها من مهمات ووجهات نظر خاصة. وقد تركز اهتمامه وجهده العلمى على فك رموز النقوش السامية. وكان يعمل بلا هوادة وفى دقة متناهية على حل النقوش التدمرية والنبطية والسريانية والعبرية والعربية والآثيوبية وشرحها. وقد عمل بخبرة متناهية كذلك على حل النقوش السبئية واليونانية واللاتينية والليدية وتفسيرها. ومن اهتماماته العلمية الكبيرة أيضاً حقل اللغات الحبشية الواسع الذى لم يتطرق إليه إلا القليلون. فبالإضافة إلى اهتمامه بالآثيوبية وهى اللغة الكلاسيكية اتجه إلى البحث فى اللغة الامهارية الحديثة وكذلك فى لغة غاللا، والهررى وتيجرينيا وخاصة لغة تيجرى. ولم يقتصر فى ذلك على الحقل اللغوى البحث، بل عالج كذلك مسائل الوزن الشعرى والأدب («فن شعر الغاللا» و«تاريخ الادب الآثيوبى») وأوضاع آثيوبيا الحديثة على اختلاف أنواعها. وقد اهتم بوجه خاص بجمع الاشعار الشعبية والمواد الفولكلورية بوجه عام من البلاد التي كان يزورها أى من البقاع الناطقة بالحبشية والعربية، كما كان مهتماً بتقديم هذه المواد للقراء عن طريق ترجمتها ما وسعه ذلك. وهنا يكمن جانب هام آخر من جوانب نشاطه العلمى. فنحن مدينون إلى ولعه الشديد بالجمع والنشر فيما نملك اليوم من عدد كبير من النصوص العامية، العربية والحبشية،

لا بد أن نذكر في هذا الخصوص أيضاً عمله كمكشرف على إصدار الفهرس الحبشي Bibliotheca Abessinica (من ١٩٠٤ حتى ١٩١١) ومجلة الدراسات السامية (من ١٩٢٢ حتى ١٩٣٤).

إن الكتب والمقالات التي ألفها ونشرها لتيان خلال حياته المديدة ستخلد وتثمر في الدوائر المختصة وغيرها أيضاً. ولكن صورة هذا العالم الكبير لن تتم إذا نسينا فيه الإنسان الحيوى النشط. إذ لم يكن استاذ اللغات الشرقية في توبنجن عالماً جافاً. بل إنه كان يتمتع بموهبة نادرة وهي قدرته على تمثيل النوادر والتجارب والمواقف التي شهدا أثناء ترحاله وتجوّله بأسلوب تمثيلي بارع، وإعادتها من الذاكرة في تصوير يكاد يشبه الحقيقة. وكان يسبغ بذلك جواً من الانفراج والمرح على طلابه وينقلهم بطريقة مسلية إلى أوساط شرقية خالصة. وكان في الأحاديث الخاصة سيداً في رواية النوادر والملح وفي تقليد اللهجات بفضل مواهبه اللغوية النادرة. وكان يحب العشرة المرحّة الطبيعية بوجه عام، وخاصة في الندوات الصغيرة. وكانت تربطه أواصر الصداقة بعدد كبير من الرجال حتى بعد فترة عزوبته. وبعد زواجه واصل عشرة أصدقائه في إطار الأسرة، وراح يستقبل الزائرين القادمين من قريب وبعيد في منزله الجميل في شارع موريكه ويستضيفهم على الرحب والسعة. وكانت تروى الأقاصيص والأحاديث الدكية في الأمسيات الطويلة أثناء تدخين الغليون أو السيجار واحتساء كأس من الخمر.

ولم يكن لتيان يهوى الإفراط في الكد. وكان متحفظاً في الأمور الشخصية ويكاد يكون خجولاً إزاءها. ولم يكن يتحدث كثيراً عما كان يثبّه في أعماق نفسه. ولكن طبيعته الأصيلة كانت تشع بوضوح لا نغوص فيه جواً من الصفاء والجلال. وفي كثير من طيب العنصر وحب المساعدة والمسألة والتواضع على غير جهل بقدره الحقيقي، أصبح المستشار السرى البروسى، ذو القامة المديدة والرأس الذى يشع تعبيراً وفكراً ثاقباً، أصبح مع مرور الأعوام والأجيال السيد الجليل الحقيقى للاستشراق الألمانى. وقد تعرف أثناء رحلاته الكثيرة على عدد كبير من البشر في الشرق أيضاً. وبفضل قدرته على محادثة أهل البلاد بلغتهم الأصلية، وبفضل اهتمامه العلمى والانسانى بأعمالهم ومشاكلهم لم يكسب احترامهم وأعجابهم الشديدين فحسب، بل ونال حبهم وصداقتهم أيضاً.

وخلافاً لمواطنه ياسبرز، لم يكن لتيان يهتم بالفلسفة.

كما أن القضايا اللاهوتية لم تتراهم رغم دراسته اللاهوتية. ويمكن اعتباره بشئ من التحفظ ابناً متأخراً من ابناء عهد التنوير العقلى وتابعاً من اتباع المذهب الوضعى. وكان دافع المعرفة العلمية لديه يشق من حيث المبدأ سبيل الطريقة الاستقرائية. وكان يهتم بالدرجة الأولى بالحقائق القائمة سواء كانت نقوشاً أم أشكالاً لغوية أم مواد فولكلورية. فكان يسعى إلى ايضاحها وتفسيرها متجنباً بقدر ما وسعه أن يضيع في التأملات التاريخية الفكرية. ولذا فانه لم يكن كذلك مؤرخاً حقيقياً رغم إعجابه الشديد في سنوات دراسته بإدوارد ماير ويوليوس فلهاوزن فيما بعد. وحتى في حقل أبحاثه الخاص قلما وجد نفسه مستعداً لتقديم أبحاث تركيبية شاملة. ولم يتمكن من تنفيذ مشروعه الذى أعلن عنه طويلاً وهو تأليف كتاب في قواعد اللغة الاثيوبية. ولكن بسبب طريقة عمله الحذرة والمهادفة إلى إيضاح الحقائق والمتون وتفسيرها ظلت نتائج أبحاثه صامدة أمام النقد والطعن.

وبسبب الانجازات الكبيرة التي حققها إينو لتيان تجاوز تقديره وشهرته حدود ألمانيا وتعداها إلى الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة والشرق الأدنى. وكان يحمل درجة الدكتوراه الفخرية في اللاهوت من جامعة هاله، والدكتوراه الفخرية في الفلسفة من جامعة القاهرة، وكان عضواً في الجامعات العلمية في برلين وغوتنجن وماينز وأمستردام وبروكسل والقاهرة وكوبنهاجن وباريس وروما، كما كان عضواً فخرياً في الاكاديمية العلمية في فيينا، والرئيس الأول ثم العضو الفخرى لجمعية المستشرقين الألمانية، وكان فارس مرتبة السلام في نظام pour le mérite وحائزاً على اوسمة أجنبية رفيعة. ومن الطبيعى أن هذه الأمجاد لم تلق في نفسه الرفض، ولكنه كان يتلقاها بالتواضع المعروف عنه، ولم يحاول أن يتباهى بها قط. وكانت رغبته الأخيرة أيضاً أنه يود حين سيحين الأجل أن يغادر العالم والحياة بهدوء، تماماً كما جاءهما بهدوء. وقد تمت مراسيم إحراق جسده ومباركته في أضيق دائرة من أفراد عائلته وبعض أصدقاء الأسرة. وبسيرة بسيطة مختصرة كان قد كتبها بنفسه لهذه المناسبة، وقد قرئت في هذا الاحتفال الجنائزى العائلى الضيق، تكلم بطبيعته المتكاملة المتناسقة لآخر مرة. إن هذا العالم العظيم ليستحق الخلود ببساطة ودون تزوير في ذاكرة جميع من تعلموا منه، ومن كانوا مقربين إليه، ومن قدره وأجلوه.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعليقات

(١٠) يوليوس فلهاوزن (J. Wellhausen): مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي، ولد في هاملن عام ١٨٤٤ وتوفي في جوتنجن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً لللاهوت في غرايفزفالد عام ١٨٧٢، واستاذاً للغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات أصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الإسلام فقد شرح فلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدي للفترة الإسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها»، كما ألف أيضاً كتاب الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام. (انظر فكر وفن، العدد ١٣)

(١١) كارل هاينرش بيكر (Carl Heinrich Becker): مستشرق وسياسي بروسي، ولد في امستردام عام ١٨٧٦ وتوفي في برلين عام ١٩٣٣. وقد عمل استاذاً في هايدلبرغ وهامبورغ وبون وبرلين. وعمل منذ عام ١٩١٦ في وزارة الثقافة البروسية وأصبح من عام ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ وزيراً للثقافة. ومن أعماله كوزير للثقافة إصلاح نظم التعليم الجامعي وتأسيس الأكاديميات التربوية وأكاديمية الشعراء. ومن أهم مؤلفاته في حقل الاستشراق «مقالات وبحوث في تاريخ مصر في العهد الإسلامي، (مجلد ١)، ١٩٠٢-١٩٠٣» و«دراسات إسلامية» (مجلد ١)، ١٩٢٤-١٩٣٢، وتوفي منذ عام ١٩١٠ إصدار مجلة «الإسلام» الألمانية المعروفة.

(١٢) زايبولد (Ghr. Fr. Seybold): ولد عام ١٨٥٩ وكان استاذ اللغات السامية في جامعة توبنجن، وقد حقق ونشر آثار ابن أنباري، كما أصدر القاموس اللاتيني - العربي وغير ذلك من المصنفات العربية الكلاسيكية. توفي عام ١٩٢١.

(١٣) أنتون شال (Anton Schall): استاذ اللغات السامية وعلوم الاسلام في جامعة هايدلبرغ ومن المستشرقين المعاصرين الألمان المعروفين. من مؤلفاته الهامة «دراسات حول المفردات اليونانية في اللغة السريانية»، وكتاب «حول فن الشعر الاثيوبي».

(١) كارل ياسبرز (Karl Jaspers): فيلسوف معاصر ولد في ١٨٨٣/٢/٢٣ في اولدنبورغ، وأصبح استاذاً في هايدلبرغ وبازل. وبدأ حياته كطبيب نفسي، وما لبث أن أصبح مع هايدجر مؤسس الفلسفة الوجودية.

(٢) إميل كاوتش (Emil Kautzsch): عالم لاهوت بروتستانتي ولد عام ١٨٤١ في بلاون وتوفي عام ١٩١٠ في هاله. وأصبح استاذ العهد القديم في بازل عام ١٨٧٢، وفي توبنجن عام ١٨٨٠ وفي هاله عام ١٨٨٨.

(٣) إدوارد ماير (E. Meyer): مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و ١٩٣٠.

(٤) أوتو بريمر (Otto Bremer): من علماء اللغة الألمانية ولد في شترالزوند عام ١٨٦٢ وأصبح استاذاً للغة الألمانية في هاله عام ١٩٠٥.

(٥) آوغست ديلمان (August Dillmann): مستشرق وعالم لاهوت بروتستانتي. ولد في ولاية فورتنبرغ بألمانيا في ١٨٢٣ وتوفي في برلين عام ١٨٩٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً في كيل، وعام ١٨٦٤ في غيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

(٦) فرانز بريثوريوس (Franz Praetorius): عالم باللغات السامية ولد في برلين عام ١٨٤٧ وتوفي في بريسلاو عام ١٩٢٧. أصبح استاذاً في بريسلاو عام ١٨٨٠ وفي هاله عام ١٨٩٣. وقد نشر أبحاثاً علمية تتناول اللغة الحبشية وتفسير النقوش السامية وقواعد اللغة العبرية وأوزانها الشعرية.

(٧) جيورج ياكوب (Georg Jakob): مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام، ولد عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية في جامعة كيل وأتم خاصة بدراسة التصوف واصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل في الشرق والغرب (انظر فكر وفن، العدد ١١).

(٨) تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke): بشأن هذا المستشرق الكبير راجع المقالة المنشورة في فكر وفن، العدد ٩، الصفحة ٣٣.

(٩) و. ك. پرينتس (W. K. Prentice): عالم اميركي، اختصاصي في اللغات الكلاسيكية، ولد عام ١٨٧١.

الينوليتمان استاذاً ولداً

بقلم مراد كامل

ومن المعروف ان الدكتور طه حسين والمرحوم الاستاذ علي عبد الرازق كانا من تلاميذ الاستاذ ليمان في الجامعة المصرية القديمة، والتي كان ليمان عميداً لكلية الآداب بها فترة من الزمان، كما كان الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) مديراً لها.

والواقع أن ما أحس به طه حسين وعبر عنه بهذه الكلمات، وهو من الرعيل الأول من تلاميذ ليمان، أحسنا به نحن فيما بعد، ولمسناه من معاملة الاستاذ الأب.

كنا نحيط به في منزله في قاعة من قاعات مكتبته نستمع اليه يحاضرنا، يرعى كل منا بعطف خاص. وأذكر أني

قال الدكتور طه حسين في حفل تأبين الاستاذ ليمان بمجمع اللغة العربية: «وما أنسى فلن أنسى الاستاذ ليمان حين لقيته في مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين، في مؤتمر ليزج، وكنت ألقى حديثي في هذا المؤتمر، وإذا الاستاذ ليمان - وكان رئيس الجلسة في ذلك اليوم - يبكي بكاء شديداً، كأنه تأثر أن يرى تلميذه يتحدث بين يدي هذا الجمع من العلماء المستشرقين الذين أقبلوا إلى هذا المؤتمر في ليزج.

كانت إذن بين ليمان وبينى هذه المودة التي تكون بين الآباء والأبناء».

فقلت نعم هذا من قرية بفيفنجن Pfäffingen ونلقبهم بالمصريين.

فعجبت لهذا وأخذت أسأل عن بفيفنجن وهي قرية من توبنجن يجرى في واديه رافد من روافد نهر النكر يسمى الأمر وعرضه لا يزيد عن المتر، ويمر السائر إلى هناك على جسر خشبي يسميه الاهالي جسر قناة السويس، ووجدت وادي الأمر جهة بفيفنجن متسعاً اتساعاً لا يتفق مع ضيق النهر الصغير.

وساءلت نفسي، هل مر من هنا بعض الغجر، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم المصريين (جبسي)؟ ولكني وجدت الناس هناك من الالمان الصنف وسخنتهم ألمانية، وليس بهم ما يدل على دم غجري دخل عليهم.

وذهبت إلى الاستاذ ليمان، وقلت له أنت تحب الآداب الشعبية وتعشقتها، فهل لك أن تشرح لي معنى هذا؟ وكيف أصبحت عندكم كلمة «مصري» سبة؟

ولم تمض الا أيام حتى جاء متهللاً، فقد توصل إلى كشف السر، وتعليل أصل الموضوع. فوجد أن رافد الأمر ضيق جداً وهو يجرى تحت الشوارع في توبنجن، بينما نهر النكر متسع. ووجد أن حوض نهر النكر في هذه المنطقة ضيق جداً، بينما وجد أن حوض الأمر في بفيفنجن متسع وخصب. وقد سمي الطلبة في توبنجن الأمر على سبيل الدعابة نهر النيل، وبطبيعة الحال الأرض التي يجرى فيها الأمر هي مصر أي بفيفنجن، وسمي الناس سكانها بالمصريين.

هذا هو تعليل الاستاذ ليمان لمسألة معقدة غامضة، تدل على أنه كان ثاقب النظر في كل ما يتعلق بحياة الشعوب وتفكيرهم.

سرعة خاطره

ذهبت مع الاستاذ ليمان إلى إحدى المكتبات في حي من أحياء القاهرة القديمة، وكان يريد أن يشتري بعض الكتب، وأخذ يناقش صاحب المكتبة في الثمن. فقال له صاحب المكتبة انت خواجه ومعك من النقود ما يكفي أن تدفع القيمة التي طلبتها منك. فرد عليه الاستاذ ليمان على البديهة مداعباً، ابدأ، أنا حتى ساكن في درب المفلسين. فظن صاحب المكتبة أن هناك دربا يسمى درب المفلسين يسكنه من لا مال عنده، فرق لحاله وتجاوز له عن نصف قيمة الكتب.

كان الاستاذ ليمان في طريقه إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وكنت أصحبه، وكان عليه في هذا اليوم أن يناقش

حين حضرت من مصر إليه كنت أجهل الألمانية تماماً، وكان يزاملني أحد الاسبان، وهو يجهل الألمانية ومعنا طالب ألماني. وكنا نقرأ النص الاثيوبي عليه يترجمه الالماني بالألمانية والاسباني باللاتينية وأنا بالعربية.

كان لي زميل أجنبي يحضر رسالة الدكتوراه على الاستاذ ليمان، وأتى إليه يوماً يبكي ويذكر له أن حكومته قد أنهت بعثته وأنه يريد أن يتقدم إلى الدكتوراه خوفاً من أن يعود إلى بلده دون الحصول على شهادته. وكان ليمان يعرف أن بينه وبين إتمامها بعض الوقت، وتحركت عاطفة الأبوة وتغللت على موقف الاستاذية فقبل الرسالة. ولما تبين له أن الطالب استغل ما عرف عن ليمان من عطف على أبنائه الطلبة، لم يغضب وإنما أضاع من وقته الثمين فيما بعد حوالى الخمسة ساعة، يصحح الرسالة حتى تطبع على الوضع العلمى اللائق.

ذكرياته

اعتاد ليمان أن يدعو طلبته في آخر كل فصل دراسي على حفل عائلي في منزله، وكان يقص علينا من ذكرياته الكثيرة. أذكروهم ويتحدث عن استاذة نولده، أن نولده كان يدعو طلبته أيضاً في آخر كل فصل دراسي وكان يقابلهم في منزله بستره المنزل، ويلاحظ ليمان أنه كان يجد أزرار هذه السترة تنقص زراً كل عام حتى لم يبق فيها من الأزرار شيء عام وفاته.

ويحدثنا عن الملك فؤاد أنه كان يتحدث معه بالايطالية بطلاقة ولكن بلهجة روما.

ويذكر أنه كان في صحراء الشام ومر بجيمة منعزلة ورأى ثلاثة أطفال يلعبون خارجها، وما كانت أشد دهشته حين سمع الأم تنادى أطفالها من الداخل وتحدثهم بلهجة المانية سويسية Schwäbisch.

هل المصري سبة؟

كنت اسكن في توبنجن في غرفة في الشارع الرئيسي، وكان اليوم صيفاً، وأنا جالس إلى مكتبي. وفي غرفة مجاورة تحيط بنوافذها زهور الجارونيا وقفت صاحبة المنزل تسقي الزهور. وسقط بعض الماء على عامل بورشة اصلاح السيارات في أسفل المنزل فأخذ يسب. وأطلت صاحبة المنزل من النافذة ورأت العامل فقالت له: «يا مصري»، ثارت ثائرتة وأخذ يسبها ويلعنها.

ولم أصدق أذن بادية الأمر، فذهبت إليها أسألها اذا كنت ما سمعته صحيحاً، وهل قالت له يا مصري؟

يوجه اليه الكلام. وعلى أى حال لم يظهر صاحبنا بهذا المظهر فيما بعد فى أى حفل من الحفلات.

كان من سوء حظى أن أبدأ بدراسة اللغة الألمانية فى توبنجن، وزاد الطين بلة أن النص الذى بدأت أدرسه وأترجمه، كان مقدمة كتاب قواعد اللغة الاثيوبية لديلمان. وتبدأ المقدمة بجملة فى أول الصفحة وتنتهى عند ثلث الصفحة الأخير، ويتخللها جمل اعتراضية وجمل موصولة وما إلى ذلك مما هو معروف بطريقة كتابة العلماء الالمان فى القرن الماضى، والمتأثر بأسلوب الكتابة اللاتينية فى العصور الوسطى. والحقيقة أن هذه البداية فى تعلم الألمانية قد كونت عندى عقدة نحو الألمانية وصورت لى اللغة الألمانية بأنها صعبة المنال، معقدة الأسلوب، لا سبيل إلى معرفتها مهما بلغت من سحر هارون أو حكمة سليمان.

وسألنى الاستاذ ليمان عن حالى فى دراسة الألمانية وما أحرزته من تقدم فى معرفتها. فقلت أدور منذ شهرين عند جملة واحدة، وشرحت له ما ألقاه من عقبات وما أواجهه من صعوبات. فقال لى لا تيأس، ودخل معى إلى مكتبته ووقف حيث وضع ترجمة الف ليلة وليلة. وقال أتعرف كيف أمكننى أن أنهى هذه الترجمة فى وقت قصير، وعلى خير وجه؟ طريقة واحدة، ومنهج واحد يجب أن يضعه المترجم نصب عينيه: وهو أن يقسم الجملة الطويلة إلى جمل قصيرة، وبهذا يصل إلى هدفه فى أسلوب سهل ممتع، مفهوم من القارئ، به رقة وأناقة. وكان هذا هو الطريق الذى سلكته فى ترجمة الف ليلة وليلة. وأصبح هذا الدرس نبزاً لى فى حياتى حين أترجم وحين اكتب أيضاً.

يقول الاستاذ ليمان كنت فى أكسوم فى اثيوبيا فطلبت من أحد العمال أن يأتينى بحجرة وأشرت على حجرة كبيرة وتلفت العامل حوله وقال للاستاذ انى لا أرى حجرة، وأنما ما أراه حجراً، لأن الحجر كبير والحجرة صغيرة. وقد نهت هذه العبارة الاستاذ ليمان - كما يقول - أن التاء هنا ليست للمؤنث أو للوحدة وإنما هى للتصغير. وقد ذكرت له أن هذا الاستعمال شائع أيضاً فى العربية الحديثة. وجعله هذا يفكر فى الكثير من أسماء الاعلام العربية القديمة للذكور التى تنتهى بالتاء هى فى الواقع ليست مؤنثة، بل هى نوع من التصغير لم تأخذ به اللغة العربية ولا اللغات السامية. وهذا النوع موجود فى بعض لغات جنوب افريقيا، ففى لغة الناما مثلاً، وفيها تقسم الاسماء الى أقسام مختلفة يدخل الكبير تحت قسم المذكر،

رسالة دكتوراه عن الف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى. وبينما كان فى طريقه الى دخول الكلية بالجيزة، قابله ساعى مدير الجامعة واسمه عبد العاطى وكان يعرف الاستاذ ليمان منذ أن كان عميداً فى الجامعة القديمة، فبادره بالتحية، فقال له ليمان ملاطفاً يا عبد العاطى أنا اليوم مسرور جداً لأننى امتحن بنت ابنى يقصد سهير القلماوى وهى تلميذة الدكتور طه حسين الذى يعتبره ليمان من أبنائه. فرد عليه عبد العاطى يا استاذ ليمان مصر مليئة بأولادك وأولاد أولادك. فقال له ليمان أخفض صوتك حتى لا تسمعك زوجتى وتصدق ما تقوله، وتخاف أن لا يبقى لها من الميراث شيئاً.

طلبت اليه فى الاحتفالات باليوبيل الفضى لجامعة القاهرة صورة فوتوغرافية وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، لأن الجامعة كانت قد كلفتنى بالكتابة عنه نبذة تنشر فى كتاب اليوبيل الفضى، وهو ذكرى مرور ٢٥ عاماً على انشاء الجامعة، فأعطانى صورة له وهو فى سن الستين. فقلت له هذه صورتك وانت فى الستين، فرد على قائلاً انشر هذه الصورة، لأنى لا اريد أن يتذكرنى الناس بعد موتى بأكثر من هذه السن وهذا الشكل والسحنة.

ملاحظات ثاقبة

كنت فى برلين وارسل لى الاستاذ ليمان خطاباً يطلب منى الرد على بعض المسائل. وتأخرت فى الرد عليه. ولما حضرت لى توبنجن وقابلته أخذ يعتذر عنى لتأخرى فى الرد عليه لكثرة مشاغلى وقال لى أنى نظمت أوقاتى بأن خصصت يوم الاثنين من كل اسبوع للرد على البريد وبهذا أنهى ما على أولاً بأول. وكانت هذه طريقته فى التوييح والتوجيه، وذلك فى رفق ورقة.

وبهذه المناسبة أذكر أنه فى يوم من أيام شهر يونيه الحار وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر، دعا الاستاذ ليمان طلبته فى نهاية الفصل الدراسى إلى حفل شاي - كما تعود ذلك .. واجتمع الطلبة والطالبات واذا أحد الطلبة الاجانب وقد دخل علينا يلبس السموكنج وعليه كرافتة حمراء طويلة، فكتمنا ضحكنا، وفهم الاستاذ ليمان من بريق أعيننا ما يدور بخلدنا من نقد واستفهام. فلما استوى بنا المجلس أخذ يتحدث - فيما تحدث - عن عادات الشعوب المختلفة فى لبس لباس المسهرة وغير ذلك من أنواع اللباس فى المناسبات المختلفة، ويقص ما حدث له هنا وهناك، وهو فى ذلك كله يريد أن يلحق صاحبنا درساً، بدون أن

والصغير يتدرج تحت المؤنث، ولهذا كان في هذه اللغة ثدى المرأة مذكر لأنه «كبير»، وثنى الرجل مؤنثاً لأنه «صغير». والواقع أن هذه الملاحظة العابرة التي ذكرها الاستاذ ليمان نبهتني لكثير من أشباهها في دراسة اللهجات العربية الحديثة.

اهتم الاستاذ ليمان بدراسة أسماء الاعلام وألف فيها، لأنه كان يرى أن العالم يمكنه أن يستخلص كثيراً من الدراسات الاجتماعية والتقاليد من خلال الاسماء. ويقص علينا أنه حين كان في رحلة من رحلاته في جنوب صحراء الشام للكشف عن النقوش الصفوية والثودية واللجاشية، قابل أحد البدو، فسأله عن اسمه، فقال اسمي سكران، فسأله الاستاذ ليمان متبسّطاً معه: سكران من شرب أى نوع من الخمر؟ فرد عليه على الفور: لا أنا سكران من دم الاعداء. يقول الاستاذ ليمان فتذكرت ما يقول العرب قديماً: إن أسماء عبيدنا لنا، وأسماءنا لاعدائنا.

في رحلة من رحلات الاستاذ ليمان الكشفية جنوبى حوران، كان قد حصل على خارطة جغرافية للمنطقة وضعها أحد الضباط الانجليز. وقرأ على الخارطة اسماً لوادى من الأودية أطلق عليه «وادي الويسكيات». وشعر الاستاذ ليمان أن الاسم الحقيقي لهذا الوادى اختلط على الضابط البريطاني مع الويسكى. وحاول أن يصل إلى الخطأ الذى وقع فيه الضابط فلم يسعفه التخمين. وصمم الاستاذ ليمان أن يتحمل مشقة السفر إلى هذا الوادى حتى يكشف عن اسمه الأصلي. وحين وصل إلى المنطقة أخذ يسأل البدو هناك عن اسم الأودية التي تقع في هذه المنطقة أو على مقربة منها. وما كانت أشد دهشته إذ علم أن الوادى الذى سماه الضابط البريطاني بالويسكيات هو وادى العوبسجات. وأنى أنهى حديثي بقصة وقعت بيني وبين الاستاذ ليمان تدل على عظمته العلمية وروحه الأكاديمية ومعاملته الأبوية.

أنكر ليمان كما أنكر غيره من العلماء مثل كونى روسينى وماريو مورينو، وجود أى نوع من الاوزان في الشعر الاثيوبي. ولما ذهبت إلى اثيوبيا على رأس البعثة التعليمية المصرية، وتوليت مركز المستشار الفنى لوزارة المعارف الاثيوبية، تهيأت لي الفرصة أن أقابل عدداً من العلماء الاثيوبيين. وخطر ببالي أن أنظم بعض الاشعار الاثيوبية من الفنى، وعرضتها على العلماء الاثيوبيين، فقالوا لي إن الأشعار ليست سليمة. وسألهم عن السبب، فقالوا لا ندرى سببها، وانما هي مخالفة لما تعودناه وألفناه. وفكرت في أن الشعر الاثيوبي، لابد أن يكون له من الوزن

ما لا نعرفه، وما لا يعرفه الاثيوبيون أيضاً. وهم يقرضون الشعر بحسب السماع ولم يسبق لهم أن درسوا الاوزان لا عن قرب ولا عن بعد، وانما يحسون بالصحيح منها وغير الصحيح. وقدرت أن تكون الاوزان تخالف كل ما نعرفه من أوزان في اللغات المعروفة. وهذا ما حدا بعلماء الغرب وفي مقدمتهم ليمان أن ينكروا وجود الاوزان في الشعر الاثيوبي.

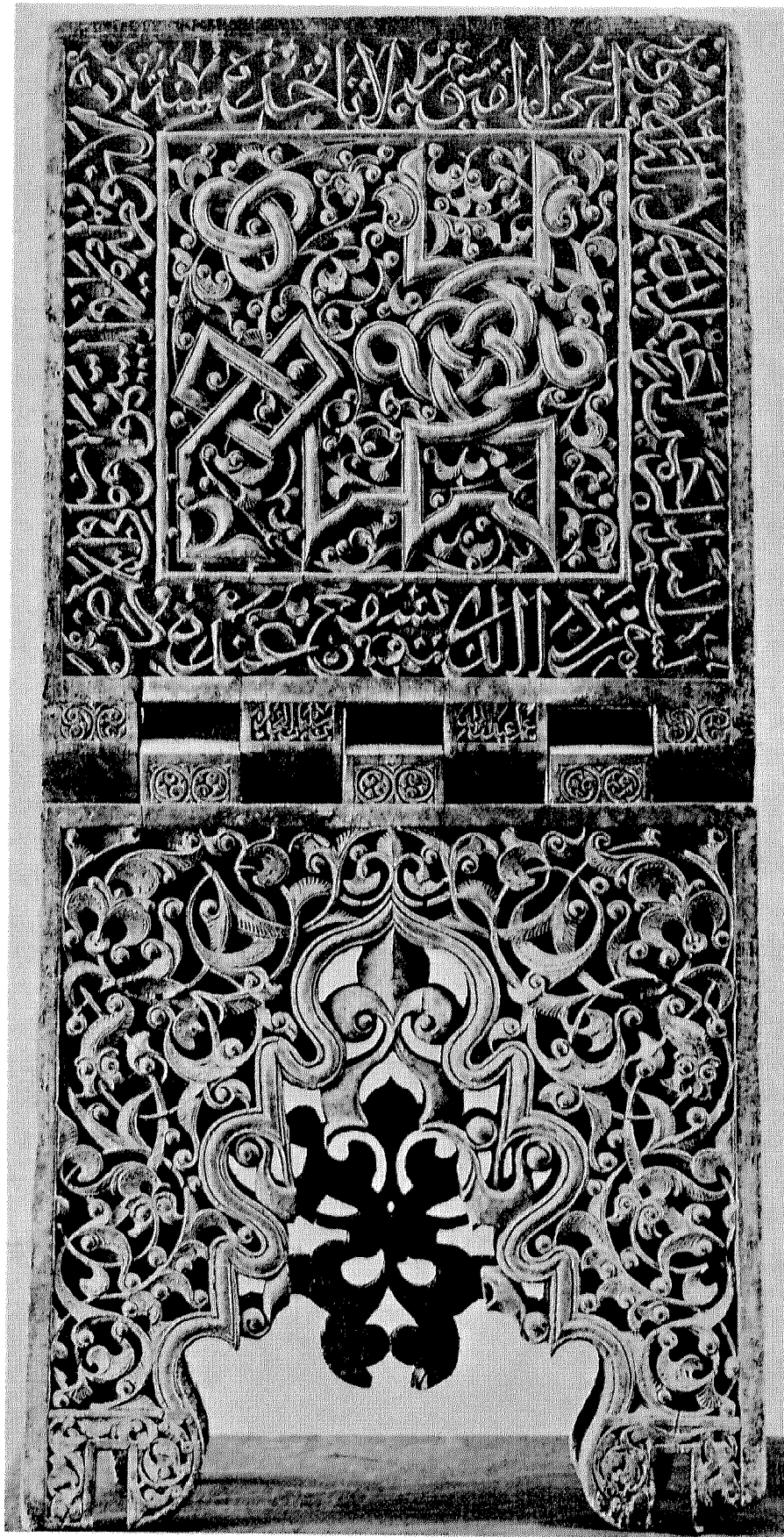
وبدأت بدراسي في الفنى وهو لون من ألوان الشعر الاثيوبي وهو على ثلاثة عشر نوع وكل نوع على ضروب، وتوصلت - كما خيل لي - إلى نتيجة ايجابية. ولكن ساورتني الشكوك، وترددت أن أعلن على الناس ما أنكره اساتذتي من قبل. وظننت أنى تجاوزت حدود المنطق العلمى إلى الخيال.

وانتظرت حتى أتى الاستاذ ليمان إلى القاهرة في الربيع يحاضر في كلية الآداب. فقلت له هل لي أن أسألك معروفًا. فقال هات ما عندك. قلت فلنجلس جلسة طويلة على النيل، وذهبنا إلى حيث الهدوء، وأخذت أقص عليه قصتي، وأعرض عليه نتيجة عملي. وتوقعت أن يفض المجلس بملحة من ملحه أو نادرة من نادره، وينهى بذلك أمر خيالي. ولكنه على العكس مما توقعت، هتئى على هذا الكشف - كما قال - وشجعني على الاستمرار في بحثي، وطلب إلى أن أقوم بعرضه في مؤتمر المستشرقين في باريس وكان يحضر الجلسة - على غير علم منى - كونى روسينى ومورينو.

وذكر ليمان هذا البحث في عرضه للدراسات الاثيوبية، كما وجه الاستاذ شال Schall في أن يجعل من هذا البحث رسالته للأستاذية Habilitation. هذا كله يدل على معاملة ليمان لتلاميذه، وعلى عظمته العلمية كما قلت. فلم يؤثر عليه أن يعارض تلميذه رأيه، بل شجعه على أن يمضى فيه. ثم فآخر هو بما انتجه تلميذه وسرله ورحب به.

تلقى العلم على الاستاذ ليمان في مصر وفي المانيا عدداً غير قليل من الطلبة العرب. وقد أمدهم ليمان بعلمه الغزير، وبذل معهم جهداً كبيراً، وضحى بوقته، وفتح بيته ومكتبته لابنائهم من العرب، ولم يقبل على عمله أجراً أو هدية.

ونحن حين نلتقى بالطلبة الالمان الذين يقومون بالبحث والدرس في جامعاتنا، فاننا نعطيهم ما نستطيع إعطاءه، ونبدل ما نقدر عليه من جهد، وفاء لبعض ما أسداه إلينا أساتذتنا في المانيا.



شيخ المستشرقين الألمان :

هلموت ريتير

(١٨٩٢ - ١٩٧١)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

فقد الاستشراق الألماني واحدا من كبار شيوخه. توفي هلموت ريتير في التاسع عشر من شهر مايو عام واحد وسبعين وتسعائة بعد الألف عن تسعة وسبعين عاما.

ليس بالامكان أن نحيط بقدر هذا العالم الفذ وقيمه العلمية والانسانية في عجالة قصيرة كهذه. فأولئك الذين تعاونوا معه عرفوا عنه اتساع ميادين اهتماماته، وحدة ذكائه، فضلا عن ارتفاع مستوى ملكاته الفنية. أما الذين تتبعوا ما نشر في ميدان الاستشراق الأوربي خلال العقود الخمسة الأخيرة فقد لاحظوا ولاشك تطرق ريتير إلى بحث عدد كبير من الموضوعات في مختلف تيارات التخصص. كما أنه لم تصدر عنه دراسة واحدة، مهما كان حجمها محدودا، إلا وكانت تعتمد على مراجع غزيرة من أقدم وأوثق المصادر العلمية.

ولد هلموت ريتير في ٢٧ فبراير ١٨٩٢ بالقرب من «كاسل» (مقاطعة هسن). وقد صار فيما بعد كل من أشقائه الخمسة الذين نشأ وترعرع معهم عالما ذائع الصيت والمكانة.

أدى هلموت ريتير خدمته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى في الجيش الألماني بتركيا. وقد انتهز هذه الفرصة ليجمع من العراق خاصة قدرا كبيرا من المواد اللازمة للقيام ببحوث أنثروبولوجية ولغوية. وكان عنوان أول إنتاج كبير له هو «قاموس عربي لعلوم التجارة». وفي جامعة هامبورج بدأ يحاضر للمرة الأولى في معهد الدراسات الشرقية الذي كان قد أسسه الوزير البروسي «كارل هاينريش بيكر». ورغم أنه كان من أصغر محاضري ذلك المعهد سنا، إلا أنه كان معروفا بشدته المتناهية ودقته العلمية الفائقة، مما جعل له رهبة خاصة في نفوس الدارسين. ولقد حدثت به ملاسبات شخصية إلى الرحيل إلى استانبول في نهاية العشرينات حيث أقام عشرين عاما وصار من أفدر العارفين بالخطوط الإسلامية المتوفرة في تلك المدينة. فن كان بحاجة إلى معونة أو مشورة بشأن مخطوطة تركية أو عربية أو فارسية ولجأ إلى ريتير وجد فيه خير مرشد وخبير.

عاد ريتير إلى ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة وحاضر عدة أعوام في جامعة فرانكفورت التي تنلمذ فيها على يديه عدد كبير من الدارسين الألمان وغير الألمان، فكان عليهم جميعا أن يتمرسوا بشدته وأمانته العلمية القصوى.

عاد ريتير مرة أخرى إلى استانبول خلال الخمسينات، وإن ظل يشكو المرض طوال الأعوام الأخيرة من حياته. حياته التي لم يفقد متعة العمل يوما واحدا فيها ولو كان يومه الأخير. وقد قضى لحظاته الأخيرة في داره الأنيقة الكائنة بضاحية «أوبر أورزيل» التابعة لفرانكفورت/ماين.

لو تأملنا الآثار العلمية التي خلفها ريتير لتبيننا اتساع رقعتها وضخامة مكانتها خاصة وأنها تعالج قدرا هائلا من موضوعات الحضارات الإسلامية كما أنها تربط مختلف ميادين الاستشراق بعضها ببعض الآخر. فريتير هو الذي حقق أثناء إقامته في تركيا نصوص تمثيلات القراقوز وترجمها إلى الألمانية بمهارة فائقة، حتى أنه استطاع في هذه الترجمات أن يوجد مضاهيات ألمانية شعبية لكل لعب لفظي وارد في الأصول الشرقية. وقد كرس هذا العالم نفسه في أواخر حياته لبحث لهجة سربانية حديثة والترجمة عنها إلى الألمانية وتحليلها بغية انقاذ لغتها وأدبها اللذين في سبيلهما إلى الانقراض. وهو نفسه الذي قام بتحقيق علمي نموذجي ل«مقالات الإسلاميين» للأشعري، فضلا عن إصداره مصنفات «المكتبة الإسلامية» Bibliotheca Islamica في الغرب طيلة عشرات السنوات، وتقديمه للشعر الفارسي في أوروبا أجمل وأروع تقديم. ويعد الكتيب الذي ألفه بالألمانية «حول اللغة التصويرية عند نظامي» (١٩٢٧) أثرا قويا لكل مهتم بالشعر الفارسي إذ يعرض في صفحات



قليلة خصائص شاعرية اللغة الفارسية كما لا يعرضها عمل آخر. وفي عام ١٩٣٠ قام ريتز بالتعاون مع المستشرق التشيكوسلوفاكي الشهير يان ريبكا في تحقيق نص رائعة نظامي «هفت بيكر» (الصور السبع).
 إنه لمن الصعب حقا تعيين الأثر الرئيسي الذي خلفه ريتز. ولقد صدرت دراساته المتصلة للمخطوطات الشرقية عبر عشرات السنين في مجموعة سلسلة من المقالات التي نشرها أول الأمر في مجلة «الاسلام» الألمانية Der Islam ثم بعد ذلك في مجلة «أورينس» Oriens التي كان هو مؤسسها. وكانت هذه السلسلة من الأبحاث المنشورة تحمل عنوان «لغويات» Philologica حيث يقف قارئها على قدر هائل من المواد حول المخطوطات التي تتناول لونا معيناً من الموضوعات خاصة ما تعلق منها بتاريخ التصوف الاسلامي. ومن ذلك دراسته عن مولانا جلال الدين الرومي الذي عرف فيها الغرب بحلقات أتباعه ومريديه. وله دراسة أخرى عنوانها «السهرورديون الأربعة» Die vier Suhrawardis قدم فيه كبار متصوفي الاسلام في القرن الثاني عشر. كما أن له آثاراً أخرى تعالج قضايا اللغة العربية أو تتعرض لأصول الاسلام والعقيدة الاسلامية. وقد انكب ريتز في أواخر أيامه على مخطوطات أحب المتصوفين الفارسيين إلى قلبه: فريد الدين العطار. الذي حقق له نص كتابه «الهي نامه» حتى ليعد الكتاب الذي ألفه ريتز عن العطار في عام ١٩٥٥، وصدر بالألمانية تحت عنوان «بحر النفس» Das Meer der Seele، من أروع انتاج المستشرق الكبير ومن أنفس ما كتب عامة عن متصوف وشاعر اسلامي. يحلل ريتز في هذه الدراسة آثار العطار الأساسية، ويستعرض عبر فصول الكتاب شتى المراحل التي مرت بها شخصيته جاثلاً مع مختلف أبطال تلك المراحل، حتى يبلغ في النهاية غاية المرام، وهو بلوغ النفس بحر الكل الشامل وارتباطها في أحضانها. ولا يعكس نص ريتز الرائع أفكار العطار المستمدة من آثاره وحسب، وإنما يرجعها في نفس الوقت إلى الأفكار الأساسية لكبار المتصوفين المسلمين، وبجابه كل جملة من جمل العطار بالعديد من المواضع المقابلة لدى هؤلاء. ويعد كتاب «بحر النفس» للأستاذ ريتز من المراجع التي لا مناص من أن يطلع عليها كل مهتم بالحياة الثقافية والدينية في الاسلام. وهو يستحق بكل جدارة أن يترجم إلى اللغات الكبرى المتداولة.

كان اهتمام ريتز بالتصوف الاسلامي مبكراً. وتدل دراسته المنشورة في مجلة الاسلام Der Islam الألمانية عام ١٩٢٤ عن «الحسن البصري» على منهجه في بحث هذه الظاهرة الدينية الثقافية، مثلما تدل عليه مقالته البالغة العمق عن «أبي يزيد البسطامي»، وهي التي نشرت ضمن مجموعة الدراسات التي صدرت تحية وتكريماً للأستاذ «تشدودي» Tschudi في عام ١٩٥٤. وإن الاستشراق الأوربي مدين له بالفضل على تقديمه وصفا للحركات الايقاعية التي يقوم بها المشتركون في حلقات الذكر من دراويش طريقة مولوى استجابة لموسيقى «السماع».

٩٥٧ / ٢ / ١٠

صديقنا الاجل الاستاذ صلاح الدين المنجد

تحيات طيبات

اشركم على رسالتكم المؤرخة في ٩٥٧/٢/٩٣ واعتذر اكلهم من
طول مكوثي كنت مشغولا جدا ولا ازال كذلك لنشغل قبلي في
ال UNESCO وهو تنظيم فهرست مخطوطات دواوين الشعراء الفارسية
في الاستاذة وهذا الشغل قد تبين انه اصعب واعمل مما كنت اتصور
واعتقد ولا اعلم كيف آتته الى الوقت المعين فصار سبب تأخر
الجواب لرسالتكم وتغاضوا عن الشكر على الجلالة الثامنة الا انني
وصيت اهل بيتي بكتابة رسالة شكر العالم لانهم الذين اكلوها
واستلذوا منها... وسمعت من الاستاذ داور انه يلاقكم كثيرا ورسالته
محفوة بالمدح لكم والقاء عليكم من وجوده وخاصة من تنظيمهم معهد المخطوطات
الذي لا نظير له في الشرق والغرب وكيف لا يمدحكم وقد علمنا من فضلكم
وحسن ادارتكم وعلمكم ما يوجد نادرا في عالم اليوم واشرككم ايضا
الكتب واذ لم ارها بعد رغبه فراغني من الشغل الحاضر الشاق وبحوثي
الى آملها تيسر مطالعتها والاستفادة منها وادعو لمسلها
بالسلامة وكل خير

المخلص

هو رزق

٣- نظرت في مجلة معهدكم والفتيتها مفيدة نافذة
 جدا، هو اول مجلة تختص بالمخطوطات والسماعات
 والمخطوطات الخلفين وغير ذلك والاحتياج الى مثلها
 كانت ماسة من زمان طویل الا ان علماءكم لم
 يروا اهمية تلك البحوث التي هي اساس كل
 تحقيق في العلم فانا اهنئكم هذه الخدمة الكبيرة
 للعلم وبمهم ما نشر في المخطوطات مفيدة ايضا جدا
 ودعيت جمعية بالمبادلة منتظما ولا يفوتني
 تقديم المجلة لقارييها بالنتوي و المديح والثناء
 ٤- كتبت تنويها لبعض مؤلفاتكم الا انه سينشر
 في الجزء الاول من المجلد التاسع راني المجلد الثامن
 سري انكم زر قنم ولدا وادعوه له ولأمة بالصحة
 والسلامة ولا شك انه سيجي بفضل الاب والام
 ويصير من ذاهي العرب في العلم والفضل وكل خيراته
 وكيف وله زلزال الاب وملك الام يا وقدموا للام
 تبريكات وتحيات الصميمة
 المخلص
 ه رية

ومن بين المخطوطات التي حققها الأستاذ ريتز نجد كتاب «سوانح» الذي ألفه بالفارسية أحمد الغزالي (شقيق الامام الغزالي). وهو يحتوي على أذكي نظرية حب صوفي كتبت بالفارسية.

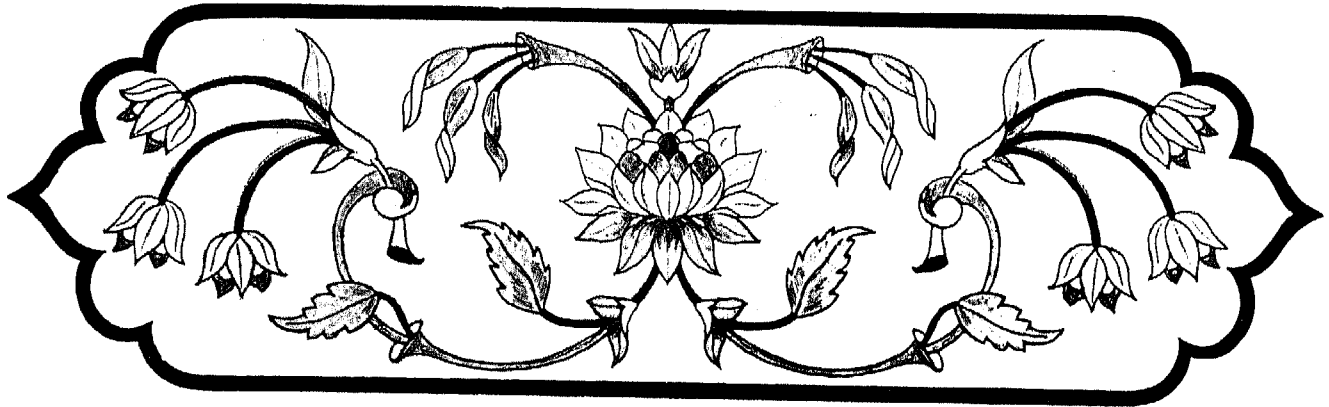
ولا يمكن إغفال دراسات الأستاذ ريتز حول الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الهلينية، ولا اشتراكه مع «مارتين بلسنر» في وضع كتابها الذي يدعى Picatrix. كما لا تنسى أبحاثه القيمة حول طرق صنع الخزفيات الفارسية التي قام بها مستعينا بزملائه من أساتذة العلوم الطبيعية. ويعد فوق ذلك مقاله عن «ابن خلدون من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث» بمثابة دراسة رائدة عن المؤرخ والفيلسوف العربي الكبير. ولا ننسى ترجمته الرائعة لكتاب «أسرار البلاغة» لمؤلفه عبد القاهر الجرجاني.

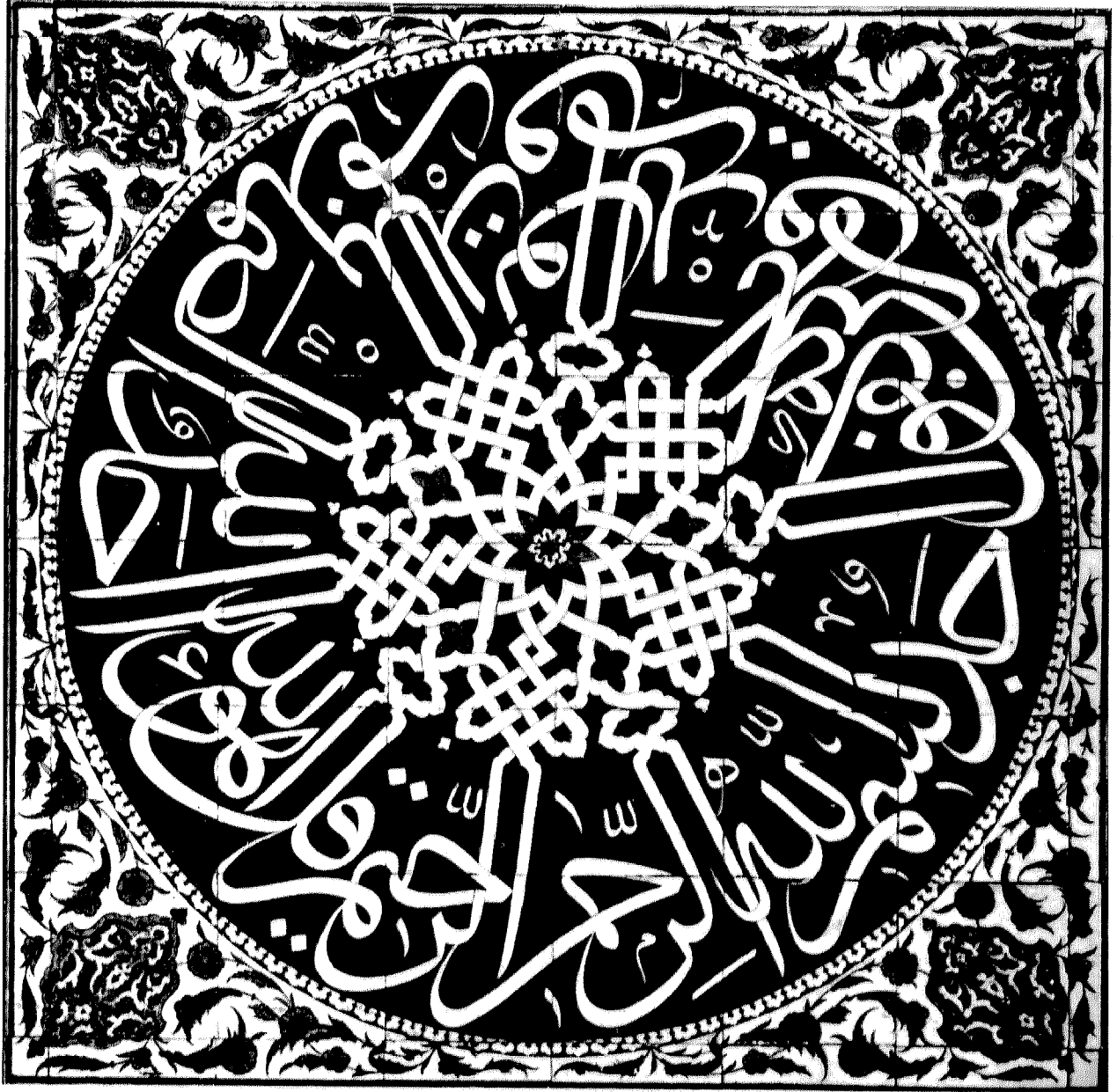
وقد قام ريتز بما لا يحصى من تعقيبات على ما تخرجه المطابع من إنتاج علمي. وكانت معظم هذه التعقيبات مقالات مستقلة. بينما عرف عنه قسوته البالغة في نقد ما يتعرض له من أعمال. ولم يكن ذلك منه إلا رغبة في الدفاع عن الدقة والاختلاص العلميين. فالحق أن الدرس على يدي ريتز كان غاية ما يطمح إليه طلبة الاستشراق.

رأيتة آخر مرة في أنقره. كان يقضي هناك أحد أيام الآحاد، وقد صار أدمت طبعاً، لا تغادره النكتة، ولا تخلو كلماته من فكر متقد غني بالموجيات. لكم عانى في حياته — وليس قليلاً ما عاناه من جهالة المحيطين به، واستبداد المرض به في أواخر حياته. وإننا لنعتز ونفخر إذ عرفناه — وإن موته ليسدل الستار على حقبة جليلة من حقب الاستشراق الألماني. فلسنا نعتقد أن أحداً سيكون له من بعده ما كان يتمتع به الفقيه من عمق البحث وتباين ميادينه في آن واحد.

إليك ما يقول في نهاية «بحر النفس»: «لم يعد توقف وجود الفرد نهاية تهدده، أو بوابة تفضي به إلى مصير غيبي مجهول نتطلع إليه وفرائصنا ترتعد، كما أنه لم يعد جسراً يحقق لنا أن نشهد محيا الرب المعشوق، إنما هو الانفتاح والانطفاء في قاع الوجود ذاته، وهو تلاشي القطرة في بحر ما وراء الدنيا الذي عنه نشأت ومنه جاءت، وفيه تظل أبداً، باعتبارها فريدة، مطرودة ومحتفظاً بها في آن واحد: ضائعة، مختفية، وموئمتنا عليها.»

(أنهارى شيمل)





الفهرس

٥	تمهيد
٧	لمحات من عظمة الاستشراق الألماني صلاح الدين المنجد
١٥	يوهان يعقوب رايسكه يوهان فوك
٢٧	يوسف فون هامر — بورجستال أنا ماري شمل
٣٩	هاينريش بارت فيلكس فرانكه
٥٥	فريدريش روكرت أنا ماري شمل
٧١	ارنست ترامب أنا ماري شمل
٧٩	الرحالون الألمان محمد علي حشيشو
٩٣	ادوارد غلازر ماريا هوفنر
١٠١	فيلهم الورد مانفريد اولمان
١٠٧	يوليوس فيلهاوزن انطون شال
١١٥	تيودور نولدكه اينو ليتمان
١٢٥	جورج ياكوب أنا ماري شمل
١٣١	اوغست فيشر أنا ماري شمل
١٣٧	الألمان وتاريخ الصيدلة العربية جيزلا كيرشر
١٤٥	يوليوس روسكا محمد يحيى الهاشمي
١٥٣	كارل بروكلمن يوهان فوك
١٦٣	هانز هاينريش شيدر اوميليان بريستاك
١٧٧	انتو ليتمان رودي بارت
١٨٥	هلموت ريتز أنا ماري شمل



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

RECEIVED
FEBRUARY 1964

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY
540 EAST 58TH STREET
CHICAGO, ILL. 60637





GERMAN ORIENTALISTS

BIOGRAPHIES
AND
CONTRIBUTIONS TO ARAB STUDIES

EDITED

by

SALAHUDDIN AL MUNAĞGID

The New Book Publishing House

BEIRUT — P.O. Box 5304 — LEBANON